

وولسويڤيكا

الحائز على جائزة نوبل
للآداب سنة ١٩٨٦

موسم الفوضى

رواية

عبدالكريم ناصيف

WWW.LIILAS.COM

وول سويناكا

الحائز على جائزة نوبل
للآداب سنة ١٩٨٦

موسم الفوضى

رواية

عبدالكريم ناصيف

مفرد الطبع محفوظ

١٩٨٧/١٢

مطبعة زيد بن ثابت ☎ ٢٢٠٩١٦

عدد الطبع ٣٠٠٠ نسخة

- ١ -

البنار

- ٢ -

امر شاذ غريب : فهذه البلدة الصغيرة القديمة كانت قد امتت لنفسها منذ زمن طويل ادارتها الخاصة وشرطتها الخاصة ، كانت موحدة اشد التوحد حتى انها توصلت الى وضع ضريبة شاملة عن سكانها وكانت تدفع نقدا ، حتى قبل ان يرحل المشرف على الضرائب المباشرة ذلك الذي كان يعتمر قبعته الاستعمارية ففي هذه البلدة كانت الملكية مشتركة بكل ما في الكلمة من معنى ، مشتركة حتى آخر حيط من الثياب التي يلبسها كل مواطن منهم . مفارقة تاريخية كهذه اثارت عجب المجتمع المتعطر للريح والمكون من سكان العالم اجمع . كانت اوساط المفكرين اليساريين ، وايلوزا تشغل القلب منها ، تنظر اليها وتقبعه ساخرة ، وكانت ترفض آييرو هذه ، باعتبارها نموذجا مثاليا للزرعة المشاعية المضادة للعلمية ، البدائية والعاطفية الى حد مزعج . اما بالنسبة الى الحكومات المتعاقبة فلم تكن آييرو تشكل اي تهديد او ازعاج . لهذا حدث ان آييرو ، الوحيدة من نوعها ، المستفيدة ، منذ ثلاثة ارباع القرن ، من عزلتها العرضية تلك ، لم تتعرض لاي افلاق او ازعاج . لكن حين اكتشفت في مرحلة الاحصاء السكاني . . . بدا الغزو : السياح في البداية ، ثم علماء الاجتماع المسلحون بكتب ابحاثهم الملاي هذرا . بل حتى الهيئة ، المهمة دائما بتوسيع عملياتها الخاصة بتطوير زراعة الكاكاو ، لاحظت ان هناك سوقا جديدة محتملة للكاكاو ، فذهب الى هناك اوفي المسؤول عن حملة التطوير ، يصحبه فريقه .

— لماذا يا ترى يعودون ؟ كلهم يعودون ، ودائما يعودون ؟ وكان جيل الشباب من آييرو هو الذي يقصده اوفي حين طرح هذا السؤال على البابا آهيم : « ما الذي يدفع شبابكم جميعا لان يعودوا ؟ » .

كان شيوخ آييرو ، يتبعون في ذلك حكمة موحدتهم ، ام الايتومو ، يرسلون شبابهم الى انحاء العالم كله لكي يتعرفوا بالتجربة الى اخلاق الناس الاخرين وقيمهم . كانت آييرو تستمد موردها الرئيسي من صنع الزوارق من جدوع الاشجار ، لكن اولئك الشباب كانوا يقدمون جزءا من راتبهم لتغذية صندوق البلدة . من هذه الجهة ، كان ذلك الايمان هو الذي يحدو افراد الجيل المتحرك هؤلاء للعمل في الصناعات الجديدة حيثما كانت تنشأ هذه الصناعات وفي اي مكان من البلاد ، على امل ان تعود عليهم المعارف التقنية الجديدة بالفائدة والعون ، مع انها كانت

مكتفية بذاتها من قبل . غير ان الحقيقة المدهشة التي حيرت الوكيل الدعائي للكاكاو هي انهم كانوا جميعهم يعودون . اعضاء المدن لم تكن تبهرهم ، فحبل السرة ، حتى وان كان يشد الى اقصى درجة ، لم يكن يقطع قط .

« ما الذي يجعلهم يعودون ؟ » لم يكن أوفي قد كف عن توجيه السؤال الى آهيم ، الذي كان يلعب دور الوزير الاول لسيد الحبوب . « ما الذي يجعلهم مختلفين عن شباب جيلهم الذين يستسلمون لاغراءات الحياة الاخرى والقيم الاخرى ؟ » لكن العجوز كان يكتفي بالاجابة : « سؤالك هذا أشبه بأن تسألني لماذا جئنا هنا ، ولماذا ما نزال هنا ولماذا نعيش ، فجوابي : « لا أدري » .

بعد الانتهاء من المهمة ، أرسل أوفي فريقه الدعائي الى ايلوزا وقد صمم على البقاء لاكتشاف سر الآيرو : بقيت ايريز معه ، فبدأ بعد لاي يتساءل في سره ان كان قراره قد نبع منه ام ان هناك شيئاً ما له علاقة بالاحساس الذي يدفعه لاعادة اكتشاف هذه المرأة في بيئة تضع كل شيء قيد السؤال . فقد كانت في آيرو تعمل وتعمل ، كائنا جديداً يبحث منذ زمن طويل عن عنصره الحقيقي . وكان أوفي يتساءل عن السر الذي يجعله هو نفسه ينشط تلك الساعات الطويلة ، اهي آيرو ام هي ببساطة تلك المرأة التي بدت وكأنها قد تغيرت لدى الاحتكاك به ، هو أوفي ؟

بعد مرور اسبوعين على اقامته ، طلب سيد الحبوب حضوره اليه . وكان سيد الحبوب عجوزاً جاف العود ، تبدو عيناه تحت اجفانهما المرتخية وكأنهما مغمضتان باستمرار لكنهما تنفتحان فجأة لتشعرا حيوية وبريقاً أشبه بشمع الشمس بعد المطر .

– لقد حدثني آهيم عنك . ولقد سبق أن جاءنا زوار ، بعضهم اقام هنا مدة تماثل مدة اقامتك . أما السياح ورجال الحكومة ، فأولئك لم يكونوا يتأخرون : ذلك أن رجل الحكومة هو جابي الضرائب عموماً ، وهو يجد ضرائبه جاهزة دائماً ، فلا يظل من سبب لبقائه . النقود ! (قال الكلمة وهو يسحها بين أسنانه ، ثم توقف كما لو أنه كان بحاجة لاستعادة قواه) لكن أنت ، لماذا أنت هنا ؟ آهيم قال لي انك لا تعمل للحصول على دبلوم . فأولئك الذين مكثوا هنا زمناً طويلاً مثلك انما كانوا احد نوعين : اما أنهم ممن يأملون أن يحصلوا على دبلوم أكثر أهمية بشكل من الاشكال من النقود ، وهؤلاء يسمون أنفسهم علماء اجتماع ، على ما اعتقد ، اليس كذلك يا آهيم ؟ او أنهم من الصحفيين الذين يريدون التقاط صور لبيعوها بعد ذلك . (وانحنى الى الإمام . مستنداً بذقنه الى يديه اللتين كانتا تستندان بدورهما الى عصاه) فعمّ تبحث أنت ؟ لقد انقضى زمن طويل على ارسالك لفريقك الذي يقوم بالدعاية للكاكاو ، وانت باق ، فلماذا ؟

هنا بادر آهيم ، ضاحكاً ، لكي يشرح للشيخ العجوز ان أوفي يتساءل عن السر الذي يجعل شباب آيرو يعودون دائماً ، فطرق العجوز باجفانه قائلاً :

– حقا ! فاعترف أوفي أن هذه الظاهرة تحيره .

– ولم تجد التفسير بعد ؟

– كلا ، الحقيقة أنني لم اكتشف أيضا ان كان ذلك هو الدافع الوحيد لاقامتي الطويلة هنا ام لا .

انفتحت أجفان العجوز دفعة واحدة وللحظة من الزمن راحت عيناه تتفحصان أوفي ، بعدئذ شرع يتكلم على مهل :

– هل تريد ان تعدني شيئا ؟

فقال أوفي بشيء من التردد انه سيحاول .

– حين تكتشف ذلك السر ، حتى وان كنت بعيدا من هنا ، عليك ان تعود في الحال لتقوله لي .

وعندما كانا عاندين باتجاه منزل الضيوف ، قام آهيم بتقديم كشف مذهش .

– أتود أن تعلم لماذا أراد المؤسس أن يراك ؟ باستطاعتي ان أقول لك ذلك ،

فهذا لن يزعجه . ليس لانه وضع في ثقته ، بل لانني أعرف تماما انه أمر عادي .

– أجل ، بودي أن أعرف .

– انه يبحث عن ذلك الذي سيكون سيد الحبوب القادم .

– سيد ال... أتريد أن تقول انه نوع من مفوض اعاشة ؟ وزير تموين أو

شيء من هذا القبيل ؟

فابتسم آهيم .

– كلا ، ذلك اللقب لا نستخدمه غالبا ، ان لم يكن ذلك بيننا ، زد على ذلك

اننا لا نحب الالقب كثيرا لكنها المادة في تحديد الوظائف بواسطة بطاقات . كلا ،

سيد الحبوب ، انه... (وابتسم العجوز ابتسامة فيها شيء من الخبث) بإمكانك

ان تضيف هذا الى قائمة الاشياء التي توغب في اكتشافها لدى الأيرو .

بعد يومين ، اكتشف أوفي السر وذلك بكل بساطة من خلال طرحه السؤال

على احد سكان البلدة الصغيرة ، بعدئذ ، ودون أن يصدق أذنيه ، طرحه على ثان

ثم ثالث فراجع ، فعزز اللفظ – الذي لم يكن بإمكان أحد أن يتصوره على هذا

النحو ، بعد ان جاءه الجواب على سؤاله بكل بساطة ومباشرة – عزز شكوكه المتزايدة

في أن هناك بزور جنون ان لم يكن في الأيرو كلها ، فعلى الاقل بين كبار السن منها .

وبهيئة المترفع ، مدعيا انه لم يكتشف بعد ، السبب الكامن وراء المهمة التي كان سيد

الحبوب يعمل من أجلها ، سأل أوفي العجوز ، ان كان كلامه جديا ، لكن آهيم كان أكثر

ذكاء من أن يدعه يلعب به .

— آه ! اذن فقد اكتشفت السر؟
الا ان اوفي انكر ذلك بشدة ، فراح الآخر يلطم ذقنه .
— ه . . . م . . . م . . . اذن ، قل لي لماذا تخيفك هذه الفكرة ؟ لماذا تعتقد انني مصاب بالجنون التام . فرد اوفي :
— على كل حال ، من المؤكد انني سانسحب من هنا !
— هل وجدت كل ما كنت تبحث عنه ؟
— بل واكثر ، قال اوفي (ثم اضاف بنبرة رزينة) ليس بوسعي ان اقول لك كم اقدر حسن ضيافتكم ، لكن التصور ان باستطاعتي ان انجح في
فأدار العجوز كتفيه بيديه .

— لقد تبنتك آيرو منذ اللحظة التي رأتك فيها عيوثنا (وهز رأسه بحيوية تامة) نعم ، نعم ، هذا صحيح . لقاءنا معك ومع فريقك الغريب من الممثلين والممثلين كان له صفة استثنائية . وينبغي ألا يمر زمن طويل قبل ان نرى انك غير راض عن عرض شفافات الصور والافلام . فتلك الافلام القديمة التي تدعي كلها انها تعلم المزارع انما تعلمه أشياء يعرفها منذ عشرة أجيال . لكن ثمة أشياء جئت بها تعلم كثيرا ، أشياء ربما جئت بها بالمصادفة وربما لا ، أشياء لساعات الفراغ ! .
والحقيقة أننا دهشنا حين تبينا أن رسالتك كانت مماثلة لتلك التي أدت إلى ايجاد جماعتنا المشاعية قبل زمن طويل من مولدك ، فقال اوفي :

— ان لك الحق كله في أن تتوصل إلى الرضى الذاتي . لكن حتى هذا الرضى يمكن أن يكون خادعا ، مثل اللامبالاة أو الشعور بالاكتماء . فحينذاك يترصدك الخمود والاسى . . . وارجوك ، لا تستأ من كلامي . . فرد آهيم مطمئنا اياه :
— لا ، لا ، انت تعلم انني اقدر الصراحة كل التقدير .

— أولادكم يجوبون العالم الفسيح ، يكتسبون خبرات شخصية كبيرة للغاية ، مع ذلك هم يرجعون ، ويثبتون هنا على حافة بركة صغيرة . ذلك يثير الإعجاب ، لكنه في الوقت نفسه يشجع زواج القربى ، فيبدون وكأنهم لا مبالون بكل ما راوه في الاماكن الأخرى ، في بقية أرجاء الأرض بل حتى بما هو موجود لدى اخوتهم .
— بالنسبة الينا ، العدوان على الآخرين ليس فضيلة يا بني . والتبشير بدين من الأديان شكل من أشكال العدوان .

— اعلم ذلك ، لكن ، ثمة اعتراض لم استطع التوصل إلى حله بنفسي . لكن كل هذا . . . آوه ! أنا لا أدري كيف اعبر عن ذلك الذي أحس به : رائحة العفونة ، الاسى الذي يطغى على كل مكان كهذا . في حالة الازمة ، يمكن أن يصبح قاتلا ، وعلى ما يبدو فان جيلنا قد ولد ليعيش أزمة طويلة .

كانا يسيران بصمت فوق الضفة ، وللحظة من الزمن ، اعتقد اوفي أنه يقرأ شيئا

من تثبيط الهممة في محيا العجوز ، انها المرة الاولى التي كان يلاحظ فيها اثرا من احساس كهذا على وجه من وجوه الأيرو . توقف آهيم ثم غرز نفسه امامه مجددا اليه في عينيه ، ثم قال :

— ربما خطرت الفكرة نفسها في اذهان البعض منا ، فهل فكرت بذلك ؟ لماذا تعتقد ان المؤسس فكر بان يجعل غريبا يخلفه كسيد للحبوب ؟ ان الحبوب لا تعني التقليدية فقط بل تعني التكاثر أيضا . .

فحرك أوفي ذراعيه إشارة العجز .

— ضمن هذا المنطق ؟ (ثم هز براسه علامة النفي) لا ، على مياه آيرو ان تجعلها تتجاوز هذه الحدود . على الحبوب ان تجد أرضا جديدة تبذر فيها ، والا فانها ستضمحل وتموت .

— اذن ، لتنضم الى جماعتنا هذه ، قال العجوز بنبرة تحد ، فنحن نعلم منذ زمن طويل أننا بحاجة ماسة الى دم جديد .

— لا ، لا ، فليس بالإمكان ضمان النتائج . ان لكم ناسكم الذين يمتون اليكم . وفي الغداة غادر أوفي آيرو .

— ستعود ، صاح به آهيم من على الضفة ، وسأعود أنا كي استقبلك هنا ، فوق هذا الشاطئ بالذات .



لم يستطع أوفي مقاومة الدعوة لحضور الجنازة . وكان خير ما فعل انه وصل قبل اسبوع فقد كان ما يزال في ذهنه الكثير من الاسئلة والكثير من الاحتمالات . كانت آيرو مفعمة بالوعود ، بالاجوبة وبالقوى المحرصة المثيرة . فاذا ما ترك نفسه للبحث والتفتيش ، فانه لا بد من ان يقع على شيء ما .

ولقد ترك نفسه لذلك المكان ، ملؤه الاعتراف بالجميل لآهيم الذي كان يهتم بايريز . فآهيم ، المفتون الى حد لا يصدق بتلك الجنية الساحرة القادمة من أضواء المدينة الموحدة ، كان قد قبل بمشروع خدمتها ، لا لشيء الا لكي يجذب أوفي الى آيرو . فأرسل نساء في غاية الجودة والرقّة من منزله ، نساء عقدن امتن أواصر الصداقة مع الفتاة الشابة التي غدا أوفي يراها اقل فأقل مع مرور الايام . مع ذلك لم يشك ولم يتذمر قط . فحين كان يبحث عنها ، كان يجدها مستفرقة في حوارات حميمة مع عجائز غريبات لم يكن يرغب في التعرف اليهن . وذات صباح ، حين استيقظ

أوفي ، لاحظ أنها لم تكن بقربه . لكن كان العجوز آهيم هناك ، يعمل لاعداد افطاره ، ومحياه كله يموج بأثار الغموض والسعادة .

— لا تبحث عن رفيقتك ، قال العجوز ، فهي تتعلم الاصغاء الى خفقات قلب هذه الارض التي هي أرضنا والتي تجدها أنت تافهة للغاية .

عند الضحى عادت ايريز تحيط بها النساء العجائز . ثم دخلت وهي ترتدي تنورة بيضاء مغراء ، أجفانها مدعوكة بالكحل وعقد من العاج السميكة حول عنقها ، كيف يستطيع الناس تمرير أشياء ثقيلة حول أعناق النساء ! أحس أوفي بأنه مهمل منحى بعيدا بفعل النشوة الغامضة التي كانت تفيض من محياها المشع . ما أقبل ما أعرفها ، فعلا ! ما أضال ما أعرفه عنها ! وحين أصبحت وحيداً أخيراً ، لم تكن ترغب في قول شيء سوى هذه الكلمات : « هذا يرصيني يا أوفي ، هذا يرصيني فعلاً ، أنا التي كنت أشعر بالخواء التام . الآن أرى أنه لا ينقصني شيء » . من تراه علمها أن تقول شيئاً كهذا ، هي التي لم تكن تحس بالرضى الا بممارسة الحب ؟

غير أن قدرتها على ادعاشه لم تتوقف عند هذا الحد . ففي تلك الليلة ذاتها ، وحين كانا في السرير — ولقد راوده الشك في البداية أن عالم ايريز الجديد سيقضي على نشوة لقاؤهما — كان على شفيتها تلك الكلمات البسيطة النابعة من ذلك التأمل الداخلي العميق الذي حل عليها بعد ساعات من الحب لم تكن حماستها له قد وهنت : « لا تتحفظ أكثر من ذلك تجاه قومنا يا أوفي . فأنت تمت لنا ، لنا نحن ، قبل أن تمت لاي قوم آخرين ، لنا نحن ! » .

لم يتوصل أوفي الى فهم المفزى تماما ، لكنه عرف الدهشة كل الدهشة خلال الفترة التي ظل فيها السيد معروضا على سريره الاستعراضي ، طوال ايام الجنازة العشرة — قبعات زعماء حمراء ، فيض من الريش الذي يزين الشعر ، حلى من المرجان ، عقود من العاج ، اوسمة من الحديد والنحاس والفضة ، عطور من جلود مدبوغة ، صنّاج من الخشب ذات رنين حزين ، رغوّة حمراء لبيرة الدرّة في حلوق محترقة ، روائح تخمر شديد ، عرق ، أصوات طبّلات من جلد وصلصال ، قرع آلات معدنية ، صور من خشب الكام(1) والطبشور . جدران ملطخة باللحاء الرملي لخشب الكام ، ابواب وعتبات مطلية بالطبشور ، رزم كبيرة من الحكك تحت خشب الكام على أرض تنعكس عليها اشعة صلصالية ، نثار من شعر أحمر ضمن السور ، احزمة من الجص على جذوع الاشجار الفليظة ، على الاعمدة ، أرصفة الخيزران ومستودعات الارصفة ، ثم صوت البابا آهيم الذي لم يكف عن ملاحظته بتوبيخاته الصابرة . . . لماذا تلح على تسمية بلادنا آيروو؟ قل : آيرو ، رو فقط . واذا كنت

(1) خشب يشتهر بلونه الاسمر الفامق .

قد وجدت الحياة مريرة ، لا تفرض علينا مرارتك وأسك ، آيتيوارو . هذا هام ، هذا صحيح ، هذا متوازن ، لان هذا عملنا . فغمغم أوفي معتذرا ، ثم شرع يوبخ بدوره . . . لماذا تثير كل هذه الضجة من أجل خطأ صغير في اللفظ ؟ آه ! قال العجوز وهو يلوح برأسه ، لانك اذا ما استمررت في لفظ ذلك مدة طويلة لن تغير المعنى فحسب ، بل ستشوهه ، ستثبت العكس ، وانت تقوله انطلاقا من حالتك النفسية . لقد هزمتك الحياة ، بوسع المرء أن يحس بذلك من صوتك .

ـ ترى هل جانت الساعة التي ستبوح لي فيها بأسرار الأيرو ؟ سأله أوفي أخيرا .
ـ ما الذي تود معرفته بالضبط ؟ فهي قصة طويلة ، قصتنا نحن !
ـ حسنا ، قل لي بادئ ذي بدء ، لماذا اختلفتم مع الأيتومو ؟

فصعد العجوز آهة طويلة ثم التفت من فوق المياه ، صوب أقدم تيوقراطية(1) عرفت الحياة فوق الشاطئ ، لم تكن الأيرو قد بذلت أي جهد لانكار نسبها لكنها كانت تظل متكتمة في كل ما يتعلق بالظروف التي أدت الى قطع جبل السرة التي يربطها بها .

ـ نحن لا نؤمن بتعطيل الذاكرة . نحن هنا ، نعيش حياة طيبة ونعرف التناغم والوئام ، وهذا يكفي ، فذلك هو المبدأ الاساسي الذي نلقنه لاطفالنا . انهم يكبرون على ازدياد المعارف الميتة ، المتعفنة . هذا لا يعني القول إننا نخفي عنهم الحقائق . فكل أبناء قومنا يعلمون من أين انحدروا ، كما يعلمون أننا أسسنا الأيرو بحثا عن الحقيقة ، عن الحياة الافضل ، وكل الاشياء التي يسعى اليها الرجال ، وهم يعتقدون أننا وجدنا ذلك كله ، وذلك هو السبب في أن اولادنا يعودون الى مسقط رأسهم دائما .
ـ وكذلك اولاد الأيتومو ، أبدى أوفي ملاحظة سريعة .

فالتفت العجوز اليه وعلى سيمائه هيئة المنتصر .

ـ هو ذاك ! فهل ثمة برهان أكبر من هذا على عظمة أخلاقنا وقيمنا ؟ ذلك ان هذه هي اخلاق وقيم الأيتومو . فنحن لا نعمل قط على تغيير دين احد ، كما لا نضيع أنفسنا بملامات لا طائل من ورائها . مبدا الأيتومو انما هو هذا : اقبل ما نصنعه او فلترحل بملء حريرتك . وهكذا جاءت اللحظة التي أحبس فيها مؤسسنا سيد **الحبوب** الاول ، انه لا يستطيع بعد ، السير على طريق الانبياء القدامى . فنهض في منزل الاجتماعات ثم عرض معتقده الجديد . بعد ذلك مضى لاقامة موطن جديد يتبعه أولئك الذين آمنوا به . وحين يكبر أطفالنا ويشرعون بطرح الاسئلة فاننا نقول لهم هذا ، وبكل بساطة : أجل ، الأيتومو وطننا الام ، لكن اذا شئتم أن تعرفوا المزيد فليأخذوا أحدكم زورقا وليذهب بنفسه كي يرى ولسوف يستقبل هناك خير استقبال .

(1) التيوقراطية : حكومة رجال الدين .

— وهل ذلك صحيح ؟

— بالتأكيد ، يا بني ، فماذا تظن ؟ حتى الغرباء يستقبلون هناك خير استقبال تماما كما هو الامر هنا ، واولئك الذين يحبون الاستطلاع منا يعلمون انهم يستطيعون فعل ذلك ، لكنهم يعودون دائما الى هنا .

— هل يطلعون على الحقيقة ؟

— من يدري ؟ لكن هل هذا مهم حقا ؟ ما يهم هو انهم يرون الفارق وانهم يختارون . فالاعمى نفسه يرى ذلك على الفور : انه يرى اننا لا نعبد الاله نفسه .

— اذن . هذا هو سبب الانشقاق ؟

— هذا اضافة الى اشياء اخرى . لكننا لا نقول هذا لاولادنا . ما الفائدة يا ترى ؟ انه قد يتخذ الكثير من الاهمية في حياتهم . واذا ما اكتشفوا السبب بانفسهم ، كان ذلك افضل بكثير . فهناك عوامل اخرى فرقتنا : مشاكل التجارة ، مشاكل الحياة الشخصية ، الاطفال ، التعليم ، الملكية . . . اوه ! القائمة طويلة جدا جدا ، لكن الدين هو الذي اطلق شرارة المشاعية الاولى . وتلك الظاهرة ادت الى مرحلة استبدال العبيد ، نعم ، لم يكن الامر اكثر تعقيدا من هذا . كانت الايتومو تحمي ابناءها بأفضل الوسائل الممكنة . لكن ، ذات يوم ، جاء أحد شباننا بالفكرة التالية : تقوم حياتنا على تعاليم اله البيض ، لكن البيض الذين يحملون ذلك المعتقد يقتلون ، يحرقون ، يبترون ، ينهبون ، يسلبون ، كما يتخذون من ابائنا عبيدا أرقاء . لقد حان الوقت لكي نعود الى دين آبائنا وأجدادنا .

كان العجوز يتكلم بفخار الرجل الذي شهد لحظة الانتصار تلك ، فقد كان يريق عينيه ابعدا ما يكون عن اللهب المستعار للمؤرخ ، مؤكدا ذلك بضربة خفيفة على الصدر نبهت اوفي :

— انني آخر الاحياء الذين ساهموا في ذلك المشهد ، في منزل الاجتماعات . لم اكن حينذاك الا طفلا ، مع ذلك كنت افهم . بل انني لم اذهب للتكلم مع والدي قبل الانضمام الى الرجل ذي العينين المجنونتين واولئك الذين تبعوه على الفور . كان ذلك كشيء غريبا ، كشيء تبين لنا فيه ان كثيرا من الناس تراودهم الفكرة نفسها ، لكنه هو وحده من تجرأ على النهوض في منزل الاجتماعات والتعبير عن افكاره .

— ثم أسس دين الحبوب ؟

فهز العجوز كتفيه .

— لماذا ينبغي ان تعطيه اسما ؟ نحن لا نفعل ذلك . اننا لا نعتبره دينا ، بل مجرد شكل من اشكال العيش . ادع هذا فلسفة ان شئت ، لكن الا تفهم جيدا شخصية مؤسسنا ؟ فهو الذي فر من مسألة الالوهية لمعارضته لها لا يمكن أن يسقط

بسهولة وعلى الفور في اشراك الوهية اخرى . لا ، يا بني ، رغبته كانت في أن يبدأ شكلا من اشكال الحياة ، شكلا قريبا من ذلك الذي عاشه في آيتومو ، لكن دون تقديم الصلوات لآلهة يشك بوجودهم .

فابتسم أوفي .

— وهذا اذن ، ماذا تسمونه ؟

في مكان قريب للغاية ، كانت طبول التام تام تفرع ، ومن حين لآخر كانوا يرون من بعيد جماعات الراقصين وهي تعبر الحقول ، كما كانوا يسمعون اصوات الاقدام الحافية وهي تضرب الارض ، ويرون الحلقات المعدنية وهي تلمع تحت الشمس .

— نحن لدينا احتفالاتنا ، اعترف آهيم ، ولدينا طقوسنا ، كما أننا نحن الفلاحين وصيادي الاسماك ، نعرف أيضا ما ندين به للارض والبحر ، وحين يموت كبير من كبارنا ، مؤسس مثلا ، فإننا نقدم له فروض الولاء والطاعة . واذا أردنا أن نضيع سنة كاملة من أجل دفنه ، فإن ذلك أقل مما يستحق ، ذلك أننا نحن الذين نملك كل شيء على نحو مشترك ، فإن كل ما نتفقه يعود أخيرا إلينا .

— كما هو الامر بالنسبة الى الارض ؟

فتجهد العجوز ، محدقا اليه بعينين متاملتين . كان في نظره شيء من الفرح او على الأقل لم يكن فيها شيء من دهشة . أخيرا قال له :

— كرر تلك الكلمات .

فعمد أوفي حاجبيه ثم كرر الكلمات ، فسأله العجوز سؤال صاحب السلطة .
— من أين تعلمت هذا ؟ فأجاب أوفي بالنعمة نفسها :

— وهل يتعلم المرء هذا ! لا تنس لقاءنا الاول . لقد جئت الى هنا حاملا رسالة اتذكر ؟

— آه ! نعم ، بالتأكيد . الارض لمن يفلحها . . . البحر لمن يضطاد فيه . . .

ثم حك العجوز ذقنه وهو يبتسم .

— أجل . . . ويومها قلت ذلك لمؤسسنا المرحوم ، قلت له : ها هو ذا رجل يحمل إلينا اسلوبنا الخاص الذي نرى فيه الاشياء ، فأجاب بكل بساطة : افتح له الطريق الى منزل الاجتماعات . . . كم هو غريب . . .

— ما هو الغريب يا بابا ؟

— حين ادارت آليتومو ، جماعتنا الام ، ظهرها الى العالم ، فإن الشيخ الذي كان قد أسسها قال ان واحدا مثله سيأتي بزي غريب عن البلاد ، غريبا سيحمل رسالتنا الى العالم . لكن بدلا من الذهاب الى هناك ، ها أنت ذا قد جئت الى هنا ، الى عندنا ، نحن الفسيلة الفرعية لا الارومة الاصلية .

فشرع اوفي يضحك .

- اجل ، لقد جئت هنا بحثا عن اتباع . اتيت بنماذج معمول بها في اوربا ،
في حين ان الايتومو والاييرو يعرفونها هنا منذ زمن طويل طويل

فاوقفه آهيم

- لا ، لقد كان في قدومك الينا الكثير من الخير ، انت الذي جئت مندفعاً كل
الاندفاع لاداء رسالة ، فقد كان مفيداً لنا ان نعرف ان اسلوبنا في العيش كان دائماً
حلم الانسانية عبر العصور ، وانه يشاركنا فيه اناس بعيدون عنا ، اقوام متباعدة
بعضها عن البعض الآخر . فالشعوب تختلف في مظهرها ايضاً كما تختلف لوزة الهند
عن درنة النيام (١) ، انهم ياكلون اشياء مختلفة ، يشربون اشياء مختلفة ، يعبدون
آلهة مختلفة لكنهم مع ذلك

* * *

خلال الساعات التي سبقت الفجر ، تبع قادة الغناء في بيت سيد الحبوب المتوفى
خطا آهيم عبر المدينة النائمة ، وهم يأتزرون أزراً أرجوانية تشق الظلمات . كان لا بد
من المرور على الطرقات كلها قبل بزوغ الفجر ، الرؤوس مطرقة الى الارض ، ودون
النظر الى احد . آهات عميقة كانت تتصاعد ، مرتعشة عبر الهواء الساكن كما كانت
الارض تردد بنبرة مرتعشة الصوت الثقيل الذي كان ينطلق بالنشيد الجنائزي للارض
المستحمة بالنعاس ، وكذلك الحركة الخفيفة من الاقدام الحافية وهي تضرب الارض
بتوافق مع النغم .

كانت الظلال الغامضة تميل الى الورا ، تستتر بفشاوة الليل الرقيق ، تفك
التفافاتها مثل ثعبان يثب من رقاده ، لتنطلق بالاغنية الحزينة . بعدئذ كانت تندفع
من جديد ، مرسله نعماتها الرقيقة على طول الطريق .

الدم ، الزيت ، جوزات الكولا الحمراء والبيضاء في اصص الاجر عند تقاطع
الطرق ، الحمامات المذبوحة في كل مكان مرّ به المؤسس ، وقد قدّمت اضحيات او
اسلمت اخيراً الى كل مكان وجه فيه الاسلاف الاولون رسالتهم . كان الاحياء يقدمون
الاضحيات لتهدئة ارواح المتوفين ، لتبجيلهم ، للاحتفاء بهم ، للتأثير فيهم لاستدراجهم
الى صفوفهم ، وكان المتوفى الجديد في الطريق .

اخيراً غمر الفجر الايدي الدامية ، فانسحبت الظلال مخفية المكان الى موجة
من الزوارق التي جاءت فوق المياه ، من المدينة الام آيتومو . انفتحت الحواجز ذات
اللون الاصفر وفي الحال اندفعت موجة من الناس المتجمعين حسب السن ، ثم انضمت
الى المراكب ، بعدئذ مضت من هناك لتقديم فروض الولاء والطاعة لبيت الموتى . فالبلدة
كانت فخورة بزينة عيدها .

(١) النيام : نبات درني كثير النشويات ، يستخدم في الطعام كالبطاطا .

طلقات وصاص ، رائحة بارود شديدة ، حدآت تطير خائفة ، وجماعات الصيادين يملؤون بنادقهم من جديد بالمعدن المجنون ، يضربون الفصون ، يفتنون الياف الجدوع ، ومن جديد يملؤون الهواء بالحصى وهم يصيبون بطلقاتهم زوايا الجدران .

جوزة هند تفتت ، فتطايرت نثارا ابيض فوق السقوف . ثمرة من عنب الهند تحولت الى عصيدة حمراء ، فيما حامت الحدآت فوق الصيادين ، خارج مدى البنادق ، ثم اختفت لتنقض على مزق السحالي ذات الرؤوس الحمراء ..

مشاعل في الليل . فدادين من حلقات ملتهبة ، غزوات ليلية لصيادين لا يتعبون ، قصاصون يحكون عن الماضي ، مرددين مزاميرهم ، مغنين ، مقلدين بالحركات الايمائية المجرى الدامي لتاريخ الاسلاف المقدسين ، فرش تفرش ، اقنعة تتحرك في رقصات الامتلاك على ضوء اللهب ... والكل يسير باتجاه المشهد الكبير الوضاء ، مشهد فتح القنوات الحمراء .

مال آهيم صوت ابنه بالتبني هامسا : « في المرحلة التي حدثتك عنها ، لم يكن هناك فريق صيادين في الجماعة الام . كان السمك هو المصدر الغذائي الرئيسي . حينذاك طرح المؤسس السؤال التالي : كيف ندافع عن انفسنا اذا ما جاء صيادو العبيد ؟ لقد سألتني ماذا كان ديننا واجبتك ، دون كذب او مواربة ، انه ليس لنا دين ، لكننا نعطي اوغون(1) مكانة الشرف بين الالهة . لقد رأيت حداديننا وهم يشتغلون . فانظر الى هذه البنادق ، انها تأتي من كل مكان نطلبها منه ، انها من افضل البلدان .

على كل حال ، قال اوفي لنفسه وهو يتطلع جوله ، كل هذا يعكس النفسية المستنفدة ، فعلى السرير الضخم ، المعد للعرض ، ذي القوائم والمنتصب داخل تحويشة من جدار خارجي ، كان سيد الحبوب ممددا معدا للعرض ، ووجهه موجه نحو سقف من الحديد وأسل الأيرو . نظر اوفي ، وهو يسلم نفسه لاحساس داخلي بأنه يعوم ، الى الجثة ثم ارتقى بنظراته الى بيوض النعام الاربع المذهبة التي كانت تعتلق قوائم السرير . بعد ذلك وقف في مواجهة الميت ، الذي كان يفوص عميقا في فراش من الريش ، واثنان يهويان كي يطردا الذباب عن وجهه ، فيما كان المرء يسمع من بعيد دندنة الاغنية الرئيسية للأيرو . كانت الاشجار تنوء بالكتل البشرية ، وكان الناس يتدافعون لالقاء النظرة الاخيرة على وجه السيد ، متعلقين على الاسيجة ، مندلين من الاعمدة ، غائضين في القش . وفي البعيد ، كانت قرعات التام - تام والاصوات النسائية تعلن عن دنو جماعة قادمة جديدة . لماذا تسدون القطن مناخر الموتى ؟ آه ، نعم ، لمنع الذباب من النفاذ الى هناك ووضع بيوضه .

(1) اله الحديد عند قبائل اليوروبا ، اي اله الخلق والتدمير

اذ حتى وجه المؤسس ليس في مأمن من التعفن . أما الكوة داخل الجدار فقد كانت تفص بروائح الكافور . كانت الجماعات الجديدة تقترب ، ترقص ثم تنسحب ، تاركة موجات متلوية بين الميت والثيران النبيلة الاربعة عشر التي ربطت في المقدمة ، ثور للمؤسس العجوز الذي توفي لتوه ، وثور واحد لكل من الاسلاف الثلاثة عشر الآخرين الذين سبقوه . ثيران ذات قرون كبيرة ، وحدبات مهيبة ، صدورها العاجية تتموج تحت الشمس . في وسطها ، كان البهلوانات المتحمسون يقدمون العابهم وهم يقفزون ، وكانت الراقصات على عكازاتهن يقفزن فوق ظهور الثيران ، قائمات ، حين يرتفعن في الجو ، بحركات التفاف والتواء تثير الاعجاب ، مائلات الى أن تلامس اثوابهن المصنوعة من الرافية(1) حدبات الثيران ، مشكلات أشكالا من القباب ، قاذفات بأنفسهن من فوق القطيع ، ثم يعدن ليرشقن بأعينهن الكبيرة الفاترة نظرات من اللوم الخفيف . دوامة الازر الملطخة بالمفرة والكلس والنيلة الزرقاء كانت تدوم في الساحة التي لم تعد في تلك اللحظة إلا ممخضة لبن كبيرة تدور وتدور . أخيرا ، اعطى آهيم اشارة خفيفة من رأسه لقادة الفرق ، وشيئا فشيئا بدأت الساحة تخلو من الحركة . وعلى مهل ، دفع رأس سيد الحبوب الى داخل الكوة ، ليترك الجسم المكفن بالبياض وسرير الجنازة الابيض الخالص كي ينظر اليه الناس . توقف الغناء ، كما حل محل الصرخات غمغمات خفيفة : انها المقدمة القداسية للمشهد الكبير الوضاء ، مشهد فتح الاقنية الحمراء .

رعدة التوقع سرت على طول ذراعه ، فالتفت باتجاه ايريز التي كانت أصابعها تبحث عن أصابعه فراى نظراتها ساهمة الى البعيد وذهنها شاردة تماما مع اسرار ذلك الفجر الذي كان يغمر تلك البلدة على نحو اسرع واسرع في تلك اللحظة .

كانت الاعين جميعا قد التفتت باتجاه آهيم ، فنهض ، وأصابعه اللدنة هي الاخرى ، أصابعه الداكنة والحساسة ، ترتسم على الازار الابيض المشلوح فوق كتفه . كان يتقدم إلى الساحة ، وسط اقواس العاج ، بلطافة شبه انثوية تحيط به الروعة الفحولية للثيران ، بعدئذ رفع يده الاخرى اشارة قداس سريع في الوقت الذي كان الحشد فيه ينحني الى الارض . ترك آهيم الصمت يسود لحظة من الزمن ثم اعطى الامر الذي كان الجميع ينتظرونه .

« اغرزوا القرون ! » .

وفي الحال اندفعت مجموعة من الشباب في حالة من الهرج والمرج ، لموا الحبال التي كانوا يمسكون بها ، ثم بدأوا الجر مخلين فسحة وسط الثيران . وما ان انجزت الحركة حتى رفع العجوز ذراعه من جديد . كان آهيم قد صار الفنان الذي يعلم أن العيون ترقبه وهو يقود جوقة الموسيقى في مشهد عظيم ،

(1) سلف النخيل .

ابيض لا شائبة في سترته وإزاره الابيض . كانت السلسلة المتدلية من عنقه تطلق لمعات الفضة وهو يلف ويدور للاشراف على وضع كل ثور في مكانه . عند ذاك جاء الرجال ، اثنان لكل ثور ، ونظرتهم مثبتة عليه . من حين الى آخر كان يصدر خوار من هذا الثور او ذاك ، لكن الثيران كانت قد أسلمت قيادها للآخرين وفي أعينها نظرات الاهتمام والاستفسار الغامض ، وحين بدا كل شيء وكأنه صار على النحو الذي يرغب فيه ، خفض آهيم ذراعه ، وهكذا ، ودون نظام دقيق ، بل بصدمات شديدة ترج الارض وتهز اقدام الرجال حتى آخر صف من صفوف التجمع ، بدأت الثيران تنطح أرضا ، واحدا تلو الآخر .

تلك العملية نفذت بمهارة فائقة ، وعلى نحو غير مرئي تقريبا . فكانت أشبه بتجمل متعدد الاشكال لحركات سريعة ومتكاملة من حبل وحيد يلتف على قوائم الثور ورأسه ، فيما كان بإمكان المرء ان يرى للحظة عابرة من الزمن الدهشة والمفاجأة في عيني الثور وهو يرى الحبل يهبط باتجاه هدفه . بعدئذ تحدث هزة محكمة للرأس الثقيل وفجأة يجد الثور نفسه وقد انقلب على ظهره ثم انفرز القرنان بشدة في التربة وفي الحال ينقض الاختصاصيون في لفة الحبل هذه على الثور المنقلب بطناً على ظهره ليقيدوا القوائم بحركة رشيقة محكمة .

بعد ذلك ، وبإشارة من رأس العجوز ، غادر الجميع الساحة ، فبقي آهيم وحيدا واقفا بين الاعناق العاجية الاربعة عشر التي تواجه السماء ، وخطوط الاوردة الدموية المشدودة وأوتارها تتخذ شكل الاقواس ثم تفوس في الكهوف الواجقة التي تصنعها صدور الثيران ، في تلك اللحظة باتت العيون المنفتحة على أقصى اتساع لها ، تشي بالخوف الذي ظل بلا صوت وعلى نحو يثير الاستغراب . أما آهيم فكان أشبه بقصبة للحياة وسط ذلك الجماد الابيض ، ظلا من حركة بين تماثيل من مرمر ، كاهنا يدرك بالحدس ، هكذا كان آهيم وهو يحرض على عدم تشويش الهيكل قبل ان يطفىء حواريوه ظمأهم تاركا قداس الموتى الثقيل يبعث أنغامه ، أنغام الوفرة ، القدرة ، التجدد ، عاقدا نبضات قلبه ، مكرسا قوة الحياة ضمن دائرة الساحة الى ان حكم بأن لحظة التحرير السحري قد حانت . حينذاك ، كان بإمكان المرء ان يراه وهو يتلمس طيات ازاره تلمسا رقيقا ، ثم تخرج كفه بخنجر دقيق النصل . كان يبدو أشبه بكائن غير عادي وهو يتجه نحو الرقاب المعدة للذبح التي كانت أشبه بالاعمدة .

ظلت ايريز ، الواقفة بجوار أوفي ، جامدة دون حراك ، ساهمة الى البعيد . كان عقدها العاجي قد اختلط بحركات اخفاء سريعة بأعناق الثيران المتشنجة . كارياتيد الابدية الخالدة ، وحدها حرارة الاصابع كانت تؤكد له انها ليست تماثلا ، انها لحم حي وتؤكد له حضورها الطوعي الى المبد .

تقدم آهيم ، وبحركات رشيقة اعادت يده الى كتفه طيات ازاره الذي كان قد انزلق عندما انحنى فوق الثور الاقرب الى الكوة ، لكن الازار انزلق من جديد ، حينذاك أمسكه بذرعه اليسرى ثم ضغطه هناك على جسمه . اما اليد المسكّة بالسكين فلم تضرب سوى ضربة واحدة ، ضربة غاصت عميقا في العنق قاطعة اوردته واوتاره . بلا ألم انفتح الجلد المشدود ، كاشفا عن غشاء رقيق كشف بدوره عن العروق التي انطلقت منها الابخرة الحمراء الاولى . ثم فجأة غرق بياض الفشاء بالنبع الذي تفجر متصاعدا الى الاعلى أكثر فأكثر ، منبثقا نحو السماء المتوهجة بالشمس . بكل حيوية ونشاط ابتعد آهيم لكنه لم يستطع الابتعاد الى حد يكفي لتجنب شيء سوى الزبد الذي عاد الى السقوط دون أن يلمسه . وهكذا ازهرت زينته البيضاء فجأة ببتلات ورود دقيقة حمراء . بعد ذلك ، صعدت آهة طويلة ، ثم انخفضت مألثة الهواء بغمغمة الريح والبراعم التي تفتحت . حينذاك أصبحت حركاته سريعة والآهات المنطلقة تندغم بالابخرة المنتشرة وآلاف النظرات تلاحق حركات الكاهن الذي كان نصله يقوم بحركة واحدة تتكرر فوق الاعناق العاجية المقدمة لابتهالات عودة الربيع . بعدئذ راح الرجل ذو الاصابع التي تشبه اصابع المدلك ، وقد فتح الطريق للاكسير الفني ، ينحني على كل قناة من القنوات الحمراء بالتتالي حتى غدت ذراعه تيارين لطيفين يعرفان طريقهما الى وسط الاثلام الفارقة بأشعة الشمس المائلة . بدفعة واحدة كان يوقظ جداول الاثلام ثم يخلط دققها بالمصدر الرئيسي وايمان عميق بالبركان يطبع حركة اليدين وهي تفتح قنوات الدم الحمراء بغية تجديد قوى الارض .

كانت الينابيع تتدفق ، متصاعدة عاليا وكان مصادرها لا تنضب . لكن اخيرا ، حتى تجوفات القلوب لم يعد لها ما تعطيه . الفرع الاخير من الدم انفتح فترة وجيزة وبعد ذلك انتهى الدفق . حينذاك سمع الحشد الحشرجات الاخيرة من الافواه ، ارتعاشة الحب الاخيرة وهي تنطلق مفادرة الارض الساكنة دون حراك ، لكن الاجسام الهابطة التي كانت تسبح فوقها رائحة البحر كانت في اعين الحشد ما تزال تحتفظ بقوتها المشعة . وكان آهيم يسير عبر الساحة مشع الوجه متالقا ، فيما راحت الاكف الخاوية تمتد محاولة لمسه ، وبدورها تلمس تلك الاكف اكفا اخرى ووجوها اخرى ناقلة روح التضحية الى صفوف التجمع الاخيرة .

دخول الجزائريين المسلحين بانصال حادة وبلطات وقطاعات ضخمة ، في اثرهم نساء يحملن أحواضا واسعة كبيرة وقدورا ضخمة ، فيرّ الجو في الحال ، غير أن اصوات المزامير والطبالات وكذلك الاصوات التي ارتفعت من الحشد كانت ما تزال مستمرة في توزيع اكسير الثيران حتى عندما بدأ البعض يقطعون لحومها ، ويضغطون على أحشائها لاخراجها ، وحتى عندما امتلأت الساحة بالروائح النتنة التي تصدع

الرائحة الدم والفضلات التي اختلط بعضها ببعض الآخر . كانت الرؤوس ،
الملطخة بالزبد والدم ، تكدّس ، واحدها فوق الآخر وأفواهاها الى الاعلى وكانت
البرك المملأى بالدم قد بدأت تتخثر شيئاً فشيئاً تحت شمس الاصيل الذي كانت
ظلاله قد بدأت تستطيل ، وكانت النسوة يشعلن النيران وهن يرين أمام أعينهن
الليل الطويل الذي ينتظرهن دون أن يخيفهن ذلك ، بل كان بدلا من ذلك ، يبهجهن .
بعد ذلك بدأت القدور الاولى من البيرة بالوصول الى رؤوس الاطفال ، كما بدأت
قطع الخشب ترافق وصول قدور الأجر والحديد وأواني الزيت المعدنية . ثم بدأت
أصوات ضائعة في غبشة الفسق ، تتضرع الى سيد الجيوب :

استيقظ ، أوه من أجلنا استيقظ
نحن الذين سنبكي زمناً بعدك
نحن الذين مهدنا لك الطريق
أنت يا من رحلت عنا الآن

ثم وكأنها تلاحقه الى المناطق البعيدة لسكناه الجديدة ، تتغفل اليه بكل
ما تملك من قدرة على التعاطف ، من وعد بالشفاء والتجدد المولود من اتحاد الارض
والثيران ، ذاك الاتحاد الذي شاهدوه لتوهم ، كانت الاصوات تتابع التوسل اليه
والوعظ :

اغمس يديك في حوض الصلصال الاحمر
ذاك الذي تأكل الالهة منه
ضع يدك فوق أرضي
أغرقني بالمطر
ضع يدك فوق سقفي
أشبع لي اطفالي
ضع يدك فوق جسدي
باركني ، هبني الصحة والعافية . . .

وبصحة الاصوات التي كانت تبتعد ، كانت روح أوفي تبتعد هي الاخرى عن
الحضور المباشر للميت ، عن أصوات العظام التي تسحق واللحم الذي ينتزع ليملأ
الساحة . فجأة ، بدت الاغاني وكأنها تنبثق من مكان امامه مباشرة ، فرفع عينيه .
كانت جماعة من النسوة قد غادرت العاملين في الساحة وأحاطت بايرييز كي يغنين
ويرقصن أمامها ، وحين رأين في عينيه أنه قد رآهن ، شرعن بالضحك ثم توقفن ،
وبعد ذلك عدن الى الساحة وهن يرقصن ، ساحبات ايرييز معهن .
ذلك المساء نفسه قال أوفي لايرييز أن تعد حقائبها للرحيل في الصباح الباكر
فاكفهر وجه الفتاة لكنه وعدها : « سنعود ، أما في الوقت الراهن فلدينا عمل » .

* * *

أسرع العجوز للاقاته ، فيما كان أوفي يربط القارب ذا المحرك الذي أخذه من الهيئة ، ويساعد ايريز في النزول .

— لقد رصدت الصوت ، قال العجوز (وهو يلقي نظرة مآكرة باتجاه ايريز) هل هذه المرأة هي التي جاءت بك من جديد ؟

فهز أوفي رأسه بحركة نافية ، ثم أعلن :

— لقد جئت وفي جمعتي مشاريع ، مشاريع رسمية .

— لن أسالك المزيد ، حتى ولو كنت أجهل ماهيتها ، فهناك أناس لا يتوجب عليهم البوح بقضايا تخص عملهم للآخرين

— أنت عميق للغاية بالنسبة الي يابابا آهيم . فهز آهيم رأسه .

— نحن أناس بسطاء ، هنا في آيرو . أهلا بكما كليكما .

كان واضحا بالنسبة الي أوفي ، حتى قبل ان يكون بالإمكان معرفة نتائج التحليلات المقارنة — اذ كان قد عاد الي قاعدته وهو على معرفة تامة بأرض آيرو — ان التربة الرطبة والقوية التي تبدأ على بعد بضعة أمتار فقط من الضفة مناسبة تماما لزراعة الكاكاو . والفكرة التي كانت وليدة لقائه الاول بهذه الجماعة السكانية الصغيرة لم تكن الا واحدة من أفكار كثيرة أخرى أراد منها أن يجرب التخلص من العالم الزائف ، عالم الاغاني الدعائية ، والتخلص من استغلال الكارتل (1) الشره الجشع . كان بالإمكان قلب النظام ، فحيلة الاعداء الي الوضع السابق يمكن تطبيقها أيضا على المعدات التقنية ، ليس فقط لكي يستفيد الكثير من الناس من الوضع الجديد بل أيضا من أجل خلق جيل جديد . زراعة جديدة للجماعة تعمل فيها وتتقاسمها : من البذرة وحتى الفرسة ثم الشجرة فالثمرة . كان أوفي يرى بعينه صورة لتقدم مماثل للفكرة الجديدة ، لولادة الانسان الجديد انطلاقا من البذرة نفسها التي تشبه بذرة لوز الهند ، ثم ينتشر عبر البلاد — وبفضل جهاز الكارتل الدعائي القوي نفسه — نموذج الآيرو المثالي في العيش بغية استعادة الشبان الذين يهاجرون وملء الفراغ في تراثهم المنقل اليهم بفضل تلك النبتة الرائعة .

في دار الاجتماعات في آيرو ، حيث راح البعض يتفحص المشاريع الجديدة كلها ، دهش أوفي لنظرة آهيم الذي كان يرقبه بنوع من الفضول . كان طلبه قد صيغ على نحو بسيط تماما : أرض في القابة من أجل تنفيذ مخططة فيها ، واستعداد سكان آيرو وكذلك صبرهم ، خاصة حين تبدأ آلات التصوير المفشية للسربالتجوال ، مهددة بتدمير ذلك المنزل الذي كان منذ زمن طويل كنزهم .

(1) اتعاد شركات غالبا ما يتصف بالقوة والسيطرة والاحتكار .

كان آهيم ، غارقا في التأمل والتفكير ، يشرف على النقاش دون أن ينحاز الى اي جانب . وكان الناس يستمعون ، يناقشون دون هدى ، يطرحون الاسئلة ، يقدمون الافكار ، ويصفون مرة أخرى . اما ايريز فكانت تجلس بين النساء ، فحضورها يثير موجة من الصور السينمائية ، كان هو يترجمها للمجتمعين ، بكل بساطة . أخيرا ، أعطى سكان آيرو موافقتهم ، ثم انتقوا بضعة هكتارات من الارض البكر لينفذوا فيها مشروعهم ، بل حتى هيئة الكاكاو أعطت موافقتها .

بعد ذلك بدأ العمل ، البعض يقطع الغابة ، البعض يبذر ، البعض يغني اناشيد تأسيس الآيرو ومجموعة جديدة من أغاني العمل انبثقت عن فكرة الطليعة . فيما تخلت ايريز عن جولة الاضواء في ايلوزا ، فأرض الآيرو كانت أشد جاذبية من فرش الريش جميعا .

كانت ايريز ترتدي ازارا وغطاء رأس شأنها شأن النساء الاخريات ، وكانت كتفاها وذراعاها عارية جميعا وهي تدور وسط النباتات الصغيرة ، تضفر أوراق النخيل لحماية الفراس الصغيرة ، ثم تحمل الخمرة الى الرجال الذين كانوا يكدون ويتعبون في كفاحهم المرير ضد الغابة العليراء . مرات عدة ، أحس أوفي بمتعة الانبهار وهو يرى تلك التحولات ، تلك القدرة التي لا تنضب على التعلم . فهي التي لم تكن تفعل قط سوى أن تفني المدائح « للون الكاكاو » كانت قد تفتحت عن اتجاهات لم يتوقعها أحد . ها هي ذي الآن باتت تعلم كيف تميز ، على النباتات ، الحبيبات السوداء الناتجة عن حروق الشمس البسيطة ، كما باتت أصابعها الرقيقة تصنع الاربطة للفراس الصغيرة المجروحة ثم تقدم لها التمنيات من الساحرة الشافية التي ولدت من جديد . كان حضورها يملأ النساء بالفخار ويوحى بالامطار .

لكن بعد ذلك ، بدأ جواسيس الكارتل يشمون رائحة جذور خفية ، ثم اكتسحت أصابع مجهولة مشغل أوفي لتترك وراءها حلبة من أوراق واشرطة مغناطيسية مخربة ، بعد أن نقلت الافلام الى خبراء انكبوا على كل كلمة واستفسروا عن كل عبارة وحرف .

فقصت حلوقهم بأغاني العمل .

« سيد أوفي ، ذلك لا يدخل البتة في نطاق ما اقره اجتماع المجلس ، قصة لوز الهند من البذرة حتى النضج . . . » .

« وحياء جماعة المشاع ، الحياة الشبيهة بحياة طفل منذ البزرة - وفي النهاية ، بالتأكيد ، بقدر ما يمكن للمرء أن يعيد روايتها حتى . . . حتى سن النضج .

مع ذلك ، سيد أوفي . . . ! » .

كانت كلاب الكارتل الشرسة المتصلبة قد استعرضت للمرة الالف افلام أوفي ، وهي مقطعة ناقصة ، كما استمعت الى الشريط المسجل وأعادت الاستماع اليه عشرات المرات . . .

— سيد أوفي ، تفكر هيئتنا بأن عليك أن تطلب الاحالة الى الاستيداع . رحلة دراسية . سنعد لك خط رحلة يتضمن أكبر قدر ممكن من البلدان : بحيث يمكنك أن ترى كيفية العمل في الاماكن الاخرى من العالم وربما تعود اليينا ببعض الافكار . . . أمريكا ، اليابان ، ألمانيا . . . الخ . فالامريكان أعظم اختصاصيين في العالم بمهنة الدعائية . انهم يعرفون هذه الصنعة حق المعرفة ، وهذا يفسر لماذا نجد بلادهم في غاية الازدهار . سيعطيك امين السر كافة التفاصيل ، كما نود أن نجعلك تفهم أن الهيئة راضية ، بالاجماع ، عن عملك كل الرضى . وكل ما نرغب فيه هو أن نستفيد أكبر الفائدة من مواهبك . اذهب صباحا لرؤية المحاسب ، فلديه التعليمات لـ . . . أوه . . . لجعل رحلتك مريحة ما أمكن . ان الهيئة تود أن تسهر على راحة موظفيها وسعادتهم ضمن النطاق المتاح لامكانياتها . هل فهمت ؟

لقد فهم أوفي . فالكارتل كان يأمل أيضا أن يكون رحيله نهائيا .

— وماذا سيحل بالافلام التي صورت من قبل ؟

— أوه ، سنحفظها في صندوقنا الخاص ، وهناك ستجدها عند عودتك في حرز حريز . ما من شيء ملح أو مستعجل بالنتيجة . بل يمكنك أن تبدأ من الصفر عندما تعود ، أو تصور فيلما وثائقيا آخر ، فيلما جديدا تماما . الفكرة بالغة الاهمية بالحقيقة ، لكن ، هناك اراض اخرى وجماعات مشاعية أخرى كجماعة الأيرو ، يمكنك اخراج افلام عنها ، فاذهب ، قال الرجل وهو يبتسم ، قم برحلة ممتعة سيد أوفي « .

★ ★ ★

المهلة انتهت والزورق عاد .

في اعماقه احساس يضغط عليه كي يتصرف ، احساس يقوم اساسا على ذلك اللقاء الذي حدث في المطار بينه وبين ذلك الرجل المنفرد الذي كان ذهنيا ، قد بدأ يدعوه بـ « طبيب الاسنان » . هذا الاحساس هو الذي جعله يسلك الطريق الى آيرو في اللحظة نفسها التي حطت فيها الطائرة على الارض عائدة الى البلاد ، كما لو أنه كان يشك تقريبا . لا ، ليس بأن عزمته ستضعف ، بل بأن قوة مشؤومة من قوى الكارتل يمكن أن تحول وتندارك الاحتمالات التي لم تكن موجودة الا في ذهنه . فهواء ايلوزا ، حيث حطت الطائرة ، بدأ مباشرة وكأنه مفعم بالروائح الفاسدة للكارتل وحلفائه التابعين العديدين . ودون أن يعلم ، حتى في تلك اللحظة ، الشيء الكثير عن الاستراتيجية التي تقتضيها المواجهة الجديدة ، فقد وضع ثقته في الالهام الذي لم يكف عن توجيهه باتجاه الضمان الاكيد الذي تشكله الآيرو ، لكنه كان يتساءل كيف يمكن للمعجوز آهيم أن يفهم طبيب الاسنان ، ذلك الكاهن المخلص للعنف الذي كانت مهارته قد أعادت الحياة لارادته المترجرجة . ثمة شك واحد كان ما يزال مقيما في ذهنه : هل بالإمكان الاستفادة يوما من الايام من قوة كهذه ؟ لم يكن بالإمكان مقارنة لقائهما غير المتوقع الا بمغامرة أخرى لم تكن لها علاقة ببرنامج رحلته الدراسية ، قصته المنعشة مع تايبلا ، اللغز الآسيوي . فقد بدأ الامر وكان طائرات العالم قد بدلت المواقع لا لشيء الا لكي تلتقي روحان ضالتان .

شرع أوفي يبحث عن المصطلح المعقول الذي يمكنه أن يصف على أفضل نحو طبيب الاسنان لآهيم ، دون أن يثير معارضة هذا المعجوز الشديدة لذلك الشاب الذي كان يعتبر في تلك اللحظة حليفا ضروريا لا بد منه . محترف اغتيالات انتقائي ؟ لا ، هذا المصطلح يبدو وكأنه بلا معنى ، فالاغتيال هو انتقائي بالضرورة . منفذ عقوبة ؟ دعم وقائي ؟ هذا المصطلح الاخير بدأ أقرب للمبادئ التي أعلن عنها طبيب الاسنان : أبطل اذى الحية قبل أن يتاح لها الوقت للدغك . وبمفهمة متشككة ، تصور أوفي مسبقا رد فعل المعجوز على تلك الجهود الشفافة للغاية والهادفة جميعا الى محاولة التخفيف ما أمكن من التخوف من دور الطبيب . اخيرا توقف عن البحث . فالكارتل لديه قتلته المحترفون الذين يخدمون في هذا المجال أيضا ، والطبيب يعيد تحقيق التوازن ، على الاقل ضمن مدى معين . وحينما كان قاربه ذو المحرك يقترب من آيرو ، كان أوفي يستعيد في ذهنه الحجج التي رتبها من قبل .

لكن السؤال الذي طرحه قبل كل شيء على آهيم ، بعد العناقات وعبارات الترحيب ، انما كان التالي :
- ما الذي كان في ذهنه ، تماما ، مؤسسكم المرحوم . عندما قدم لي ذلك الاقتراح الذي لا يصدق ؟

فهز العجوز يديه قائلا :
- لماذا يا ترى رايت وما تزال ترى انه لا يصدق ؟ فحتى الطفل لدينا يمكن ان يكون سيد الحبوب .

- أجل ، لكن الطفل ، بذلك الاغتراب الكلي الذي ينتج عن نوع الحياة التي يعيشها لا يفسد مثلما افسد انا حين اصل ، فعندما جئت الى آيرو اول مرة ، كنت خارجا من قدارة ايلوزا ، من جوها الملوث مباشرة .
- اذن ، لماذا انت هنا ؟ لماذا تعود الينا دائما ؟

واجه أوفي النظرة الصريحة للعجوز ، ثم اعترف بكل بساطة :
- لان آيرو تقدم لي شيئا انا بأمس الحاجة اليه .

انتظر آهيم دون ان ينبس ببنة شفة ، فاستأنف أوفي :
- لندخل أخيرا في لب الموضوع ، ما عسالك ترد اذا ما قلت لك الان انني احترم اللجوء الى العنف ؟

فعبرت نظرة آهيم لمعة المفاجأة والدهشة لكنه اكتفى بهز كتفيه ثم قال :
- قصة تأسيس آيرو تضرب جذورها في العنف . فرد أوفي مطمئنا اياه :
- لا ، ليس هذا بالعنف الذي جئت أبحث عنه . مع ذلك ، في أيامنا ، اذا ما أراد المرء زرع فكرة ، أيا كانت هذه الفكرة ، فعليه أن يقبل بضرورة حمايتها كما تحمي الفرسة الصغيرة ، وبوسائل العنف اذا اقتضى الامر . فقال آهيم بنبرة ضاغطة :

- هيا ، قل لي ما الذي تنتظره منا بالضبط .

فهز أوفي كتفيه .

- قبل كل شيء ، أود ان أراك تقبل هذه الفكرة . مثال على ذلك ، ضرورة تشكيل جبهة مشتركة مع قوى ... لنقل بعبارة صريحة أساليبها ليست سلمية تماما . حتى وان كان هذا يحمل الخطر في أن تلك القوى لا تنطلق من عقالها ولا تهدد بالخطر الاساس الهش ...

لكن آهيم قاطعه :

- هذه الافكار جاءتك كلها من رحلتك ، اليس كذلك ؟ من الكتب الجديدة التي ربما قرأتها أم من المجتمعات الجديدة التي درست فيها ؟
- كلا ، بل هي بالاحرى من مخالطة نوع جديد من الناس التقيت بهم .

ثم شرع يصف لقاءه بطبيب الاسنان وكذلك منطلق ذلك الشخص . استمع آهيم بصبر شديد ثم علق :

– انت تتكلم عن بذر فكرة جديدة ، لكنك بالتأكيد سمعت أيضا القول المأثور: من يزرع الرياح يحصد الاعصار .

– الرياح هي ما زرعه الكارتل يا بابا آهيم . واذا لم نتوصل الى ردها عليه اعصارا يحصده ، فسنكون نحن الخاسرين .

اطرق آهيم يفكر صامتا . اخيرا عاد الى السؤال الذي كان يشغل باله اكثر من اي سؤال آخر .

– وهذا ، ما تراه سيجر علينا ، نحن ، هنا ، في آييرو ؟

– لا شيء ، اذا شئت التحدث عن نشاطات الطبيب بشكل خاص . فأيرو قطاعي أنا . وأنا أجهل ما هو جوهر الاوراق أو القشور التي تدخلها في تركيب اطفالك عند ولادتهم . ما اعرفه هو أنها تحصنهم ضد السم المنبعث من أمكنة مثل ايلوزا ، ضد ذلك النوع من الاغراءات التي يقدمها الكارتل . أنا أو من بآييرو .

فلم يستطع آهيم كتم لمة انتصار خفيفة في عينيه .

– اذن لماذا لا تقنع بالبقاء معنا ، هنا ؟ ما هي الاشياء الاخرى التي تبحث عنها ؟

فهز أوفي رأسه :

– الجوهر الشافي الذي يهدئ الفرد والا لا أدري أي كلب ضال يدخل بالمصادفة الى آييرو ولا يكتفي بشفاء جروح الشخصيات الاخرى التي أعرفها . انها بحاجة الى شكل آخر من الشفاء ، شكل مختلف تماما .

– وما الذي تعرفه عن ذلك يا ترى ؟ رد العجوز . ثمة مواد جوهريّة لا يراها أحد ، علاجات يمكن أن تعطي مفعولها بعد زمن طويل . ترى ، لماذا برايك ، نولي الكثير من الاهتمام للتضحيات الطقسية ؟ فقال أوفي بعنف مفاجيء :

– تماما ! أنتم لم تقطعوا الاواصر كلية مع أرومتكم الام . أنتم تستمتعون أيضا بهذه الاوهام العظيمة . أنتم تشبهون الى حد ما أولئك الرهبان الذين يقعون في صوامعهم ، معزولين عن شرور العالم ، يقدمون النفحات الضئيلة من الشفقة من سموعهم لمكافحة الجوع الفظيع الذي يعاني منه الاحياء ، بل ، وحسب ظنهم ، حتى ، الاموات .

– نعم ، نحن تماما كما وصفتنا هنا ، اعترف آهيم ضاحكا . نحن لا نهمل قط موتى آييرو .

– كلا ، بالفعل . فأنتم تطلبون شفاة أناس ماتوا ودفنوا ، شأنكم شأن أولئك الرهبان تماما . هل تدري كيف وصف هذا الامر واحد من اصدقائي ؟ انه بالحقيقة طبيب الاسنان ، وكان يتكلم عن فتاة قابلتها في الوقت نفسه الذي قابلته

فيه . كانت لدى تلك الفتاة رغبة شديدة في أن تجعل من نفسها راهبة ، فأثار هذا معركة ، لكن لا ، لا بد لي من أن أحدثك عن هذا ذات يوم . فانا لو كنت أو من بالخرافات لاعتقدت أنها أرسلت اليّ بمعجزة لكي تنقذني من طريق اللعنة الذي كان يجسده طبيب الاسنان . اي كما تعلم ، الملاك من جانب ، والشيطان من الجانب الآخر .

– وماذا حدث لها ؟

فشرع أوفي يضحك .

– لا ، لم يحدث شيء . لكن ما تود معرفته يا بابا آهيم ، هو ما حدث لايرييز خلال تلك المغامرة . حسن ، لا قول لك الحقيقة ، ايرييز لم تتعرض قط لاي خطر حقيقي . انا لا أدري كيف ، لكن هذه المرأة باتت مرتبطة في ذهني ، ارتباطا لا فصام له بأرض الأيرو ، أما تايبلا فعلى العكس .

لكن آهيم ، وقد تعب من الانتظار الى أن وجد الكلمات المناسبة ، ذكره بأنه كان على وشك تكرار رأي الطبيب بالفتاة الشابة .

– أوه ! ليس رأياً عميقاً . الهية بسيطة عن رغبته في ادارة مصلحة لتبادل التحقيقات والتحقيقات المضادة بين الأحياء والأموات . بجد يا بابا آهيم ، آيرو هكذا أيضاً الى حد ما . لكن هذا الدور لا يكفي . اذ لا يمكنها أن ترضي حاجات أولئك الذين قابلتهم وجهاً لوجه ، الحاجات التي رأيت من أجلها أناساً ينزفون دماً ، أناساً يقضون نحبهم لأنهم كانوا عاجزين عن تأمين قوتهم هناك .

– البعض اطلق علينا كل الأسماء المعقولة ، قال آهيم بمسحة من سخيرية ، من هذه الأسماء اسم أوتوبيا الجيب (1) .

– هل تدري ما تود قوله ؟

– أجل ، أجل ، أولادنا ياتون الينا بكل الكتب والمنشورات من جميع الأصناف ، وانا اقرا . فليس لدي الآن ، عملياً ، أي شيء أفعله سوى القراءة . وانا ما فتئت اصل الى الاستنتاج نفسه وهو أنه : لا جديد تحت الشمس (ثم قهقهه بخبث) أو بعبارة أخرى . عقول الناس تجتاز المسافات البعيدة وتتلاقى ، للأفضل أو للأسوأ لكن معرفة ذلك يعلمك في الآن نفسه التواضع والتكبر .

– أتظن أن هذا ما يكشفه أولادكم بأنفسهم ؟ وهذا هو نفسه ما يعيدهم اليكم ؟

– أوه ! ما تبرح تصدع رأسي بهذا اللغز ؟

– ترى ألم تطرح عليهم هذا السؤال ، أنت نفسك ، أبداً ؟

– ولماذا أطرحة ؟ قال آهيم بشيء من الدعابة ، ذلك يعني اننا لا نتوقع أن يعودوا

مع أن هذا ليس صحيحاً البتة .

(1) اي الصغيرة على فرار كتب الجيب التي تصدرها دور النشر بسهولة حملها .

في منتصف الليل استيقظ أوفي واثباً من فراشه . فقد خطرت له فكرة قضت على كل أمل لديه بالنوم . لبس بنطاله على عجل ثم اجتاز بأقصى سرعة البلدة الصغيرة النائمة الى أن وصل حكرة آهيم . كانت الساعة الثالثة صباحاً على الأقل ، لكن حتى لو أنه لم يلحظ الضوء ينبعث من إحدى النوافذ فقد كان سيدق الباب ويعكر راحة العجوز .

كان آهيم هو الذي فتح له الباب .
- ادخل ، أوفي ، أرى أن النوم قد جافاك .

أراد أوفي أن يعتذر لهذه الزيارة المتأخرة لكن آهيم حال دون ذلك .
- أنا لم أكن نائماً . بل انني لا أنام أكثر من أربع ساعات طوال الليل . ففي سني ، يغدو النوم ثانوياً، شيئاً فشيئاً . (ثم وضع الكتاب الذي كان يهم بقراءته) يعجبني ماوك هذا . علق العجوز . ها أنت ذا ترى أنني أقرأ أشياء كثيرة كي أكون واثقاً من قدرتي على مقابلتك وأنا على مستواك نفسه . انه خارق للعادة ، هذا الصيني ، ليس كذلك ؟ حقائق بسيطة كلياً واطار تجريبي عظيم . للمرة الأولى أشعر بالرغبة في أن أقوم برحلة اذهب فيها لرؤية شخص التقيت به على صفحات كتاب . وبعد كل شيء ، أنا في السن التي يقوم فيها المرء بالترحال

لكن أوفي قاطعه :

- بابا آهيم ، فالتفت آهيم ثم تفحص وجهه .
- آوه ! أرى أنك لم تأت هنا لتمضية الليل في مناقشات عديمة الفائدة . حسن ، لنجلس ولنأخذ راحتنا .

فجلس أوفي في أحد المقاعد مواجهاً العجوز .
- لقد جئت هنا كي أقدم لك اقتراحاً .

هز العجوز رأسه على مهل وفي عينيه التوقع والانتظار ، فاستأنف أوفي :
- أنتم لديكم رجال في أنحاء البلاد جميعاً ، في المدن الكبرى كلها تقريباً ، في كل مكان ، في المعامل ، المصانع ، أعدهم لي مدة سنتين . بعد ذلك . . .

فرقع آهيم كفه :

- لا ، بلا أي شرط . قل لي فقط لماذا تريدكم .

فبسط أوفي يديه : إما هذا أو ترك المبادرة لوسائط مختلفة كلياً أو وسائط جذرية . والهدف واضح ، الحطم ، المفهوم الجديد : العمال يجتازون الحدود المصطنعة ، والوجود المحسوس الفعال للأيرو في أرجاء البلاد كلها يلغم البنية الفوقية للكارتل : بسرقاته ، باختلاساته ، بتحدياته ، بقتلته ، بغية وضع نهاية للعبودية الجديدة . ثم أظهر التعبير المرتسم على وجهه بأنه يأمل أن يكون ذلك واضحاً بالنسبة الى الحكيم آهيم ، فقال هذا :

— ما أريد معرفته ، ليس ذلك الذي تضعه في مخططاتك لجعلهم يفعلونه ، بل

لماذا رجال آييرو بالذات ؟

— لانهم يعيشون حياتهم على فكرة واحدة ، حياتهم تتمحور حول فكرة وحيدة .
وأنا اعتقد انه ما من أحد يستطيع افسادهم ، ولا التأثير فيهم .

فوافق المعجوز بحركة سريعة من رأسه .

— انهم لك .

طرف أوفي بأجفانه ثم سأل :

— لي ؟ هكذا ، بكل بساطة .

— أوه ! سأقول لامين الصندوق ان يقدم لك لائحة بالاماكن التي يمكنك ان تجدهم فيها . فنحن نعرف اماكن تواجدهم في كل وقت : وذلك من خلال العنوان الذي أرسلوا منه الفائض الاخير من راتبهم .

— لكن ليس باستطاعتي ان اقدم لهم نفسي ، هكذا مباشرة ، لاقول لهم . . .

— اذن تريد ان تقول إنني انا الذي أرسلتك ؟ لا ، بالتأكيد لا . لانني لست انا الذي أرسلك . ولانهم جميعا رجال احرار يعيشون ، كما سبق وقلت على فكرة ما ، فاذا تطابقت خططك تطابقا حقيقيا مع هذه الفكرة ، فان كل ما عليك ان تفعله هو ان تذهب للبحث عنهم . انا اشك في ان يكون اي منهم قد انتسب الى حزب سياسي يوما من الايام ، حتى ولو بدافع الفضول . انهم يعرفون تلك الاحزاب معرفة تامة وهم يعيشون على مقربة كافية منها لهذا الغرض . لكن اذا كانت فكرتك تتطابق مع استعدادهم ل . . .

فنهض أوفي :

— انا اعدب . . . فقاطعه المعجوز باصرار :

— لا ، لا وعود . لنفرض انك وافقت في هذه اللحظة على ان تكون سيد الحبوب وان تبقى معنا في آييرو ، ترى من سيمنعك من فعل ذلك الذي تريده من هؤلاء الرجال ؟ من سيمنعك من العمل حسب تصورك الخاص الى ان تقنع كل فرد من افراد جماعتنا هذه بالسير وراءك وان تستخدم كما يحلو لك مواردنا وثرواتنا لتحقيق فكرتك ، او حتى لتحطيم وحدة الجماعة كي تقود اولئك الذين سيتاثرون بتصورك للمجتمع الاكبر الذي نمت اليه جميعا ؟ والحقيقة كما ترى ، هي ان ما تطلبه مني ليس الا جزءا ضئيلا من ذلك الذي عرضناه عليك .

ثم رافق أوفي الى الباب مستأنفا :

— بعد معارك العالم كلها ، يشعر المرء بحاجة لمكان راحة . كما يشعر ايضا بمثل هذه الحاجة بين المعارك نفسها . من اجل هذه الحاجة خلقت آييرو ، او لنقل على

الاقبل ان بإمكان آييرو أن تلبي هذه الحاجة . اوه ؟ كنت سأنسى ، عندما تتكلم مع الرجال ويكونون لك ، قل لهم ان هذا الذي يرسلونه عادة الى آييرو ، يخص القضية الآن . وسوف يدركون أننا اعطيناك موافقتنا . حسن ، ذلك هو كل ما أراه في الوقت الراهن .



في الخارج ، توقف أوفي بضع لحظات ، شارد النظرات في عتمة الليل . ففوية الدعم الذي قدمه له آهيم حملت له ما يرضي حب الاستقلال لديه ، بل ان تلك المناقشة كانت أكثر اقناعا من تكون الاستراتيجية ذاته . بعد ذلك ، التفت نحو العجوز ثم سأل :

– الا تشعر بأي شك حقا ؟

– الشكوك ، الشكوك لا تنتهي قط ، انها اشد كثافة من الليل الذي يلفنا . (وأضاءت أسنانه البيضاء وجهه) لقد قلت لك لتوي الجواب الذي قاله لي مؤسسنا ، عندما طرحت عليه ، وكانت قد انقضت سنوات على تأسيس آييرو القوية الراسخة ، اقول عندما طرحت عليه السؤال نفسه الذي طرحته أنت علي .

فافتتر ثغر أوفي عن ابتسامة ثم قال :

– طابت ليلتك ، بابا آهيم .

– طابت ليلتك ، يا بني .

بعدئذ سمع أوفي الباب يطبق خلفه بكل رقة ولطف .



- ٢ -

البراعم

« ٣ »

في البدء كان شراب الجنة والرحيق .
تحويهما لوزة هند عسجدية ...

لكن غيظ الرئيس كان قد توقف . بات باستطاعته أن يسمح لنفسه بمباركة
جوقة الموسيقى بابتسامة ... استمروا ، هيا ، استمروا ، أيها الحمقى . يضحك
كثيرا من يضحك أخيرا . ونحن من سيضحك أخيرا ، نحن من سيضحك أخيرا .

فلتبارك الآلهة
التي لونت الكون بأشد الألوان وردية
ثم مسحت اللعاب عن لحاها
وفي الحال سمعت شخرات مدوية
فحتى الآلهة حمل لها الأكسير النشوة والنسيان .

تا - را - را - تا - تا - تا - تا . ردد الرئيس في ذهنه الخاتمة
نفسها . في البداية كان الامر مختلفا : إذ كان يحق ويشور ازاء خيانة كهذه . لكنه
الآن يمكن أن يسمح لنفسه بأن يتسلى . وهكذا مرر كفه على ذقنه كما لو أنه يقدم
لاصابعه شرابا من رحيق عظيم قبل أن يتلاشى تلاشي صورة من خيال . نواحون
حمقى . حثالة يتاكلها الحسد والغيرة ، قمل ! بالنسبة الى أوبي ، الامر واضح ، فهو
لم يتعلم شيئا . خسارة به المال الذي أنفق عليه ، فقد عاد من رحلته فاسدا تماما
وغير قابل للاصلاح .

قد صارت لوزة الهند رغبتهم الوحيدة
غذاءهم الوحيد الذي يعتمدون عليه
قرص عسل أصفر ، وهم يغنون على ربابة مذهبة
بدورا ممتلئة برحيق نقى
منبع شراب - أوه ! يا لأغاني الحرب الفرحة
ربات الفن العزيزات هن النبع الذي يلهمكم أغانيكم

كان هذا ، بالنسبة لمن لا يدري الحقيقة ، شيئا لا لطف ولا ارق ، أجل ،
لا لطف ولا ارق . انه متوافق كل التوافق مع هذا المهرجان . لحسن الحظ ، لم
يفهم المدعوون شيئا ... بل بدا الامر بسيطا كليا وعاديا تماما ، كما لو أن الفنانين
ينشدون مدائح تقليدية ، مع ذلك ، لم يسبق لي قط أن رأيتهم مفعمين بمثل هذه

الروح الغنائية امام لوز الهند . امام نبيذ النخيل ، نعم ، أو ربما امام النيام المقدس لكن ليس ابدا امام رموز تجارية للوز الهند . . . أجل ، هو يعلم شغفه تماما وهو يعلم كيف يعرض اليد التي تطعمه . . . اوه ! الافضل ان تضحك الآن ، لا تفشى .
سرك قط .

كان زاشي قد أنهى عزفه المنفرد على الساكسوفون فأدرك أن هذه هي اللحظة المناسبة لمغادرة المنصة ، وهكذا انسل متغفلا بين الحشد الى أن وصل الى الرئيس ثم قدم له احتراماته .

– اسمح لي ان اقدم لك اعجابي ، زاشي ، فجوقتك تحقق تقدما جديدا في كل مرة أسممها بها .

– هذا لطف كبير منك ، سيدي الرئيس .

– والاغنية التي كنت تعزف لحنها هذه اللحظة . . .

– هل أعجبتك سيدي الرئيس ؟

– رائعة . . . لا بد اننا كنا نسمع اسطوانة . . .

– أنا سعيد أنها أعجبتك . لقد ظننا أنه لا يوجد مكان خير من حفلك هذا كي تغنيها لأول مرة .

– اوه ، هذا لطف شديد منك يا زاشي ، لطف شديد حقا . هل أنت الذي كتبتها ؟

– اوه ! لا ، سيدي الرئيس ! أنا أصب عليها المرق حين تنتهي . انه اوفي من يستحق الشكر على كل شيء . اننا نتشارك في المطبخ كما يقال . . .

فبدت على الرئيس هيئة المندهنس .

– آسف . . . أنا لم . . .

لكن زاشي بدأ يضحك كما لو انه يعتذر .

لقد نسيت أنك بعيد . كليا عن شؤون الكلام والكتابة ، سيدي الرئيس . ما أريد قوله هو ان اوفي يضع الاساس وانني لا اتدخل الا في مسألة الترتيب قليلا . الكلمات والموسيقى هي بكاملها من وضعه ، سيدي الرئيس ، وما افعله بالحقيقة هو ان اضع بعض البهارات والتوابل .

– اوه ! نعم ، نعم . . . وانها لحسنه البهارات والتوابل يا زاشي ، حسنة البهارات والتوابل . اذ امتفق معك كل الاتفاق . بالمناسبة ، أرجو أن يكون هناك من يهتم بجوقتك .

– اوه ! أجل سيدي الرئيس ، لا أحد يحتاج شيئا .

– حسن ، حسن جدا ! تذكر أن البيت بيتك . . . تصرف كما لو أنك في بيتك .

– شكرا ، سيدي الرئيس ، لا أحد ينقصه شيء . . . علي أن أعود . . .

— بالتاكيد ، بالتاكيد . انا لا أريد تأخيرك .

لكنه وهب الخالدين سحنة جديدة
كما لو أنه بصدا الذهب لظهم
والى المآدب السماوية أجرى الشراب الجديد
حين خفضوا نظراتهم وتطلعوا الى الانسان
ببشرته الوضائة ، كلون الكاكاو
فمن تراه ، من تراه لم يرغب بعدوى قاتلة !

حك الرئيس رأسه ، دون أن يفهم كلمة واحدة . فعلى الرغم من الدروس
الخصوصية المحشوة بالامثلة التي اعطاها اياها **حاصله الذكائي** ، الحاصل الذكائي
الذي هو في خدمة مجلس الادارة ، الى حد أنه توصل الى الاقتناع بأنه قادر على
اصلاح الاساءة او الفكرة المدمرة التي أخفيت بأشد أنواع البراعة في أغاني الحملات
الشعبية الوجدانية ، الا أنه كان يحدث له أحيانا ان يقف حائرا ازاء هذا التعبير
او ذلك ، غير أن الرموز انكشفت امام عينيه الآن (مثلما كان يرغب بكل تواضع
في اعلام الكارتل) وشيئا فشيئا صارت لديه القناعة بأنه لم تكن هناك كلمة
واحدة ، رمز واحد ، صورة واحدة ، من كل ما استخدموه في الحملة الشعبية
(بكلفة عالية وعلى حسابنا نحن أيها السادة) لا يحوي جرعته الخفية من السم
والتحريض .

بهذا الموجز السريع ، لاحظ حاصله الذكائي الذي كان يشق طريقه بعناء
شديد عبر الحشد المختلط من الشعور المستعارة ، الاوسمة ، وكؤوس الشمبانيا .
رجل الساحة ! لعله كان يصغي للمقطع الاخير . لكن الحاصل الذكائي لم يدع له
حتى امكانية طرح سؤاله . فقد لوح بيده التي كانت تمسك بقطعة من الورق
مستطيلة الشكل ، فاطلق الرئيس آهة وهو يرى أنه كان يلوح بواحدة من تلك
الملصقات الشيطانية . أما الحاصل الذكائي فكان يلهث دائما .

— رأيت هذه ، سيدي الرئيس ؟ لقد كانت ملصقة على اعمدة بابك ، واحدة
على كل جانب .

تفحصها الرئيس ، وبسرعة شديدة كافح ذهنيا لاكتشاف الرسالة قبل ان
يقدمها له محلله . فقد كانت الملصقة تمثل شدة الشره ، فما كبيرا مفتوحا لالتهام
شريحة هائلة من لوزة هند . وفي الاسفل ، كتابة تقول : الحصة الذهبية . وبسخط
لم يستطع اخفائه ، شرع يصغي لشرح الحاصل الذكائي الزائف كل الزيف .

— انه زعيم الجيكو ذو الخطم الكبير الذي بلغ به الفرور ان يفكر بأن تكون
له حصته الذهبية من المكاسب الوطنية ...

- أجل ، أجل ، أفهم جيدا ما تريد قوله . لكن ما أود معرفته هو : كيف استطاعوا لصق هذه على باب قصري . فقد وضعت هناك اثنين من حراسي ، كما أن هناك قوات من الشرطة والجيش . فنحن ننتظر كما تعلم ...

- أجل ، سمعت كلاما عن ذلك ، فهل هو صحيح ؟

- طبعا ، طبعا . وكم هو مزعج أن يجد المرء شيئا كهذا يستقبله وهو آت الى الحفل .

- أوه ! أنا لا أعتقد أن التلميح صدمه ، رغم أنهم ، يا سيدي الرئيس ، صاروا وقحين تماما .

دعك الرجل الضخم الجثة الملتصقة بيديه فيما أسرع الحاصل الذكائي لاخذها منه ثم أعطاها للخادم الذي كان يمر وعلى يده صينية من المرطبات .
- لا يهم ، قال الرئيس أخيرا ، سوف نتخذ القرارات التي ستفرض وتنفذ بالنتيجة .

بعدئذ ابتعد كي يسهر على راحة مدعويه ، غير مبال بقطرات شراب الجنة والرحيق التي كانت تتساقط من مقطع شعري جديد .

هواة الحلاوة ، والسفاه ، فقدوا كل معيار

وما من قانون بشري يستطيع إيقافهم

لقد استنزفوا شجرة الكاكاو

امتصوا رحيقها حتى آخر قطرة ، كشطوا الذهب

فشاخ الشجر المستنزف قبل أوانه

ولم يبق للأجيال القادمة أخضر ولا أصفر .

تا - را - را . تا - تا - تا . عندئذ التقط الحاصل الذكائي كأسا من البراندي لدى مرور الخادم به ثم عبا عبا كي ينعش نفسه ، متسائلا في سره عما سيساعده هذه المرة في تغطية المعاني المكشوفة التي قصدتها أوفي . فقد كان من المستحيل تماما انكار التلميح المقصود . مع ذلك ، هو لم يدع هذا تحديرا ضد المزارع الواسعة الشاسعة ...

وفيما كان الرئيس يتسلل ببراعة بين قفازات الاكف وفرقات الضحك ، كان يستعيد في ذهنه جدول الضباط حسب رتبهم : نجمة واحدة ، نقيب ، نجمتان ، مقدم ، ثلاث نجوم ... أوه ! يا الهي ... ليست هكذا أبدا . نجمة واحدة : ملازم ، نجمتان : نقيب ، ثلاث ... ترى أين تبدأ التيجان ؟ ثم ، أليس هناك قلنسوة في جهة من الجهات ؟ بعدئذ أين موضع أولئك الرقباء الأولين ؟ في كل الاحوال يمكن للمرء دائما أن يكشفهم من هيئتهم : ثيران وجاهزون لتقديم التحية عند أقل إشارة ... التاج هو ... أوف يا للجنة ! الرئيس بيغا ! خسارة أن المرء لا يستطيع

ابعاد اناس مفسدين كالرئيس بيغا ابعادا كاملا . كيف يستطيع نموذج كهذا اكتساب ذلك القدر من السلطة ؟ انه جميل وعضو أكيد من أعضاء الكارتل . **الحاصل الذكائي** لا يشك بذلك . أهو رجل باتوكي المصنوع من قش أم انه هو الذي يحكم باتوكي ؟ ترتيبات الاول تكمل غباء الآخر . بيغا يحب شهرته كمشغب . وهو غليظ كمشانة خنزير . . . تاج ، تاجان . . . لكن ، أهذه هي التيجان ؟ أم انه أكثر من مقدم . . . لنقل انه عقيد . . .

- مر . . . ح . . . بيا ، عزيزي الجنرال ، كم هو لطيف منك أن تأتي .

- لا ، بل كانت سعادة كبيرة بالنسبة الي أن أتلقي الدعوة .

- أبدا ، أبدا ، بل أنتم مشغولون كثيرا بقضايا الدولة ، مشغولون بتحريك مركب الدولة الثقيل ، مشغولون بمحاولة فرض النظام على مركب الامة ، أوه ! يا الهي ، باستطاعتي أن استمر هكذا الى ما لا نهاية ! لكن هذا لاننا نعلم ما تفعلونه واننا لفخورون بانجازاتكم .

- هذا اطراء لنا يا سيدي الرئيس . ما نحن الا جند ، لا أكثر ، أما من يقومون بكل شيء ، فهم أمثالكم ، أنكم أنتم العمود الفقري للبلاد

- عز - يز - ي !

- أرجو أن تعذرني يا سيدي الجنرال ، أعتقد أن زوجتي بحاجة الي ، هناك . هيا ، عدني الا لتردد في طلب كل ماتحتاج اليه ، كل ما تحتاج اليه . واني لآمل أن تسلي نفسك جيدا هنا يا سيدي الجنرال .

- هذا وعد .

كانت امراته قد دعتة ، لكنها لم تتوقف عن هذرها الي أن وصل حد تصعيد زفرة ، حينذاك كانت غير قادرة على تذكر أي شيء من حديثها الذي كانت تريد أن تسمع موافقته عليه ، أو تذكيره به ، فعاد أدراجه يتفحص الصالة الواسعة ، وابتسامته الصغيرة تشع على الناس المهذبين الذين كانوا يحيطون بزوجته احاطة السوار بالمعصم . كانت الصالة قد غصت بالضيوف سريعا . لاحظ الرئيس ابيور ، النذل ، الفضح . تماما في اللحظة ، التي كان يدخل فيها الباب الخارجي ، فكشر ضاحكا . هذا الصحفي وقح صفيق لكنه مفيد . انه يعلم بالضبط ما هي المصطلحات التي سيستخدمها ابيور لوصف الحفل : حفل باهر . والله وحده يعلم ماذا سيقول أيضا . لكنه ، عن سوء قصد ، سينسى أن يتكلم عن التدشين الرسمي لمنهل الماء المبني من الرخام وعن خطابه بهذه المناسبة ، وهو أهم الاحداث فيها . ربما سيورد اشارة صغيرة نافهة على شكل ملاحظة ، وسيكذب بلا شك ، قائلا انه شارك منذ البداية لكنه اكتشف لاحقا أن المنهل الجديد الذي دشنه الرئيس انما كان قد دشنه الجنرال أنتيل ، وحينذاك سيعلم العالم . كله أن هذا المنافق ابيور لم يغادر الحفل مطلقا الى أن أشرقت شمس

الصباح ملقبة ضوءا كاشفا على آخر زجاجة فارغة . الحسد ! انهم بشكل من الاشكال يشفقون عليه . انظر اليه هناك ...

كان ابيور قد التقى بزاشي في ناحية من نواحي الصالة شبيه الخالية ، اثر ملاحظته لخدم كان يحاول ايقافه قبل اختفائه خارج الردهة حيث كانت صينيته الملائى قد افرغت .

– ابيور !

– زاشي ، كيف الحال يا عزيزي ؟

– على الحد تماما .

– ما من سر ؟

– على البلاطة .

– وما من صفقة أيضا ؟

– الكثير من النشارة المذهبة ، يا عزيزي . أما أنت فلن ترى شعرا مستمارا واحدا يقتلع من مكانه هذه الليلة .

– اعتقد ذلك . نشاء لامع ...

– أجل ، سيدات لعينات ، آنسات ، سادة ، الكل خارج وسطهم الطبيعي . والعالم كله يراقب .

– على كل حال ، أنت في مكان مناسب تماما للرصد ، من عل . واذا كشفت

ما يجري ...

– أعطيك اشارة ، هذا مؤكد ، وداعا يا ابيور .

حينذاك قام ابيور بنصف دورة ثم اتجه بخطوات لا مبالية نحو الشرفة . نسيم عليل كان يهب من البحيرة . وكانت الدولة قد استصلحت قطعة كبيرة من الارض ، فلاحظ في طرف الحديقة ما ينبغي أن يكون موقع زورق . اي شيء يمكن أن يفعله بزورق ذي محرك في حين أن كل ما هو أصفر من باخرة يوحى له بالريبة ؟ هو ، بالتأكيد ، لا يكن الا الازدراء لكل وسائل التسلية التي تحمل في طياتها أدنى خطر ، وكانت تلة من القماش المشمع ترتفع وسط الحديقة مخفية وراءها روعة المنهل الذي كانت اعادة تسميته تحتكر كافة الافكار وكافة الاحاديث في طول البلاد وعرضها منذ شهر كامل . لم يكن الرئيس يعتقد أن من المستحسن انارة الغابة الصغيرة من أسفل . بخطى واسعة قام ابيور بالدوران حول التلة ، وقد أدهشه أن يرى ذلك الذي احتل جزءا كبيرا من المكان ، بعدئذ تذكر أن المنهل قد اندمج مع حوض السمك اما الحديقة نفسها ، التي كان يحيط بهاجدار عال ، فقد كانت تنحدر انحدارا سريعا باتجاه البحيرة ، الأمر الذي أعطاه فجأة انطبعا بأنه وقع في متاهة داخل هرم حته الزمان فانقلب على جانبه وانفرست قمته في الرمال المتحركة . من الجانب

الأخر للشرفة ، كانت ظلال الناس تغادر أو تنضم فتتلوى الكتلة الأساسية من المدعوين
المجمدين داخل أقبعة اللزينة أكثر غنى من كل ما كان يحلم به أشد رجال توت عنخ
آمون حماقة . كان صقر اللبناني يمتلك ثلاثة أرباع هؤلاء الزبائن ، صقر صاحب
المحل التجاري الرائع بكل ما فيه من مهربات ومذهبات لامعة . . . أيها الإله العظيم ،
لماذا ينبغي أن تبعث هذه المومياءات من تحت التراب؟!

دخلت ايريز ، بمزاج فظيع لكن بسيماء جميلة الى درجة تفري قديسا .
« أجل » ، قالت بصوت واطيء ، « التفتوا جميعا وانظروا ! أنتم ، أيها الرجال ،
ليس لعابكم ، وأنتن أيتها النساء لتمتن غيظا ! أنا لا أشعر بكن وأنتن تتمزقن غيرة
وحسدا ، عدن فادخلن في حاملات أثدائن المحشوة ، تفوقن داخل أدمفتكن الرخوة ،
هذه أنا ، سيليست ! هذه أنا يا سيدي ك يا ذات الشفتين الأشبه بحواف مبولة ،
أيتها الحولاء ، الرئيسة المزعومة لنادي الاحد للسيدات . أتريدن أن أقول لك أين
يمضي السيد لياليه كل اربعا حين يقول لك انه في نادي المروتاري ؟ ليس عند اريد
يسنت ، أوكد لك ، بل عند قدمي . انه راض بثن العزاء الذي أقدمه له ، وهذا
لا يضر احدا : فالكل يحذو حذوك ، حذوك . . . » .

— اهدني ، همس أوفي في أذنها .

— أشعر بمزاج فظيع .

— اهدني ، أقول لك .

— زد على ذلك أنهم يدينون بكل ما يملكون لصقر اللبناني .

— وما دخلك انت ؟

— لماذا كان ينبغي أن تأتي ؟

— انت تعلمين السبب جيدا . . . فهذا جزء من واجباتك .

— أنا لن أرفض . احذرک سلفا ، حتى لو جاء الرئيس بذاته وطلب مني ذلك

راكعا على ركبتيه .

— سنتجاوز هذه العقبة حين نصل اليها . هيا . . . أوه ! انظري ، لا فظاظة ، آ ؟

— على الرحب والسعة . . . على الرحب والسعة . الملح والجمال في حملة

الاعلانات يجتمعان . الآن بلغنا الكمال حقا .

— شكرا ، سيدي الرئيس . انها لامسية رائعة .

— بحضور أميرة الكاكاو بلحمها وعظمها ، يتوقع المرء أن تكون أمسية العام

كله . تفضلي ، تفضلي فأقدمك الى الجنرال . لكن أود كثيرا أن أحذرک أيتها

الأميرة ، غالبية الرجال الحاضرين هنا متشوقون لرؤيتك في واحد من تجلياتك

الشخصية المشهورة . .

— أمل أن لا تشجعهم أيها الرئيس . قالت المراة بصوت فيه نوع من الصفير .

- لكنها كشرت الما وهي تشعر بأوفي يغرز أصابعه في ذراعها . ثم شرعت ،
 مبهوتة ، بالاحتجاج حين غادرهما الرئيس كي يعترض صينية محملة بالمرطبات .
 - مع ذلك ، أنت لا تريدني أن أرقص في أمسيته الخاصة ؟
 - لست متأكدا من ذلك ، غمغم أوفي .
 - كان عليك أن تنبهني سلفا .
 - أقول لك ذلك . أنا نفسي لا أعرف .

وبدت عليه هيئة الانزعاج ، فاستغرقت ايريز في أفكارها . لم يكن هناك الكثير من المفاجآت . كان أوفي قد توقف فجأة عن أملاء الخزان ، عن فرض أفكار جديدة عليها ، تماما قبل التجلي الشخصي ، عن القيام بتكرار التلحين الايقاعي لها حتى اللحظة الاخيرة . لم يكن عليه الا أن يضعها في الحالة الروحية المطلوبة ، بتشكيل الوجه والجسد طبقا لمقتضيات اللحظة التي تعرض فيها نفسها للجمهور . أما بالنسبة الى الجولات ، فقد تعلم زاشي أن يحمل معه كل ما تحتاجه الجماعة من أدوات مساعدة وملابس ، لم يكن عليها أن تشغل نفسها بما يجري ، بل كل ما عليها هو أن تسلم جسدها وروحها لخيال زاشي وتصويراته . وكانت لوزة الهند العملاقة تنشق بالطول أو بالعرض ثم يفتح القسم العلوي كما يفتح غطاء صندوق . وكما لو أنها تنهض من سبات عميق ، كانت ايريز تنهض من سرير من البذور الضخمة ثم تمد الذراعين . تبدأ الجوقة بالعزف فيمد لها زاشي عادة كأسا من الكاكاو ، راکعا بركبته على الارض فتضع قدمها على ظهره ، وسط حشد من تسريحات شعر ، نصفه مستعار ونصفه على شكل شجيرات ، تلك التسريحات التي كان أوفي يدعوها موسمية : النساء فيها يستخدمن أطنانا من اللون الاخضر والاصفر ، البني والذهبي والطحيني وكميات من المرائج الاخرى . وهكذا ، ضمن اطار من المناظر الحسنة الاعداد ، كانت لوزة الهند تنشق من التربة أحيانا هبر فتحة خاصة ، وقد انفلقت على ايريز في الداخل .

الاحساس الغريب حدث هناك في ميدان الالعب عند سد « شاج » « ليلة المرح » تلك التي نظمها العاملون في يوم من أيام العطل . كان أوفي قد أصر بالهاتف ، قائلا لها أن تجعل نفسها في أحسن صورة ، ذلك أن شاج هو المقدمة لتنفيذ فكرتهم الجديدة في « كروس ريفر » . فغالبية العاملين هم من الأيرو . وقد عملوا طوال النهار لصنع فتحة ، مستفيدين من رافعة محرك من المحركات العديدة ، وقت الاستراحة في مشغل من مشاغل البناء ، كل شيء سار على ما يرام . بعدئذ جاء انقطاع التيار ووجدت ايريز نفسها في قلب قوقعة هائلة معتمة ، طيلة فترة من الزمن بدت لها بطول الابدية . لم يكن هناك بصيص من ضوء يتسرب عبر شقوق التهوية ، ولم يراودها أي احساس سوى أنها دفنت وهي على قيد الحياة ، لكن دونما ألم ، لحسن الحظ ، فلبثت في مكانها ترتعد بانتظار الضوء والحياة ، وقد

جاءت لحظة الإنبثاق من التربة ، اذ ظهر الضوء أخيراً من شقوق أشبه بتلك التي تحدث في رقصة اقراص النعناع .

شيئاً فشيئاً كانت ترتفع لوزة الهند ، تدفعها قوى غير مرئية . ظهرت مقدمتها أولاً ثم شرعت بالتشقق من كل جانب كي تتخذ شكل شرائح رقيقة من البرتقال . وهكذا ، كما يجز زورق على مهد من زيت النخيل أحست به على بشرتها ، خرجت إيرييز تماماً ، ثم خطت خطوة واحدة فوجدت نفسها على أرض منبسطة ، وسط تصفيق مدو . تلك كانت رقصة النبتة الصغيرة وسط تلك الفسحة المحاطة بالأشجار الخضراء التي كان البعض قد علقوا عليها مصابيح كهربائية على شكل أقواس فيما كان البعض الآخر من عمال المشغل وسكان قرية شاج قد سعدوا الى ذراها سعياً وراء المنظر الأفضل . لكن إيرييز لم تر عيناً واحدة من آلاف العيون التي كانت تحيط بها . بالنسبة اليها ، لم يكن هناك سوى الليل الذي كان يداعب أطرافها وذلك الاحساس الهائل بالعظمة ، بالقدرة على دفع أوراق وبراعم جديدة من عنقها ، من اصابعها ، على هز رأسها للتخلص من الاوراق الميتة والتراب ، على عب الهواء والضياء بكل سم من مسامها . كانت إيرييز ترقص ، دون أن تسمع شيئاً من كل ما تطلقه قسبة زاشي ، وكانت الحلزونات الخضراء تفر من شعرها المستعار مدوية في الليل ثم تتساقط تساقط المطر على المتفرجين . كان زيت النخيل يجري حراً في عروقها الى أن تغدو أخيراً مستعدة للوثبة الاخيرة ، فتذهل الجميع بأن تسقط من جديد في منتصف المنصة الصغيرة تماماً حيث تنطلق دائماً من هناك الشرائح الرقيقة على شكل زوارق من جذوع أشجار تنتشر كالاشعة من باب الفتحة . حينذاك ، يعود الباب الى الانغلاق ، ويطلق الميكانيكي ما يشبه الآهة التي يسمعونها حتى الجالسون في الصفوف الاخيرة من المسرح نصف الدائري ، أما سجينة القوقعة التي تعود الى حبسها من جديد ، فلا يبقى لديها من انطباع بالعرق المتصبب منها ، بل بنوع من الزيت الاسود وهي تنتظر تحررها من جديد

سمعت إيرييز صوت أوفي وهو يهمس في أذنها .

— ماذا ستقدمين لنا هذه الليلة : ابتسامة ايريد سنت المزدوجة ، لمعات الزجاج للسيدات وبسمات الحب للرجال ؟

— هل تبدو عليّ هيئة الابتسام ؟ سألته بصوت امتزجت فيه العذوبة بالتهديد .
— من الصعب تحديد ذلك .

— حسن ، انا لست مبتسمة وأنا لن أغفر لك اني لم اكن كذلك حينما رقصت هناك في شاج .

— آه ! نعم . زاشي قال انك لم تكوني قط بمثل تلك الروعة .

لكن ذلك لم يفعل سوى تأكيد احساسها بالاحباط .

- لا بد ان ذلك قد فاتك ، فانت ابدا لم ترني اقدم افضل ما لدي . هذا لانك تعتقد انني لا اصلح الا لـ ... (ثم بوزت شفيتها مفعمة احتقارا لنفسها)
للتجليات الشخصية امام كبار خنازير المجتمع .

- اخفي صوتك و ... -

- اجل ، اعلم .. اعلم ما ستقول .. اهدي ، لا استطيع ، أنا لم ارغمك على ذلك . انظري ، لماذا لم تفودي تقديمين جديدا . لكني اقول الآن : لوزتك الهندية تتمزق نفا . لقد سبق لها وتفتحت بعشرين وجها مختلفا ، لكن ذات يوم ستنتفح من كل مكان في آن واحد . وحين يأتي ذلك اليوم ستتخلص مني وليحالف الحظ لوزتك الجديدة ، سيدة الكاكاو .

كان أوفي يراقب بانتباه شديد أولئك الذين اعترضوا طريق الرئيس خلال مطاردته لصينية المشروبات ، فعرف في واحد منهم الذراع اليميني لقائد المنطقة ، ذاك الذي كان يعرفه كل الناس بوصفه **مصلح الكارتل** . كان شابا ممتلئا قوة وابعاء شأنه شأن الآخرين جميعا ، لكن بدرجة اعلى . في تلك اللحظة كان مشغولا كل الانشغال مع الرئيس ، وهو يحدثه همسا . اذن ، هو قائد المنطقة بعينه من سيقص شريط حوض السمك بيديه ذواتي القفازين ؟ لا بأس ، لا بأس ، حتى ولو لم يكن سوى قائد منطقة . جال أوفي بعينين نشيطتين في الحشد مدققا النظر الى ان استقرتا من جديد على ايريز حين حدث ان كان الرئيس والمصلح ينظران باتجاهها . فأحس ، لسبب لا يدري كنهه ، بشيء من الضيق .

- ألم تسمع ، آ ؟ قالت له ايريز وفي صوتها نفمة اتهام .

- لقد سمعتك . لكن متى تتعلمين كيف تجاملين هؤلاء الناس ؟ انك تدعينهم يتجاوزونك باستمرار .

- لا ... لا ...

- لا تقولي لا .. فانا اعتقد انني اثبت لك ذلك مائة مرة .

- اذن لماذا يجب ان تجعلني ارقص لهم .

- أنا لم اقل انني أريدك ان تفعلي ذلك . لكن ربما سيكون ضروريا ، اذ ينبغي

الا يتصوروا ان احدا من الناس لا يعرف ذاك الذي يدبر في الخفاء .

فقطبت ايريز حاجبها .

- أوفي ، عم تتكلم ؟

- أوه ، لا شيء ، لا شيء (وبدا من صوته ان هناك ما يريد البت به) اذهبي

فاستعدي . هذا المساء ، ستقدمين صندوق البندور (١) . هيا ، قولي ذلك لراشي .

(١) البندور : آلة موسيقية تشبه الفيتار .

ثم احتفى داخل الحشد .

« لا ، ليس حفلنا هذا هو مجرد حفل في منزل مواطن بسيط » ، قال المضيف الفخور بنفسه يشع وجهه بهجة . « أوه ؟ كلا .. وأؤكد لكم ذلك ، سيداتي سادتي . أيها المحترمون ، أنتم لم تأتوا لكي تشاركوني بتدشين هذا .. أوف .. هذا .. لا ، ما كنتم لتحضروا هذا الحفل الرائع لو أنه لم يكن الا هذا فقط . كما ان رجلا كثير الاشغال كالجنرال لم يكن ليأتي ، شخصيا ، ليشرفنا بتدشينه . أجل ، إنه لحدث عظيم برموزه كما سترون بأنفسكم . فبلادنا مدينة بازدهارها لما تقدمه لنا نبتة هامة . انها هناك في حقلها الصغير ، تكذب بلا صخب ، بلا ضجيج ، لا تنشغل الا بشؤونها ، لا تلحق الضرر بأحد ، هي ليست واحدا من ال .. ال .. ال .. ال . . . اقول المحرضين ؟ (ثم نظر الى مستمعيه الذين أحسوا ان عليهم ان يكافئوه بضحكة تأييد) انها حقا زنبقة الحقول الصغيرة ، لكنها تكذب بصمت ، تغذي الملايين والملايين من أبناء الشعب » .

ثم ارتفع التصفيق واشتد الى حد مذهل تماما حين رفع الرئيس راحتيه : « هذا هو السبب في أنني طلبت احضار ذلك الشيء الصغير الى هنا .. فقد قلت لـ .. . أوه .. . لذلك الذي ينبغي أن يقوم بالعمل ، أريد أن أقول للفنانة ولقد قلت لها : هذا احتفاء بشجرة الكاكاو ، مناسبة لتقديم عرفاننا جميعا لها ، اذن ، ايا كان الشيء الذي سيظهر لكم فتأكدوا انه سيظهر امام اعينكم ، خالصا تماما كما أراكم الآن . لكن ينبغي الا أطيل عليكم ، فلست أنا من سيكشف الستار ، بل هو نصفي العزيز الذي ترونه هناك مستعدا منذ زمن طويل (وترك الضحكات تنطلق منهم ، بعدئذ مد يده باتجاه الجنرال الذي كان ينتظر) والآن اتوجه الى الجنرال الذي ترونه هناك والذي كان من اللطف بحيث شرفنا بقدمه لرفع الستار عن هذا الينبوع ، هذا الينبوع الرمزي للكاكاو الذي نأمل جميعا الا تجف مصادره الارضية الى الابد . سيداتي ، سادتي ايها الضيوف الكرام ، سيادة قائد المنطقة : الجنرال » .

وبإشارة من زاشي الى جوقته ، انطلقت رنات الآلات النحاسية ودقات الدفوف التي تغيرت الى ايقاع عسكري متوافق مع خطوات الجنرال الموقعة بكل دقة وهو يتجه نحو مقص فضي وضع على حشية من مخمل أزرق ، كانت السيدة الاولى تمدها له وهي تقف بجانب شريط قرب حوض السمك . عشرات من آلات التصوير بدأت العمل وطوال نصف ساعة لم تتوقف أجهزة اضاءتها عن الفرقة . انحنى الجنرال ، ثم أخذ المقص ، بعدئذ أمسك بيد السيدة طابعا عليها قبلة وسط عاصفة مدوية من التصفيق . هذا الجنرال شخصية باهرة لكأنه تكون وفق الطراز الفينييسي في القرن التاسع عشر . وقد تأكد ذلك ، كما ينبغي القول ، حين سقط الستار

وانكشفت روعة الرخام الايطالي لاعين المتفرجين الجهلة . وحده تعليق الرئيس الذي راح يشرح نقطة نقطة ، كان يزعج من حين لآخر تأمل المتفرجين لذلك النصب الفلورنسي القائم في قلب قارة متعفنة فاسدة .

جاء خدم ذوو سترات بيضاء فرفعوا الستر ثم سحبوها على مهل الى المؤخرة فبدا حوض الينبوع ، وهو حوض سمك بالحقيقة ، وقد نحت تماما على شكل لوزة هند ، ارضيته وجوانبه مغطاة بمربعات صفراء صغيرة . في الوسط ترتفع قاعدة رائعة ، ذراع من رخام تخرج من بحيرة مسحورة ، على شكل اكسكالبير(1) ، لتدعم منصة من الرخام الازرق ينتصب فوقها تمثال فارس يمتطي صهوة حصانه وهو مدجج بالسلاح ، وعند قدم الفارس يلتف تنين هائل ، حراشفه من الفضة ولسانه من البرونز وعيناه من العقيق وهما تقدحان شررا . وهناك عربة من الفضة ثقيلة الوطأة تخترق جسده فيما تطأه الحوافر الحديدية للحصان النبيل .

« كلنا نعلم قصة الخضر والتنين ، على ما اعتقد » ، شرح الرئيس بعد ان انطلق التصفيق المدوي ثم تلاشى على شكل صيحات تعجب : أوه !! .. آه !! .. هدأت فيما بعد . « لكن ربما ليس هذا بالضبط الاستخدام الرمزي الذي أردت أن أقدمه لكم هنا . وهذا هو السبب الذي وددت من أجله أن يجيء قادتنا الجدد شخصيا لتدشين هذا الانجاز . فالخضر ، وهو ممتط ظهر حصانه ، كما ترون ، إنما يجسد النظام الجديد الذي سيصرع التنين رمز القوى الاشد عداء لوطننا وامتنا : الفساد ! » .

« مرحى ، مرحى ، مرحى ، مرحى ، مرحى ، مرحى .. » .

فتجمدت كأس ابيور الذي كان يصغي ، وهو واقف تماما داخل كشك الموسيقى ، على بعد سنتمترات قليلة من شفثيه ، فيما التفت صاحبها نحو زاشي على مهل ، ثم انطلقا معا بضحكة مدوية وهما يختفیان خلف طنفسة فيما كانت عدة أعين تتجه نحوهما .

كانت نظرة الخضر تتجه نحو البعيد ، الامر الذي أوحى بأنه يحمل رسالة لا تعني الحاضرين . وكالعادة ، كانت الخوذة تغطي رأسه ، لكن العينين والانف البارز كانت معرضة لنظرات الجمهور . ان كان هذا هانيبيل أو الاسكندر ، أو

(1) اكسكالبير : هو في الاسطورة البريطانية سيف الملك آرثر الذي كانت ضربته لا تخيب . تقول الاسطورة انه كان مثبتا في صخرة لم يستطع احد سحبه منها سوى آرثر الذي كان ما يزال فتى صغيرا ، وحين وافته المنية أوصى الملك آرثر أن يلقي سيفه في البحيرة حيث امتدت يد امسكت به قبل أن يصل الى الماء ، لוחث به ثلاث مرات ثم اختفت .

حتى بواديسي (١) ، فأمر غير ذي بال قط . لقد كان هناك على ظهر حصانه المصنوع من الرصاص ، شخصا رمزيا لا يحس بأهمية الناس الذين جاؤوا لتدشين مولده المدجج بالسلاح . حينذاك ، انطلقت ، مرة أخرى ، أصوات دفوف مجنونة ودوي البوق ، فيما كان أحد الخدم يدير صنوبرا خفيا والرئيس يصيح بحماس شديد : « ابتعدوا قليلا ، سيداتي ، سادتي » . في تلك اللحظة أنبثق الماء فجأة من عشرات الجروح التي يفترض أن التنين أحدثها في خاصرة الحصان ومن لسان التنين البارز أيضا ، فيما راحت المصابيح الكهربائية تضفي على تلك المياه الوانا باهرة . كان الرئيس يشرح لضيوفه أن دماء التنين زرقاء ، لكن صوته غاص في لجة الاصوات المؤيدة الصاخبة التي تبعت المشهد ، ولم يبق لديهم سوى القليل من القوة التي يتطلبها التصفيق حين لاحظوا الاعجوبة الاخيرة : فعندما بلغت المياه المنبجسة المستوى المطلوب ذاك الذي تحدده آلية موضوعة داخل القاعدة ، بدأ الفارس ، التنين والمنصة كلها تدور فوق القاعدة باتجاه عقارب الساعة . في تلك اللحظة وجد حتى المحنكون الخبراء الذين يقولون دائما « رأينا ذلك من قبل » وجدوا أنفسهم ينهبون ثم ينضمون لحشود المصفقين .

« سيداتي ، سادتي ، أيها الضيوف المجلون » قال الرئيس وهو يضاعف من انحناءاته أمام هتافات الاستحسان التي لم تكن قد انتهت بعد : « سيداتي ، سادتي ، البار في خدمتكم ، ولترقص أيضا على موسيقى فناننا المشهور زاشي وجوقته ، رقصة « بزور الكاكاو » لكن . . . انتباه ، من فضلكم ، انتباه ، سيداتي ، سادتي . . . فأنا أعتقد أن لدينا الفرصة لان نعدكم ، حالا ، بواحد من التجليلات الشخصية لإميرة الكاكاو ، في واحد من عروضها المشهورة والذي سيبقى عنوانه ، مع أسفي الشديد ، سرا حتى اللحظة الاخيرة .

تركت قصة « علبة البندور » ، التي أفسدت العناية الالهية نهايتها بما أرسلت من غيوم وتيارات هوائية ، تركت لدى مبدعها ، أوفي ، احساسا بأنه نفاية زائدة ، ولدى أولئك الذين شاهدوها انطبعا بأن هناك دليلا على وجود خطر يهدد الكون . ذلك أنه بعد أن ظهر الشريرون في البداية وبعد أن خرج أولئك الأشخاص الاخلاقيون ، المؤلفون جيدا لدى متفرجين من اصول ريفية ، أقول بعد أن خرجوا من لوزة الهند المصبوغة باللون الاسود ، تلك اللوزة الخالدة الشديدة التحمل وذات الاستخدامات المتعددة ، حدث ما لم يكن بالحسبان . فقد ظهرت دمي تمثل أربع شخصيات معروفة ، وقد علقت الى بالونات ، شخصيات لم يجرؤ أحد على التعرف الى هويتها حتى من كان حاضرا منها . انه أوفي من وضعهم في الاعلى :

(١) ابوديكا وهي : زوجة براسوتافوس ملك الآسينيين احد شعوب الجزيرة البريطانية ، عاشت في القرن الاول الميلادي وقامت بثورة ضد الحكم الروماني انتهت الى هزيمتها فانتحرت بالسم .

وهم من يهمس الناس بأسمائهم خوفاً ، حتى في منعزلات قطاع الطرق والصوص . . . تلك الشخصيات عناصر القوة الحقيقية في الكارتل ، ظهرت أذن للعيان ، وانقلبت رأساً على عقب حين ارتفعت البالونات وتصادمت الخيطان . واثرت التحركات غير النظامية لحاجز البالونات ، بدت وكأنها تؤدي رقصة جنائزية بطيئة ضمن دائرة سحرية وهي تدير رؤوسها من هذا الجانب وذلك وكأنما تتأمل العالم المنبسط تحتها . ونظراً للقوة المتصاعدة الكبيرة لبالوناتها الضخمة فقد تجاوزت بسرعة المخاطر الأقل ريبية ، تلك الأشكال الميكروبية المتفلسة القاطرة ماء والتي بقيت معلقة بكسل وتوان فوق الحديقة في الوقت الذي كان فيه زاشي ، وهو يعرض أفضل مواهبه كمهرج ، يتكئ مبهور الانفاس على الغطاء الذي كان قد أغلقه بسرعة . لكن وجهه المذعور لم يعد بعد ، وجه ذلك الممثل حين لاحظ الفزاعات الأربع . فقبل أن تنبثق اثر الاعشاب الضارة ، الحمات الراشحة ، القدم المتورمة والآفات الأخرى التي تهاجم زراع الكاكاو لم يكن قد شك لحظة واحدة بأنها موجودة داخل الصندوق .

كان التصفيق ضعيفاً ومتردداً . فالمتفرجون كانوا مترددين بين رفضهم لمعرفة الشخصيات الأربع المعلقة معا ، ذلك « الرباعي الفظيع » كما كانوا يدعونهم في حلقاتهم الأرستقراطية الخاصة ، وبين ادراكهم أن عدم استحسانهم للنجاح التقني للمشهد هو ضرب من الاعتراف بأنهم لم يميزوا تلك الشخصيات . بعدئذ بدأت غالبية الحضور بالتساؤل أن كانوا سيشاركون أيضاً في حفلة من حفلات الحدائق . إذ حتى في منزل واحد من كبار خدم الكارتل ، قد يجد المرء أنه ليس في مأمن من المآزق

كانت إيريز تقبع في القسم الأسفل بانتظار أن يعطيها زاشي إشارة البدء ، ثم بدأت تناديه بصوت دافئ متوسل : « دعني أخرج . . . دعني أخرج » لكن زاشي كان قد جمده الخوف من المكائد الأخرى التي ربما أعدها أوفي لاختتام هذا التفسير في البرنامج . ظلت إيريز مقرفة وسط الضباب المصطنع المعد لها ، وسط البزور المعدة لفلال إضافية ، وسط سماء ورايات مدرجة معلقة ببالونات . كانت قد سمعت التصفيق المشتت الضعيف الذي بدأ لها غير طبيعي ثم السكون الذي خيم على الحديقة . الموسيقى نفسها ، كانت قد تضاءلت لتفدو الحان بضع آلات ثم تلاشت بدورها . البوق الثاني خمد فجأة وهو في أعلى الحانه ، وغيتار الغناء باتت ألحانه ضرباً من الغمغمة . أخيراً ، توقفت الآلات كلها ، فأحست إيريز بنوع من التجمد القاتل ، ثم تجمدت دون حراك في جوف لوزة الهند .

غير أن البرودة التي حلت بالحديقة لم تنجم عن ظهور الفزاعات وحسب ، بل ربما بدأ ذلك منذ قدوم الرجال المسلحين ، إذ كان قائد المنطقة قد جاء برفقة

حرس لا يقل تعدادهم عن الاربعين ، وكان اولئك قد اختلطوا بالضيوف والمدعوين : اصبح على زناد الرشيشة والاخرى على هدوء الحفل الذي كانت الانظمة تقتضي عدم تعكيره . هؤلاء الرجال المسلحون ، الذين كان الموت تجارتهم وصنعتهم ، ونتيجة لذلك كانوا خرافيين اكثر من أي كائن آخر ، اقول هؤلاء الرجال كانوا اول من لاحظ واشتم رائحة ظاهرة تحدث في الجو في وقت أبكر قليلا لكنهم ظلوا ساكنين لا يلحظهم احد الى أن ارتفعت في الجو دمي الكارتل الاربع . توشوشوا ، تبادلوا الهمسات ثم لم يبطئوا في تبادل استيائهم وكشف السبب . اما العيون الاخرى التي كانت تلاحق الدمى فقد كشفت المشهد الذي ادهشهم في البداية ثم شيئا فشيئا احيا في نفوسهم تذكارات ، بعد ذلك اغرقهم في ضرب من الرعب المتجمد . لا ، لن يستطيع أحد من الحاضرين أن ينسى ذلك اليوم الذي استيقظت فيه البلاد لتعلم أن مصرها بات في أيدي رجال الجيش الذين لم يكن أحد قد رآهم من قبل . ذلك اليوم ، اكفهر الجو فجأة وكان باستطاعة الكثير من الناس أن يقسموا ان الضباب الصباحي للبحيرة قد تكشف عن قطرات سوداء كان بالامكان رؤيتها بوضوح على أوراق الاشجار . اما العقلايون الاكثر خبرة وحنكة فقد كانوا يرون أن الواابل العنيف الذي هطل انما كان في غير موسمه . كما أن حجاب الظلام الذي رافقه والذي لم يستطع أحد تحديده ، أهو ضباب ام كسوف ام أمواج من الغبار ، كان كيفا الى درجة ارغمت الناس على اضاءة مصابيحهم وهم يتوجهون الى العمل في الجانب الآخر للجسر الذي لم تكن العين تستطيع تمييزه فوق البحيرة الا بجهد كبير .

كانوا واقفين حول ينبوع الكاكاو . وقد خلخت جراتهم المشروبات الكحولية التي تفلقت فيهم مطرية قوقعتهم الواقية من الريبة . لم يكونوا قد اجتروا اهانة لوزة الهند بعد ، ولم يكونوا اي شيء آخر سوى متفرجين هواة لنذر الشؤم . عقولهم كانت مشغولة بمسألة محددة : ان كان غروب الشمس الذي وجدوا انفسهم في مواجهته لا يخفي سرا مشؤوما ذا صلة بذلك الشروق الذي حمل القوة المسلحة لهؤلاء المدعوين المطمئنين قليلا والذين وجدوا انفسهم في وسطها . يمكن للمرء أحيانا أن يرى في المناطق الاستوائية حالات غريبة لغروب الشمس لكن ابدا لم ير احد مثل ذلك الغروب . فداخل السور المحيط بذلك الهرم المقلوب بدا الجميع ، رجالا ونساء ، يحسون انهم سجناء ، معزولون ، كتل عجينية بلا اية حماية من ذلك القرن الذي فتح فاه فوق رؤوسهم . حينذاك نسوا الخلد الذي كان قد سرى في رقابهم ، فيما كانت جلودهم تتشرب الخوف الذي راح ينتقل بينهم شيئا فشيئا . كانوا عاجزين عن التخلص من ذلك المشهد المغناطيسي المتوّم ، مشهد اشكال جنينية ينتجها ويلقيها قرن الافق ثم تنقلها تيارات لم يكونوا يحسون بها داخل الهرم . تلك الاشكال كانت تتقدم نحو قبة السماء الى الوسط تماما ، صفوفًا متراسة

منتظمة . وفي لحظة قصيرة تجمعت على شكل قطيع من خراف هائجة ثم صفوف من دواجن منسقة داخل واجهة للعرض . بل غدت أشبه بصفوف منسقة من لوز الهند ، لكن من جديد ، وبغير لبس أو غموض ، تخلصت السماء من تلك الشوائب الرعوية وقررت أخيرا استحضارا فاخرا لاهوال توراتية دامية كانت تتأرجح حول نجمة تقودها ، تتقدمها ، وتسير بها في اتجاه بالغ القسوة : جروح وانتقامات ، مجزرة أبرياء .

كانت الدمى التي تجسد رباعي الكارتل قد اختفت منذ زمن طويل ، بعد أن اندفعت وهي تهز برؤوسها حتى النهاية حين غاصت في مقرها الأخير ، فيما كان السرب المتشرب بضوء الغروب قد أصبح تماما فوق الحديقة ، وشرعت أجزاء ثانوية من أجساده تحمر ، شبكات شفافة من شرايين وأوردة دقيقة ، أما الوجوه الطرية الرخوة الخيالية فقد انكفأت على ستراتهما ومثلما البطون الأكثر رقة والاطراف المطوية ، كانت الجباه البارزة قد تلونت بضياء بنفسجي متقلب .

كان نصف المساء المرئي قد احتجب : حينذاك ، من جديد ولزيادة الضيق المتضخم الذي كان يحقق بكل منهم ، حينما بلغ النسق الأول كله ذروة السماء ، قبالة المتفرجين الذين كانوا يسمعون جلبة الاجنحة السوداء ويحسون بالخط المعادي يكاد يصل مستوى الخط الفاصل بين فصوص أدمغتهم تلك التي فككها الخوف ، حينذاك تماما هدات الريح فجأة وتجمد السرب . الحركة الوحيدة التي ظل المتفرجون يرونها حينذاك انما هي حركة الشمس التي كانت تغوص خلف الافق لتختفي فيه ، ولينعكس زوالها المهيب أطيافا من الفتور والاسترخاء فوق رؤوسهم . كانت عيونهم ما تزال ثابتة ترصد ردود أفعال تلك الاشكال ، ترصد تغيراتها الوعائية ، ترصد خفقات اجنحتها البنفسجية المشدودة وهي تخفق بالإيقاع نفسه ، كما لو أنها تستمد دماء قلوبها من مصدر واحد وحيد . أما الجهة المقابلة للشمس فكانت قوسا من عمود فقري ، هو أيضا يجسد التماثل المطلق : الرمادي الفاتح والازرق المبقع . في حين غدا خفق الاجنحة ، وهو مصدر الاضطراب الوحيد ، ضعيفا واهيا الى حد يكاد يبلغ درجة التوقف ، بينما كان النسق المتباطيء يحط على عاصمة تنتشر فيها أضواء النيون التي لم يحمل لها المشهد أية راحة في ذلك الممر الغائر الذي عاد الى الانغلاق .



استعاد زاشي رباطة جأشه بعد الصدمة التي سببها له ظهور رباعي الكارتل لكنه ظل جاهلا ما يجري فوقه في السماء . تذكر العادة المتبعة في عمله منذ اللحظة التي اختفى فيها الرباعي تماما فوبخ رجال جوقته ثم أمسك مكبر الصوت بنفسه وشرع يفني :

في البدء كان شراب الجنة والرحيق
تحويهما لوزة هند عسجدية
فلتبارك الآلهة التي لوتت الكون
بأشد الألوان وردية

وكما هي العادة ، حين تتغير البرامج على نحو مفاجيء وسريع ، وتبقى ايريز
مختبئة داخل القسم السفلي من لوزة الهند ، كانت ما تزال هناك لا تعلم شيئا
عما يجري . بدأت تحك الغطاء حكا رقيقا لكن حين لم تلق جوابا ، بدأت تدق دقا
عنيفا . أما صوتها الرقيق الذي كان دورها يقضي بأن يكون كذلك دائما فقد اختفى
كلها حين بدأت تصرخ :

« دعوني اخرج ، دعوني اخرج ايها السكرون العرييدون » .

اكتمل النصاب وبدأ الاجتماع .

فجرب المصلح دعابته لذلك اليوم « آه ، لو ان منسقنا يمثل للنظام بسهولة نفسها ، ها . . . ها » ، غير ان احدا لم يضحك . ولعل السبب الاعمق في عدم الضحك هو ان الهيئة كانت ترى فيه عقابا لها وكان حضوره يثير السخط . اذ ان قرار الكارتل بارسال مندوب عنه لمحاسبة مستخدم عمومي احمق ، إنما كان يدل على انه فقد كل ثقة بالناس ، رغم ان فكرة الخطر ، ايا كان ، لم تراود ذهن أحد من الاعضاء ، فمن تراه يستطيع تهديد الكارتل ؟ ورغم ان الرئيس لم يستطع فهم الاهانة التي وجهت الى الكارتل في الاسبوع الفائت وفي عقرب داره ، لكن بالنسبة اليه ، كان للمسألة جانب شخصي . ولايمانه الشديد بالدبلوماسية الخاصة ، التي برهنت على ان من تعرفه تملك اذنيه . . . فقد بحث عبر أحد الوسطاء رسالة بخط يده ضمنها صرخة احتجاجه الخافتة الى الكارتل « اسمح لنفسني ، انا رأس الدولة والمسؤول عن الادارة القائمة ، ان اذكركم بكل تواضع ان هذا الموضوع يقلقني أشد القلق ، . . . الخ » لكن كلمته عادت بجواب مع الوسيط نفسه ، يحمل ملاحظة ملأى بالاحتقار تصفه بكل وقاحة . . . بأنه رأس الدولة الذي لا رأس له والذي ينبغي دفينه بأسرع ما تسمح اللياقة بذلك . . . الخ كذلك كان في سلوك المصلح ما يوحي تماما بذلك النوع من الموظفين الخدوعيين الانتهازيين الهووسين بالسلطة . . . الخ . . . القادرين على ارسال مثل هذه الملاحظة الوقحة والغبية .

لكن ما يثير الدهشة هو : كيف صارت هذه الملاحظة الوقحة التي سلمت باليد ، مصدر النظرات الشزراء والقهقهات الساخرة في علب الليل والكازينوهات حيثما ظهر هناك أحد أفراد الجيش مع صاحبتة ؟ العزاء الضعيف هو ان الدعابة ارتدت بسرعة بالغة الى اصحابها . بقي الاسم . فقد وصلت الى جمعيات الكاكاو ، الجهات الاقليمية المتفرعة من الكارتل ، عبارة الجيش الذي بلا رأس . وهكذا بين عشية وضحاها ، أصبحت شخصيات كانت رهيبة من قبل موضع سخرية واستهزاء . لكن مع ذلك لم يكن الكارتل موضع سخرية ، وقد رفض الرئيس أن يسمح لنفسه بالتبسم ابتساما بلهاء لم تكن لتنجح بتفطية غطرسة المصلح الذي جاء يمثل الكارتل .

كم هو متبجح ! قال الرئيس لنفسه ، كم هو متفطرس ! هو الذي يعمل لاناس اجلاف يبقون انفسهم على مبعدة ، هو الذي يستغل السلطة ، مسلحا بكارتل يملك زمام الامور . راح الرجل يبدل موضع اوراقه دون أن تكون ثمة حاجة لذلك ثم تكلم

وكانه يقرأ من كتاب « لقد أعطيت لنفسي الحرية في أن أنسخ نسختين من كل تقرير من هذه التقارير وكذلك من مخططات البيع . وبذلك يمكن للمنسق أن يشرح كافة الوثائق اثناء طرح الاتهامات . فنحن لا نريد أن يشكو من عدم معاملته وفق أنظمة القضاء والقوانين المرعية أو وفق العدالة الطبيعية » .

أغمض الرئيس عينيه ثم صلب يديه على بطنه ، فأكمل السكرتير تلك الحركة للصبر الذي لا ينفد برفع حاجبيه ومط عضلات فمه . لقد تعرض للهزيمة في المناوشات الأولى : حين جاء المصلح بنفسه الى صالة الاجتماع للاشراف على تطبيق التعليمات وأصر على الجلوس في الكرسي الشخصي للرئيس تماما في منتصف طاولة الاكاجو (١) : « حيث يمكنني أن أنظر بعيني الى هذا الانسان الخطر » . المح السكرتير الى أن هذا هو كرسي الرئيس ومكانه الخاص لكنه رد بنظرة الموظف الجليدية : « أنا لم أجيء كمراقب ، بل للاشراف على تحقيق جدي » . الآن كان يشرح بالعواطف نفسها تقريبا لأعضاء الاجتماع « أن تكرمتم ... أوه ... أعطيكم اليوم نوعا من موقف المراقب ، ايها السادة ، اثناء المحاولة التي سأقوم بها لتطبيق طريقي الخاصة في هذا التحقيق الحاسم ... » .

أبعد الرئيس عن بطنه يدا محملة بخواتم ثقيلة من صليب الشهيد ثم دل على لامبالته بحركة غامضة مرحة .
- تابع ، تابع ، كما تريد ، قال الرئيس وعيناه ما تزالان مطبقتين خروجاً على الأدب .
- لن أنسى ذلك ، وعد الشاب .

ثم القى نظرة من حوله وقد داخلته الريبة في أن هؤلاء الناس يمشون جل وقتهم اثناء الجلسات النادرة التي تعقد وهم يشخرون في نومهم أو يقضمون الكولة (٢) ، بعدئذ قرر أن يقلع عن التفكير بهم . الف توصية وتوصية تتعلق بمستقبل الرئيس كانت تدور في رأسه وتحمل له شيئاً من العزاء . أخيراً التفت الى السكرتير :
- دع المنسق يدخل .

فاستدار السكرتير المخلص باتجاه الرئيس أولاً .

لم تكن عينا الرجل المبجل مغمضتين تماما ، كما أراد من المصلح أن يظن ،
فأحنى بكل جد :

- أجل ، أعتقد أننا جاهزون . دع السيد أوفي يدخل .
بعد ذلك ، أمسك المصلح بزمام الاجراءات تماما .

(١) خشب ليمين يميل لونه الى الاحمرار .

(٢) نوع من الشجر ثماره تحتوي على مواد منبهة .

دخل أوفي الصالة في الوقت الذي كان فيه السكرتير يفتح الباب ، ثم توقف لتسليمه مغلفا فالتفت السكرتير باتجاه رئيسه كما لو أنه يسأله عن امكانية تقبل هذا الانحراف الصغير عن خط الاجراءات المألوفة ، لكن الرئيس كان قد عاد لاتخاذ وضعه السابق ، وكانت عيناه هذه المرة مغمضتين فعلا . اذ سبق له ان رأى أوفي بما يكفيه بقية حياته ، بل بما يكفيه ويزيد . أغلق السكرتير الباب ، ثم ألقى نظرة على المغلف للتأكد من انه لا يحمل عبارة « رسمي » او « عاجل » بعدئذ عاد الى مكانه في طرف الطاولة .

— اجلس ، سيد أوفي .

ثم انتظر الى ان كف المقعد عن الصرير .

— من الواضح ، أنك لا تعرفني . لقد كلفت بهذه المهمة من قبل المكتب المركزي . وانا هنا بمعرفة الحكومة العسكرية وموافقتها التامة وانني سأقدم تقريري لمجلس الوزراء حين أنتهي من تحقيقاتي . قائد المنطقة مهتم شخصيا بهذه القضية . وهو يعتبر أن من واجبه أن يتدخل حين تهدد اية أزمة الاطراف المعنية مباشرة . وانه ليؤسفني ان أعلمك ان هذه هي الحال في الوقت الحاضر . فالوضع الاقتصادي في البلاد مهدد وغير سليم . ونشاطاتك ، يا سيد أوفي ، بدأت تثير الكثير من الهموم لدى المجتمع وكذلك لدى الحكومة .

بعدئذ وضع حدا لاستقباله المشع هذا ، باختياره مخططا مصورا وتقديمه

لاوفي .

فتفحصه أوفي وهو يتساءل في سره ان كان لم يرتكب خطأ في تخليه عن فكرته الاولى في عدم حضور الاجتماع . لكن تحول الممثل الشخصي لقائد المنطقة (الذي كان أوفي يعرفه تمام المعرفة) الى مصلح الكارتل كان قد خدعه . فبعد ان وضع كتاب استقالته بين يدي السكرتير ، طفى عليه حب استطلاع شديد في ان يعرف موقع المصلح الحقيقي . اما الآن فقد كان يتساءل ان لم يكن قد رمى نفسه بيديه في شرك من الاشراك . بدأ أوفي يتلاعب بالمخطط البياني ثم انتظر .

فتابع المصلح :

— يمكننا القول إن هذا المخطط يمثل واحدا من الموجودات في دفتر حساباتك (ثم كشر مبتسما وهو يلقي نظرة على من حوله) هذا اذا سمحت لي باستخدام الاستعارة التي يعرفها كل منكم بالتأكيد . انه يكشف عن الانخفاض الشديد في النفقات العامة مذ أصبحت القيم المسؤول عن حملة الكاكاو لصالح الهيئة . كما افهم أنك الغيت من المراكز اكثر مما ينبغي وانك أردت شخصا ان تقدم كتابات دون اجر اضافي . وبالطبع ، فانك بحرمانك أولئك الناس كلهم من متعة انهم في وظائف بلا عمل ، خلقت لنا ، ولا بد ، الكثير من الاعداء . تلکم هي طبيعة البشر والعالم كله يعلم ذلك . لهذا

السبب بالذات وكدة طويلة من الزمن ، لم نشأ ان ننشر قضية التقارير المشؤومة التي وصلتنا عن نشاطاتك . . .

قطع أوفي الصمت .

– ان تسمحوا لي بتقديم اقتراح ، لا اهدف منه الا الى اختصار الجلسة . . .
– لحظة سيد أوفي ، انني انا من يقود التحقيق وانا لا اجعل اجراءات الدعاوى قط ، كذلك اود ان اؤكد لك أنه لا مصلحة لي البتة في ان اجعل الجلسة تدوم اكثر مما ينبغي .

فاعترف الرئيس على مضض ، هو الذي كان يجلس بجوار المتحدث ، ان السلوك الذي كان يسلكه مع أوفي الذي كان في نظره أدهى موظف قابله في حياته ، هو سلوك جليل حقا . بعدئذ تابع ممثل الكارتل :

– انني ادقق في هذه التفاصيل على نحو خاص لكي اؤكد لك ان لدينا تفسيراً كاملاً عن نشاطاتك خلال الحملة الاعلامية التي شنت في البلاد وهي نشاطات بعضها صحيح وبعضها مشكوك فيه فعلاً . وانا اعتقد ان من واجبي ان اقول لك لماذا لم نأخذ بالحسبان حتى هذه اللحظة معظم هذه التقارير . فالنتائج كانت ايجابية والبلاد استجابت لحملة الكاكاو بفضل روحك العملية . لكن منذ الآن فصاعداً ، لن نعتمد بعد على الاسواق الاجنبية التي تفرض علينا أسعارها . بل للمرة الاولى في تاريخ مزارعنا ، قمنا بتنظيم سوق داخلية كبيرة . (ثم توقف ، مقلبا أوراقه ، مخرجا بعد ذلك مخططات أخرى قدمها لأوفي) . ولعلك تود ان تلقي نظرة عليها سيد أوفي . فهنا ستجد الاثبات على كل ما قلته الآن .

غير ان أوفي دفع المخططات بعيدا بحركة من يده ثم أعاد له المخطط الاول .
– لا لزوم لذلك . فنحن جميعا نعلم قصة الكاكاو بيكس والكاكاو ويكس (١) .

هنا لوح المصلح برأسه .

– انني اتساءل ، سيد أوفي ، ان كنت تعرف الأبعاد الحقيقية للصناعة الكبيرة التي تطورت انطلاقاً من مائة من منتجات الكاكاو في طول البلاد وعرضها وكذلك المئات الاخرى التي هي في طريقها للانتاج في هذه اللحظة التي أحدثك فيها .
– انا اعلم ذلك كله . بل اعلم أيضاً اين يذهب الأرباح كلها ، لكن ما نجله هو اين يختفي العمال ، المحرضون المزعمون .

ابتلع الرئيس لعنة من لعناته على عجل ، سرعان ما تحولت الى نوبة سعال شديد خيم بعدها الصمت . ارتد المصلح الى الورا في كرسيه ثم شرع ينقر انفه بقلم الرصاص بحركة متكررة لحظات من الزمن كان يعيد فيها التفكير بتكتيكه . خلال ربع دقيقة كان قراره قد اتخذ ، فقال بابتسامة باردة :

(١) من مشتقات الكاكاو .

- سيد أوفي ، يمكن لتحقيقنا أن يتكشف سريعا عما لا يرضيك ، فاسمح لي
ان اطرح عليك مباشرة هذا السؤال :

- هل انت نفسك ، وحسب تغييرك ذاته ، واحد من المحرضين ؟
- كلا .

- بالتأكيد كلا . فما من أحد يعلم قط انه متمرد . اذن دعني اطرح عليك
السؤال بصورة أخرى : هل انت شيوعي ، ام ماركسي ؟ ام تقول فقط انك اشتراكي ؟
- انا قرأت ماركس ...

- انا ايضا قرأت ماركس يا سيد أوفي ، قاطعه المصلح ، فلا تلف حول السؤال .
بعد ذاك خيم الصمت بضع لحظات من الزمن .

- بما انك تقر بمعرفته ، فأنا لا أرضى أن يدس المرء النشارة المعطرة في
الكاكاو ..

هنا خرج الرئيس عن الصمت الذي فرضه على نفسه وانفجر قائلا :

- ما هذا الذي تقوله أيها الشاب ؟ من يدس النشارة لمن يا رجل ؟

- الكاكاو بيكس والكاكاو ويكس . هذا ان تركنا جانبا الكاكودين الذي لم يكن
الحصول عليه الا واحدة من مئات المنافع المحسوبة على الهيئة .

هنا خفض المصلح زاوية شفته محملا اياها اكبر قدر يستطيعه من السخرية .

- انا اعلم أن الناس يعدونك عبقريا في قضايا الاعلام ، سيد أوفي ، كما سمعت
انا نفسي اشياء كثيرة عن أغانيك ، عن ألحانك الاخاذة فعلا ، لكنني كنت أجهل مواهبك
التي تمتد حتى علم الفداء والدواء .

- لا ، قال أوفي ، لكنك تدرك جيدا أنني كلفت نفسي مشقة استشارة الاخصائيين
الذين أجروا التحليلات والذين تقول تقاريرهم كلها ...

فدق مندوب الكارتل بجمع يده على الطاولة ..

- يجب أن أذكرك أننا نحن أيضا لدينا كيميائيون منتقون ، مجربون وموثوقون
لدى الحكومة . واننا لنفضل تقاريرهم على تقارير أصحابك البائسين أولئك الذين
ربما جاؤوا بشهاداتهم من موسكو !

هنا ساد الصمت مرة أخرى ، بعد ذلك علق أوفي :

- لاحظ انك لا تكف عن قول « نحن » . هل يمكنني ان أسالك لماذا ؟ فقد كنت

اعتقد أن هذه القضية لا تهم الا جهة خاصة ، هيئة الكاكاو . ألسنت هنا وبكل بساطة
مجرد ... اوه ... حكم بعثته الحكومة للحد من الصراع بين المستخدمين
والمستخدمين ؟ أليست لديك مسائل أخرى ينبغي حلها ؟

هذه المرة ساد صمت اطول من كل مرة ، شرع المصلح في نهايته يرتب اوراقه في مصنفاتها ، ودون ان ينظر الى اوفي قط التفت نحو السكرتير الجالس في الطرف الآخر من الطاولة ثم قال :

— انتهى التحقيق . يمكن للمنسق ان ينصرف .

فنهض اوفي ثم اشار بحركة من يده الى كدسة الاوراق امام السكرتير ثم قال : « استقالتني موجودة لدى السكرتير » . بعدئذ هم بالانصراف ، لكنه لم يتجه نحو الباب الذي فتحه السكرتير على مصراعيه . بل شرع يلوح بيده للعيون المندهشة التي كانت تلاحقه وهو يسير في الاتجاه المعاكس اشارة احتجاج رغم انها لم تظهر اكثر من محاولة اولية ممطوطة .

بعد ذلك اضطرب هدوء الصالة فجأة : فقد عاد السكرتير على عجل متجها نحو الطاولة كي يأخذ كتاب الاستقالة فيما انتصب الرئيس في كرسيه وعليه سيماء الدهول اكثر من سيماء الاحتقار بينما كانت عيناه تلاحقان اوفي وهو يتعد . كان ازدراء المصلح ينصب على سبب هذه الكارثة كما كان يتساءل لم تحاك الكثير من القصص من اجل حركة معروفة مسبقا من قبل انسان من ذلك النوع الكلاسيكي كاوفي . اخيرا وجد الرئيس ما يقوله :

— ليس باستطاعتك ان تدخل هناك يا صديقي . استخدم الباب الرئيسي .

لكن اوفي كان قد وضع يده على مقبض الباب الخاص بقاعة الاجتماع .
— ان لم يكن في هذا ازعاج لك ، سأستخدم اليوم هذا المخرج .
— قف !

جاء الامر هذه المرة من المصلح . غير ان اوفي لم يعره اي اهتمام بل مضى في طريقه الى ان اختفى .

هنا جاء دور محقق الكارتل كي تبدو عليه علائم الجنون . فقد وثب من كرسيه ، دار حول الطاولة بسرعة البرق ثم فتح الباب الرئيسي وراح يجري . سمع الحاضرون جلبة خطاه وهي تقف على الدرج ثم صوته وهو يرعد عبر الردهة الخاوية في الطابق الاسفل :

« ايها النقيب ! ايها النقيب ! »

اما حول الطاولة فقد اصر الاعضاء المدهولون ، الذين كان بعضهم قد افاق قبل قليل على مجريات الاجتماع غير الاعتيادية ، على ان يعرفوا ما الذي يجري كما كانوا يتساءلون ان كان سيحدث اطلاق نار . . .

بعدئذ ، دخل القاعة بسرعة الريح ضابط يرافقه جندي مسلح برشيش ، ثم سأل بهيئة تهديدية :

— من منكم السكرتير ؟

وفي الحال اشارت ثمانية أزواج من الاكف الى الشخصية المرتعشة ، فسدد
الجندي ريشيشه عليه فيما صرخ الضابط قائلاً :

— أرني باب الخدمة !

— نعم سيدي ، قال السكرتير بصوت أبح ثم اسرع الى الباب الذي كان اوفي
قد استخدمه . بعدئذ سمعه الحاضرون وهو يكرر « نعم سيدي ، نعم سيدي ، نعم
سيدي » ، دونما توقف وهو يعبر القاعة الطويلة ليخرج من جديد عبر المخرج الآخر .
استعاد الرئيس هدوءه ، وقد أدرك أخيراً ما يجري ، رادا ذلك الى الفعالية التي
ما فتىء الكارتل يبرهن على امتلاكها فوجد في ذلك بعض العزاء . . . دخل المصلح بخطا
سريعة ثم عاد وخرج من باب القاعة ، اثر الضابط والجندي ، بينما اتخذ الرئيس
وضعا جديداً ، وضع الراضي هذه المرة ثم تنفس الصعداء قائلاً :

« لا ضير في الانتظار » .



كانت المصقة تفتقاً له عينيه : « أفيقوا بلون كلون الكاكاو » . انها من عمله وهي
تثير في نفسه الرغبة في التقيؤ . فأسوا ما في الامر أنه كان هناك طيف ايريز وهي تخرج
شبه عارية من سرير النوم . وهكذا ، بدأت أصابعه بالاشعور ، تفتش في جيوبه بحثاً
عن تلك الشرائط من الورق التي كان يحملها معه عادة للصقها على الكلمات الاربع ،
تاركا عبارة مقطوعة يمكن للمرء أن يفسرها على شكل رسالة تخريبية . وفي سمعه
تردد صوت مدير الذاتية الذي سخر منه خلال محاولات سابقة :

« كنت أعلم أننا اخترنا الرجل المناسب لهذه المهمة . بإمكانك أن تسأل ايا من
الحاضرين حول هذه الطاولة : ولسوف يقول لك الشيء ذاته . الحقيقة ، كنا نرغب
بأفلام ملونة جميلة كي نقول للناس كم هي جميلة حضارتنا ، حضارة الكاكاو . كنا
نرغب بنساء جميلات جميلات وهن يرقصن على موسيقى جميلة جميلة . واسرة سعيدة
وجميلة جميلة تجلس الى الطاولة في ردهة جميلة جميلة . لقد سبق وصنعت من
الكاكاو « الواجب اللازم » لكل أسرة . الآن ، حتى زوجتي تستيقظ في الصباح وهي
تغني وفي يدها كأس يتصاعد منها البخار : أفق بلون كلون الكاكاو ولسوف تكسب
لنا النقود ها ها ها . . . ها ها ها . . . » .

وحين تدمر لآهيم من أنه يحس بنوع من الامتحان لواهبه ، لم يحصل منه
الا على هزة كتف .

— الغذاء مقدس ، والكاكاو غذاؤنا .

— والكاكاو بيكس من الغذاء ؟ تساءل ساخطا ، فقد خلق لدى البعض من الناس
تعلقا خاصا بهذا المنتج وبالنشارة الاخرى المعطرة بالكاكاو . وما يجنيه المزارع يأخذه
الكارتل مقابل النشارة !

من جديد ، التفت باتجاه المصققة ثم قال لنفسه ان ايريز تشبه الفداء الذي يأكله والذي ينتجه بمعنى من المعاني . ثمّة ضوء وحيد في جناح طويل من المقصورات ، فاتجه نحو المقصورة التي تشغلها . لا ، لا يمكن لجواسيس الهيئة أن يفكروا بالبحث عنه ، فهي تسكن خلية من خلايا قفير عميق الفور لديه تجربة طويلة في نظام الانذار السريع .

المحاولة الاكثر صعوبة التي كان باستطاعته ان يقوم بها للتأكد فيما اذا كان مطارده قد لحقوا به ، هي ان يقوم ببضع خطوات ، يجتاز بها الممرات المعتممة والساحات التي تنتشر فيها رائحة البول كي يختبئ في زاوية من الزوايا بانتظار مرور الخطر . ايريز هي ملكة القفير . وعندها سيجد الامان ، تحميه متاهة من الاشارات والممرات التي تعرفها العاملات .

تصوره لذلك الوجه الشاحب هو الذي جعله يشعر بالفثيان . انه وجه ذلك الرجل الضخم الجثة مسؤول الذاتية : « آه ! نعم . نحن نعلم جيدا انك تجمع بين شؤون العمل والمتعة الشخصية ، لكن اترانا نلومك على هذا ، سيد أوفي ؟ اترانا نتهمك بمحاباة الاقارب ؟ كلا ، مطلقا . فهذه هي النتائج التي يواجها رجال مثلك ذوو مواقف ايجابية . النتائج ، يا سيد أوفي ، النتائج ! من تراه ينكر ، وهو بكامل وعيه ، أنك ، خلال بحثك في طول البلاد وعرضها ، لم تستطع ان تختار اميرة الكاكاو الافضل ؟ الناس يعرفون ذلك في كل مكان ، اذن ، من تراه يبالي بالعلاقات الخاصة التي تربطك بالورقة الراحبة الافضل في المجتمع ؟ لكن مرة اخرى أسالك : اترانا نتهمك بمحاباة الاقارب ، سيد أوفي ؟ بالحقيقة ، كثيرا ما أفكر بالاتهامات التي سقتها ضدنا ! وتلك التي سقتها ضد أناس محترمين كأعضاء مجلس الادارة أولئك الذين يجلسون حول هذه الطاولة . . . » .

حين وصل الى حدود القفير الذي تعيش فيه ايريز ، بدأ أوفي يسير بخطوة اكثر نشاطا ومرحا . كما بدأ ينددن واحدة من الاغاني التي اخفق أشد جواسيس الكارتل حماسة في تعقب أثرها في حينها والتي عجزوا بعد ذلك عن القضاء عليها ، فقد حققت في الحال انتشارا شعبيا واسعا ، يعود بمعظمه لايقاعها السريع والمدواني وكذلك لكلماتها السهلة الحفظ . اجتاز أوفي الجدول واثبا ثم عاد واجتازه من جديد محاولا أن يضفي على نفسه الشجاعة والطمأنينة وهو يفني تلك اللازمة المرححة ، في رأسه زاشي وجوقته ، جوقة بزور الكاكاو ، وقد انطلقت بالحانها ترافقه .

من هو صديق المزارع ؟

مبيد الحشرات .

ما الذي يقضي على الطفيليات ؟

التدخين .

قدم منتفخة ، بطن منتفخة
انك ترشف كل ما تعد للشراب
والارض دنست ، والافعال أنتنت
لا ، لا بد من حرقهم جميعا !

« لماذا القدم المنتفخة ، سيد أوفي ؟ سنوات طويلة مرت قبل أن نزيلها ، ولم يعد على الشاطئ الغربي كله قدم منتفخة واحدة ، ولا قدم على الاطلاق . فمنظمة الصحة العالمية نفسها أعلنت أن شاطئنا تخلص نهائيا من هذا المرض ، اذن لماذا نرعب المزارع المسكين دون ضرورة لذلك ؟ » .

استعارة بسيطة كان أوفي قد استخدمها لطمأنة الهيئة . فالقدم المنتفخة أضحت المصطلح الشائع الذي يستخدم لاي طفيلي من الطفيليات يزعج المزارع .

« حقا سيد أوفي ؟ »

ما هي قوة المزارع ؟

الساطور والمجرفة .

ما علاج الاعشاب الضارة ؟

الاجتثاث .

انتزاع المعرشات المدادات القدرات .

فهي لا تنفع في شيء ، بل تأخذ كل شيء .

لذا ، الحصيد الهاجع في مهده ،

انتزعوه !

« وهذا المقطع سيد أوفي ؟ ثمة اناس يقولون إن » .

اجتاز أوفي ممرا بين سياجين عاليين ، ممرا ضيقا الى درجة لا يستطيع المرء المرور فيه الا مواربة . ذلك الممر كان يؤدي الى ساحة مكشوفة ، انها المكان الوحيد الذي يمكن أن يشكل خطرا داخل القفير . توقف أوفي ثم تفحص جبل الغسيل . ثمة منهدة مزخرفة بالدانتيل الاسود معلقة قرب دعامة من خيزران ومألوفة لديه . عد الملاقط التي تمسكها : انها ثلاثة فدخل الساحة دون وجل وهو يصفر اللحن نفسه بأعلى صوت لديه .



في اليوم الكبير ، يوم الذروة في ذلك الاستعراض العام للحم البشري، للتجعدات المجملية ، لخصلات الشعر الاصطناعية ، لمسام الجلد المعطرة للمساحيق الملمعة ، ولفرواات الراس الميتة (وفي هذا المجال استفاد زاشي من الشعر المستعار لديه) . في ذلك اليوم الذي فتح فيه التفاؤل الصدور ، لم تكن الاثيرة ، محبوبة الجماهير ، هناك . لا ، ليست الاثيرة العادية ، بل النعمة الالهية الوحيدة ، هكذا كتب ابيور ، النعمة الالهية الاولى والاخيرة التي احال غيابها المعرض الى اشد شيء مخز على وجه الارض . مع ذلك ، حتى ابيور ، بعد سنوات من الاحتقار الصارخ المبتوث في اعمدة جريدته الصفراء ، « ضد تبرجات المراة السوداء » تلك ، حتى ابيور كان فريسة للحمي المسعورة ، ولقد بدأ ذلك منذ مباريات التصفية الاولى ثم استمر حتى مباريات نصف النهائي .

« انني اصّر على التساؤل من جديد ، » قال وهو يصرف بأسنانه ، « لماذا يتبقي أن نقلد تبرج النساء البيض ؟ » لكن صوته لم يكن قويا كعادته . والآن ها قد صار نافذا من خلال معرفته ما كان يقوله لنفسه في عالم المهربات حيث كانت مهنته تقوده للتفكير مليا ، للاستمتاع مع الرجال العزب ، لاكتساب الدرع التي تلبسها حشرات الجلالة « اين سيليست » كان صوته يهتف .

بلا انذار ، بلا سبب ، كانت « سيليست اليقين » قد اختفت ، وهو مشهد اوحى له في الاعماق ، بازدراء تحول الى شعور بالخزي والشؤم .

لقد ندبها في اعمدته الصحفية ، ملاً صفحات كاملة بسطور دقيقة سوداء زعم فيها ان الجمال قد قضى نجه ، ثم بلغ ذروة القنائية الصحفية النواحة التي كانت من اختصاصه حين كتب : اين تراه ذلك الوجه المشع الذي ينيرنا في اغوار القبح الكونسي ؟ وفي اسفل صورة خزينة وحلوة لوجه الملكة القنائية كتب : « سيليست اليقين ! » .

متصيدو سيارات الادغال ، رجال الاعمال ، الموظفون المتكتمون ، الدبلوماسيون واصحاب الحوانيت ، كلهم كانوا يقولون الشيء ذاته : اين المشعة (١) عبارة واحدة كانت تتكرر . الحمالون ، باعة الصحف ، العملاء المأجورون ، نساء السوق ، الباعة الجوالون ، عقدااء الجيش ، المهربون ، الوعاظ ، باعة الطرق العامة ، الطلاب ، كلهم

(١) اي ايريديسنت : احد القاب ايريز

كانوا يهزون رؤوسهم ويقولون ان وراء الاكمة ما وراءها . والكل كان يشير باتجاه ابيور ، فهو الذي خطط ودبر لقول ما يقال ، اذ كان اول من لفت الانتباه اليها ، وهو المشهور بعدائه للمرأة . فمقالاته الروحية والعاطفية ، المتوقعة لكن العاطفية قبل كل شيء ، هي التي اطلقت العبارات التي غدت اساسا للاسطورة . . « انا احتقر النساء » ، هكذا كتب ذات يوم ، ومن واجبي أن احتقر النساء لسبب واحد : هو ما هن عليه ، لكن حدث لي ان التقيت بامرأة ليست ككل النساء . وحين اختفت اقسام لقرائه أن يبلغ اساس ذلك السر حتى ولو أنه لم يفلح في بلوغ اساس فائقته . لكن في المرة الاولى التي دخل فيها مشرباً بعد كتابته مقالته تلك كي يطفىء ظمأه الصحفي ، اخذه ثلاثة طلاب الى حفل وعاملوه اسوأ معاملة . اذ ينبغي الا يجعل سيليست موضع عيب ولهو .

بعد ذلك ، وعلى نحو مفاجيء ايضا ، عادت ايريز وظهرت من جديد ، دون أن تقدم تفسيراً او ايضاحاً ودون أن تبدي اي دليل على أنها كانت على معرفة بالضجة التي أحدثها غيابها . « أين كنت ايريز ؟ » كانوا يسألونها فتكتفي بأن تجيب : « ها انا ذي امامكم » . تقبلت ايريز فروض الولاء المعتادة . وكما كان يحدث صار السكون يسود حين تظهر في بارات الفنادق وكما كان شأنها في السابق ، كانت تدفع الدبلوماسيين لارتكاب الحماقات .

« لكن أين كنت يا ايريز ؟ »

من حين لآخر ، وازاء استشارة خفيفة او مقصودة ، كانت تنطلق النمرة المحبوسة التي تسكنها من عقالها ، النمرة التي كانت تقاوم فوج مكافحة الشغب أو رجال الاطفاء وهم يضربون الحصار الذي كان يدوم طوال الليل ولا ينتهي الا في اللحظة نفسها التي تصل فيها الى السلم ، او كرسي المرحاض ، او حتى السرير حيث تفرق في سبات عميق . انهم رجال الاطفاء الذين أطلقوا عليها اسم براندون ، وقد بقي الاسم ثم اندمج بالرصيد الوجداني لاسطورتها .

« أين كنت يا ترى ؟ »

فاستندت الى مرفقها ثم حدقت النظر الى اوفي النائم بجانبها ، اذ لم تكن تتوقع منه ذلك السؤال .

— أنت مضحك ، مثلك مثل كل الرجال ! ابعد هذا الزمن كله . . .

— أين كنت ؟ وأنا لست من اولئك الرجال .

— لكنك تريد أن تعرف ؟ تريد أن تعرف كل شيء .

— قولي لي أين كنت ؟

— الشمس اشرقت فتبخرت كما يتبخر الندى .

— أعلم انك كنت تلميذة جيدة ، لكن أجيبني على سؤالي .

- كنت أعيش أسمي (١) .
- انسي الندى على الاقداح وأجيبني على سؤالي .
- والندى قام بنصف دورة ثم اختفى ...
- فصعد أوفي آهة .
- اقر وأعترف أنني أؤخذ أحيانا، بسحر اسمك الذي يحوي الكثير من العذوبة لكن ...
- هزت ايريز رأسها فجأة فوق وجهه فأحس في الحال بقطرات من الببل .
- وها هي ذي بضع قطرات من ندى البرداء عسى ان تهدئك بعض الشيء .
- ذلك الجهد استنفذ كل ما لديها من طاقة على ما يبدو ، فسقطت على السرير من جديد .
- لكنك ترتعشين . أهو البراندون الذي يشعل من جديد اللحم الميت بشراراته المتطايرة ؟
- اعتقد أنني مريضة ، أعلنت ايريز .
- وفي الحال اسرع أوفي الى رأسها يخبئه تحت ذراعه ، ثم سحب الى صدره جذعها المبلل وطوى ركبتيها بين فخذيته ، شيء ما كان يجعلها ترتعش ، شيء ما أحس به أوفي فأدرك أنه ليس بالبرداء قط . مع ذلك كان لا بد من أن تمر بضع لحظات قبل أن يفهم ما قالته اثر ذلك مباشرة .
- يريدون قتلي يا أوفي .
- وحين استوعب ما قالته ، سألها :
- من يريد قتلك ؟
- الرئيس بيغا .
- ذلك القامر ؟ انه رجل الكارتل القوي . لكن ما تراك فعلت له ؟
- لاشيء . لقد هددني بأن يحرق وجهي بالحمض ، فقلت له الافضل أن يقتلني .
- لكن لماذا ؟ كفي عن التكلم بالرمز . ما الذي رآه ليدب ... ؟ (ثم لطم جبهته)
- طبعاً ، طبعاً ، انه الرهان ؟
- أحاطها بذراعيه ثم غطاها بغطية كاملة . فأحس بارتعاشها تزداد وبجسمها ينكمش ويتشنج .
- ما الذي جرى تماماً ؟
- لقد اكتشفت في وقت لاحق أن ذلك حدث لانه خسر آلاف الليرات في القمار . في تلك اللحظة تماماً كنت أنا ، خاتمة ملكات الجمال ، أمر ، وكان الناس

(١) في لغة اليوروبا : ايريز تعني : « الندى الذي يتبخر »

جميعا على ثقة تامة من أنني سأكسب . على هذا النحو جاءت الفكرة على ما اظن .
اذ كنت في الفندق فجاء احدهم يدعوني قائلا لي ان القائد الكبير يريد ان يراني فذهبت
اليه . كان الرئيس بيغا في شقته الانيقة يحيط به اربعة او خمسة من عملائه . فهل
تدري ما قال ؟

- تابعي .

- بسط احدي كفيه ثم قال : « هاهي ذي ! مائتا ليرة نقدا » ، بعدئذ فتح
الكف الاخرى ثم قال : « هاهي ذي ! تشوهك مدى الحياة » وكان يحمل في تلك الكف
زجاجة صغيرة كل الصفر . بعدئذ ابتسم تلك الابتسامة الدبقة التي تعرفها وقال :
« سيليست أريدك ان تفيسي فترة من الزمن . سيارتي البونتيك تنتظرك في الخارج
كي تقلك الى نزل خاص املكه في الكروس ريفر ، انه تحت تصرف الاميرة . لقد دفعت
كل شيء لمدة شهر . الشراب والطعام » .

فأدركت في الحال وبكل وضوح ما يجري . اذ لم يكن علي الا ان أتذكر اي مقامر
لعين هو :

- لكن لماذا ترتعشين ؟ فهذا كله قد مضى وانقضى .

- انا خائفة يا أوفي . قل لي ان لا اقوم بهذه الجولة الجديدة .

- ايريز . . . !

- قل لي ان لا اذهب الى هناك . فأنا لا اريد المزيد من الغياب .

- حسنا ، لا تذهبي .

- ابدا لم اشعر بمثل تلك الوحدة من قبل . لقد وضع حراسا على بابي
لا يفارقونه ليل نهار . كان ينبغي ان يكسب الملايين من اللعب . ولم اكن اخرج قط .
لم اكن ارى انسانا قط . وها انا ذي قد اطلعتك . . فقد كنت أشتهي الموت .

- حسن ، حين يصل أعضاء الجوقة سادعهم يدخلون . اذ لا يمكن لامرئ عاقل
ان يراك في مثل هذه الحال من المرض والحمى ويطلب اليك الذهاب الى العمل .
فمهما يكن جاهلا يمكنه ان يرى أنك تعانين من التهاب رئوي ، من ذات جنب وما
لا ادري ايضا .

- وما ذات الجنب هذه ؟

- لا يهم . كل ما أعرفه أنك أشد مرضا من ان تسافري .

بعدئذ سمعها توشوش بصوت واطىء تماما : « لا ، مرتاعة كثيرا فقط » . ثم
أحس بها ترتعش من جديد . ولم يكن ثمة مجال للخطأ ، فقد أحس في داخله بخوف
أعمق بكثير من خوف الذكريات . كان يشعر أنه أعزل . وخلف ذلك ، تملكته رغبة
شديدة مفاجئة في ان يهددها ، أن يغني لها أغنية كما لو انها طفلة صغيرة ، لم يكن
يدري كيف يصد الليل الذي كانت مخاوفه قد أثارته والذي كان يقف كالحاجز بينها

وبينه ، مشؤوما مفعما بالمخاطر والويلات . الكلمات التي يمكن أن تهدئها غص بها دون أن يستطيع قولها لها . حبه ، ذلك الترس الواقي ، تكشف عن عدم فعاليته ، محولا إياه الى مجرد رفيق للمعاناة ، تلك المعاناة التي كانت محسوسة الى درجة كان باستطاعته أن يلمسها في كل مكان حوله ، هي التي كانت تقلق ايريز على نحو خاص اذ رغم أن مزاجها كان شديد التقلب ، لم تكن تعرف يوما مثل هذه الهواجس . كانت عيناها اللتان ضخمتها الحمى وجعلتهما أكثر اشعاعا ، تحدقان اليه تلك التحديقة الثابتة التي بدت له وكأنها تغور الى الاعماق ، تتفحص لب حدث لم تكن تستطيع الامساك بتفاصيله . بعدئذ أحس أوفي بأصابعها تنغرز في ذراعه فيما غدا صوتها ناعسا تماما :

– لاتنم يا أوفي .

– أعدك بذلك يا ايريز .

كانت بشرتاها تتلامسان فأحس برطوبة العرق ، وكانت قد غدت اصفر واصفر وهي تتكور حاشرة جسمها في جسمه . ثم رآها تسكن ، تختفي مخاوفها فتعود مرة أخرى ايريز التي يعرفها ، ايريز اللامبالية ، ايريز التي لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها .

كانت الغرفة ، الواقعة في واحد من تلك الادوار الاكثر انخفاضا من الشارع البعيد في مأمن من جلبه السيارات وضوضاء المرور ، وكان يفصلها عن ذلك الشارع عدة منازل ومرمى للقاذورات . كانت خلية ايريز هذه تختفي هناك في اعماق واحد من أقراص القفير الواسعة ، ذلك القفير الذي كان باستطاعته ، هناك في بعض زواياه الصماء ، أن يمنحك ساعة في الصباح كان أوفي يدعوها **سكون مستخدمى المكاتب** . كانت تلك الساعة تبدأ بعد أن يغادر العمال بيوتهم متوجهين الى أعمالهم وقبل أن تنطلق ربات البيوت في رحلة التبضع ، ودوامه تسريحات الشعر ومطاردة الجواهر والحلي . في وقت أبكر يكون ثمة سكون آخر ، أوفي يحبه كثيرا أيضا : **انه سكون جماعة الشوارع** . في البداية يكون عبارة عن جلبه خفيفة ، حركة سلال وبضائع يتم تجميعها وانتقاؤها ، بضعة تقود تسقط في علبه من فولاذ ، غلاية تبدأ بالفناء ، قدر على موقد يطهى ما فيه على مهل ، وبعضهم يأكل في صمت ، حركات عقاقير ، حتى عند أولئك الذين يتناولون افطارهم البسيط ، صوت المياه الملوثة وهي تغيب في المراحيض الصباحية ، يبدو أشد جلبه مما هو في الساعات الاخرى ، فكل الاصوات تأتي مصفاة كما لو أن المرء يعلم أن الجيش الهائل من النائمين في المنزل أو الجوار يطالب بل يستحق ساعة اضافية من النسيان ، بعدئذ تتقدم الظلال ، على نحو خفي وجنبا الى جنب مع درج الحصر ونصب المقاعد التي يجلس عليها الباعة قرب بسطاتهم . وفي الطريق يكشف البعض عن اهرامات متدرجة صنعت من علب وصناديق مرزومة أمضت الليل بطوله ، السنة بطولها ، كي يخرج أصحابها من زواياها الواسعة وغير المعقولة منتجات تعرض على طبقات النضد الخشبية .

ملكات تجارة الشوارع الصغيرة هؤلاء يكن كالاتر مع اشعة الصباح الاولى قبل ان يتحولن الى مخلوقات مبتدلة وهن يواجهن عالم المساومة والتجارة ! انهن يتقدمن في الازقة كالأشباح محملات ببضائع النهار اشبه بكائنات من عالم آخر بأشكالهن السمجة التي ضخمتها عدة طبقات من الازر تلتف حول الاجسام ، وزنانير عريضة يخفين نقودهن فيها . انهن يفادرن منازلهن بهدوء تام ، المفاتيح في اقفالها يدورنها بهدوء ، بل حتى مصاريع النوافذ يفلقنها بأيد بارعة كأيدي المشعوذين ثم ينطلقن مع مولد الفجر ، يمسسن الارض مساً خفيفاً ، ساحبات اللفات الاخيرة من الزنانير حول خصورهن ، والطيات العديدة من ازهرن ماضيات لقضاء حاجات لمجهولين وفي البعيد يتلاشى وقع خطاهن . . وبعد مغادرتهن ، فان هذا السكون الذي اضطرب واختلج يعود فيخيم مرة أخرى قبل ان يفرقه السمعير العام لضوء النهار الباهر .

صباحا تلو صباح ، كان اوفي ، الذي يعرف هذا كله ، يتساءل أي مرحلة من هذه المراحل الصباحية شهدت طفولة ايريز . مرات عدة حاول ان يتصورها ضمن عالم من الضجيج القادر على اثاره منزل لموظف عالي المرتبة . جوقة يقظة الصباح ، انزلاق الستائر على قضبانها المعدنية ، الصرير الصديء لمغالق النوافذ وهي تفتح ، ماء حوض الاستحمام وهو يسيل ، عنين آلات الحلاقة الكهربائية ، الصوت الصباحي لسيدة البيت ، وهو ينطلق حاداً وزاجراً ، رنين النقود على البلاط ، المرآب ، والبوابون الذين يفتحون ويغلقون الابواب ، ربما . لكن لا يبدو لهذا أية أهمية . لو ان ايريز نشأت في بيت للقطاء لما غير ذلك الا في التفاصيل ، لما غير شيئاً جوهرياً قط .

سمع اوفي رنين جرس دراجة ، رن قليلاً ثم توقف فخيم على الصباح اخيراً سكون مستخدمي المكاتب . صعد اوفي آهة رضا عميقة ، كأنما يحملها كل ما في صدره من هموم . لكن على الرغم من قصرها ، كانت تلك اللحظة أشبه بلحظة رتيبة . كانت الضجة تصل من بعيد بعيد عبر الجدران ، عبر اغوار النشوة الآتية التي كان فقير ايريز مفعماً بها ، ثم يصفوها شعرها الاسود اللامع ، وتنفسها العذب الذي كشف له انها رقدت أخيراً ، آه ، لو كان باستطاعتها ان تنام ساعة اخرى ، ساعة واحدة فقط من هذا النوم المريح قبل ان يصلوا ، لو كان باستطاعته ان يوقفهم قبل ان يتفلفلوا داخل المنزل . . لكن ليس ثمة من فرصة لتحقيق ذلك الا في ذهابه اليهم ، وحدها من بين كل السيارات غامرت ودخلت هذه النواحي ، السيارة البرمائية الامريكية الطويلة مجازفة بواقياتها ودهانها وهي تلف تسعين درجة حول زوايا الجدران الضيقة والمنعطفات التي كان عليها ان تمر بها قبل ان تتمكن من الوصول الى الساحة . قادها السائق الى جانب النافذة تماماً ثم اعلم منبهه نعمتين «لا» عادية و «سي» مرتفعه ، كان زاشي قد عاهده ، لكن ان جاءت النغمات منخفضة فسيحكم ان المدخرة مفرغة من شحنتها الكهربائية .

قرر اوفي ان يتخلص من ايريز كي يسرع الى الساحة حالما سمع منبه السيارة لكنها تحركت ، نادته باسمه ، فتجمد آملا في سره الا تكون قد استيقظت تماما . وقد كان الامر كذلك ، لكن سرعان ما تخلت ذراعها عن جذعه ، حيث كانت تستقر ، ثم طوتها وصعدت بها الى ان انزلت كفها بين اذنه وعنقه فشدته اليها اكثر فاكثر . بعد ذلك شرعت تتنفس بايقاع اكثر عمقا ، ايقاع اشبه بايقاع النوم ، بعد ساعة استيقظ فراى رأسها فوق صدره . كانت تنظر اليه ، وقد استندت الى مرفقها :
- لقد نمت .

- الدهن كان متيقظا لكن السكون كان عميقا !
- ما الذي شغل ذهنك فجأة ؟ لماذا طرحت ذلك السؤال بعد هذا الزمن الطويل ؟

فرفع الرجل كتفيه .
- لا ادري . اوه ! اجل ، ادري . ثمة اغنية تخطر في بالي (ثم صفر لحننا قصيرا) اوه ، اين كنت يا ايريز ؟ اين - اوه - اين - اوه ، اين كنت ، اجل ، اعتقد انني سأطلب من زاشي ان يشتغل قليلا به .
- ليس هناك شيء آخر ! هذه الحجة تبدو لي ضعيفة قليلا .
- لا تحاولي ان تتلاعبي . حين تنتهي الاغنية ستسمعينيها ، لكن ليس قبل ذلك بدقة واحدة .

ففرزت اصبعها في صدره المرة تلو المرة ثم قالت :
- انك انت ، أنت وحدك من يحاول التلاعب . فانا اعلم لماذا تفكر بذلك اللجن . انا ذاهبة في جولة ، وانت باق هنا ثم انك تخشى ان تنتهي رحلتي عند واحد من رجال الاعمال الكبار في الشمال .
- انا لا احب النساء اللواتي يجادلن ، هناك في الشمال .
- سنرى . لكن قل لي الان مع من تتوقع ان تنام منذ اللحظة التي ادير فيها ظهري ؟

- مع صفوة صديقاتك بالطبع .
- شيء لايسر . لكن حدد ، من هي التي تضعها في رأسك ؟ لا تظن انني لا اعرفها .

رفع اوفي كتفيه وهو يستعد لسماع المحاولة الاخيرة لتصنيف صديقاتها المزعومات ، ضربته بكل قوتها ضربة الملاعبة ، فاستسلم لها .
- اوتعتقد انني لم اسمع ما يقال عن الانسة ديلومات دى كارير ؟
- اعتقد انها اقدر مني على فهمك . اهو صحيح انها تحمل دبلوما في إدارة الاعمال او شيئا من هذا القبيل ؟

فاتحج لكنها قاطعت احتجاجه .

هز أوفي رأسه بالايجاب دون أن يتاح له الوقت للتفكير بالامر ، فقد ادهشته كل الدهشة رؤيته لحب الاستطلاع لديها يمتزج بالترفع الذي كان يتخلل صوتها ، بعدئذ وثبت فوقه غاضبة ثم شرعت تشد شعره وتنتفه الى درجة خيل اليه انها ستتركه أصلع تماما .

— هكذا اذن ! ثمة واحدة أخرى ! عرفت في الحال عنم انكلم !

اخيرا أمسك بقبضتيها محاولا تهدئتها .

— أنت محبومة . ايريز . . . توقفي !

— أنت تستعد للذهاب لمقابلتها ، بل انك لقادر أن تأتي بها الى هنا ، أنا اعرفك .

— اهدئي قليلا ، اسمعيني فأنا لا أستطيع الذهاب معك لانني استقلت ، أنا لم

أعد عضوا في فريق الدعاية ! لكن قبل كل شيء ، علي أن اذهب لانذار عجوز الأيرو ، علي أن أعمل لانذار جماعتنا .

— أنت تكذب ، أنا اعرفك . هذه عملية مدبرة .

— للمرة المائة . . . اقول لك : علي أن اذهب الى آيرو .

ثم أمسكها من قبضتيها مرغما اياها علي أن تترقد متمددة فوق السرير . لكن

في اللحظة التي لامس جسدها جسده أحس بأن جلدها يرتعش رغبة واشتهاء .

— ايريز ، أنت تتأججين نارا .

— لا عليك .

وهكذا رغم البرداء ، رغم الحمى والعرق أخذها أوفي . امتزج عرقهما معا فبلل

الاغشية . وحين وليج فيها أنشبت أظافرها به . بعدئذ لبثت جامدة . موقفها ظل

غريبا . كان يعتقد أنها ستقول له : « جدير بهذا أن يهدئك الى حين عودتي ، لكن

ما أنت الا زير نساء » . او تردد تبججه بأن رائحة عطره ستصرع كل النساء اللواتي

سيلامسنه خلال غيابها بل هي لم تسع حتى لان تجعله يقول بأنه ما من امرأة ،

« من نوعها » تلبى رغبتها على هذا النحو . كل ما فعلته هو أنها دفعتة جانبا ثم

نامت بنصف جسمها فوقه .

كان شعرها المشعث يداعب منخريه . وحين فتحت فمها ، فعلت ذلك بكل هدوء

وبعد ادراك لما كانت تبنتفي تأكيده .

— أنا لا أريد أن أموت الآن .

ففر أوفي فاه وقد جاءه الانذار فيما كان يحاول عبثا أن يلحق بها مرة أخرى

وأن يشاركها أفكارها .

— أنا لا أريد أن أموت الآن . (ثم بدت وكأنها عادت اليه ، منكدة المزاج لكنها

جادة) ورغم أنك أفسدت حياتي ، فأنا لا أثق برجل قط مثلما أثق بك ، لا أعتمد على

رجل كما أعتمد عليك ، أبدا . (ساد الصمت لحظة من الزمن ، بعد ذلك ، استدارت

وهي تصيخ السمع الى أصوات في الخارج) اعتقد انهم جاؤوا .

انعطف المركب الضخم ، راجا الروايا الحادة للعمارة منتزعا بضع حبيبات من الاسمنت كالمعتاد ، فاقدًا بدوره ، خمسة أو عشرة سنتمترات مربعة من دهانه ، فيما مزق منبه مدوءً سكون الصباح الباكر في الساحة المرصوفة . وقبل أن تتوقف السيارة تماما ، كان طيف بشري يخرج مترنحا متمايلا قليلا وقد انفتحت أزرار سترته . توقفت السيارة توقفا مفاجئا فكاد الباب يقرب زاشي أرضا . نظر زاشي الى السائق نظرة لائمة لكن هذا اكتفى بهز كتفيه قائلا .

- ذات يوم ستقتل نفسك ، يا سيدي .
- حينذاك الق التهمة على السيارة . (وكان قد صار على بعد أمتار قليلة ، يطفى الانفعال الشديد على وجهه الملائكي) .

أرخت ايريز الستارة من يدها فسقطت ، ثم عادت ورفعتها على نحو مفاجيء . طيف بشري آخر ، شخص ذو لحية شيطانية ، هزيل كحقيقية أوراق ، كان أيضا قد نزل من السيارة ، وهو يلبس قبعة بترولية مزينة بريشة ورذية . بعد ذلك أرخت الستارة تماما حين سمعت الباب الخارجي يفتح ثم سحبت غطاء السرير عليها وعلى أوفي .

- هل الباب مقفل ؟

لكن زاشي دخل بسرعة الريح فصاحت به ايريز :

- أقفل الباب .

- ما الذي يجري ؟

- أقفل بسرعة ! (ثم قالت لأوفي) هذا الاحمق جاء بأرسطو .

لكن الوكيل التجاري كان قد فتح الباب وانتهى ، مبتسما ابتسامة خفيفة ، ناتحا ذراعيه لتلقي آيات الترحيب .
- ايريديسنت ، اين هي ؟

مدت ايريز ذراعها الى ما وراء السرير فأمسكت أصابعها بفردة حذاء ، فيما بدت من زاشي إشارة العجز .

- أعتقد أن على هذا الصنف من الناس أن ينتظر في السيارة . هاي ، أرسطو . .

وعبر الحذاء البنفسجي الهواء مارا على بعد مليمترات قليلة من القبعة البنفسجية . يا النخال انطلق أرسطو فارا ثم اختفى خلف الباب الذي صققه زاشي . حينذاك هبت عاصفة خارج السرير ، اذ راحت ايريز تتصارع مع قميص نومها ثم لبسته وهي تندفع نحو زاشي قائلة : « يرتب هذا فيما بعد » رافضة الاستماع الى احتجاجاته رامية بجملة من الاشياء في كل الجهات أخيرا توصلت الى ايجاد سلاح . سحب أوفي على جسمه ، وبكل هدوء ، غطاء السرير الذي تخلت عنه . وقبل أن تخرج ايريز مباشرة ، سمع الثلاثة صوت أرسطو يحتج خلف الباب : « لكن لماذا ترميني بالحذاء

يا سيليست ؟ « هنا أمسك زاشي براسه بين يديه ثم صرخ : « ايها الابله المافون ،
أما تزال هنا ؟ » بعدئذ فتح الباب فجأة ، ثم سقطت علاقة ثياب ضخمة على فم
أرسطو الذي أخذ على حين غرة .

– تظن أن بإمكانك أن تسمح لنفسك بدخول غرفتي دون أن تدعى ؟
– مدام

بعد ذلك قام ، وقد غدا فجأة أكثر نباهة ، بنصف دورة على نفسه ثم مر مسرعا
في الممر ، تطارده ايريز .

هز أوفي رأسه ثم قال :

– هذه الفتاة ستتهار بين يديك ، أثناء الجولة .

فيما كان زاشي يفتح علبة آله الموسيقية ويبدأ باخراج سناكسوفونه .

– من ، براندون ؟

– انها مريضة .

– انها صلبة .

لكن صرخة من النافذة جعلتهما يديران رأسيهما ، فالرجل المطادر كان يطلب
الرحمة ، وكانت ايريز قد حشرته بين الجدار والسيارة الا انها لم تكن قد توصلت
الى ضربه بالعلاقة .

– تلك الدمية مريضة ؟ أرسطو ليس من رأيك .

– ماذا يفعل هنا ؟ هل ستأخذه معك في الجولة ؟

– لا أحد يأخذ أحدا . كل ما في الامر انه جاء . وقد أوقف سيارته الليموزين

قريبا من هنا . كيف يتدبر امره ويحصل على سيارة الهيئة الفاخرة كلما أراد ، أمر
لا أدركه بالحقيقة . ترى لماذا ذلك البخشيش كله ، ذلك الربح الحرام كله ؟ بعدئذ
صاح فجأة ملء صوته : هاي ، براندون لا تمزح أنت تعلم . واذا أصابته ضربة على
أم رأسه . . .

– هو الذي سعى لذلك .

– يا لله ! لكننا سنخسر أمير المبيعات ! اذن . من المستحسن أن ينسحب .

– ايريز لا تحب الرجال الذين يدبجون القصص . ان فعلت النساء ذلك ،

كان الامر مختلفا .

– أية قصص ؟

– على مسؤوليتي ، لا شيء جدي ، بل بعض الاشياء الخبيثة .

– ليس لها علاقة بالجيش ، أمل ذلك ؟

– أجل . . أجل . . هو أبله وهذا كل ما في الامر .

– اية قذارة ! (انفجر زاشي) . لكأن المرء لا يلقي من خنازير الهيئة هؤلاء ما يكفيه من ازعاج . لا بد أنه يأتي بالحماقات ، يا للقذارة !
– انه ابله وهذا كل ما في الامر . فهو يعتقد ، ان لم أكن مخطئا ، أن باستطاعته ان يبيعهما لاصدقائه اصحاب القبعات الكبيرة . هكذا هو يحاكم الامور . احمق مسكين .

– ياه ! هو يريد ان يدفنك . هل لديك شيء من الكاكاوين ؟

مد زاشي يده داخل الخزانة وهو يقطق بلسانه نفما ، « صب اثنين . واحد . اثنين . صب . واحد . اثنين . . . » أخرج الزجاجاة ، ثم نكش كأسين من بين الركام الموجود على طاولة زينة ايريز ، فيما كانت الاصوات تصل من الساحة حيث كان بقية الموسيقيين قد نزلوا بسرعة من السيارة كي يدافعوا عن حياة ارسطو . سحب زاشي بسرعة كبيرة السترة ثم قال لهم ان يهدئوا المرأة . « ربما لديها اسبابها المعقولة لان تفعل ما تفعله » . بعدئذ دار على عقبه ، رفع الكأس ورشف رشفة طويلة .

– يا فتاي . . هذا في محله تماما .

– من المصدر مباشرة .

وفي الحال دق أحدهما قدحه بقدح الاخر وشربا . فجأة راح زاشي يلعن .
– انه هو ، آ ؟ حتى قبل ان يعرف ما هو الكاكاوين ، ذهب ليقول لأولئك الخنازير ان هناك من يتناول المخدر . يا فتاي ، قسما لأغطسن راسه في برميل مليء اذا تركني الرفاق أفعل ذلك .

فابتسم اوفي وهو يستحضر المشهد في ذهنه : زاشي الرقيق يهم بتفطيس رأس ارسطو في برميل من خمر الكاكاو . . .

– آه ! أنت لا تريدني ان اصدق ، آ ، اسأل الرفاق . أنا ساخط مثلك والى درجة يمكنني ان اقتله ، ذلك القدر (وعلى نحو مفاجيء بدأ يتفحص الزجاجاة) ه . . . ي ؟ ! أنت لست سريعا أنت وسيليست . لكن اظن ان لديكما ما هو اكثر أهمية لتفعلاه .

– إلام تلمح ؟

– اليست هذه هي الزجاجاة التي جئت بها من آيرو ؟

– بلى ، بلى .

– لم تمسها الا بالكاد . أنا لن أنسى ابدا ذلك العيد يا فتاي . لقد كان نوعا من الرؤيا ، آه لو أن أحدهم قال لي مسبقا إن ضربة من جمع اليد تصرع عجلا متجمعا على ذاته داخل ثمرة من ثمار الكاكاو . . . بالمناسبة ، كيف هي امور الكاكاو ؟ هل ستستطلع الحكومة الانتاج ؟

– الحكومة لا تغامر بالذهاب الى هناك .

- بعد اغاني المديح كلها تلك التي ادهشت الكيميائيين ؟
- انت تنسى لمن تمت تلك المساخر كلها ذات الاسماء الاجنبية ، يا زاشي .
- هذا ان تركنا جانبا تجارة المشروبات الروحية المستوردة .
- ياه ! يا للغباء ! لكن عجبا ، هذا يجعل الانتاج منتقى أكثر بالنسبة الى الكونغو سنتيين . . . ماذا ؟ ترى لماذا تضحك ؟
- من اين جئت بتلك الكلمة ؟
- من التقرير . فهي هناك مؤشر عليها : الكونغوسنتيون يعرفون كيف يتحققون من الارض التي هي منشأ مختلف خمور الكاكاو .
- كونغوسنتيون .
- اوه ! ما الامر ؟
- يا للأنماط الخبيرة التي تعرف !!
- ماذا ؟ اوه ! يا الهي ! حين أفكر أنني كنت اعتقد ان أولئك هم حرس الحدود الكونغوليون أو شيء من هذا القبيل . لماذا يا ترى يخترعون مثل هذه الكلمات ؟ انهم يسعون لتخويف المزارع المسكين الذي سيقراها . هذا هو الامر .
- صب لي واحدة أخرى .
- في الحال . صب لي واحدة ، واحدة ، واحدة . (وبضربة سريعة ، زلق الستارة جانبا) . هيا يا صغيرتي ، اقتليه ، ذلك المسخ اللعين .
- اخيرا غامر ارسطو بكل شيء اذ فتح فجأة أحد الابواب وغاص داخل سيارة ، جارحا عظم الشظية في ساقه حين اصطدمت بعدد من الادوات المبعثرة . ثم فتح الباب الآخر وتدرج لكنه سقط عند قدمي ايريز تقريرا وكانت مفاجأة كبيرة له اذ داسته بقدميها أكثر من مرة قبل أن يستطيع النهوض والاندفاع نحو مخرج الساحة الوحيد ، فيما كان يلاحقه وابل من اللعنات والسباب .
- مسح زاشي فمه ثم بدأ يصعد سلم الانغام في ساكسوفونه .
- سأعزف لك فقط الاغنية الاخيرة كي تعطيني رأيك بها .
- لكن قبل ان يتم الجملة الموسيقية الاولى دخلت ايريز .
- فر الجرد . وانت يا زاشي ، لماذا تأتي به الى هنا ؟ يدخل غرفتي كما لو انه صاحبها ، أو ندم الانداد .
- هذه غلطتي يا صغيرتي . لكننا تأخرنا ، فمتى تنتهين من حمامك ؟
- وبقية الفرقة ؟ أنا لم أر الا أربعة غلمان منهم في السيارة .
- انهم يتناولون افطارهم . يريدون أن نلتقطهم ونحن في طريقنا .

— اوه ... اوه ! اذن تريدني أن أقوم بدور البوليكاجا (١) ، اجمع لك اوباشك في الصباح وأنا في طريقي ...

— يا صغيرتي ، يا صغيرتي ؟

— انا لست صغيرتك . اذهب فابحث عنهم وعد كي تأخذني .

— هم يعرفونك يا صغيرتي . يعرفون أنهم ان وصلوا الظهر سيجدونك ما تزالين في السرير . لهذا أصروا على أن أضعهم قريبا من هنا يشربون وينتظرون الى أن تصبحي جاهزة . لا شيء يمكن أن يجعلهم يتحركون خطوة واحدة الا حين يرونك بأعينهم ، بالنسبة اليهم يا صغيرتي ، هذا سيكون أشبه بطلوع الفجر تماما . فهم لا يعتقدون أن الشمس أشرقت الا حين يرون سيليست ...

— لا تحاول أن تتملقني ...

— ولم لا يا صغيرتي ؟ أنت تعلمين أن أرسطو هو الذي عكرك مزاجك . اذن لماذا لا احاول أن اجعله رائعا من جديد بأن أقول لك بعض الملاحظات ؟ اوه كم من المفيد أن يستطيع زاشي توجيه هذه المواهب المقدسة ... ه . . . ي ؟ هذا جديد تماما ... لحظة واحدة ... (ثم عزف جملة موسيقية سريعة على ساكسوفونه)
أتعلمين ما هذه ؟

فتيقظ فضولها في الحال .

— انها المرة الاولى التي أسمعها بها .

— بالتأكيد . . . اسمعي قليلا أيضا . ثم انك لم تسمعي الكلمات ، اذن أنت

لا تعرفين شيئا .

— من كتبها ؟

— لن أقول لك . انها تتكلم عن أم أحدهم . انها هائلة ، هائلة ، هائلة . بالامس وصلت لي الاغنية فحاولت وضع الترتيبات لها . ربما الجوقة ستجعلك تسمعنيها هذا المساء . ربما نعم ، وربما لا .

— ما الجدوى ؟ قالت ايريز وهي تلقي بنفسها على السرير .

— لا ، ما كنت لتقولي هذا لو علمت من هو كاتبها .

— ثم توقف ، وبجهد ظاهر بدأ يدندن :

أبدا ، لم تعد أم الفجر

أبدا أوه ، أبدا لم تعد بعد

لكن لا تتخلوا عن الصيد قط

فالاقزام يحترقون الشمس ...

(١) سيارة أدغال تلتقط المسافرين من على الطريق في بلاد اليوروبا .

– ياه ، أوفي ، ها هو ذا البيت الذي اردت أن أحدثك عنه . فيه شيء غير مناسب . وعليك أن تغيره أو ...
– إذن انه هو .

هنا لطم زاشي فمه مطلقا آهة : « أوه بابا زاش ! »

فانقلبت ايريز بتراخ على جانبها .
– انها جديدة على كل حال ، اذا حكم المرء من هذه القطعة الصغيرة . لكن لا يمكن للمرء أن يعلم ما يخفيه في الداخل ما داموا لم يأتوا لسؤاله عن التفسيرات .
– ه . . . ي . . . أنت لا تعتقدين ...

لكن زاشي توقف مباشرة ثم توجه نحو أوفي بعينين ملؤهما اللوم .
– أنت أيضا لا تعرفه ؟ سألته ايريز منزعجة .

فهز زاشي رأسه .
– لا ، هذه استقامة . وانت ، أصبحت جبانة يا براندون . لقد قرأت الايات كلها وليس هناك كلام اكثر استقامة وشرفا منها .
– أنت ساذج . ترى هل رأيت من قبل يكتب شيئا فيه شرف واستقامة ؟
– أوفي ...
– أوه ! اخرسا كلاكما . وانت ، اخرجي من هنا وخذي حمامك .
– انا امنوت .
– سأعد حتى الثلاثة : واحد ... اثنان ...
– أوه ! حسبك ، أنت !

ثم لمت أدوات زينتها واستحمامها وخرجت بسرعة الريح . بعدئذ فتحت الباب من جديد ثم أخرجت رأسها وقالت :

– اخيرا استقع بين أيديهم ، ولا تقل إنني لم أحذرك .

صب زاشي كأسا أخرى من الكاكاو ثم جرعا دفعة واحدة .

– ه . . . ي ! أنت ، أيها الصديق ، الرفيق ...

– اخرس ، زاشي ! ليس هناك من عيب في هذه الاغنية .

– ان كنت متاكدا ...

– لقد قلت ان فيها استقامة وشرفا . هيا ، اعزف لحنها كاملا .

فبدا على زاشي الانفراج والاندهاش . ثم شرع يعدل مفاتيح ساكسوفونه .
– هذا لا يعني أنني لا أريد عزفها . لكن ليس فوق ! آه ! ، ليس فوق . أنت تعلم يا فتاي ، هم ليسوا اناسا شجعانا ، خنازير الكروس – ريفر هؤلاء ليسوا شجعانا على الاطلاق . هنا ، على الاقل ، اصداقؤك يعرفون ما يحل بك قبل أن تمضي الامور بعيدا جدا .

— هيا ، اعزف هذه القطعة ، إي أم لا .
— سأعزفها يا سيدي ، سأعزفها . فأنتما في وضع مشكوك فيه هذا الصباح
يا عزيزي ، أنت وسيليست .

بعد ذاك عزف زاши برقة شديدة ، متباطئا عند كل جملة ، مداعبا الإنغام .
وعندما انتهى سحب الآلة ببطء بعيدا عن فمه ثم تركها معلقة في عنقه وبدأ يلوح
برأسه .

— أنا لا أدري لماذا سمحت لايريز باخافتي هكذا . لا ، ليس هناك من مزعجات
قط ، ليس من لحن مشابه . في لحن الرحيق يا فتاي ، لا شيء الا شراب الجنة
والرحيق ، كما تقول في القطعة الاخرى .

فشرع أوفي يضحك .

— تريد أن أغير الكلمات ؟

— كيف ؟ أوه ! كلا . فتلك ليست سوى كلمات ولدغات . . . ليست سوى
لحن رقيق ومثير وكل شيء . . . لكن هذه . . . ه . . . ي ! يا عزيزي ، لماذا لا تبقى
معنا ، هكذا بكل بساطة ؟ أريد أن أقول : بدلا من أن تكون ضدهم . كن بكل بساطة
معنا . وليذهبوا الى الجحيم جيمعا ، وهم على كل حال سيذهبون الى الجحيم .

— ليس الأمر بهذه البساطة ، يا زاش ، قال له أوفي وهو يهز رأسه بهيئة
الاسى والندم ، فالامور لا تنفصل بهذه السهولة .

— أن أردت ، كان الأمر بغاية البساطة . فال سي المرتفعة هي سي مرتفعة ،
ادعها « دو » إن أردت لكن حين يقول زاши أنها « سي » مرتفعة فانها لا يمكن أن تكون
شيئا آخر . أن أردت يمكنك أن تبقي الامور واضحة وبسيطة تماما ، لكنك تحب
كثيرا اقتناص الناس ، يا عزيزي . أنت وإيبور أخوان توأمان . كلاكما قناص . يجلس
واحدكما طوال النهار والعدسة مشدودة الى عينه .

— كلنا شركاء في الحال نفسه يا زاши ، فحين يتنفسون ، ينشرون العدوى
ايا كانت المسافة .

— أوه ! تبا ، يا عزيزي ! لننتقل الى الامور الجديدة (ثم توقف فجأة وخرج
كالسهم ثم عاد بعد لحظة وهو يجر وراءه ايريز) أريد أن تسمعي هذا . سيليست ،
ستغنين هذه الاغنية كأفضل ما تستطيعين .

— وحمامي ؟

— فيما بعد يا صغيرتي ، فيما بعد . فالآن ، ثمة مشكلة .

— ماذا هناك ايضا ؟

— لا ، لا ، اسمعي ولسوف ترين ، (ثم شرع يقلب بين أوراقه الى أن اخرج
ورقة منها) أنا لم أجد هذه الابيات بعد . آه ! ها هي ذى ! اسمعي سأعزف لحنها
لك وانت تغنين : ليس أبدا كما في ليلة مرتبة . هل أنت جاهزة ؟

- (فكرت ايريز الابيات) حسن لنبدأ .
- وهكذا بدأت ايريز تفني الكلمات فيما كان هو يرافقها بالانغام .
- مرة اخرى يا سيليست ، فقط مرة اخرى .
- وحين انتهت ، صلب زاشي ذراعيه ثم وجه الى اوفي نظرة متسائلة ، فردها هذا نظرة ملحاحة ، ثم ابتسامة كبيرة بلهاء وقال :
- انا لا ارى شيئاً يا مايسترو .
- كيف تراك لا ترى شيئاً ؟ ما أسألك اياه هو ما الذي تقدمه لك ، ما الانطباع الذي تتركه في نفسك الكلمات .
- هيا قل لي ما العيب الذي تجده فيها .
- العيب الذي اجده فيها ؟ من تكلم عن العيب فيها ؟ انا قلت انني اعيبها بشيء ما ؟ سيليست . . .
- حسن ، تأوه اوفي . لماذا تلف وتدور ؟ اهي اديبة كثيرا ؟
- لا ، لا ، من تراه قال إنها اديبة كثيرا ؟ انا لم اتحدث عن هذا . لكن من تراه سيفنيها ؟ الليلة مرتبة . كلا يا عزيزي ، لم يخلق قط الفم الذي يمكن أن يغنيها حسب اعتقادي . أخيراً ، انها شيء من الاوبرا أو ماذا . . . ؟
- انحنى اوفي كي يمسك بالزجاجة ثم صب كأسا .
- حسن ، سأغير هذا . سأجد شيئاً آخر .
- قبل ان نرحل ؟ فانا اريد اطلاق الاغنية خلال الجولة . هذا سيدهلهم يا فتاي .
- في الحال ، للتو ، ان شئت فقط ان تغلق فمك .
- حسن ، موافق .
- يا للعنة ! لو كان باستطاعتك فقط ان تتوقف عن اللف والدوران ، بحصافتك هذه ، حصافة الفيل .
- من الذي يتكلم الآن ؟ احتج زاشي وكأنه لا يخاطب شخصا معينا .
- ه . . . ي . . . ايها الرجلان ، اتريدان أن تفطرا ؟ سألت ايريز . ذلك انني سأخذ حمامي مباشرة ، وبعد الحمام لن أطا المطبخ بقدمي .
- من يريد أن يفطر ؟ انا ؟ انني واقف مذ غادرت النادي ، وانا اتعذب بهذا اللحن اللعين وهذه الكلمات الخرقاء . لم هذا ؟ انه سواء لدي . انني أعلم كيف اتعرف الى فعل الحب « واذا كان الحب يتغذى من الموسيقى » فقد تغذيت .
- بيضتان أم ثلاث ؟ أم تريدان أن ارسل السائق يبحث لنا عن أكارا (١) في الشارع الواقع على الشاطئ ؟

(١) فطيرة تصنع من عجينة الفاصولياء .

- قهوة يا سيدتي العزيزة ، لا شيء سوى القهوة يناسب خمسين سنتيما من الاكارا . ان حدثت وقلت لنفسك بيضا ، فسوف تكون اثنين . لولا هذا ، ما اري من حاجة للافطار يا سيدتي (ثم ساعدها في الباسها بابوجها ، بعدئذ فتح لها الباب .) ، قبل ان تتكلمي عن ذلك يا صغيرتي لم اكن ادري بالحقيقة انني اتضور جوعا .

خرجت فأغلق أوفي الباب ثم استند بظهره اليه ، ماسحا عن جبهته عرقا غزيرا .

- اوه ، لا يمكنك ان تعلم تماما ان هذه السيدة بجانبك ام ضدك يا عزيزي . هل سمعت هذا ؟ لقد اقترحت ان تعد الافطار ...

- لكنها دائما تعد الافطار ...

- نعم . هذا صحيح ، وهذا ما اعتقده فعلا . لكن ليس بعد مشهد مماثل . ليس بعد معركة مع جرد مثل أرسطو . لقد تغيرت ، أقول لك ذلك يا عزيزي ، ايريز تغيرت . اسأل الآخرين ان كنت لا تصدقني . وقبل ان ترسلها الى غرفة الحمام اتجرا على الاعتقاد أننا لن نغادر قبل الغد . انت متواضع يا عزيزي ولسوف تكون متصنعا فعلا ان اعتقدت ان هذا ليس بشيء .

- أتريد ان اغير لك هذا المقطع الشعري ! إي ام لا ؟

وفي الحال اتجه زاشي ، على أطراف أصابعه ، باتجاه كرسي ثم أطبق بأصابعه على شفثيه . هناك صب القطرات الاخيرة من الخمر ، وترك نفسه يتهاوى في زاوية من زوايا الكرسي رافعا ساقيه الصغيرتين على خرقة من جلد . بعدئذ شرع يدندن وقد رفع الكأس باتجاه ضياء النافذة .

تحية لك ايها الضرع الذهبي
يا ضرعا يسكن الذاكرة
يجعل فمي كغم الطفل
وهو يرضع الكاكاوين

بعد ذلك راح يقهقه نشوان .

- انني بريء من كل ما يقولون يا عزيزي . انك انت صاحب العبقرية الفذة . فقل لي بحق الله ، جماعة غبورو او هل حملوا لك البضاعة ؟
- انها هناك ، تحت السرير . سأحمل معي شيئا منها الى آيرو .

فعاد زاشي وانتصب ، ملؤه الحيوية .
- ماذا ؟

- احرص واجلس . لدي اخبار سيئة لهم . لذلك اود ان اهدئهم بشيء كهذا .

فتأوه زاشي .

— اوه ، يا الهي ، يا الهي . اوفي ، عدني انه سيبقى شيء منها حين نصل الى هناك . عدني الا تترك اولئك الاسلاف المتوحشين الذين تبنيتم يرسلون الشحنة كلها .

— سيبقى شيء منها هناك .

— دعني الق نظرة ، اوفي ، مجرد نظرة سريعة .

فرع اوفي كتفيه .

— ان وشيت قبل ان تغادر المدينة ، تعلم ما الذي سيجري .

— انت تتكلم ، نعم انا اعلم ، ثم جعل غطاء السرير يطير .

— ايه .. بي .. بي .. اوفي .. ايه .. بي .. بي .. بي .. بي .. أنا

لا يمكنني ان اصدق انه يوجد هناك اي شيء ، ضمن تلك القوارير كلها .

— شم ، ان كنت لا تصدقني .

— بهذا ، يا عزيزي ، يوجد هناك ما يوقظ الميت . بل حتى عجائز آيرو

المحرومون من الشراب المسكر لن يأتوا على هذا كله خلال اسبوع . ولسوف يكون بإمكان المرء ان يتوقف هناك في طريق العودة ويقدم تمثيلته .

— ذلك ما كنت اقله لك باستمرار . والآن ، أغلق فمك أو انك ستسافر

بمقطع شعري اقل .

— عفوا ، عفوا ، لقد نسيت . لكنني اعترف انه كان لدي سبب وجيه

لكي اتحمس .

ثم انسل من جديد الى مكانه ولم يتحرك الى ان رماه اوفي بقطعة من

الورق .

— هاهي ذي ، كتبتها على عجل ... ه .. ي ... هل ترى ما أرى ؟

كان أسفل النافذة يصل الى مستوى الساحة ، وكان وجه أرسطو قد

ظهر فجأة بين الستائر ، كذلك كان ظله ظل رجل مقرص وذراعاة تشميلان بقرد

من قرود الغابات ، شرع في الحال يحك القضبان حكا رفيقا . هز زاشي رأسه

بهيئة من لا يصدق .

— اتراه ؟ ه .. ي .. ما الذي تمسك به يا أرسطو ؟ تعجز عن المرور من

الباب فتجعل القرد يمررك من النافذة ؟

— لقد اغلقت الباب ، قفلته بالمفتاح .

— وماذا بعد ؟

— دعني اكرم اوفي ، فربما يتوصل الى تهدئة غضبها ، اذ علي ان اذهب

معكم في هذه الجولة ، لهنلا ينبغي ان أصلحها ، الا تفهم ؟

– من قال ذلك ؟

– دعني اكلم اوفي .

– فر بجلدك (ثم أغلق الستارة وامسك بساكسوفونه .) اقرأ النسخة الجديدة عندما اصل الى المكان المنشود (ومن جديد دق ارسطو على القضبان فسحب زاشي الستارة) . اسمع يا فتاي ، قضيتك مع ايريز ، وعليك ان تسويها معها ، تدخل فتدبر نفسك معها . لكن ان قاطعت جلستنا مرة اخرى فلسوف القي بهذا الانبوب في حلقك .

– الا تريد ان تفتح لي الباب ؟

– يا لله ! انت رجل تفتخر بانك صلب همام ، اليس كذلك ؟ كما كنت اعتقد انك تحب المشوقات وهن غاضبات كما تحب الافطار .

– أجل ، مع النساء ، الامر مختلف . فانا لا ارد على سيدة غاضبة ، خاصة ان كانت تدعى ايريز .

– اسمع ، يا سيد ، ايها الخطم الكبير ، انا مشغول . فاما ان تنقلع على الفور او تعود بريشتك الصفراء الى مقود سيارتك ثم تعود بعد ذلك وتدق الباب لتصلح ذات البين معها . انت ملك الممثلين ، اليس كذلك ؟ اذن بإمكاننا ان نرى كيف ستتصرف مع الشخص الوحيد الذي يمكنه ان يلطخ سمعتك اثناء الجولة .

– فشرع اوفي يضحك .

– مسكين ، انه متضايق حقا .

– بل هو اشد استعاراً من الجحيم . . رد الآخر . ذلك ان سيليست ستفسد له اوراقه كلها اثناء الجولة ، هذا امر اراه منذ الآن ولستوف يعود دون طلبية واحدة . الناس تتكسد بالعشرات في سيارة شفروليه مخلعة ، والهيئة الحمقاء لا تريد حتى ان تزودنا بعربة صغيرة حتى وان كنا مستعدين لدفع ثمن البنزين والاصلاحات . لكن هذا السيد ، يعطونه سيارة مرسيدس ضخمة ، له وحده . لهذا ، كما تعلم ، سألت هذا المسخ ان كان يود ان يأخذ واحداً او اثنين من فتيان الجوقة كي يخفف الزحام قليلا . فهل تعلم ما قال لي ؟ (هنا غير صوته الى صوت نشاز حاد مضحك) . . ه . . ي . . نعم . . الامر هكذا يا زاش . انت ترى ، قد يحدث لي ان التقط فتاة على الطريق ، شخص زيادة في السيارة سيضرب بي ، هل تفهم ؟ اثنان ، ذلك يعني أننا من الحملة اما ثلاثة فذلك يعني جمهوراً . اليس كذلك ؟ ذلك ما قاله لي .

– لا تفكر به ، لا تفكر به . اتريد ان تجرب هذا الشعر ؟

– بالتأكيد ، بالتأكيد . انا لا ادري لماذا ازعج نفسي بسبب هذا المسخ ؟

انفتح الباب مع صوت شيء يقلى ثم دخلت ايريز ، في احدى يديها المقلاة
وفي اليد الاخرى صينية ، فأسرع زاشي يساعدها ، مفرغا الطاولة من كل ما عليها ،
ملقيا على الارض بعلبة ساكسوفونه ، وأفعا الزجاجاة الفارغة .

— انتبه ، لا تقلب القهوة ، قالت له ايريز .

حدق اليها ، فابتسمت ثم مضت الى الحمام . هناك ، اختفت ، غابت دون
أن تترك أي اثر من مخاوف الصباح أو توتره ذلك الذي كان يتخلل كلماتها المحمومة .
أما الحقد الذي رآه في عينيها حين كانت تطارد أرسطو حتى خارج المنزل — ذلك
الحقد الحقيقي في تلك اللحظة بلا أدنى شك ، لأنها أحست بالخطر الذي يتهدد
أوفي ، كما أحست بالخطر الذي يتهدد حياتها نفسها — فقد زال كليا ، دون أن يبقى
منه شيء . الآن يمكن أن يعود ، ولسوف يستقبل بازدياء جليدي ، بالتأكيد ، لكن
هذا كل شيء ، من المؤكد أنها لن تفتح فمها بكلمة واحدة معه طوال الرحلة كلها ،
ولسوف تعامله ، هكذا وبكل بساطة ، وكأنه غير موجود . ان لديها موهبة حقة وهي
أن تقطع بكلامها أشد الناس صلابة وثقة بالنفس دون كبير جهد ودون أدنى حيلة .
هنا ابتسم أوفي في سره ثم شرع يأكل .

انتهى الافطار ، فشرع زاشي يدندن على ساكسوفونه راضيا كل الرضى حين
انفتح الباب دون صوت . قطعت ايريز الموسيقى ثم انضمت اليها بالالتفاف حول
نفسها وهي تلبس ، فقهقه زاشي دون أن يتوقف عن العزف ثم غير موقعه فيما كان
أوفي يضع كفيه خلف رأسه ، منبها كل الانبهار ازاء ذلك التجلي لإلهة من إلهات
الجمال ، في الضوء البنفسجي الذي كان يتسرب عبر الستائر ويفرقها ، فقد خيل
اليه ان كل ما في الغرفة تجمد على نحو غامض ، وأن الزمن تجمد في لحظة من
لحظات الكمال .

فوق رأس ايريز كانت قبعة الاستحمام الكاوشوكية البيضاء المنعشة قد تحولت
الى مزهرية حبوب بيضاء مجردة من قشورها ، جثوة جامدة . أما عيناها فلم تكونا
تحملان أي انتباه لوجودهما ، بل تتوجهان الى الداخل تستفرقهما طقوسها الخاصة
بالتحول . زلقت ايريز طرفا من البرونز خلف اللوح المصنوع من الزجاج والاكاجو
في خزانتها ، وبحركات طرية هادئة لدنة منه راحت تختار ثوبها وحليها . بعد ذلك
ظهر وجهها ، وهو يتأكد من اختيارها على جسمها نفسه ، دونما أي تعبير ، ثم انتقلت
الى ما وراء حاجز ، لكن ظل حضورها يملأ الغرفة مجمدا كل ما فيها . بعد ذلك
طافت مزهرية الحبوب في الهواء لحظة من الزمن لتحل محلها مباشرة جمّة من الشعر
الملمع ، اهداب ذرة حريرية سوداء أنشبت فيها ايريز مشطا من عاج . سرحت
الاهداب ثم ضغطتها لتضعها في المكان المناسب ، بعدئذ عادت وهزتها من جديد .

اخيرا ، عادت الى الظهور قابلا محكم الصنع في ثوب من قماش وطني ، ثم توقفت بين
مرايا ابواب الخزانة يتكرر ظلها فيها ألف مرة والى ما لا نهاية .

— وبعد ؟

فاستدارت ايريز صوب الرجلين ، ذراعاها تتأرجحان ، وراجتها باتجاههما
ثم ضمتهما اليها بكثير من الحميمية والمرح .

كلمات من سحر ، تعاويد وزقى بدأت تطوف على شفتي أوفي . اخيرا نهض
من السرير ، ملفوفا بغطائه ، ثم تقدم نحوها . فحاول زاشي ، وقم الساكسوفون مبلل
تماما ، أن يحدد المشهد الذي كانت عيناه تريانه في تلك اللحظة : ايريز التي كانت
عينها وحدهما تتحركان وهما تتبعان حركات أوفي ، وأوفي في الإزار الابيض الناصع تماما
. الا من البقع المتخلفة عن ممارسة الحب وهو يدور حولها بخفا إرشق من خطا سنور ،
الكاهن والكاهنة في عبادة مشتركة . لم لا ؟ فكر أوفي ، فالرؤى هي دائما من ميزات
للإنسان المبدع . قبول المرأة ، مشاركتها في رؤيا الرجل للحياة لم تكف يوما عن أن
تنتج تلك التعاويد الدورية للارض والمثل العليا ، ليست المسألة مسألة جمال أو
كمال ، بل بكل بساطة ، رغم قصر اللحظة وسرعة الزوال التي كانت كخاتم الحقيقة
عليها ، هي أن ايريز تجلت بشخصها عن رؤيا باهرة لا تنال .

بلل زاشي شفتيه ، وهو يقدم للجو لمستته الاخيرة .

— أيتها السيدة العذراء . . . أيتها السيدة العذراء . . .

— أجل . . . أيتها السيدة العذراء ، ردد أوفي دون أن يبعد عينيه عن ربة الجمال
المائلة بين ذراعيه .

* * *

« ٣ »

الاستطلاات

« ٦ »

« الطفل الذي يقسم ان أمه لن تنام ، عليه هو أيضا أن يقضي الليل ساهرا » ، تلك كانت كلمة باتوكي ، نقاش الامثلة . لقد لخص الرجل قرار الكارتل ثم استدار لينام . فالكارتل الذي أصبح بالغ الحدة ، أشبه بالمجنون بعد أشهر من السهر ، عرف اخيرا أولئك الذين كانوا يعذبونه ثم نظم مضايقات انتقامية .

كانت الضربة متوقعة فاتخذت الاجراءات المضادة . لكن لم يكن آهيم ينتظر الا هذا النوع من الانذارات كي يرسل سعاته الى المراكز الامامية لآيرو . كان الرجال ينتظرون أن يطردوا من منازلهم ، أن يضطروا لدفع ضرائب جزائية ، أن يفقدوا أعمالهم بل وأن يسجنوا سجننا تعسفيا ويتهموا اتهامات باطلة . كانت الاستراتيجية بسيطة : عليهم أن يغادروا المناطق التي صارت اشد اضطرابا لمتابعة العمل ، أن يغيروا أماكنهم الى أماكن أخرى ، فوجود آيرو قد تدعم . وهكذا ربط أوفي قاربه الى وتد ثم صعد الى الضفة .

كان ، في أعماقه ، يسر كثيرا حين يفكر أن آيرو ، أوتوبيا السرور ايام زمان ، قد صارت الشوكة الواخزة في جسد الامة . فطوال المدة التي بقيت فيها هادئة قرب مياهها الراكدة تلهي السياح بسحرها الباطل القديم لم يكن ثمة ما يقلق الكارتل أو يعكر صفوه هو وحلفاؤه فيما كانت السلطة تنتقل من يد الى أخرى لتعود وتنتقل من جديد . خسارة ، أن البعض تسلقوا الى أن بلغوا مصدر الحركة ، الى أن بلغوا آيرو ، الى أن وصلوا منطقة متميزة من البلاد . التكتم كان اكثر فعالية لكن لم يكن بإمكان المرء أن يأمل أن تبقى هوية الكوادر سرا الى الابد ، بل الحقيقة أنه كان أمرا مفاجئا أن تظل مكونات الحركة خفية ذلك الزمن الطويل . في البداية كانت للكارتل استطلاعات طويلة ، بعدئذ اندمج اندماجا تماما بالسلطة العسكرية الجديدة ، فتضاعفت مصلحة الاستخبارات لديه . كان التحالف الجديد قد بات واضحا تماما ، وكان يتسم بالصفافة الى درجة لا تخطئها العين .

وصل أوفي الى حظيرة ثيران التضحية فرأى ظل آهيم يقترب منه ، عيننا العجوز كانتا تحدقان الى عينيه ، وكانت المعاناة تنعكس منهما .

— ماذا هناك ؟ هل سمعت النبأ ؟

فهز العجوز رأسه .

— على كل حال ، وصل متأخرا اكثر مما هو متوقع .

فتفحص العجوز وجهه ثم قال :
- انا لا اعتقد أنك تعلم ما يجري .

كان يتكلم على مهل وبنبرة من الرزانة والصرامة أشد بكثير مما كان أوفي يتوقعها .

- ما الذي يجري يا ترى ؟

- ألم تسمع الاذاعة ؟

فهز أوفي رأسه :

- لقد ظللت طوال الليل في البحيرة .

- تعال معي .

داخل منزل الاجتماعات ، توقف العجوز ، ثم كشف له عن الكارثة بكل أبعادها ، فتجمد وجه أوفي وكأنه وجه مخبول .

- ثمة قبس من أمل ، قال له آهيم لمواساته ، ففي الامس وقبل اخبار الاذاعة ، وصل رجل من شاج . هناك تم انذار الناس من قبل رفاقهم العاملين في السد ، من قبل أناس من كروس ريفر نفسها ، فعقدوا اجتماعا ، وقرروا ايقاف العمل الى أن تتوقف الاضطرابات . هذه هي النصيحة التي قدموها للعمال الاصليين في كروس ريفر ، فهناك ، على الاقل ، نحن لم نخفق ، هنا غمغم أوفي :
- ان كان هذا كل شيء ، فما هو الاثره ضئيلة تماما .

- ربما لا ، قال آهيم . لكن حتى لو كانت هذه هي الحال فان جماعة شاج هي ذات الاهمية الاكبر ، أم تراك لم تعد تؤمن ، أنت نفسك ، بكلماتك ؟

حاول أوفي ان يوبخ نفسه ، فأقر بأن شاج حيوية تماما من أجل تغفل الآيرو تغفلا محكما داخل البلاد حيث القرى القديمة كانت قد اقتلعت من جذورها ، أغرقت بالمياه ثم أعيدت زراعتها ، لتبرز من جديد انجازا محسوسا يجمع بين المادي والمثالي .

في الوقت الذي كان السد يرتفع فيه والوعد بالطاقة الكهربائية يصير شيئا فشيئا حقيقة واقعة ، كان رجال الآيرو يلقون بدورهم في تربة الكينونة الاجتماعية الجديدة . فشاج تقع في مكان استراتيجي ، مستعمرة شبه نموذجية في جهة كروس ريفر ذاتها . آه ، لو كان الموقع هناك حصينا على الاقل ، بما يكفي لان يتمكن عمال الكروس ريفر من ان يقذفوا خارجا بالاجانب الذين يعيشون بينهم

« أحب التحدث الى هذا الرجل » .

حينذاك انفجر في داخله الخوف الآخر الذي راح يعذبه مد كشف له آهيم الهجوم الضاري للكارتل في حملته التي شنّها لتدعيم قوته : فايريز في طريقها الى كروس ريفر ، وزاشي مع جوقته

خيل اليه انه يمر بفسق لا نهاية له قبل ان يدخل به آهيم ساحة منزل الاجتماعات ، ثم جعله يعبر غيضة كثيفة محاطة بأعمدة من تماثيل نساء كانت مفاجأة بالنسبة اليه . الطريق الذي عبره الى هناك وصل فجأة الى منتهاه ، كتلة من أوراق نباتات معرشة انفتحت أمامه كاشفة عن فتحة في الجدار . حذره العجوز ، وتحذيره هذا ، استطاع أوفي أن يتفادى الانزلاق على منحدر سريع مغطى بالطحلب ينحدر حتى بركة ماء محاطة من كل جانب بشجيرات مستنقعية لا منفذ فيها ظاهريا . قارب طويل ولامع ، مزود بمجذافين ومحرك ، كان مربوطا هناك ، مقدمته على الحافة والبركة المظلمة بقبة الاغصان هادئة ساكنة حتى بدا له وكان ذلك القارب ليس الا سعفة سقطت من نوع منقرض من أشجار الكابوكي والبركة نفسها ليست الا بحيرة تحت أرضية ، ربما لم يعكر سطحها انسان ولا سمكة منذ آلاف السنين .

كان الصمت الذي يحيط بهما مطلقا لا شائبة فيه . وكانت عينا أوفي اللتان اعتادتتا ، شيئا فشيئا ، الظلمات الزمردية قد انتهتا الى تمييز فتحة البركة ، فتساءل ان كانت تؤدي الى البحر نفسه أم فقط الى نفق آخر يعيش في حمى من الزمان والايام . لم تكن هناك ورقة ولا ساق شجرة مخالفة لتناسق الاوراق والاغصان ، بل كانت كلها بساطا من ثنيات مضغوطة تحيط بها من كل جانب مغلقة عليهما المكان في منطقة للاشباح ، معتمة ، هادئة وواقية .

حرر أوفي نفسه من سحر المكان .

— لماذا جئت بي الى هنا ؟

— كي يتاح لك قسط من الراحة والتفكير على مهل . واذا ما شعرت بحاجة خذ القارب لكن ليس من الحكمة أن يراك احد بعد اليوم في منطقة الهيئة ، اودعه هنا ، وسنرى بالتأكيد ما ينبغي فعله .

— اذن ، أنت تعتقد أنني سأعود الى ايلوزا ؟

— اكثر من مؤكد ، فأنت سترغب في التسلل الى كروس ريفر لكن لا تنس أنني قلت لك هذا . سأرسل لك رجل شاج كي يتكلم معك . لكن ما من انسان آخر سيأتي هنا ويقلق راحتك .

— أنت سريع للغاية في سبر حاجات الآخرين ، لاحظ أوفي بحب استطالاع واضح .

— هل الامر غامض كثيرا حقا ؟ انك بحاجة الى مكان هادئ يتيح لك التفكير . تعال وانضم الي في منزل الاجتماعات حين تنتهي .

— لا تبعث رجل شاج مباشرة . اسمح لي بوضع لحظات من العزلة .

اتخذ آهيم هيئة الارتياح قليلا ثم رفع كتفيه ، بعد ذلك سمع أوفي خطاه الخفيفة وهي تمس مسار قيقا طحلب المر .

الخبيبة . هل هذه هي رائحة الخبيبة ؟ لونها ؟ طيفها ؟ كانت الظلال تحيط به من كل جانب ، فانتابه احساس جديد بالفضول دفعه للتفكير بحصافة آهيم ، هي المتوقعة كثيرا منه : لم يكن امتيازاً أن يتركوه وحيداً في هذا المكان الذي كان الملجأ الخاص القديم للمرحوم سيد الحبوب . انه أشبه ببئر ذات طاقات متجددة ، لكن ربما كان قد استنفد في لحظات الشكوك التي لا تنتهي تلك التي كان آهيم قد كشفها له في الليلة الماضية .

بعد ذلك ، وبصورة غير قابلة للتفسير ، راوده نوع من اليقين في ان هذه الامكنة كانت تستخدم كنوع من الملاذ لشخصيات أخرى في الماضي ، ذلك الذي لم يكن بعيدا كثيرا . جلبة غارات الزنوج عبر الصمت والسكون ، وحضور اللحم القلق المتكدس انبثق مثل هبة ريح عبر الزمان ، ثم جاء يصدم بشرته . احس أوفي بنظرات الفارين ، لاجئي آيرو ، وهم ينتظرون ويسهرون بين قناطر الاشجار المستنقعية وقبابها ، ممتزجة بهبات العنف والافتصاب والموت في كروس ريفر .

ايريز ، زاشي ، الكل سادر في جهله وهو يسير نحو المجزرة الكبرى التي كانت قد بدأت ...

تقدم أوفي ، بمحاذاة الحافة ، كالسائر في نومه الى أن وصل القارب ثم دفع وبعاء الزفت والفلين فوق البركة وجلس على مقعد التجديف ، فشرع القارب بالتحرك ومقدمته باتجاه القناة الصغيرة التي لاحظها من قبل . احس أوفي وكأنه محمول على سائل قديم العهد ، على قوة الماضي ، أحس كما لو أن السكان القدامى لهذه المواطن قد وضعوا أكفهم عليه . أية اجوبة تنتظرون مني ، أيها المحققون الفاضبون الراكبون مهادا من حماة الطين ! كيف تتحول عظامكم المتفتتة الى شيء نفيس غريب ؟ ومد وقعت نظرتة لأول مرة على اللمحة الازلية تلك ، كانت تراود ذهنه هذه الايات:

على بعد خمسة باعات يرقد أبوك

من عظامه نبت المرجان

ومن عينيه تفتح اللؤلؤ

كانت تفوح من البركة رائحة التاريخ ، العبيد ، الذهب ، الزيت . حروب الماضي . جماجم الموتى ، الدم ، العرق والعظام ، الآلام الراقدة تحت مهد البحر ، الصرخات المختنقة في قبضة الصمت دون أن تمتزج بالظمي الاسود قط . طاقات الماضي وقواه المائلة دائما ، المحاجر الخاوية ثابتة النظرات التي تتطلب عيوننا حية ترى وتتعلم من الرعب وحلقات الماضي الجوفاء . الرؤى الباطلة ، أكف الهياكل العظمية وقد ملأ راحاتها الطين ، بضمات التجربة وهي تشير الى الواجبات المتجددة ... تلك الطاقة المستنفدة ، ذلك الخطأ المستنفد ، تلك الحلقة المفرغة التي هي في غير أوانها ، حلقة القوى المهدورة التي تصوغ مقتضيات التحول الجديدة.

ترى ما الذي يرفع مجاذيفه ان هو غرزهها عميقا في هذا المهذ المغمم بالتاريخ؟ ما الذي يرفعها من هنا هي التي تجسد المادة وعناصرها ؟ هي التي وضعت في حال من التحدي على الروح تنبئه . فتجارة الزيت تحولت الى امواج من رائحة الموت ، من الفوضى والدمار ، كما تحولت بعد ذلك الى ناقلات نפט تحمل الزيت الجديد . غدى اوفي هذه الصورة بصور المنقبين عن النفط الذين سبق له وعرفهم ضمن فرق العمل التي واجهها بالمصادفة ... الايطالي الذي اقمده عضات البراغيت من كل الاشكال والالوان ، والمهندس ذو الجسم العضلي والاورار كأوتار الاشجار المستنقعية وهو مغطى بالندوب ، يتقدم في صمت مع امتدادات الدلتا لتحطيم سيرورتها الرؤيوية . على وجه الايطالي ، خزانات كروية مطلية بالكروم ، تدفع ثاليلها ، وعلى الوجه الآخر عروق منتفخة نفوس في اللحم الاغبر ثم تعود الى الظهور ، ثم نفوس من جديد مثل أفاع بحرية ، ثم تتلوى وتنحني من جديد ، كخط أنابيب يمتد الى السطح قبل ان يختفي في التربة . أما العيون فمتحركة سريعة الاندفاع نحو الكنوز السائلة بين مقابر المجهولين ، والمفاصل تطلق على ايقاع الثقابات والمفجرات وهي ترسل أمواجه الصارمة عبر عروق الحجارة والصلصال ... عبر الاوراق وأشجار الغابة، عبر الترب والنضيد ، حينذاك ، كان التحول الكامن قد بدأ . شرع اوفي ، وهو يرفع عينيه باتجاه جملة الانبجاس الاسود ، تلك الموجة المتغيرة الشكل التي سدت الف حاجة ، يتساءل أية اجوبة ينبغي ان يقدمها للموتى المتحيرين وهو يسعى بين الاحياء لتبديل أعمالهم الفاسدة ، أفكارهم ، قيمهم ، دموعهم ، مرارتهم ، ذكرياتهم الماضية التي هي في طريق التحلل ، وهو يبحث عن تحول يشبه ذلك الذي يحدث للحم يدفن في التراب ، فيتعفن ليعود فيولد من جديد بتروول حياة . منذ استخدام العنف ومنذ الهزيمة ، اي تغير تحت القبة الزرقاء حدث يا ترى ؟ اي كيان جديد يمكن للمرء ان يستخلصه من الطاقات السائلة والزنخة للاجابة على ملايين الاسئلة ؟

لا تزعجني بعد الآن باتهاماتك ، غمغم الرجل لنفسه . اطرح أسئلتك على الكارتل الذي يصرف البترول كما يصرف حليب الكاكو .

لقد سقط في شرك من الخدر راح يفلته شيئا فشيئا بغلاف أسود فوق سطح الماء الذي كان يطبق عليه ، اطباق الجلد على الندبة . كان يجدف ناعسا فاطر الهمة ، وقد تسرب قليل من الماء عبر رفات القاع فيما كان يناور للخروج بالمقدمة من الفتحة التي راحت تتسع داخل سترة الغابة الكثيفة . جاء عقب الهدوء قلق اشد ، فأخبار كروس ريفر كانت تعود الى السطح، أفاعي تكتم انفاسه بحلقاتها ، بالفكرة القائلة وهي ان كل تفكير ، كل عمل هباء تماما : فكلاهما ، التفكير والعمل ، كانا يبدوان مكبرسين للعودة الى نقطة البداية . كان رفض التغيير يقود الى لحظات من اليأس . وخلف القارب ، كانت البحيرة نفسها تتأمر لانتاج ابواع ذلك الشلل واليأس، مغلقة

ندبة الانتقال ، قاضية على التحدي في نفس المسافر ، مستبدلة حتى طقس الانتقال البسيط هذا باعلان الثبات والاستقرار . تمويه ! غمغم أوفي ، فقوى التجديد كامنة بعناية شديدة داخل البركة ، مخفية لكن يمكن الوصول اليها ، لا تنتظر الا أن توضع بصورة شرعية قيد التحدي . لا ينقصها الا الفصل (١) المناسب الذي يجعلها تتحرك مطلقة قوى مدها التشنجية الحادة فتفجر الصخور .

كشر أوفي بشيء من الازدراء لنفسه ، وهو يبعد أوهام الامل الخيالية . فتلك البركة كانت تضح بالنكران حتى أعمق أعماقها ، وهي تقدم اللون الازدوازي الخالص للهدوء الابدي . فاعترف المجذف بحسده لها .

كان المحرك الآلي متكوما في مؤخرة القارب ، مثل علجوم عدواني ضخم ، تحديا آخر من تحديات الإيقاعات الطبيعية للمكان ، تحديا فظيما بفيضا بكل ما فيه من طاقة كامنة ، عاش معه أوفي احساسا جديدا ، اذ أحسن غريزيا بأنه مجبر على المشاركة في الدفع الاكثر نقاء الذي تقدمه المجاذيف ، لتحقيق توافقه شبه السري مع الظلال النفسية للزمان والكان . كان أهيم يشبه ذلك المجذاف الى حد كبير بخلقه نوعا من الحركة في نفسه وما حوله دونما أثر من جهد ودون اخلال بأي من التوازنات القديمة . كان ذلك يبقيه في حماسته الاولى تلك التي تجعله يسرع ورأسه مطرق ثابت لا يتزحزح . ماذا ستغير ؟ ان مات رجال الأيرو ، ما عسالك تفعل ؟ ان أحاق بهم الخطر ، كيف ستساعدهم يا ترى ؟ انني أحب ايريز كما لو انها فتاتي أنا ، لكنني ابدا لم أمسك بمصيرها بين يدي ، كما لم أمسك بمصيري أكثر .

مع ذلك ثمة رجل ، جماعة من الرجال جاهزة تماما للتآمر على مصيره ومصير الآخرين . أما هو فلا . . . في ذلك خطر ، رغم صور الزعب التي تتخلل روحه كلها ، خطر لن يعرض نفسه له . لا ندم ، لا توبيخ ضمير ، لا احتجاجات واهنة ضده . على الاقل . . . آه ، بالطبيب الاسنان ! على الاقل لم يكن لدى طبيب الاسنان سبب ، بالنتيجة . طبيب الاسنان بمنطقه الذي لا يرد عليه والذي يقول اقلع السن قبل العدوى . اقلع السن المنخور قبل أن يعدي الاسنان الاخرى . لقد تقبل طبيب الاسنان قيادته ، هو أوفي ، ثم حمته المسؤولية . ترى اي حل آخر يمكنه استخدامه للحيلولة دون انتشار العملية الفادرة ، عملية عدوى الجماهير المعرضة يوميا ، نتيجة القرب والجوع والحاجة والضعف البشري والحرمان ، للانزلاق أمام المفريات ، لان يسيل لعابها أمام قطع الحلوى الفاسدة في حقيقتها . اتراه قام بالاختيار الدقيق ، سأل أوفي البركة الاجاج ، ثم شق بمجذافه الماء فقاومته الامواج وهي تبتلع الآثار ضمن حاجتها لحماية ذاتها ، لاستعادة الركود .

(١) اداة فصل بين قسمي آلة التفجير .

تحت المياه ، تلك المرايا السحرية ، كانت بلورات الدوائر الصادمة للزمان قد بقيت تقاوم الزمان . ذات يوم كانت ايريز قد ظهرت له عبر تموجات الراسب الكثيف في قعر كأس من النبيذ فقطع الحركة اللا مبالية لاصبعه . كف ببساطة عن تحريك الكأس كي يجعل النبيذ يدور في الضياء ، مندهشا كل الاندهاش من الخيالات العجيبة التي تصنعها كأس من النبيذ الكثيف العادي .

غرر نظراته في المرآة الكبيرة التي كانت تزيد من عمق الكهف القاتم وطوله ، ذاك الذي صار ممرا لانتقال المسافرين ، وبفعل سحر السمع كانت موسيقى تافهة من ألحان ميتة تطفئ على هدير الطائرات تلك التي كانت ما تنفك تقلع وتحط في مكان قريب للغاية . دخلت تلف نفسها بفرو ثمين وتنتعل حذاء باليه ، أما نظراتها ، فكما هو الشأن دائما ، مفعمة بالنعاس ، ملقاة في أمواج محيط . لماذا تراها اهتمت به ؟ أهي الحاجة للقاءات مختلفة تماما ، لمعارك تنتظرها على بعد ستة آلاف كيلو متر ؟ لقد تحولت المجهولة : لا ، ليست هي سوى ايريز ، رغم الفارق في البشرة ، فلون الكاكو هنا أفتح قليلا وأشد لمعانا في الضوء الخافت المهدى ، أما خطواتها فأقل تكاسلا مما يتذكر لكن ربما كان ذلك طبيعيا فوق السجادة السميقة . وهكذا أصر : برغلة الجلد هي نفسها : انها عند اللمس تشع ارتعاشة مخملية حارة في قلب العتمة . تطلع حينذاك الى الانعكاسات الاربعة للشراب المذهب في كهف المرايا . انزلق شال الكتف ، فامتدت ذراع نحيلة تمسك به ثم تضعه من جديد حول العنق ، ففهم : ايريز ، ماذا تفعلين هنا في عالم اللهو الاوربي هذا ؟

بذلك تحول البار الخاص بمسافري الترانزيت الى قطعة من ارض الوطن ، فتلك الساحرة لم تكن غريبة عليه . أهو الحنين الى الوطن ؟ لقد شجع ذلك الوهم الدافئ : كان وحيدا معها ، وكانت كلمة السر قد قيلت ، ليقاد بعد ذلك ، ضيفا ليليا موحشا الى كهف عذراء . فكما تصور ، كان كل ما في وجهها ، كتفيها الهشتين يعلن عن عذريتها .

لا يهم ، فالسحر كان طاغيا : لكن حتى العاطفة التي أمسكت ببلعومه لم تستطع منعه من أن يشير للساقي بأن يصب له كأسا من النبيذ . الحنين والهروب كانا يتصارعان في داخله ، مخلفين وراءهما آفا من الشظايا التي انفرست في لحمه . فجأة انفتحت الابواب الخارجية ودخل مزعج مجهول ، مزعج مصنوع من لحم ودم . كشر أوفي ، فقد كان أسود مثله ، وكان هناك الكثير مما يدفعه لان يراهن انه سيخاطبه .

كانت بشرته من لون النحاس وشعره مثل ظلة من غبار . في الحال رآه أوفي يلقي نظرة لا مبالية الى المرآة . هل كان يتطلع الى العذراء ؟ حضور هذا المجهول الجديد اعطاه دفقة جديدة من الحنين لارض الوطن . وكان ثمة حفيف خفيف غير

مفهوم تقريبا ، مع ذلك التقطت اذناه ذلك الحفيف الخفيف الذي امتعه باديء ذي بدء ، انه حفيف الشال وهو يسقط على الارض . نهض ، لم الشال ثم تلقى كلمة الشكر مع الدهشة من العينين الكبيرتين المشعيتين على نحو لا يصدق . هندية ؟ لكن للحوار فن وفن الحوار تخلى عنه في تلك اللحظة الحاسمة ، فعاد الى مكانه متلعثما يتمتم .

بعد ذاك شرع يدبر بين أصابعه قاعدة الكأس ، فيما كان المزعج يراقبه من تحت أجنافه الخادعة . بدأ أوفي ، الذي بات ساخطا من ضيقه وتردده ، يلعن أولئك الذين فرضوا عليه تلك الرحلة . لماذا ينبغي علي أن أضل وأنا أبحث عن المعرفة فوق هذه الشواطئ المجذبة المتعجرفة ؟ ما تراها تسمى هذه ؟ آه ! نعم أساليب التخلص . دق أوفي كأسه بالطاولة وهو يهمهم : « أنا عائد الى الوطن » فتحطمت الكأس بين يديه . رفع المجهول نظريه وكذلك العذراء . فيما أسرع النادل المتألق المنشى ، في يده خرقة وفي عينيه نظرة صارمة ، فطلب أوفي كأسا أخرى من النييد .

مع ايريز المحررة ، المكتشفة ، المستعادة ، المتحولة ، المصنوعة من جديد ، تبلور مشروع عظيم لحملة الكاكاو ، انبثق كاملا على ضوء لقاءهما الاول من دماغه المتوهج . الهة ، أميرة ، كريزاليد بزور الكاكاو ، كانت ، ومن حولها انبثقت ألف فكرة والف ابتكار ، حشد من التملقات والتحويلات السفينجالية(1) واضعة النهاية لعدم نضجه ، لابتدال شخصه . وها هو ذاك رجل حكم عليه منذ البداية بالنفي ، فرضت عليه رحلة دراسية لمدة ستة اشهر ! مفعما بالمرارة ، رشف الخمرة ثم استدار من جديد ليلقي نظرة متمهلة على الكتف شبه العارية ، كتف العذراء الواقفة على مقربة من البار . غريب ، ربما هذه ايريز ، فلها لون البشرة ذاته . في تلك اللحظة تماما علا صوت المكبرات المختفية هنا وهناك .

لكن رد الفعل لدى الفتاة الشابة ، التي ألفت رحلتها الجوية ، هو الذي جعل قلبه يخفق من جديد . فقد استدارت باتجاه مصدر الاعلان ، مرتابة شاكة ، فمها يعبر عن كارثة ، كما بدت وكأنها على حافة البكاء ، بعد ذلك لمت شالها وحقيبة سفرها وتوجهت نحو الباب فنهض أوفي بوثة واحدة لاحقا بها .

لكن المجهول سد طريقه

— المезде ، هل أنت من ... ؟

— كيف ؟ (قال مفعما بسخط لا ارادي نفذ حتى الى صوته ، ثم استدار باتجاه المتطفل كي يصبح في مواجهته) ماذا تريد ؟

(1) نسبة الى سفينجالي : بطل رواية « تريبلي » للكاتب البريطاني جوزيه دي مورير وهو الشخص الذي يحاول عادة ، مدفوعا بسوء النية ، أن يقنع أو يرغم شخصا آخر على الخضوع لاوامره .

- أرجو أن لا أكون قد أزعجتك ... لقد سمعت ما صحت به للتو ، حين حطمت كأسك .

- نعم ؟ (شخص مزعج فقط) .

فتابع المجهول دونما احساس بالاضطراب ودون أن يعير أدنى انتباه لنفاد صبره .
- هل يمكنني أن أعرض عليك كأسا ؟ فقد ظننت أنك من أبناء بلدي وحين سمعت الهتاف الذي هتفت به ، مرت لحظة ...
- من أي بلد أنت ؟

لكنه لم يتوقف لسماع الجواب ، إذ طغى عليه احساس بالحدة والانضغاط لقناعته المفاجئة بأنه تأخر كثيرا ، فانطلق في اتجاه موطنه : « لحظة وأعود ! » ثم فتح الباب ولم يتوقف إلا حين وجدها في مكتب الشركة .

هناك ، لاحظ للمرة الأولى ساقها الطويلتين ، كساق عارضة أزياء ، الجزء الوحيد من جسمها الذي كان متطورا كامل التطور . كان يحديق اليهما وهما يتعدان ببطء ، بخطا رفيقة ، على ماء البركة حيث كانت تتشكل الامواج التي تصارع روجه ، فتذكرانه بصورة إيرييز .

حين بات على مقربة منها ، رفعت ناظريها :

- أوه ! هل كنت أنت الآخر على الرحلة الجوية التي أليت ؟

فكذب مومئا براسه بالايجاب وعلى وجهه علائم الانتصار .

حين عاد ، كان المجهول ينتظر ، جالسا صابرا ، غير أن نشوته قضت على الاحساس بالذنب الذي أحس به لتركه اياه على ذلك النحو المفاجيء .
- دعني أقدم لك كأسا ، اقترح بأسلوب من يود الاعتذار .

فابتسم المجهول بدوره .

- اغفر لي ، فأنا لم أحسب حساب ... أرجو أنني لم ...

فطمأنه أوفي ثم سأل :

- منذ متى غادرت البلاد ؟

- ست سنوات ونيف . لقد درست طب الاسنان (ثم تردد ، توقف ، بعدئذ سأل بدوره) وأنت ؟

- ثلاثة أشهر فقط ، لكنني أشعر بها وكأنها سنوات .

- كيف هذا ؟

- أنا ضجر تماما . (بعدئذ دهش حين سمع نفسه يقول :) هذه الرحلة الدراسية المزعومة فرضت علي فرضا . واني لاحتقر نفسي لانني لم اقاوم حتى النهاية .

انتظر المجهول ، دون أن يبذل ادنى جهد في اخفاء رغبته ، فرفع أوفي كتفيه .
- أتريد أن تعرف كل شيء ؟ الامر معروف تماما ، فوضعنا لم نعد سرا على أحد .

ثم غدا الآخر متوترا مشدودا حين بدأ أوفي يرسم له بخطوط عريضة حملة الكاكاو الاعلامية ، الى أن انتهى عند ايقاف تصوير فيلم الأيرو . حينذاك فقط ، علق طبيب الاسنان وهو يتسهم بقدر خفيف من التنازل .

- الارض السوداء الخصبة ، أو الاوباش السود الاغنياء ، فليس باستطاعة المرء أن يتناول إلا واحدا منهما (بعدئذ شرح الرجل فكرته ، فرفع أوفي عينيه وقد لمس في صوته نفمة القلق) أخيرا ، لو أن المرء يعمل بمفرده . أو لو أن لديه نوعا مختلفا من التقنيين الذين يساعدونه لكان باستطاعته أن يتناول الاثنين معا ، وهما يعملان معا . يعملان معا ، (كرر المجهول عبارته وهو ينهض) أنت باقى بعض الوقت ؟ أقصد ، هنا في هذه البلاد .

- بإمكانني أن أغير خط سيري ، اذهب حيث اشاء ، اعترف أوفي بشيء من المرارة .

- حاول أن تبقى هنا بضعة أيام فقط . فالنشر عمل مزدهر هنا أيضا (ثم قام بإشارة من الرأس في اتجاه الباب) وصديقتك الشرقية ؟

فابتسم أوفي ابتسامة ملأت وجهه .

- امرأة فاتنة . لقد حاولت أن أجعلها تنظر الى الفاء رحلتها وكأنه من تدبير العناية الالهية ، ثم اضاف بهيئة المغتم ، فبدت وكأنها تعتقد ذلك فعلا ، لكن ليس بسببي .

- باستطاعتي أن أقدم لك غرفتي ، قال طبيب الاسنان ، فلماذا لا تبقى هنا ، بضعة أيام على الاقل ؟ هناك الكثير مما يمكننا أن نتحدث عنه .
- حسن ، موافق ، وشكرا .



بخار متصاعد فوق مشعات حرارية تعمل على الغاز عند الفسق ، انخاب واحلام يقظة في الصباح والمساء ، وظل شخص ضعيف متناقض ظاهريا ، شخص فتي ورزين ، يبحث عن طريقة يجربها العالم الى السلام الداخلي الذي يعيشه .

- أريد أن امتلك العالم كله هنا ، في داخلي ، لكن قبل كل شيء ، لا بد لي من اخضاع وجداني للكون .

- اسمعي اير . . .

- آه ! لا (وتصلبت عيناها الفتيتان بالغضب ، للمرة الاولى منذ أن تعارفا .)

- ما الامر ؟ سأل وقد بدا عليه الاضطراب فعلا .

— لا تذكره بعد الآن . في البداية ، لم اكن متأكدة ، أما الآن فقد اعترفت أنت بذلك ، وأنا لست منزعة . لكن لا تلفظ هذا الاسم بعد الآن .

ثم مرت اللحظة وزال العالم الخارجي من جديد : لم يعد في محله شيء سوى عينين كبيرتين تملآن الصالة القما ، مصباحين نذريين يتقدمان فوق خطوط شعاعية غير مرئية باتجاه مركز الكون . استدارت تاييلا نحوه ثم حدقت اليه ، فأدرك ما تريد قوله في تلك اللحظة : كانت تدعوه للانضمام اليها ، هز أوفي رأسه :
— لقد قلت لك ألا تنتظريني .

فصعدت آهة .

— نحن نلاقى ونتلقى ، لكنك لا تريد الخروج عن طريقك الدائري . لقد انفلقت على نفسك في دائرتك ، دائرة العنف ، يا أوفي ، فلماذا ترفض الاستراحة ؟ الحمأة والطين ، بالنسبة الى البعض ، هذان هما طريق الجمال والسلام . لكن ربما ، سنتلقى من جديد في نقاط التقاء عدة ، أنت وأنا ، العذراء الغامضة في البار الخاص بمسافري الترانزيت . . . ثم تقدمت وأمسكت بيده :

— لكنك لا تصدق أن هذا هو المصير الذي كنت أرغب فيه . أنت تعتقد أن هذا كله حدث بمحض المصادفة ، أخي الطبيب في بلادك ، رحلتي الجوية تلفى وأنا على وشك المغادرة لزيارته ، وأنا وأنت وحيدان في البار . ألا تعتقد أن هذا كله جرى بمشيئة القدر ؟ ألا ترى أنني هنا لانقاذك ؟

فحاول أوفي أن يضيف على صوته كل الاخلاص الذي كان يحس به .

— صدقيني ، أنا احسدك ، أنت ورؤى الانقاذ التي تتراءى لك . أجل ، فعلا . لكن علي أيضا أن أفكر بهمومي الخاصة ، فدعيني أتبع آثار خطاي على الدروب الجانبية ، يا تاييلا . ثم أضاف بعد لاي : من جهة اخرى إن كانت مشيئة القدر أن نلتقي ، فان مشيئته أن التقى بطبيب الاسنان أيضا .

كانت أجراس الكنائس تدق احتفاء بالثلج الجديد ، وكان الجو قد تحول الى موسيقى خالصة بأفقه المسود بقباب الاجراس والمداخن المتطاولة في سماء الشتاء الحية . داس أوفي بقدميه الهموم والاشغال كلها ، ثم رافقها حتى مركز مراقبته لتأمل الرتل الطويل من الراهبات السائرات نحو أجراس صلاة العصر ، وهو يبحث في الضباب اللانهائي ، متقدما بكل مشقة على رؤياه للطرق الشعاعية التي كانت تتلاقى في قلب الهدوء الاصم .

كان المتسكعان يخترقان عالم الثلج ، يفوصان في الآفاق البيضاء لسكونه اللانهائي .

- — لنمض ، اقترح أوفي ، جذائي تبلبل بالماء ونحن نتف هنا دون حراك .
- أهذا هو السبب الوحيد ؟

— لماذا؟ ما عساه يكون السبب الآخر اذن؟
— انت لا تحب ان تراني انظر الى الراهبات .
— انت غبية ، قال أوفي بنبرة توبيخ ، كل ما أريده هو ان أنشط ساقى ،
لا أكثر .
— وانا ، كل ما أريده هو ان أنشط روحي . أريد ان تمتد روحي الى ان
تشملم العالم .
— اسمعي ، يا أخت ...
— لا تقل لي يا أخت (أدارت ظهرها مبتعدة بخطا سريعة ، زامة شفيتها وقد
ارتسمت على وجهها الخيبة) لم أتوقع ان تحاول الهزء بي .
في البداية لم يفهم الامر ، لكن بعد ذلك لمعت الفكرة في ذهنه فحاول ان يشرح
موقفه .
— لا ، لم أقصد ان أقول : أخت ، بمعنى الأخت المبعجلة ، بل ببساطة قلتها
كما أقول يا أخ .

فارتسمت ابتسامتها على المنظر الكئيب .
— أدري ، أدري . لكنني أحب ان أراك نادما .
— وأنا أحب ان أضربك على قفاك .
بعدئذ عادا الى البيت بخطا بطيئة .
— كان ينبغي ان تكون طبيبا ، أعلنت تاييلا . الحاجبان المعقودان ، الرزانة ،
لكأنك تفكر أعمق التفكير بمعضلة من المعضلات . أنت جميل جدا ، هل تعلم ذلك ؟
انني أرى فيك قدرا كبيرا من الجمال .

شكرها أوفي بنفمة ساخرة ، فتابعت المرأة بهدوء .
— أوه ! أنت جميل جدا ، خارجيا أيضا ، لكن هذا ليس مهما . الأطباء
الحقيقيون هم الذين يثبتون مصداقيتهم في شفاء الناس ، ومن يشف الناس يشع
جمالا ، فما يشفي ، كما تعلم ، انما هو الجمال الذي يشع من شخصياتهم .

كانا قد عادا الى الشقة ، وكان هو يدفء يديه على مشع الغاز . بعدئذ التفت
فراها واقفة خلفه ، قريبة كل القرب ، تتأمله باكتئاب . رفع أوفي باتجاهها ، وهو
ينقر باصبعه على ذقنه ، محياها ، جملة المتناقضات ، مزيج المراهقة والخبرة
ثم قال :

— أنت مفعمة حكمة ، أنا واثق من هذا ، وجميلة من الداخل مثلما أنت من
الخارج ، واذا كنت هذا كله ، فلماذا الافتتان بالحياة الدينية ؟ ترى هل فكرت
مليا حقا ؟

— المتدينات هن أيضا نوع من الشاقيات ، والشفاء هو الجمال وحده .

– ثمة اشكال عديدة للشفاء . الشفاء بالنار مثلا ، الشفاء بالريح التي تفتلح القذارات وتلقيها في الخواء . بل حتى لو كان النور قويا جدا او باهرا جدا فانه يكشف الحقيقة الداخلية . انا ايضا ابحث عن الجمال لكن عن ذلك الجمال المجرب والمختبر ، فهذا هو وحده الذي يدوم . كوني متدينة ان كنت تؤمنين بذلك ، لكن كفي عن القاء المواعظ علي .

– انا لائق بالناس العنيفين !

– انت ينبغي الا تسترقي السمع على الابواب حين تكون هناك مناقشات خاصة .

– لم استطع منع نفسي .

– اذن ، عليك ان تنسي ما سمعته ، (وامسك بيديها ثم تكلم بعدوبة اشد) من جهة اخرى ، لا تنسي أنك استمعت الى مناقشة ، مجرد مناقشة لا اكثر . لكن عليك ان تعلمي من القليل الذي سمعته أنني انا نفسي لا اؤمن بالعنف ، لكنني اراه واعرفه ، وعلي ان اواجهه هناك .

دارت تايبلا على عقبها ثم جلست على عتبة النافذة . فأحس أوفي أن كيانه يفرق في آهة مشبعة بالأم المحيا الرقيق للفتاة الشابة . بعدئذ شرع يتكلم ، عيناه نصف مغمضتين والرأس مرفوع باتجاه السقف :

– هذا النوع من اللقاءات ينتهي بدمارك . انه يسد طريق النور، طريق الجوهر ، أفهميني ؟ أحاسيسي غير مترابطة . لقد قابلتك وتقربت اليك وأنا أفكر بالسر نفسه الذي جمعنا ، كما ان لدي ايضا احساسا بالوهم حيث انفلق على نفسي لانك لا تجسدين الا جزءا من رغباتي ...

– الجزء السار ؟

– اجل ، الطمانينة .

طفى على محياها فجأة نوع من الالق ، فرشقها أوفي بنظرة اندهاش .

– انا أعلم أن بإمكانني أن أساعدك في الوصول الى تلك الطمانينة ، ذات يوم . كما أعلم كل ما أنت متعلق به ، وعلي أن أؤمن به ، بل أرغم نفسي على رؤية مجمل الصرح ، كذلك أعلم أنني سأبلغ حالة من التجرد الواعي يمكنني فيها ان ألقط عن بعد وأن أفهم كل شيء في لحظة واحدة . لكن حتى ان كانت تلك اللحظة قصيرة للغاية فانها تكفيني ، ولسوف تكفيك أنت ايضا ، أجل ، ستكفيك أنت ايضا . وهذا نفسه ما يجعلني سعيدة .

– أنت فتية تماما ، لكن ما تبحثين عنه انما يفتح لك باب الموت .

مدت تايبلا عنقها الطويل عبر النافذة ، ساعية لرؤية موكب الراهبات الذي كان يبتعد ، فجعلته حركتها تلك يفكر باوزة تسبح في بحيرة عند الفسق ضمن اطار من الجليد الخفيف .

- ليس هناك ما يضاهي جمالهم ، غمغمت المرأة ، وهن يمضين حياتهن كلها استعدادا للحظة التي يواجهن فيها الابدي الخالد . انهن يرين ، يفهمن ، ويعشن في سلام . قل لي يا اوفي ، هل يمكنك أن تتصور لحظة من التناغم أكثر شمولية ؟ ترى ليست الحياة شيئاً لا يحتمل أن كان المرء لا يؤمن بلحظة كهذه اللحظة ؟

- طرق احدهم الباب ، فأمسكت المرأة انفاسها ، ثم تطلع واحدهما الى الآخر .
- ضيفك يطرق الباب برقة بالغة ، قالت بهيئة من يفكر ، لكن المرء يحس بالعنف خلف تلك الرقة ، حتى وان كنت لم اقبله قط ، حتى وان كنت لم أسمع كلمة منه ...

واسرعت باتجاه الغرفة ، مغلقة الباب خلفها بيد مطمئنة .
- ادخل ، قال اوفي بصوت قوي .

فدخل الشاب ، رجل المطار نفسه ، وفي يده حقيبتة . وعلى الرغم من أنها كانت حقيبة صغيرة ليس فيها الكثير ، الا أنها صدمت الارض بصوت جاف كصوت المعدن حين وضعها على الارض .
- كل شيء في داخلها ، أعلن الزجل ، متى تفكر بالمغادرة ؟
- غدا ، ان كانت هناك طائرة .

فرفع الضيف كتفيه دليل المفاجأة ، ثم لفت رأسه لحظة من الزمن ، والتساؤل في عينيه ، باتجاه باب الغرفة التي اختفت فيها تايبلا .

هز اوفي رأسه ، فطمأنت السائل المستفسر ابتسامته الكبيرة ، رغم أن الحسرة كانت تضعفها قليلا ، بعدئذ نظر باتجاه الباب ، نظرة لم يرد منها سوى التحقق من أنه لم يكن مفتوحا ، ثم قال
- الا تعتقد البتة أن هناك مأزقا خطيرا ؟
- لست متأكدا من ذلك .

- هذا غريب ، قال اوفي ، لكنها هي نفسها لا تفكر عمليا الا بالقدر . كل شيء من صنع القدر . لقاؤنا في صالة المطار ، وصولك في اللحظة نفسها . انها تنسج الخيوط كلها وترتبها على هواها ، اما خارج ذلك ... فلا يوجد شيء . لاحظ ، أنا نفسي غير واثق ... فلو أنك لم تصل في تلك اللحظة (ثم رفع كتفيه) لقد كنت في مرحلة يشفق المرء فيها على نفسه ، فاما كل شيء سلبي أو ... لا أدري ماذا بعد . لفلك مررت أيضا بتلك المرحلة التي يتساءل فيها المرء : وما الفائدة في نهاية المطاف ؟ (ثم أشار بيده الى الكرسي) ويسكي ؟ أوه ! لقد نسيت ...
- لا ، لا ، ماشي الحال ، أنا لست أكثر ... أوه ، أنا في مأمورية .

فرشق اوفي الحقيبة بنظرة سريعة .

- أجل ... من أجل وضع عنوان للرواية : هل نفذت المهمة ؟

فابتسم الشاب وكأنه يعتذر .
- آسف ، لكن عالم الروايات ليس مألوفاً بالنسبة الي ، بل هو بالحقيقة
يشير في نفسي الكثير من الاشمئزاز .

فأجاب أوفي ، وهو يحاول عبثاً أن يخفي الازدراء الذي نفذ الى صوته .
- الاتبالغ قليلا يالينيين ؟
- لا ... لا

- انك ترى أخطاراً تهدد في كل مكان . كما أنك لا تشرب كحولا حين تكون
في .. حتى في قضية ليس فيها خطر مباشر . أما بالنسبة الى النساء ، الفن ،
الموسيقى ... فرقع الشاب كفه .

- انها عادة النظام التي اكتسبتها مع الزمن ، لا اكثر من ذلك . لينين ؟ كلا
لقد احترس من الفنون فقط باعتبارها توهن العزيمة ، احتياط عادي ، (وابتسم
ابتسامة مثيرة للتأثر) من جهة أخرى ، لماذا ترانا نختلف ؟ ذلك لانك قلت لي عن
شغلك ، عن موسيقاك مثلاً ، فكيف يمكنني أن أكون ضد ذلك ؟ لقد كان الخطر كافياً
الى حد أن كارتل اللصوصية والاجرام المنظم أرسلك الى الخارج للقيام بهذه الرحلة
بملاء موافقته . أما بالنسبة الى النساء ، آه ، حسناً ، انني أنتظر بفارغ الصبر اليوم
الذي سألتقي فيه بايرييز الشهيرة

- لنشرب نخبها (هتف أوفي صاباً الويسكي) ، نخب نجاح هذه الحقيقة
فكلتاهما أساسيتان ، الاولى والثانية ... ولكن هذا يعتمد ، قال متمهلاً مؤكداً على
كل حرف يقوله ، هذا يعتمد على الموقف الذهني .

وشرب الرجلان ، فيما خيم صمت ثقيل على الجو . بعدئذ ، وعلى نحو مفاجيء
تماماً ، شرع الشاب وقد ثار بفتة ، يذرع الغرفة جيئة وذهاباً ، أخيراً انفجر فجأة :
- هل فكرت بما يمكنك أن تفعله اذا فتش أحدهم هذه الحقيبة ؟

فمد أوفي يديه .

- بشرفي أنا أجهل ما تحويه .

- أنا آسف لاضطراري أن أطلب اليك هذه الخدمة . لكن زمناً طويلاً مر علي
مذ غادرت البلاد دون أي اتصال بعائلتي على الاطلاق .. و ... أنا لا أجرؤ أن أعود
ويدي فارغتان !

- اسمع ، لنفرض أسوأ الامور ، فان موقعي واضح . لقد قابلت بالمصادفة
رجلاً طلب مني أن أنقل له هذه الحقيبة ، وقد دفع لي أجرة زيادة المتاع أيضاً . تلك
هي قصتي ، ولا تأكل هما ، فلن يحدث شيء .

غير أن عيني الشاب بقيتا مغممتين مرارة ، ثم بدأ يسب وهو يصرف بأسنانه .

- أولئك القدرين ! انهم لاغبياء قاصرو النظر تماماً ! يضعون ملفاتنا في ايدي

الداعدائنا .

ودهش أوفي من الشدة التي عبر بها عن احساسه ، كان المخطط مألوفاً كثيراً الى درجة أنه بات مملاً . تغيير الحكومة بالعنف ، القادة الجدد يسعون للتعرف الى رجل السلطة في الدول المجاورة بتملقهم وابداء الاعجاب بهم ، وثماناً للاتفاق يعرضون عليهم اللاجئين الفارين من تلك المنطقة التي تعاني من القمع ، بل يقدمونهم احياناً مغلفين موسقين كما هي الطرود البريدية ، اضافة الى ملفات كاملة تحوي الاسماء المستعارة ، الصور الشخصية ، النشاطات واللوائح بأسماء الاقرباء . صفقات تثير الاشمئزاز ، المقايضة القديمة باللحم البشري ، تجارة العبيد التي كان يقوم بها امراء القارة السوداء ، استمرار دورهم التاريخي في الخيانة المربحة ، خيانتهم للحمهم ودمهم . الى هذا الحد وصلت الحال ، لا اكثر ولا اقل ، دعم السلطة المتفككة بصفقة من صفقات اللحم البشري ، فتح طريق العبيد الى داخل افريقيا ، وكل هذا مغلف بلفسات وحكم صفيقة وقحة .

– على كل حال ، بإمكانك في حينه أن تتخلص وتفر بجلدك ، قال له أوفي مواسياً .

– آه ، هانذا مجرد ، عار ، محروم من الرفاق ، من أي اتصال بالاهل ، من اية وسيلة للعمل . ايدولوجيا فقط ، يا لله ! كم هي جميلة الكلمات التي يوجهها اولئك الحكام – الدمى لحركات التحرر ! لماذا هذه الخيانات ؟ أجل لماذا ؟ اذا كنا نجسد مثل هذا الخطر ، فلماذا لا يدعوننا ، وبكل بساطة ، نغادر الى موزامبيق ؟ ان كنا نتدرب ، فذلك لكي نذهب الى هناك ، الى موزامبيق أو غينيا بيساو (ثم شرع ، وقد هدأ شيئاً فشيئاً ، يرشف من كأسه بهيئة تأملية أكثر فأكثر) . لكن لعلهم ، بعد كل شيء ، قد قدموا لي خدمة . اذ أن باستطاعتي أن أستفيد من هذا التدريب في بلادي ذاتها ، في اقليمي نفسه . انما كان لا بد من مرور وقت طويل قبل أن أتقبل هذه الكليشيه ، لكن ، بالحقيقة ، فعل الخير يبدأ من تلقاء ذاته .

– أنت لم تنس ما اتفقنا عليه .

– كلا ، وأنا بالانتظار . انني ملزم بمجريات الموقف . . . وأنت تزودني بالمعلومات الاضافية . لكن سوف اعطي نفسي مهلة زمنية لدراسة كل شيء دراسة ميدانية . فانا أحب أن أرى الوجوه ، أتعرف اليها ، أتعرف حتى الى أولئك ، ثم توقف بفتة ليفرغ كأسه بجرعة واحدة .

فتفحصه أوفي بالضيق ذاته الذي احس به في البداية .

– ينبغي ألا نعمل باتجاهات مختلفة . . .

فواجه نظرتة بنظرة مستقيمة مباشرة .

– هذا امر لا أستطيع أن أضمنه لك .

– مهلة زمنية ! أصر أوفي . مهلة زمنية كي نعلم الناس ، نثقهم على نطاق

واسع . فالمرء لا يحقق شيئاً بالعمل الافرادي ، لا بد من التنظيم .

لكن كلماته لم تثر سوى نوع من الهمهمة نصف الموافقة .

— بالتأكيد ، لكن لا يمكن للمرء أن ينسى الاعداء الذين لا يمكن اصلاحهم قط ، الاعداء الرافضين لكل تعليم أو ثقافة ، شأنهم شأن أولئك الذين نتبع آثارهم مذ وجدوا أنفسهم في سدة السلطة ، شأن البورجوازية القدرة التي سارعت في الحال الى تقديم الاطباق لهم والى احس أحذيتهم علنا ! ترى ما الذي كنت أفعله خلال هذه السنوات الطويلة من التشرذ ؟ ما الذي كنت أفعله سوى تأمل ذلك الامتداد ، ذلك التحول الى وباء منتشر فوق القارة كلها ؟ عسكريون جهلة متفطرسون يتمسكون بالسلطة الى أن يسقطوا كالثمار المتعفنة ! ومستغلون مهووسون بالسلطة يجهلون أين تقع حدود بلادهم ويتجرون بنا مع الغرباء ، يتآمرون ويتآمرون ، وخطب طنانة رنانة توجه الى الحركات الثورية لكنم صرخات القمع في الداخل . قل لي يا صديقي ، ما تراهم يبيعون ؟ ضمن هذه التعريفه كلها ، ضمن صفقات السوق السوداء هذه ، ترى ما هي السلعة التي يبيعونها ؟ انها نحن !

راح أوفي يدبر ويسكيه في كأسه شاعرا بالانزعاج اكثر واكثر ، متسائلا اي جزء من هذه العاطفة الشخصية يمكن أن يدخل في حساب الخيانات . فتابع الشاب وكأنه قرأ افكاره :

— لا يشغلنك همي . واذا رأيتني أتكلم على هذا النحو فذلك لانني احس بالاحباط نتيجة العطالة الطويلة (وعادات الابتسامه الصببانية للظهور) وكذلك نتيجة الويسكي . لهذا السبب بالذات انا لا أشرب قط حين أكون في مهمة عمل . ففي لحظة العمل ، الآلة تؤكد على البديل ، والقرارات تكون متخذة سلفا ، وانا لا أستطيع السماح لنفسي بترف الشك . فلا يشغلنك همي ، لا يشغلنك همي . . . راح الرجل يكرر .

* * *

وكما في حلم من الاحلام ، راح القيارب ، وهو يسير مع التيار حول البركة ، يقترب من القناة من جديد . كانت الاقواس التي صنعتها الاغصان تتدلى على الممر الضيق ، اخيرا أدى تغيير في حركة المجاذيف الى قيادة القارب الى هناك ، فتلقى أوفي بوجهه مداعبة الاوراق التي تنضح نسفا ونضارة . لم يخفض أوفي راسه لتجنبها . الخوف من الموت . . . لا ليس الموت غرقا ما يخشاه أوفي بل الموت الناجم عن خطأ ما ، خطأ ليس خطاه بل خطأ الآخرين ، خطأ ناجم عن قرار طائش . وان كان ذلك القرار قراره ، اذن سيكون أسوأ من موته ذاته ، لان ذلك سيكون موت فكرة ، امتدادا للممر الذي يفتح على هلاكه ذاته ، ايا كان الاسم الذي يمكن أن يطلقه عليه الناس . فقدان الايمان ، ذلك تعريف جيد .

لقد شرح لاهيم ذلك كله من قبل : « لا ، أنا لا أريد ان أموت مباشرة » . فلوح العجوز برأسه ازاء ذلك الذي اعتبر نوعا من الهذيان . « اذهب الى هناك . انه الجري الى الموت وانتظر ريثما تهدأ نائرتك فليس باستطاعتك ان تساعد احدا . واذا ما قدمت لرجال الايرو تضحية من التضحيات ... فان ذلك سيكون من اجل قضية عادلة » .

« هذه ليست تضحية » ، فكر اوفي بكثير من المرارة ، « هذه ليست سوى مقدمة لاكباش محرقة اضافية تستخدم لتضليل مقتفي الآثار ، لتحويلهم الى هيكل اله الملحدين ، مامون . كلا ، هذه ليست تضحية . وآهيم ، الكاهن الذي يحمل سكين الاضاحي ، لا بد من ان يعلم اكثر من اي شخص آخر كيف يتجنب تلويث هذه الكلمة » .

كان آهيم هو الذي قاده الى البركة ، فقال اوفي في نفسه ، « اياها كانت العظام التي ترقد تحت المياه ، فالارواح التي غادرتها ما تزال عطوفة رفيقة ، انا واثق من ذلك . هنا ، جالسا فوق الضفة ودون ان أقوم بأي عمل ، سابقى طوال النهار ، وفي النهاية ساحس بالانتعاش ، سأعود الى الشباب . واياها كانت المخن التي قادتني الى هنا ، بحثا عن السلام فلسوف تختفي ، آه ، لكان وحيا يوحى في أذني » .

كان الصوت الوحيد الذي وصل اليه انما هو نداء ايريز ، نداء لم يأت همسا بل صرخة هماناة عالية . وكذلك اصوات مخنوقة ، اصوات الايرو الذين انطلقوا تلبية لندائه ، طليعة الفكر الجديد ... فجأة انفتحت القناة على منسبط واسع من الماء ، فاتجه القارب نحو ضواحي المدينة التي رآها من بعيد . نهض اوفي ثم وضع المحرك مكانه في مؤخرة القارب . بعدئذ امسك امساكة قوية بالحبل ثم سحبه ، فهدر المحرك .

بعد ذلك ، وعيناه مثبتتان على الماء الذي كانت تشقه مقدمة الزورق ، رفض اوفي النظر الى العجوز الناحل الذي ما ان سماع صوت المحرك حتى وثب خارج منزل الاجتماعات . ثم أسرع الى الضفة حيث لم يلاق الازيد الماء ذاك الذي كان القارب يخلفه وراءه وهو يبتعد . لكن ، قبل أن يخفيه منحني الضفة التالي ، رفع اوفي احدي ذراعيه تحية للعجوز فيما ظلت عيناه محدقتين الى الامام دون أن تنحرفا قط .

* * *

« V »

كانت أرض ايرلو ترتفع على شكل حلزونات من صدا ، وكان الرجل الذي اقترب مغطى الرأس ، وحشا هادئا ذا شعر من نحاس ، بل حتى لون وجهه كان اشبه بزئار من صدا ، مهذا ناعما من غبار على آجر مشوي صلب . من ذلك البعد ، كانت الندوب ، وهي ثلاثة خطوط أفقية على كل وجنة ، تبدو وكأنها من عمل واشم يشم بلمسات بالغة الدقة ، اذ كان الجلد قد اندفع هناك طاغيا عليها فلم يبق منها سوى أثر بسيط . لاحظ أوفي ذلك الرجل الذي نهض من بين مجموعة صغيرة من الرجال الجالسين في الصالة الخلفية للمطعم ، كما لاحظ بأية ثقة مطمئنة اقترب من طاولته ثم اقتعد الكرسي الفارغ . فبسط أوفي الخريدة التي كان يحملها لكن الآخر أخذها منه ، تأمل تاريخها بسرعة ثم أعادها اليه مشيرا الى صورة القاضي الذي اغتيل ، قائلا :
- أنا الذي فعلت ذلك .

لم يكن في صوته نبرة تفاخر ولا غطرسة ، لا توبيخ ضمير ولا ندامة ولا حتى رضى ذاتي ، بل مجرد اعلان للحقيقة ، جعلته نبرته يبدو أكثر تفاهة . دهش أوفي الى درجة ظل معها فترة من الزمن هادئا لا ينبس ببنت شفة ، فبعد كل شيء ، كانت تلك هي المرة الاولى التي يجلس فيها وجها لوجه مع قاتل محترف يقر بذلك .
- الشرطة لم تقدم وصفا دقيقا للرجل الذي تبحث عنه .
- كلا ، قال الرجل ، فليس لديها أدنى فكرة عن ذلك الذي تود القبض عليه .

هذا الرجل اندمج على نحو سيء بمخطط العنف الوحشي الذي بدأ ينتشر منذ بعض الوقت بين صفوف الشعب ذلك الذي كان أوفي ، شأنه شأن الكثير من الناس ، قد أساء الحكم على شخصيته ، فقد تحصن بسهولة كبيرة ضد الصدمات . مع ذلك راوده احساس بأنه ينظر الى قطعة جديدة كليا خرجت لتوها من مسبك أولو كوري . فيها عيوب ، أم هي مصوغة هكذا لا لشيء الا لتلبية مقتضيات اللحظة الراهنة ؟ في وقت آخر ، ربما كان سيبحث عن جواب ، لكن في الوقت الحاضر ، كان الاوان قد فات .

- كيف تراك تسرحه على هذا الشكل ؟ قال أوفي مشيرا باصبعه الى شعر الرجل الذي سحره . لقد صار نحاسيا أكثر منذ ان عدت . ألا تك تعرض نفسك من جديد للشمس ؟ لكن لعل هذا يجعل كشفك أمرا أكثر سهولة ، اليس كذلك ؟
- أوه ، يمكن للمرء أن يلبس قبعة على رأسه . أو يمكن أن يصبغه ان كان ذلك ضروريا . ليس علي أن أفعل ذلك الامرة واحدة .

بعدئذ خطر في ذهنه أن هذا الشعر الغريب يمكن حتى أن يكون ميزة . فالقلة القليلة من الشرطة يمكن أن تفكر بوضع الشعر النحاسي ضمن أوصاف الرجل المطلوب .

لفترة من الزمن خيم الصمت عليهما . أخيرا حطمه أوفي مطلقا آهة مريرة ، قائلا :

— أنت لست متمسكا بعملك .

فبدأ الآخر وكأنه مشنتت الدهن ، وهكذا تابع أوفي :

— أوه ! حين بات واضحا أن ثمة شخصا بمفرده ينظم الامور .. على هذا النحو ، لم يعد ممكنا بالنسبة الي التظاهر بالاعتقاد بأنني أجهل ما يجري .
— لكن أرجو أن تتذكر أيضا أنني لست مرتزقا .
— كلا ، فأنا مقتنع أنك دائما في صف الملائكة .

هذا التعليق جعل الآخر يبتسم .

— ان أردت التكلم عن ملائكة يحملون بأيديهم سيوفا لامعة ، فهذا صحيح .
— يجلس واحدهم بصورة قاضٍ فرد فوق البشر الادنين ؟
— تلك ضرورة تفرضها المرحلة .

وقرأ أوفي في عينيه القبول التام بدوره . التكملة المأساوية لتمرد شعب حيث تتربط العاطفة والعقلانية . كانت له هيئة الشاب ، لكن عزيمته الفريدة الموجهة نحو العمل كانت تضفي عليه نوعا من الجد والرزانة وشيئا من الهرم . كانت صورة القاضي القليل هناك ، بينهما ، وكان قد نظر اليها مطولا ، متفكرا .
— كان لا بد من مرور ثلاثة اشهر للاعداد لهذه العملية . ثلاثة أشهر ، مدة طويلة حين تشعر بضغط الزمن كما هي الحال الآن .

عملية ! بالعادة ، تستخدم هذه الكلمة من قبل عملاء ماجورين اقصى قلبا ، من قبل عصابات وحشية ومسلحة تسليحا شديدا تكتسح المدن ، تحتل القلاع المعادية . لكنه كان قد لفظها بنبرة الطبيب المشخص للدواء : ذلك هو الاجراء الحتمي لمعالجة المرض بعد أن اجتاز مرحلة المعالجة بالادوية العادية . لم يعد من شيء يجدي الآن ، سوى طاولة العمليات ، بغية اجراء عمل جراحي خالص وجذري . حتى التجار ، التجار الخبراء بمفهوم « السلام » ، كما يقال ، كانوا قد توصلوا الى الاعتراف بفشل أدويتهم البديلة . واحدا تلو الآخر كانوا قد جربوها بصمت وهدوء ، ثم عرفوا عجزها جميعا عن شفاء المريض .

حتى الكنائس ، الجوامع ، المعابد القديمة كانت قد كفت عن دعوة أتباعها المخلصين لاسبوع من الصيام والصلوات ، ترياقتها المفضل ، متعبة كلها من اللا جدوى التي انتهت اليها دعواتها ، بأصوتها التقية الوردية .

عملية ! على بعد ثلاثين كيلو مترا من ايرلو ، جرت امرأة من سريرها ثم بقرت بطنها . لم تكن قد ماتت حين تركوها ، بل كانت أحشاؤها مندلقة بين فخذيهما كمشيمة مشيرة الاشمنزاز . كان جهاز المراقبة ، وهو يمثل بطواعية شديدة لاوامر الكارتل ، قد حوّل دون شفقة ، قدرا كبيرا من الناس الى البأساء وفي واحدة من القرى البعيدة حيث لا يوجد من يدافع ، كان ثمة رجل لم يستطع أداء الضريبة المفروضة في اللحظة المحددة فرأى أشجاره من لوز الهند وهي تصادر ، أي بالتحديد ، يطوّح بها أرضا ، بعد ذلك ، عمد المعتدون الى حشو فمه بلفافة من الاوامر الميدانية التي تدل عليهم ، ثم أشعلوا ذلك السيجار الغريب .

قدم الوعل ، وهي رمز الجيكو أي الحزب الذي يسيطر عليه الكارتل ، هي التي أوحى بفكرة بتر الاعضاء في آرو - أوك . فطوردوا الواحد تلو الآخر . أحدهم قطعوا قدمه من العرقوب ثم حشوها في فمه . بعدئذ قطع المتوردون لضخمتهم عكازا من أقرب شجرة اليهم ، وراحوا يتطلعون اليه وهو يحجل على قدم واحدة ثم قالوا له : احرص على ايصال الرسالة التي في فمك الى الرئيس باتوكي .

عائلة من عشرين شخصا ، هم ثلاثة أجيال تماما ، صفيت ظهيرة ذات يوم ثارا وانتقاما . عميل فر من الجمهور المدفع بعد أن جره مطارده كالمخبل ف ضرب اثنين منهم ثم التجأ الى بيته يتحصن فيه . وكان يبحث أيضا عن ذخيرة أخرى حين انقض عليه الجدهور ، موجة هائلة دفعها الالم والغضب . سكان المنزل كلهم كانوا قد جروا الى الطابق الاعلى معتقدين أنهم سيجدون ملجأ هناك . لكن المهاجمين أشعلوا النار في السلم ثم انهالوا ضربا وذبحا بكل من حاول القفز من المنزل والزحف الى الدغل بحثا عن الحماية فيه . وللمصادفة ، كانت ابنة أخت ذلك العميل ، وهي ممرضة ، عائدة من عملها بسيارتها ، ف وقعت بين أيديهم . هم المتعطشون للدم . كانوا يعرفونها ، ولم يكن تعطشهم للثأر قد ارتوى بعد . وهكذا راحت تنتقل من يد الى يد الى أن القوا بها في السنة الذهب ، ثم ظلوا يدورون حول المنزل ، كزوبعة من دم ، صارخين سخطا وغضبا الى أن أتت النار على المنزل تماما . كانوا ينتظرون خمود اللهب ، وحين خمد انقضوا على البقايا يقتلعونها ، وهكذا اقتلعوا الآجر واحدة واحدة بأيديهم المسفوعة والمحترقة ، اقتلعوا حتى قضبان الحديد والقوا بها بعيدا ، لا شيء كان ينبغي أن يبقى من ذلك المنزل ذي السمعة السيئة ، لا شيء سوى الارض المتكلسة سوى العظام ومستطيل الاسمنت المسود ، لا شيء سوى الاثر الاصهب لوحش التمرد الذي استيقظ .

عملية ، كلمة مطاطة طبقت على طفل عمره سبع سنوات ، هو ابن مدير منفذ من أتباع الكارتل . كان الاب المتهور قد ترك ابنه في سيارته التي أوقفها امام المكتب ريثما يذهب مع الحراس الى الرئيس باتوكي لاستلام قطعه الذهبية العشر . وحين

عاد لم يجد الا الهيكل المتفحم لسيارته وجثة ابنه المتفحمة وحشدا متراصا من الناس يراقب من بعيد . كان يمسك بيده الملف المشؤوم الممتلئ بقطع لعينة من ذوات الخمس ليرات ، وتركه الجمهور ينجو بجلده .

كل شيء بدأ بمجزرة الابرياء التي نفذتها جماعات الكارتل شبه العسكرية ، وحملات الترهيب التي شنت على الاسواق والمدارس ، ذابحة كل من يقع بين ايديها ، ملطخة جدران الصفوف بالادمغة المتقدة بالعلم . بعدئذ حدثت قضية أولئك القتلة المرخصين الذين انقضوا بكل طيش وتهور على احدى القرى التي بدت مسالمة فوجدوها مقفرة . وهكذا دمروا الاكواخ ، حرقوا الفلال ، ثم عادوا الى سياراتهم كي يعلنوا عن تنفيذ مهمتهم . لكن جلودهم بدأت ، وعلى نحو غامض ، بالاحتراق تحت بذلاتهم الرسمية وحين استندوا الى مقاعدهم ، بدا ألم قاتل يمزق ظهورهم . لم يكن باستطاعتهم أن يتحركوا . ما من أحد كان باستطاعته أن يخلصهم من بزاتهم الرسمية تلك . فمع قماشها كانت قطع من جلودهم تنتزع وكانوا يموتون وسط آلام فظيعة فيما عجز كيميائيو الحكومة عن تحديد الصمغ القاتل الذي طلى بعض الجهولين مقاعدهم به حين كانوا مشغولين بتدمير الفلال والمحاصيل .

- حتى في حالات القتل الاشد جنونا ، يكون ثمة مخطط ، قال القاتل المحترف ، أجل ، كل ما علينا أن نفعله هو الامساك بزمام ذلك العنف وتوجيهه حسب خطة بناءة . جماعتنا يقتلون لكن عليهم أن يمتلكوا حسن الاختيار ذاك . أنهم يركزون على الرجال الهامين الا أنهم يقتلون أيضا طبقا للرابطة البسيطة . عميل يتم التأكد منه ، فيموت . مخبر يقضى عليه . وليس بوسعنا أن نفعل شيئا حيال ذلك ، حتى لو شئنا لا بد من أن يكون هناك بعض الشوائب في هذه الانتقامات العادلة . لكن علينا أن نضع خطة ابادة ، وهذه هي المهمة الاصعب ، اختيار الركائز الحقيقية للعمالة ومن ثم القضاء عليها . علينا أن نضرب رأس الافعى بالذات كي لا يعود بإمكانها أن تؤذي . . . أمر بسيط .

- ماذا يسمونك هنا ؟ سأل أوفي بلا مقدمات . أنا أعلم أن الشرطة تطلق عليك مختلف انواع الاسماء .

- طبيب الاسنان ، اعترف وهو يكشر مبتسما .

- وبعد ؟ سأل أوفي ، ماذا تتصور بعد ؟

- اتصور ؟ قال بنبرة احتجاج ، لماذا تريد أن اتصور اي شيء ؟ هل هذا اختصاصي ؟ كنت اعتقد أنه اختصاصك أنت ؟

- مع ذلك ، حين . . . تقضي على أحد ، لا بد من أن تفكر بما سيتبع ذلك ، تفكر بالبديل الذي سيحل محل من تقضي عليه . ما عدا ذلك يكون عمك سلبا ، نوعا من العبث .

فأطلق طبيب الاسنان آهة .

— لماذا أنتم ، أيها المثقفون ، او ايا كان الاسم الذي تطلقونه على انفسكم ،
تفرضون علينا اعباء لا نستطيع تحملها ؟ أنا مثلا ، نشأت على فن القتل ، وباستطاعتي
ان استخدم ما نشأت عليه من أجل بلادي . فعلى أي فن نشأت أنت ؟ لقد تابعت
حملتك الاعلامية الخاصة بالكاكاو ، رايت جماعتك وهي تعمل فاستنتجت منها أن
مهمتك هي التثقيف . صحيح ؟ أنت تشير وجدان الناس ، تحرك وعيهم على نحو
خطر ، اذن ، الجماهير هي التي اخترتها كميدان للعمل أليس كذلك ؟ هذه هي المهمة
التي حملت نفسك مسؤوليتها . لكننا تكلمنا عن هذا من قبل ، وانت تعرف موقعي
في هذا الكفاح . أنا غير قادر على كشف المشاكل وتحديد لها أو توجيه الطبيعة .
وجهة نظري بسيطة ، لكنها ناجمة عن تجاربي وخبراتي . أنت تعرف ذلك . لقد
وافقت على أن نلتقي لانني اود ان أسألك عن امر هام . رأي ، ان أردت . لكنني
لست مستعدا للإجابة على اسئلة ليست من اختصاصي ، فلا تسألني عما أتصوره ،
ذلك انني ، خارج القضاء على أولئك الناس الذين أعلم أنهم سيئون ، مدمرون ،
لا أتصور شيئا . ان ما يجري بعد ذلك ، هو من شأن أناس مثلك .

— حسن ، ماذا تريد ؟

فنهض الآخر .

— قبل كل شيء أريد ان نقوم بجولة صغيرة معا (قال وهو يبتسم) ، جولة
في البلاد هذه المرة ، انني احاول ان اجعلك تدخلها لا ان أطردك منها . المشهد
سيكون مألوفاً لديك لكنني اعتقد ان القلة منكم تفهم ما الذي سيحدث بعد قليل .
انني اود ان أعرفك بمنطقة عملي من الوجة الوحيدة الممكنة بالنسبة الي . أنا
واثق من فعاليتك ، وعليك الآن أن تقبل حقيقة أساسية هي اننا حلفاء دائما .

— عن أية فعالية تتكلم ؟

— لقد زرعت أناسا من الأيرو في طول البلاد وعرضها . انك ذكي جدا ، ترى
عن بعد فعلا لكن هذا لا يعنيني . انني أعرف تماما ذلك النوع من المفارقة التاريخية
(وهز كتفيه) . برأيي ، أنتم جميعا مثاليون ، غامضون ، لكن منع ذلك يمكننا ان
نعمل معا للقضاء على الجيكو . دوري أنا هو ازالة العقبات أمامك .

كانت هيئة الرجل تشبه هيئة موظف كبير أكثر مما تشبه هيئة قاتل ،
وكان يأتمر بأمره فريق من أولئك الاتباع المخلصين الذين نهضوا في الصالة الخلفية في
اللحظة نفسها التي نهض فيها لكن نظرة سريعة منه جعلتهم يعودون الى أماكنهم .
وحدها نظرة الخبير يمكن أن تلحظ التنسيق بين حركات أولئك الرجال ، وللتو
أحس أوفي برعشة من أمل وتفاؤل . ظاهريا ، لم يكن الطبيب يعمل كجزء من
مجموعة ، غير أن تماسك نصف الدزينة هذا من الرجال الذين نهضوا ثم عادوا

وجلسوا امام كووس البيرة وبقدر كبير من الدقة والحنكة ، كان يشهد كل الشهادة على تقدم التنظيم الذي يشرف على محترفي الاغتيال . شيئاً فشيئاً أحس أوفي بالرعب والثقة . لكن ظل في نفسه ذلك الاتهام : انهم الرجال الثانويون من يهلكون ويقتلون ، اما الرؤساء والزعماء فيبقون في امان تام لا ينالهم احد ، يتنقلون بسرعة من مخابثهم هذه الى مخابثهم تلك ، يلعبون الدور المتوقع ، يكسبون الزمن على حساب البشر الذين يقتلون بالمئات .

– سوف آخذك بجولة في مدينتنا وسأجعلك تزور مدنا اخرى . بعدئذ سنصل الى مدينة منع التجول ، فما رايك ؟

– كيف سنفعل ذلك ؟ سأل أوفي ، كيف ننتقل وهناك منع تجول ؟

– لا تهتم بذلك ، فقبل كل شيء ، هي قاعدتي . انها مدينتي ، مسقط

رأسي .

– أنا أجهل ذلك .

– هل هناك مكان آخر يمكنني أن أنتقل فيه بمثل هذه الحرية؟ ان غدر بي احدهم

هنا . . . لا ، من يفكر بفعل شيء كهذا .

مثل هذه الثقة بدت قاتلة الى درجة أحس معها أوفي بنوع من الدهشة أشد من أن يحول بينها وبين الظهور ، فقد بدأ طبيب الاسنان وكأنه يعرف الطبيعة البشرية على نحو أفضل بكثير مما يظن . لكنه تابع :

– كان والدي في زمن الملوك رجل سياسة ، أو شيئاً من هذا القبيل ، هل

تفهمني ؟ في ذلك الزمن ، أن تكون ملكاً شيء هام بالفعل والناس لا ينسون تاريخهم كما تعلم ، نتيجة لذلك لا تحدث كثير من الخيانات هنا .

ثم رفض أن يقول المزيد .

كانت المدينة مبنية بالاجر الذي بدأ واضحاً أنه صنع من تربتها الفضارية الصلبة الحمراء . وكان يدهش المرء أن يجد نفسه فجأة أمام شجرة صنوبر ضخمة مغطاة بالاوراق والثمار وسط تلك الارض الفبراء المحمرة والجفاف العام لفصل الحرور . سار به طبيب الاسنان على طريق متلوي سرعان ما التقى بطريق غير مزقت اجتازاه فوصلا الى ممر تحيط به سنابل عشب الفيل من كل جانب .

– الحرور ، علق طبيب الاسنان ، انه الفصل المناسب للثورة . فالحرائق

تتقدم بسرعة اكبر والرياح تكون اكثر جفافاً وغضب الناس يتصاعد على شكل حلزوني متسارع ضمن زوابع الغبار اللعينة تلك التي تبدو وكأنها اعاصير تكنس الظلام والمضطهدين . أنا احب الحرور .

– وأنا أيضا احبه ، اعترف أوفي ، لكن فقط لانه يهمني نوعا من الاحساس بالنشوة ، لماذا ؟ لا أدري ، انه تدفق الضياء والفبار على ما أظن . فحين لا يدخل في العيون ، وأنا هنا أتكلم عن الفبار ، أحس بخدر وتنميل في جلدي كله . يكون جسمي أخف بعشر مرات .

– ذلك لانك تفقد الرطوبة . انظر ، هاهو ذا المكان الذي لا يحس بفصل الجفاف فعلا . آه ، لو تعلم كم من الدماء سال في هذه البقعة من الارض قبل خمسين سنة . ترى هل لاحظت التغير في الجو ؟

فجأة ، احس أوفي بأن الحر القاتل الذي تتميز به ايرلو يتحول الى شيء من الاعتدال والرطوبة ، فشرع يستنشق الهواء بنهم شديد ، متطلعا امامه على يكشف عن وجود مجرى مائي قريب .

– هذه المنطقة بالغة الخصب الى درجة أنه طوال فترة من الزمن ظلت القرنتان تتصارعان لامتلاكها : كيجاسي تؤكد أن الطريق الذي اجتزناه لتونا هو الحد الفاصل بين القرنتين ، وايرلو تدعي العكس وهو أن هذا الحد موجود في منطقة أعلى بكثير من الجدول الذي يعبر الوادي . نزاع غبي ، عقيم . فقد كان هناك الكثير من الماء والارض بحيث يكفي سكان القرنتين معا .

– وكيف حلت المشكلة أخيرا ؟

فابتسم طبيب الاسنان :

– بعمل رباني . على كل حال ، هكذا فسره البعض ، لكن ان كان هناك من شيء ، الناس هنا يتمسكون به كثيرا فانما هو ايجاد الصيفة التي لا تدع احد الخصمين نهبة للغيظ والحنق . أما اليوم فوا أسفاه عليهم ، وا أسفاه على أولئك الذين يشغلون الاماكن المقدسة ، هذا ما ينبغي قوله ، اليس كذلك ؟ فالعاملون على تفسير الاشارات ، النذر ، الوجي ، أو القانون المكتوب ، أولئك هم الجهاز الذي أوجده المجتمع لحماية العدالة التي تضمن وحدها تماسكه وترايطه . هل أنت موافق ؟ لهذا ، حين يقوم من عهد اليهم المجتمع بتلك المهمة بخيانة تلك المهمة وبيع ضمائرهم لقوى الفساد ..

– كالقاضي مثلا ؟

فتوقف الطبيب :

– بالتأكيد . لكنني لم أكن أفكر به على نحو خاص . ترى هل تعتقد أنني أحاول تبرير نفسي أو البرهنة على أنه كان لا بد من القضاء عليه ؟

– أنا اعتقد ذلك . نعم .

– لقد قلت لك أنني سأخذك في جولة تفتيشية . ولتعلم أن الماضي موجود دائما ، حاضر دائما ، تاريخنا تحفظه هذه الانهار المدماة ، لهذا قل لي ، عندما

كان ملك من الملوك في تلك المرحلة يخون الثقة التي وضعها به شعبه ، ما تراه كان يحل به؟ ألم تكن العادة في تلك الايام هي أن يستدعوه ويقدموا له حقا من السم ثم يطلبوا اليه الاعتزال في جناحه الخاص؟

— كم أحب ان أراك تدعو باتوكي لآخذ قبسة من السيانور .

— لا ، ها هو ذا السبب في أن من الضروري جعلهم يتلعونه بالقوة ، أيا كانت الوسيلة المتاحة لنا (وهنا عبرت محياه رعشة اشمئزاز) لكنهم لا يتخلون عن أمكنتهم بقدر كبير من الكرامة .

كان القاضي قبل أن يدفع الحساب النهائي قد سيطر عليه الرعب تماما ، اذ كان يرتمي تحت المقعد لدى سماعه سيارة تفرقع امام المحكمة . ولم يكن المسدس الذي اعطوه له قد طمأنه الا قليلا . كان يضعه باستمرار في درج مفتوح قليلا من ادراج مكتبه لكنه كان يخاف كثيرا وهو يتصور أنه مهدد بالخطر واذا ما حاول الإمساك به اخفقت أصابعه في فعل ذلك . هذا الخوف جعله يأمر حتى بتفتيش المحامين والنواب العاميين لديه . في البداية ألقى عادة الذهاب الى لعب التنس ثلاث مرات اسبوعيا ، بعدئذ ألقى صلاة الاحد . فيما بعد أقتنع عن عادة الذهاب الى العشاء في نادي الروتاري لكن حتى هذه التضحية الفائقة لم تكن التضحية الاخيرة التي اضطر لتقديمها . في البدايات ، حين شرع يبارك في المحكمة الجرائم وأعمال القتل نفسها امثالاً لامر يأتيه بالهاتف أو غمغمة من زعيم الجيكو ، استحق اللقب الذي التصق به منذئذ وهو : بابا رعاة البقر ، وقد سقط مسدسه في احد الاحتفالات العامة مما جعل المدعويين ينفجرون ضحكا وهم يرونه يحاول عبثا استعادته ووضعه في جيبه من جديد . مرت الشهور ولم يعد أحد يرى بابا رعاة البقر في الاحتفالات الرسمية أو في اعياد المحبة ، بل وصل به الامر أن بات يأمر بتفتيش حرس الشرف عند افتتاح الجلسات ، وهي الوسيلة التي اختارها لتدمير أعداء الجيكو واثناء عمله بتثبيت تصاعد الخسائر والفوائد بمعدلات غير معقولة . . .

— في نهاية المطاف ، كان الامر بسيطا لكن كان لا بد من الانتظار والمراقبة طوال ثلاثة اشهر ، فالآخرون اصحاب فطنة ايضا .

وصل الرجلان الى منحنى من منحنيات الجدول . هناك كانت شجرة قد سقطت عليه فقامت بدور الجسر . عند الشجرة توقف الطبيب .

— هو ذا العمل الرباني . ففي لحظة معينة من لحظات صراعهم الفبي ، هبت عاصفة أسقطت هذه الشجرة على الجدول . حينذاك قام كاهن كيجاسي باتصال مع نظيره ، كاهن ايرلو ، ليسأله ان كانت ثمار لوز الهند التي يستخدمها في التنجيم قد قدمت له المعنى نفسه الذي قدمته له ثماره التنجيمية . بالطبع ، كان الامر كذلك ، عند ذاك التقى شيوخ الجانبين ثم وقعوا اتفاقا مفاده أن السماء اظهرت

ارادتها بأن جعلت هذه الشجرة تسقط لتشكل جسرا يصل بين البلدين ويوفق بينهما ، فكانت تلك نهاية الحرب . والآن ما يزالون جميعا يعملون على نحو مشترك . وعلى الرغم من مرور ثلاثة أجيال ، وعلى الرغم من تعدد الزوجات وتزايد معدلات الولادة ، ما يزال هناك هكتارات وهكتارات من الارض لم تفلح بعد (وبضربة من قدمه قذف حصاة الى ماء الجدول) فيالغباء الطمع البشري !

اجتاز الطبيب ، وهو يتقدم اوفي ، الجسر الذي كان يؤدي الى كيجاسي ثم اراه ما تبقى من مديرية الشرطة ومحكمة المقاطعة . اذ كانت النار قد دمرتتهما وكانت ظلال المبنيين العاريين ما تزال ماثلة ازاء اراضي القرية الخصبة . هذا النوع من المناظر بات مألوفا كثيرا . فالناس الذين يسكنون مثل هذه القرى لم يكونوا كأولئك الذين يسكنون القصبات التجارية . اذ حتى عواء كلب ، بالنسبة الى سكان هذه القصبات ، كان ذا نوعية محزنة فهم لا ينامون قط لعلمهم ان القوارض الليلية تتحرك وتلدور ، كانوا يحرسون وعيونهم مغمضة وكان رجاؤهم الوحيد هو ان يغادر اللصوص السلابون منازلهم بلا استخدام للعنف وبأسرع ما يمكن ، ان يسلبوا امتعتهم دون ان يمسوا احدا منهم . وهكذا حين كانت الخطا تقترب منهم مهددة بالخطر ، كانوا يسمعونهم شخيرهم الكريه الفظيع ، عند ذلك يتجروا اللصوص السلابون اكثر فلا يتركونهم الا وقد تركوا شجرات وندوبا كثيرة في اجسامهم كي يتذكروا انهم مروا من هنا ، وكان هؤلاء يزعمون انهم سقطوا على شظايا زجاج . اما اولئك الذين يعملون في الارض فكانوا ابعد من ان يستسلموا على هذا النحو . اذ حتى عندما كان الخصم الاقوى منهم يجبرهم على اطلاق افواههم ، كانت عيونهم الكبيرة تظل مفتوحة تتكلم ، تقول بكل وضوح : اننا نسجل . لم يكن باستطاعتهم ، هم المرتبطون بالارض ارتباطا اديبا لا ينفصم ، ان يتقبلوا وجودا يدهيون فيه ضحية للفدر . لذا ، فان تلك الافواه الاجنبية التي كانت تلتهم كدهم وعرق جبينهم ، دون ان تترك لهم الا القشور ، في نظام قمعي يجردهم حتى من ارضهم بجرة قلم او بقرار من قباض مرتش ، اقول تلك الافواه دفعتهم دفعا حتميا للقيام بشكل من أشكال رد الفعل . ولقد تشكل رد الفعل هذا على مهل ثم انفجر على شكل ثورات غضب متفرقة اتخذت في البداية شكلا محددًا هو قتل رموز قوى الاضطهاد . اما الحركة المركزة فقد كانت في طريقها الى الولادة ، تستعد لكنس كل شيء امامها .

وكان الكارتل قد تنبه الى همهمة الغضب التي وصلت حتى بابيه .

سحق الطبيب تحت قدميه الرماد الذي كان يغطي البقايا المحترقة لمكتب تحصيل الضرائب ثم التفت نحو اوفي .

— حسب اعتقادك ، الى اين تؤدي تلك المعتقدات التي تعمل على نشرها بواسطة رجال الايرو ؟

– الى استعادة كل ما أخذه بعض الافراد من المجتمع ، الى اذابة المجتمع نفسه ..

– بلا عنف ؟

– ولم هذا السؤال ؟ فانا لم أنف هذا الاحتمال .

– وأولئك الذين ستكون خسارتهم أكبر ، نتيجة نشاطاتك هذه حين يلاحظون ما تنوي تنفيذه ، ما تظن أنهم فاعلون ؟

– تماما ما يفعلونه الآن : اقتلاع ما يستطيعون اقتلعه والقضاء على كل من يعتقدون أنهم مسؤولون عن نشر فيروس الفكر .

– والى أين يؤدي بهم ذلك ؟

فاعترف أوفي ، وهو يتساءل في سره الى أين سيؤدي به ذلك التحقيق ، بأنه كان قد تصور عددا معيناً من الاجراءات المضادة التي يمكن أن يتخذها الكارتل ، فهز الطبيب رأسه بهيئة من يفكر ثم أشار الى أنقاض المباني العامة .

– هل سيوقفهم هذا ؟ أتظن ذلك ؟

فسأله أوفي بدوره ، وقد قدر ان لحظة تغيير الادوار قد حانت .

– ما هو الجواب برأيك ؟ قتلتك المحترفون ؟

فحدق طبيب الاسنان تحديقة مباشرة الى عينيه :

– انا لا أنكر طريقتي كما لا أنكر طريقتك ، فليست أي منهما حاسمة بذاتها. انك تحكم دائما أن طرقك تتبع تلقائيا وأنت عاجز عن تصور وسيلة أخرى ، ايا كانت ، ان لم تكن قلب عطالة الجماهير الى حماسة . لكن الطرف الآخر يعلم أن ذلك الذي يفعله شاذ ، شاذ شأنه شأن الورم السرطاني ، شاذ لكنه من أصل العضوية. منذ البداية ، ليس هناك الا وسيلة واحدة هي اجتثاث ذلك الورم السرطاني ، انتزاع الرأس . الانتزاع الكامل . فللطرف الآخر نظمه ومبادئه الخاصة يا أخي ، وعلينا نحن أن تكون لنا نظمنا ومبادئنا أيضا .

– لكن ما هي المحصلة النهائية ؟ ما هي الغاية ؟

– أوه ؟ ما تنفك تتمسك بالكلام عن الوسائل والغايات ، اليس كذلك ؟ حسن ، سنقوم بجولات أخرى ، واني أعتزف ان اللوحة ليست مظلمة في كل مكان ، لكن طوال انشغالك بالجولات التي كنت تبذر فيها أفكارك المثالية البعيدة ، كان أصدقاؤك يطبقون على حقوقك ملزمة من فولاذ ، والحقيقة ، يا أخي ، ان تلك الملزمة توشك أن تطبق عليها اطباقا تامسا .

* * *

— هل أحضرت الكلب ؟

سأل كاتب المحكمة دون أن يكلف نفسه عناء الالتفات حين سمع الابواب المنقوشة والمزينة بالمسامير وهي تنفتح بصريير معدني يصم الأذان ، فقد تابع تنقيبه ضمن اكداس الوثائق المتراكمة فوق طاولة طويلة . تقدم الدنفاري (١) مع الرجل المكلف بحراسته الى ان وصل الصف الاول من الاعمدة وهو يدفعه لدى كل خطوة .

التفت الكاتب التفاتة خفيفة ثم كرر باللحن اللفظ نفسه :

— هل أحضرت الكلب سالوا الذي لم يعد يعرف امه .

فدفع الدونفاري سجينه باتجاه المنصة ، ذلك السجين الذي كان يتقدم على وجل شديد مغطيا نفسه بذراعيه كي يحمي نفسه من الضربات التي كان يتوقعها . كان ما يزال صامتا لكن فكيه كانا قد أصيبا بنوبات تشنجية كما كان رأسه يتحرك على نحو تشنجي من الاعلى الى الاسفل . على المنصة ، الواقعة في الطرف الآخر من الصالة ، كان يجلس شخص مهيب ذو عمامة ، سرعان ما أحنى السجين رأسه انحناء شديدة حين لاحظ وجوده . في وجهه ، كان ثمة شقان لا تعبير فيهما ولا يمكن النفاذ اليهما ، لهما هيئة عينيين وتعبيرهما الوحيد الدائم هو الضجر والازدراء . كان جسمه يملأ مقعدا كبيرا متقن الصنع ، لكن لولا المسند المغطى بالمخمل ، لم يكن باستطاعة قدميه ان تصلا الارض . وبمعزل عن الانف الذي كان بارزا قليلا ، أعقف قليلا ، فقد كان الوجه أملس ناعما لا تجاعيد فيه ولا تفضنات .

الى جواره ، كانت الاشكال البشرية التي لم يكن الموقف يوحي لها بما يثير الاهتمام ، تسترخي في كراسيها . رفع فتى صغير عينيه الوانيتين عن القصة المصورة التي كان مستغرقا فيها ثم نظر الى المحامي فالى المخلوق الذي كان قد أقعى ، خائفا وجلا ، عند قدمي الدونفاري ، مطأطأ الرأس تماما . عاد الطفل فحرك أجبانه الطويلة ثم ترك ضحكة صغيرة منفعة تهرب منه ، وهو يندفع عبر الصالة قائلا بصوت فيه زأزة (٢) :

— اذن ، فهذا الكلب أخرس ؟

(١) الحارس ، بلفة الهوسا .

(٢) الزأزة : لفظ الجيم زاي .

ونظر من جديد الى الشخصية ذات العمامة ثم أبتسم فرد عليه تمثال بوذا
الجامد بابتسامة خفيفة ساهمة . اعتبر الدونفاري هذه المقاطعة نوعا من الاشارة
فداس بقدمه على ظهر السجين ثم دفعه الى الامام :
- ازحف ، ايها الكلب ! الزاكي (١) يسألك .

فأسرع المدعو سالو ، وهو يتوقف من حين الى آخر لتقديم فروض الولاء
والطاعة بيده التي كان يرفعها محييا ، نحو المقعد الرئيسي على المنصة قائما بجملته
غريبة من الحركات : اذ كان يجر نفسه على عقبه واليتيه ثم يقذف بنفسه لتمر
واحد على الارض ، باسطا يديه ، حاكا بأطراف أصابعه البلاط الرخامي ، منزلقا
بعد ذلك بضعة أمتار على ساق واحدة والية واحدة ، وراحة كفه منبسطة على
الارض ، دابا على أربع وهو ينوح .. موقعا تقدمه بالتواءات سريعة مديدة ،
مقدما فروض الولاء والطاعة بجمع يده المرتعشة ، مطلقا قرقرات سريعة من بلعومه
فيما يعلو رأسه ويهبط بالتحية :
- رانكا ديدي ، رانكا ديدي (٢) .

كان السجين قد عبر نصف الصالة عندما تحرك زاكي آموري حركة خفيفة ،
مشيرا اشارة غير مفهومة تقريبا لكن الناطق بلسان المحكمة ، الكاتب الذي كان يرتدي
اللباس الاوروبي لاحظها للتو ، فتقدم من الطاولة الى ان وصل الى طرف المنصة
ثم صرخ :
- يكفي !

فتوقف السجين في الحال ، ثم حيا برأسه وبجفاوة بالغة مرات عدة دون ان
يتوقف عن الغمغمة : رانكا ديدي ، رانكا ديدي . عند ذلك سمح الفتى الصغير ذو
الاجفان الطويلة لضحكة صغيرة بالانفلات ، ثم عاد وقذف برأسه الى الوزاء ، ومد
كفه باتجاه كوب موضوع على مقربة منه ، ثم أخذ منه قطعة حلوى شرع يقضمها
بطرف أسنانه . أما رجال المحكمة الآخرون الجالسون على المنصة فقد رشقوا الملتهم
بنظرة خاطفة من تحت اجفانهم ، كفوا بعدها عن الاهتمام بما يجري ، ربما باستثناء
واحد منهم كان على ما يبدو حريصا على ابقاء عينيه ووجهه بعيدا عن ذلك
المسكين المدعور الواقف وسط الصالة ، لكن حرصه ذلك كان غير ذي جدوى فالسجين
لم يكن في حالة تسمح له بمعرفة هويته أو التعرف اليه . من جديد أشار الرجل
ذو العمامة اشارة من رأسه لم يفهمها الكاتب الا بالكاد ، وسرعان ما بدأ بعدها
التحقيق :

- يود الزاكي أن يعلم ان كنت أنت من باع حق بكورته مقابل طبق من
العدس .

(١) الزاكي : السيد بلغة الهوسا .

(٢) اطال الله عمره : اطال الله عمره .

هنا برم السجين يديه وهو يلتفت من جهة الى أخرى .

— رانكا ديدي ... انا لا ادري ... أقسم لكم انهم خدعوني ...

فشرع الكاتب يضحك .

— خدعوك ... هل أنت معزاة في عنقها حبل ؟ خدعوك ؟ ربما علينا الآن أن نتحقق

فيما اذا كانت القضية الآن تتعلق بمعزاة فعلا أم برب أسرة يدرك ما يفعل .

— رانكا ديدي ، رانكا ديدي ...

— مجهولون جاؤوا للسؤال عنك ، اناس مجهولون تماما من خارج منطقة

النهر . ليسوا حتى مؤمنين بل كفر . قدموا لك الوعود ، رشوك ، فقبلت أن تشير

المشاكل بين قومك ، أن تبذر بذور الاستياء والسخط بين رعايا الزاكي !

— كلا ، كلا ، يا صاحب السمو ، أقسم بالله لست مثيرا للمشاكل .

فأصبحت ابتسامة الكاتب أشد انقباضا وكآبة .

— حسن ، ما أنت اذن ؟ هذا ما يود الزاكي معرفته . ما أنت ؟ هيا تكلم .

غمغم سالاو بصلوات صامته ، ثم رفع بغير جدوى عينيه باتجاه السقف

المعقود على شكل قنطرة . وبجهد بالغ ابتلع ريقه ثملقى نفسه في غمرة شروح وتفسيرات

كان يود كثيرا أن تتاح له الفرصة الكافية لاعداد نفسه لها .

— ماذا تريدني أن أفعل يا صاحب السمو ؟ الارض كانت خرابا فعلا . وأنا لست

الا جاهلا وليس هناك من احد يقدم لي النصيحة . الارض صارت قاحلة مجدبة ،

لا ينبت فيها شيء ، بل من المستحيل زراعتها . كنا بلا شيء ، شأني شأن صهري

عبدو وواحد أو اثنين آخرين . ولولا رحمة الله لهلك اطفالي الصغار من الجوع .

بل انني قصدت مرة أو مرتين باب هيئة المناجم لطلب الصدقة من البيض ، فبعد كل

شيء ، كانوا هم من خربوا لي الارض ، لكن البواب كان يطردني في كل مرة . أنت

تعلم ، لقد قال لي انني أوسخ باب البيض ، وحين عدت مرة ثانية ، استدعى

الشرطة التي وضعتني في السجن طوال اسبوع ، فماذا كان بوسعي أن أفعل يا صاحب

السمو ، حين أتى هؤلاء الناس ؟ كانت الارض تكلف حراثة وزراعة أكثر بكثير مما

تنتج . إنني أطلب المفرة من الزاكي لجهلي .

— هكذا اذن ! حين جاءك أولئك المجهولون الكفار ، اعتقدت ان الله ابتسم في

وجهك ؟ ظننت أنهم زوار بعثتهم السماء لمساعدتك وجعلك ثريا ؟

— اعدرني يا صاحب السمو . لقد خدعني صهري عبدو . فقد قال لي ان أولئك

الناس جاؤوا لمساعدة الفقراء أمثالنا .

— لمساعدة الفقراء أمثالكم ! قال الكاتب وهو ينخر ازدراء ، لان المكان الذي

جاؤوا منه ليس فيه من هم بحاجة للمساعدة . وزعيم قريتك ، اظنه كان مريضا

او ميتا ؟

فُبدت على سالاو هيئة المنزعج ثم قلب عينيه باحثا عن تفسير ، غير ان صرخات الكاتب أخرجه فجأة من خدره .

– أجبني ! فأنا الذي يتكلم ، لا الحائط .

– المففرة يا صاحب السمو ، راح الرجل يتضرع ، فأنا لم أفهم قصدك .

– أنا أسألك ، ألم يكن لديك زعيم قرية تسأله النصيحة ؟ أم تحسب أن الايام

كلها التي جاء فيها المجهولون يقترحون عليك أن تكسب المال من الارض هي بغير قيمة ؟

فاستمر الرجل يفتل يديه .

– رانكا ديدي ، رانكا ديدي ، أنا لست بالحقيقة الا أحمق . ليس بوسعي

الا أن اطلب عفوك ...

– لم ترض بكونك أحمق ، فأصبحت عميلا لاولئك الناس . تجوب القرى

الاخرى ، تخدع الفلاحين الآخرين بأن تعدهم بالثروات التي ستسقط عليكم من السماء .

وفي طوفان الاتهامات التي انهالت عليه ، تعلق السجين بقشة :

– كلا ، كلا ، لو تسمح لي يا صاحب السمو بأن أدافع عن نفسي ، أنا لست

عميلا لهم ... لست عميلا لهم ...

قاطع الكاتب يديه ثم زم شفثيه وهو ينتظر .

– أنا لم أكن الا دليلا ، يا صاحب السمو . كانوا يريدون دليلا لهم في المنطقة

المحيطة بمنطقة امتياز المنجم . أما ما جرى بينهم وبين الآخرين فأحلف بالله انني

لا أعرف شيئا عنه . أن تجلب يا صاحب السمو صهري عبدو ربما سيكون باستطاعته

أن يشرح لك الامر . لكن أنا ، أقسم لك إنني لم أكن سوى دليل .

– وما الذي تعرفه عن عبدو هذا ؟ هذا الرجل الذي تعتبره مسؤولا عن

كل شيء ؟

– صهري ، يا صاحب السمو . انه يعمل حارسا لدى شركة المناجم . ان شئت

يا صاحب السمو اسمح لي أن أشرح لك شيئا ...

– الزاكي يود أن يسمع كل الشروح التي ترغب في تقديمها .

ابتلع الرجل ريقه مرات عدة ثم تتمم صلوات صامتة سريعة .

– كما تعلم يا صاحب السمو ، البيض ينقبون في هذه الارض منذ زمن طويل ،

تغدر الارض حطاما ، لا تساوي شروى نقيير . مجرد حصى لا أكثر . فالطر يجرف

تغدو الارض حطاما ، لا تساوي شروى نقيير . مجرد حصى لا أكثر . فالطر يجرف

التربة الخصبة التي يحفرونها ، واذا ما استثنينا رقعة هنا ورقعة هناك يغدو حتى

الماعز لا يرغب في العشب الذي ينبت فيها . أرجوك ، أتضرع اليك يا صاحب السمو

لا تظن أننا نشكو أو نتذمر . فمذ اللحظة التي جمعنا فيها زعيم القرية وقال ان لديهم اذنا من الزاكي بالعمل ، سمحنا لهم أن يحفروا حيث يشاؤون . لكن انظر يا صاحب السمو ، حين انتهوا ، باتت الارض لا تساوي شروي تقير فعلا . رجل كعبدو كان قادرا على ايجاد عمل لدى البيض بصفة حارس ، لكن البقية منا

وبإشارة ضجر من الزاكي ، التفت الكاتب فجأة ثم انحنى مقربا اذنه من شفتي سيده ، فيما استمر المتهم يسرد لائحة آلامه وبأسائه الى أن قاطعته صرخة كنباح الكلب أطلقها الكاتب فأوقفته قبل أن يكمل الكلمة . اطلق الطفل ذو الاجفان الطويلة ضحكة مجنونة ثم قذف باتجاه المتهم الواقف وسط الصالة قطعة حلوى كان قد قضم بضعة منها ، بعدئذ استأنف قراءة قصصه المصورة .

هز كاتب المحكمة رأسه جوابا على حركات شفتي الزاكي ذي العمامة وتمتماتهما غير المسموعة .

– من الواضح يا صاحب السمو انه لم يقل كل الحقيقة (والتفت بكل حيوية نحو الرجل ثم صاح) : أولئك الناس ، ألم يقولوا لك ان الزاكي سمح لهيئة المناجم بالاحتياال عليك ؟

فأجاب سلاو هازا رأسه بالنفي ، غير أن كاتب المحكمة أوقفه بفظاظة .

– أنت وعبدو ، ذلك ما كنتم تحكونه في القرى كلها . كنتم تريدون منهم أن يتمردوا على الزاكي ! لا تكذب ايها الكلب ! كنتم تريدون اشعال النار في منطقة كروس ريفر كلها بمساعدة أولئك الناس .

فبسط المتهم يديه باعياء شديد ثم غمغم منكرا التهم انكار الخائف الوجل .

– تكلم بصوت اعلى .

– يا صاحب السمو ، انهم يحكون الكثير من الاشياء ، لكن يشهد الله أنني لم اتلفظ بكلمة واحدة ضد الزاكي . وانتي أسألك من أنا يا ترى لكي ارفع صوتي ضده ، هو صاحب السمو ؟ صحيح انهم قالوا ان البيض خربوا الارض دون أن يدفعوا لنا قيمتها الحقيقية ، كما أن عبديو قال ان من العدالة أن نعمل للاستفادة من الابيض . فالابيض ليس أخي يا صاحب السمو . لهذا لم أر بأسا في أن أحاول اخذ المزيد من ماله .

– هل تعرف القراءة ؟

فطرف الرجل بأجفانه ، وقد ارتبك ازاء هذا التغير في التكتيك .

– أنا اعرف القراءة ، يا صاحب السمو ؟ كلا . . . أنا . . .

– هذه الورقة التي وقعتها ، انت والكلاب الآخرون الجائعون ، هل تعلم حقا ما يوجد فيها ؟

– عبدو قراها لي يا صاحب السمو . وكل ما قاله ، انها تحوي الموافقة على ان يهتموا بقضيتي المرفوعة على هيئة المناجم . انهم يسمونها كتاب تفويض .
– اهذا كل شيء ؟

– وما عساها تكون يا صاحب السمو ؟ اي شيء آخر يمكنها ان تكون ؟ عبدو قراها لي ، بل انني سألته كم تراها تكلفني ، عبدو صهري ، وقد قال انها لن تكلفني شيئا .

– وماذا ستقول انت ايها الامي المغفل ان قلت لك ان هذه الورقة التي وقعتها تمنح ارضك لأولئك الناس الذين تقول انهم اتوا لمساعدتك ؟
– شي اغي ! (1) .

أفلتت منه الشتيمة دون ان يعلم ، فانحنى الى الارض بحركة انصياع شديد ، لامسا الارض بوجنته طالبا المغفرة . بعد ذلك انخرط في سلسلة من التوايح والندب سائلا السماء ان تقول له ما هي الذنوب التي ارتكبتها لكي تعاقبه على هذا النحو ، حينذاك تذكر فتوقف وقد جحظت عيناه تماما .

– لكن . . . عبدو ! صهري ذاته ! ارجوك يا صاحب السمو ان تغفر لي ، لكن هل يعقل ان يفعل بي هذا صهري ذاته ؟
رشقه كاتب المحكمة بنظرة اشفاق ملؤها الازدراء ، ثم سأله :
– متى رايت صهرك هذا آخر مرة ؟

فأجاب الرجل بعد ان حك راسه :
– يجب القول انني لم اره منذ شهر . وهذا غريب ، فقد كان يزورني مرة واحدة على الاقل كل اسبوع .

تبادل الكاتب والزاعي النظرات ، وللمرة الاولى ، ارتسم ظل ابتسامة على شفطي الشخصية المهيبة ذات العمامة . أما على محيا المتهم ، فقد حل الارتباك محل الدهشة ، بعد ذلك حل السخط والغضب ، فأغمض عينيه ثم استنزل في سره غضب الله العلي القدير على ذلك الغادر الخائن ، قربه الذي لم تكن قرابته سوى قرابة نساء والذي استطاع ان يفعل به شيئا كهذا . كان كاتب المحكمة يراقبه بانتباه شديد ، بعد ذلك تبادل النظرات مع الزاعي الذي هز راسه هزة خفيفة .

حينذاك طغى على صوت الكاتب نبرة التوبيخ الابوي .
– والان ، يمكنك ان ترى ما فعلته بتسليمك شؤونك لايدي الاجانب ، الاتين من الجنوب . ابوك هنا ، وانت تعلم أنك ان سببت اية ازعاجات ، فلا بد ان تأتي لتجده . وان كان لديك انطباع بأن البيض قد خدعوك ، فلمن كان ينبغي ان تتوجه طلبا للعدالة ؟ اليس هو نفسه من اعطاهم موافقته في البداية ؟ نعم أم لا ؟

(1) ابن الزنى ! القدر !

— بيدك حق ، يا صاحب السموم . أنا غبي .

— أرضك ، أنت والآخرون ، أصبحت الآن ملك الغرباء الذين تظاهروا بأنهم اخوتكم . الابيض ، على الاقل ، لم يفعل سرى أنه استعارها . لقد دفع لكم ايجارها ثم اعادها ، كما قدم جزءا من الارباح التي كسبها الى الخزينة . من هذه الارباح يمكننا أن نبني لكم المستشفيات ، المدارس ، نشق لكم الطرق . لكن ، نتيجة الطمع ، لم تتردودا في اثاره المشاكل ضد الزاكي ، ابيكم نفسه الذي فعل الكثير من اجلكم ، الانسان الوحيد الذي يعلم كيف يتعامل مع البيض الذين تلقون عليهم الكثير من اللوم . لقد وقعت ورقة لا تعرف كيف تقرأها لتجد نفسك بعدها فجأة بغير أرض .

وفي الحال القى الرجل الذي جرد من ملكيته بنفسه أرضا ، باسطة ذراعيه .

— عفوك يا صاحب السموم لكلب بانس جاهل . فانا لست الا طفلا مخدوعا مضللا . اغفر لنا يا صاحب السموم ، وساعدنا لاستعادة أرضنا من هؤلاء الكفار المعونين .

حلق اليه كاتب المحكمة دون أن يبدو عليه اثر من دهشة ، ثم ادار وجهه بعيدا عن الرجل المنبطح أرضا ، المعفر وجهه بالتراب ، لكي يخبر الزاكي بالمجريات الاخيرة للقضية . فهئية المناجم كانت قد طردت جميع المستخدمين الذين يشك بأن لهم دورا في هذه الموجة من الاضطرابات أو تلك . أي بعبارة اخرى ، كل من ليسوا من السكان الاصليين لكروس ريفر . اما عبدو نفسه فقد كان في امان ، رهين السجن الفاصة بنزلاتها في الادارة المحلية . ولم يكن ليطلق سراحه الا عندما يجعله التعذيب يقر ويعترف بأنه ضلل الآخرين وابتز منهم أرضهم . . . لقد أسلموه للتدريب على الحماقة والغوص فيها الى الاعماق كي يفدو بامكان المسؤولين ان يطلقوا سراحه . لكن من يدري انه لن يكشف الخداع للآخرين ، لن يبدأ من جديد باثارة الاضطرابات ؟ وافق الرجل الصغير الحجم المسترخي في كرسيه بهزة من راسه . والمرة الاولى كان صوته مسموعا تقريبا .

— اريد ان تخلى كروس ريفر من هؤلاء الناس .

— لقد انتشروا في كل مكان يا صاحب السموم . ولقد بدأت المشاكل مسبقا في معامل الفزل في دار ما . واولئك الذين أرسلناهم للتحقيق يعتقدون ان هؤلاء هم الاشخاص انفسهم . كل مراكز الكارتل ، يا صاحب السموم ، بل حتى معمل الاسمنت في سورو . . .

فأبدي الرجل الكبير اشارة تدل على نفاذ الصبر .

— يجب كنسهم حتى آخر رجل .

– لم يعد ممكنا ان نعرف من هم رجال الأيرو ، قال كاتب المحكمة بنبرة المدافع ، فالمسألة الآن ليست مسألة القادمين الجدد ، اذ ان هناك الكثير منهم حلوا في كروس ريفر منذ سنين ، ولم يبدووا حتى اليوم باظهار انفسهم الى النور .
– السكان الاصليون في كروس ريفر يعرفون بعضهم بعضا . أما أولئك الذين لا يعرفون

ثم اغمض الزاكي عينيه تعبيرا عن الضيق والسأم ، واضعا بذلك نهاية للحوار ، فتراجع الكاتب وهو ينحني ثم عاد الى الرجل المنبطح أرضا وسط قاعة المتفرجين الواسعة ، قائلا بصوت جاف :
– قف !

فانتصب الرجل بشيء من الجهد ، متخذا وضعه الاولي مقرصا على ربلتي ساقيه .

– أنت لا تستطيع طلب العدالة حسب القانون ، كما تعلم . فالاتفاق اتفاق ، وما من شيء في هذا العالم يستطيع ذلك بوجود هذه الورقة التي مهرتها بأثار أصابعك أمام شهود . ما من شيء يستطيع ازالة تلك الآثار . لقد منح توقيعك أرض أجدادك للصوص غرباء جاؤوا من وراء النهر .
– أرجو أن يساعدنا أبونا ، ان كان ذلك بالإمكان يا صاحب السمو ، غمغم الآخر ، فليس لدي شيء آخر أستطيع فعله .
– كم من الرجال الاصحاء يوجد في قرنتك ؟

فأطرق الرجل ، عاقد الحاجبين ، مفكرا ثم انتهى الى القول انه ربما يوجد في القرية أكثر من مائة بقليل ، فهز الكاتب رأسه .

– حسن ، اجمعهم ، قل لهم ما حدث ، قل لهم أن يقوموا بجولة في القرية وأن يضعوا علامة على كل الامكنة التي يعيش فيها أولئك الغرباء حيث يعملون وحيث يأكلون ويشربون ، هل فهمت ؟
– سنفعل ما تقول يا صاحب السمو .

– افعل ذلك ، لا أكثر . لا تفعل شيئا أكثر مما قلت لك .
– فهمت يا صاحب السمو .

– هناك أكثر من وسيلة لكسب العدالة . لقد قرر الزاكي ان يعفو عن حماقتك السابقة . لكن لا حماقات بعد الآن . اغلقوا أفواهكم وافتحوا أعينكم . استعدوا وانتظروا أوامر الزاكي ، ومن الآن فصاعدا لا تعملوا شيئا من تلقاء انفسكم .

فسجد الرجل لامسا الأرض بجمهته .

– الآن ، أنا أعلم أن الزاكي عفا عن ابنه الأبله . رانكا ديدي ، فنهض الرجل الكبير ، وفي الحال انتصب رجال المحكمة الآخرون نصف النائمين في مقاعدهم ثم رفعوا

أيديهم علامة الطاعة والولاء ، باستثناء الطفل ذي الاجفان الطويلة الذي نهض بتكاسل وأمسك بكوب الحلوى ثم صعد الى المنصة بفناج ، حينذاك وضع زاكي آموري يده على رأس الطفل ثم خرج بخطا مهيبة جليلة .

بعد ذلك نهض أفراد جناحه ، الواحد تلو الآخر ثم بدؤوا يخرجون من القاعة بغير انتظام . اثنان منهم استعدا وضع القرفصاء وشرعا يلعبان لعبة ورق قديمة على رهان من المال حداده . اما الاكثرية فقد انتهوا الى الخروج وهم على أعبه الاستعداد للاستماع للخنازير ، وقد انشغلت أنوفهم كل الانشغال باستنشاق رائحة العمل وانتهاء مرحلة السأم .

شخص وحيد هو ذلك الرجل الذي ادار عينيه بعيدا عن ذلك الذي كانوا يعذبونه في قاعة المحكمة . انسل خارج ساحة قصر آموري . انه الاخ غير الشقيق لعبدو ، الرجل السجين ، وقد كان اول من سعى للوصول الى مستوطنة شاج كي ينذر سكانها بالخطر الذي كان يهددهم بيد أن الاوان كان قد فات .

* * *

كان الناس يرقبون وصول مئات الجند وهم في لباس القتال ، وكذلك العربات شبه العسكرية والسيارات المدرعة التي جاءت تحاصر المدينة . كما كان عناصر الامن وهم بلباسهم المدني ، يكشفون عن انفسهم بنظراتهم المتفحصة وجيوبهم المنتفخة ، على نحو واضح ، بالآت الموت وهم يسعون للاختلاط بالجماهير ، مستعدين في اذهانهم كل ما تلقوه من تدريب . لكن عمليا لم يكن هناك من جماهير يختلطون بها ، فالناس التزموا بيوتهم كما أن المخازن والمكاتب ظلت مقفلة خلال منع التجول النهاري الاول ذاك الذي لم تعرف البلاد له مثيلا من قبل . عيون خفية ومخفية كانت تختفي في ظلال واجهات المخازن مختلطة بأوراق الاشجار وعلب الرزم ، ممتدة في الهواء الساكن منتظرة . الرعب الذي نشره ، هم وسياراتهم المدرعة الصماء ، كان يجوس المدينة المهجورة ، مساهما اكثر من كل شيء آخر في خلق احساس واضح بأن الموت يجوب الطرق المظلمة ، وما من أحد من اولئك الراصدين المتخفين كان يخطيء رؤيته .

به رأى أوفي ماهية الامر على شكل درنة سامة تخرج من جانب هضبة . كل سائر يصدمها بقدمه يموت ، فالموت الذي زرعه اولئك المزارعون الزائفون ، رجال السلطة ، كان ينبغي ، حسب خطتهم أن ينتش تحت التربة . اما النتوء الضار فلم يكن الا ثؤلولا متصلبا زائدا ، نهاية بسيطة لكثلة خفية يمكن أن تندر او تقتل . الموت الحقيقي الذي كانوا يبحثون عنه هو اهلاك الناس ، اماتهم ذلك الموت الخفي ، ذلك الشلل التدريجي البطيء للحم والذهن الذي يطفى عليهم شيئا فشيئا مثل

سل خبيث ينتشر ويتكاثر في احشاء الارض . الموت الافرادي الصاحب لم يكن الا حادثا عرضيا اما الانهاء الحقيقي فقد كان يتم على نحو أخفت .

قبل ان يتوقف القطار تماما ، بدأت فجأة ضجة جهنمية لأحذية وبنادق وحقائب ظهر ذات مسامير ، اذ شرع رجال يندفعون خارجه قافزين ، منزلقين من بين العربات ، وكان ذلك بإشارة متفق عليها . كانت الابواب التي تعمل بالانزلاق قد انفتحت وهي تصر وتصرف على دواليبها الصغيرة المتأكلة وقضبانها الحديدية سيئة التشحيم ، وكان الجنود الذين كانوا نصف نائمين في آخر شوط من رحلتهم ، يسرعون عبر الفتحات الى المستودعات التي يعلوها الصدا في المحطة القديمة المهجورة . وهكذا ، خلال بضع دقائق تم تنفيذ المناورة فاستأنف القطار سيره بسرعه المعهودة متابعا طريقه الى ان دخل المحطة الحديثة حيث كان ينتظر المحررون الصحفيون الذين دعتمهم السلطات رسميا للتأكد بأنفسهم من عدم وجود اي أساس للشائعات التي كانت تقول ان جنودا من كروس ريفر يأتون يوميا الى المدينة المتمرده .

« كلفوا انفسهم عناء الصعود ، ايها السادة ، وتفتيش العربات بالطول والعرض . انظروا بأنفسكم ايها السادة ، فربما يظن بعضكم انهم يختبئون في رزم القطن ؟ أو في وسط أكياس الفول السوداني هذه ؟ أو لعلهم متعلقون بالعربات من اسفل ؟ انني اعتقد ايها السادة ، ان مخبريكم قد شاهدوا الكثير من الافلام الامريكية . لكننا لسنا ، كما تعلمون ، في الغرب الامريكي الاقصى » .

في عتمة وصدا المحطة المهجورة وعلى بعد ثمانية كيلو مترات أو اقل ، كانت قوات الدعم تنتظر حلول الظلام وكانت تجمع عتادها . أصوات الطقطقة المعدنية التي كانت تتصاعد من المستودع المهجور مع الدخان والجلبة كانت تزيد من حالة الاكتئاب . كما بدت اشعة الشمس المنعكسة على القضبان اللامعة وكأنها تصدمهم ، فبعد زمن طويل من نفثة الدخان الاخيرة لمغادرة القطار ، كانت نثرات الصدا ما زالت تنفصل لتتساقط من أطراف القضبان . كان أوفي قد ركز انتباهه على سقوط تلك النثرات وكان يحس بتراخي التوتر الذي كانت غارة الصباح المشؤومة قد أحدثته في نفسه .

— لماذا تلقي بشعبنا المسالم في خضم هذه القلاقل ، هذا الصراع المرير وآلات الحرب الشيطانية ؟

لكن صاحبه لم يكلف نفسه حتى عناء التبسم .

— لاننا نحن الذين دعوناهم الى هنا ، اليس كذلك ؟ لقد رايت الكلاب تستلقي على ظهرها لكي يدغدغها الناس . لكن حين يفعل الشعب هذا فانه عمليا يبحث عن الرفس بالاقدام .

— هذا يجعل جلدك يقشعر ، أكثر بكثير من معبد اللعنات في غبورولو .

فبدا الآخر راضيا وهو يلوح برأسه .
- لان هذا اكثر تأثيرا بكثير . فاللعنات تطير في الهواء كالكرات لكنها لا تؤثر .

كانت مدينة منع التجول (ولا يمكن لاسمها ان يبقى سرا طويلا ، فهو غبورولو)
قد تخلصت من كل دعاية زرقتها بها عناصر الجيش ليل نهار : مدينة الازمنة الحديثة،
مدينة المستقبل الدولية كما كانت حداتها الفائقة المعصومة من كل شائبة هي رمز
الماهية التقدمية التي لا عيب فيها والتي يتصف بها رجال الجيكو . تلك هي المدينة
المنظمة ، التي كان باستطاعة الجيكو ان يكون لديهم مخطط لها . فالقرية القديمة
البدائية القبلية المغلقة على طقوس الثار وعادات الانتقال ، تحولت الى مدينة نموذجية
تماما بمعاملها وجامعتها ورضى مواطنيها . كانت مدينة منع التجول محصنة تحصينا
قاطعا ضد المشاكل جميعا ايا كان نوعها ، فما من دعاية خطيرة تستطيع ان تنفذ الى
فيلاتها المنظمة تنظيما هندسيا وقصور رجال الدولة المسورة بجدران عالية .

حين كان المرء يسأل السجلات التي لم يكن باستطاعتها تقديم التفسير حتى وان
كان ذلك بحسب الطرق والمشاريع التي تسر دائما وتتحدى التقليل دائما ، فان مدينة
منع التجول كانت تمتص الملايين المحتاجة بنقائها وحسن ترحابها وجوهر التجريب
فيها . تأملوا النموذج الاساسي لمدينة المستقبل ، والنماذج الاساسية تكون مكلفة
دائما . علينا ان نجرب . التجربة لم تنته بعد لكن سكان غبورولو هم البرهان والدليل
على الماهية الجديدة للحياة ، البرر الوحيد لارتفاع تلك النفقات . هاهو ذا تقرير
سكرتير ومبعوث حسابات مكتب التخطيط الذي هو نفسه من السكان الاصليين
لغبورولو والضياء المشع بين مواطنيها .

- ساريك قطاعا غير معروف جيدا ، وعد صاحب اوفي ، شيء ما يختلف قليلا
عن المخازن الكبيرة ، ساريك غبورولو الحقيقية التي لا يستطيع فرد من جماعة الجيكو
ان يجرؤ على الذهاب اليها .

كان الظلام قد خيم حين وصلا الى المستوطنة التي تزدحم بيوت الفقراء المتكدر
بعضها فوق البعض الآخر . اوقفا السيارة في احد الاماكن وتابعا سيرا على الاقدام .
وعلى الفور تقريبا هبت عليهما رائحة تصدع الرأس ، لكنهما لم يكونا بحاجة لاستنشاق
المزيد منها كي يعرفوا ما هيتهما : انها رائحة شراب كحولي قوي هو في حالة التخمر
التام . كانت السلطات المتعاقبة ، بدءا بالفزاة البيض ، قد حاولت عبثا القضاء على
الصناعة التي كانت شهرتها ، كما يؤكد البعض ، قد جاءت من نوعية مياه الابار .
فخارج ايكات الاشجار التي كانت تشي بوجود اجهزة التقطير المموهة ، كانت الابار
موجودة في كل مكان . اذ لم تكن هناك وهدة واحدة عمليا لم يحفر فيها الناس . بل
ان هناك مثلا عاما يقول : من لا تقتله غبورولو بكحولها تشفه بمياهها . ففي جو
الرطوبة الشديدة لاكواخ التخمر ، كانت النسوة العجائز يرعين بعناية شديدة التعففات

الفطرية التي كانوا يبحثون عنها حتى ضمن المدن الكبيرة البعيدة سعيا وراء قدرتها الشفائية التي يظن البعض انها تصنع المعجزات حين تفشل العلاجات الاخرى كلها .

اخيرا وصلا الى قلب المدينة القديمة عبر أزقة ملتوية كانت حلقاتها الملتفة تدور حول التلال المنخفضة وتؤدي لا محالة الى دوائر الرقى والتعاويد التي كانت تتصاعد في الليل على شكل صرخات عصبية حية . هذه شكوى معذبة ، غاضبة ، ومع ذلك متوسلة وملحة تعبر في أغلب الاحيان عن نفاذ صبر مطلق . ومن حين لآخر كانت ارتال خائفة مترددة من ظلال اشخاص يحملون مصابيح تتجاوزهما ، وعبر الهواء الساكن سكونا مطلقا كانت رائحة الزيوت المحترقة تتصاعد ثم تعلق في الاعلى ، سادة طريق الصرير البعيد الذي كان المتأخرون يسرعون باتجاهه ، تسبقهم رائحة الزيت المخيفة . قاره طيبب الاسنان فوق هضبة من الهضاب استطاعا من فوقها ان يرقبا المشهد بكامله . المشاعل الالف المتذبذبة التي كانت الارتال الملتوية تدخل بها الى ايكات الاشجار المعتمة ثم تخرج منها ، تتقدم باتجاه جوقة التعاويد قبل ان تنضم في النهاية الى الحوض الواسع من الانوار حيث كانت الاغنية الرتيبة قد بدأت ، من أسفل الوادي ، كانت تلك الانوار ترتفع بصورة تدريجية من هذه الجهة او تلك وكانت غبورولو تبدو أشبه بكهف تحت البحر علقت على جدرانها آلاف المحارات الدقيقة تشع كلها بنوع من الالق المعدني العذب والمستتر . ومن المركز ، مدفوعة بشدة الالم والمرارة ، كانت تتصاعد تلك الانشودة التي اتضح في الحال انها انشودة القادمين الجدد ، انشودة اللعنات والحرمانات . كانت طبقة الصوت ، التي بدا واضحا ان مغنيها لا يعطون الوقت الكافي للتنفس الا بشق النفس ، تملو وتنخفض ، ممزوجة ومشوشة ، ان جاز لنا القول ، بتلك الطرق الملتوية التي كانت تعبرها قبل ان تصل ، معدلة بايقاع التلال ، ممزوجة بالاعشاب والنباتات ، عائمة فوق الروائح المتبخرة من زيوت القناديل التي يشعلها المحقد والضعينة .

كان اوفي وصاحبه يسمعان الاسماء على نحو متميز ، وكذلك عنف اللعنات .. « الماء عبء كبير ، انه يسحقك دون اطفاء ظمئك قط .. البعض يتذكرك كما لو انك جيفة ... شجرة الهند التي غرستها تلمس الآن سماء الفطرسة ... لا بد من ان تسقط عليك حين تلجأ اليها ... موت الاعمى يسر كل من يسكن بيت المزارع . فهل يمكنك ان تبهج قلب غبورولو ... »

أما الاسماء التي كانت تتكرر كفواصل للانشودة ، ودونما توقف فانما هي اسماء رباعي الكارتل وزعماء الجيكو ...

لو كان باستطاعة مجتمع مشحون ان يغير مجرى التاريخ ، لو كان باستطاعة تجمع من القوى الطبيعية ان يعدل مجاري الطبيعة ... فذلك ليس اكبر صعوبة من الاعتقاد بان هدير آلات الاورغ والضوء المتسرب من الواجهات يمكنهما ان يستمطرنا

السماء ، أن يسقطا الامطار المتأخرة التي يمكنها القضاء على الجفاف وخطر الجدري .
كان ذلك الحوض المليء بمصابيح الزيت والظلال المستدقة يسعى تماما لاقلاق الهدوء
الروحي والراحة الجسدية التي يتمتع بها ذلك الوحش ذو الرؤوس الاربعة الذي
داس كرامتهم بحدائه الحديدي . مع ذلك ، لم يكن الامر غير قابل للتصديق ، بل
كان له ، على كل حال معنى ما . اذ كان هنا سكان المنازل الحديثة المبنية من الزجاج
والاسمنت المسلح ، كما كان بينهم أناس يمكنهم أن يزعموا أنهم من البورجوازية . مع
ذلك ، فقد كانوا ، بحالتهم اليائسة ، ينظرون الى الورااء والبعيد باتجاه تلك الزمرة
الابدية الخالدة من الاحاسيس التي كانت تحول الاماكن العادية الى معابد ، هياكل ،
مراكز للمعانة والنشوة ، كما يسعون للتسامي فوق حدود التحول ، من خلال الاتحاد
مع الآخرين على شكل جيش يمكنه ان يساعد في تدمير القوى الاخرى هناك .

لم يكن أوفي يؤمن قط بما يؤمنون به ، لكن رغبتهم تلك التي لا يمكن انكارها هي
التي كانت تملأ الجو . وكانت تصل اليه ، تقلقه اشد الاقلاق وتبدو وكأنها تعدل من
ميزان تلك القوى التي كان يعتقد انها تتخلل ذلك الهواء الليلي . انه اصطدام صرخة
غبورولو بالطلسم الليلي للكارتل الذي كان ، وهو يدفن بقرة حية في جوف الارض كل
ليل ، يسعى لتدعيم سلطانه ولضمان ارتفاعه المستمر فوق شعب بدأ منذ قليل من
الزمن بهمهم ويتلمل تحت قدميه . .

لكن ، زيادة على ذلك ، كان رجال الكارتل يملكون البنادق . بالتأكيد ، كانوا
قد أسلموا انفسهم للاساطير والخرافات وزرعوا بقرة حية في ساحتهم الخلفية لكنهم
كانوا قد اعدوا أيضا عدة من الثعابين المسلحة للحظة التي يشعرون فيها
بالحاجة اليها .

تحت جنح الظلام ، تغلغلت موجة من الجنود الى قلب المدينة . تغلغات بكل
صمت وهدوء . وذلك بسبب العدوى القاتلة التي كانت المدينة المحاصرة تعاني منها
اكثر من اضطرارهم لان يتحركوا بصمت وهدوء . حينذاك بات مفهوما أن اكثر من
معسكر يلعب لعبة غبورولو . مع ذلك ، كانت الوسيلة المستخدمة لانزال تلك اللعنة
حسية ملموسة ، والفاية النهائية انما هي تحنيط الشعب بكامله : تركه يتنفس انما
بعد تعطيل مراكزه العصبية ، ايرصال اعضاءه الحيوية الى النقطة التي لا تكون فيها
قادرة على أداء وظيفتها ، ايقاف كل تنسيق للعمليات البدنية والذهنية . حينذاك
يمكن أن يقدم للعالم سلام المدينة : وهي هادئة كتمثال من شمع ، ساكنة
كطبيعة ميتة .

من يكن السباق في دعوة الآخر للموت ، قال طبيب الاسنان ، يكن له الفراش
وغطاؤه . ذلك أن من يتلقى الدعوة ثم يهملها ، فانه يوقع على وثيقة موته . ومن يقبلها
يتعين عليه أن يواجه خصمه على أرضه ، ومن يسيء تفسيرها فان معنى ذلك نفسي

الذكاء عنه وهي الحالة التي يفقد فيها المرء احساسه بتكامله وهو شكل آخر من اشكال الموت . أما من يستسلم ويتلقى وعدا بالبقاء على قيد الحياة ، فما ذلك بالحقيقة الا شهادة وفاة له .

كان الامر ابعد من كونه منع تجول ، فالعيون الكثيرة التي كانت تتلصص من وراء المصاريح لمراقبة الجند الغرباء وهم يتسربون الى أزقة المدينة وشوارعها ، كان يصيبها نوع من الدهول ، اذ كان اصحابها مضطرين للاعتراف بأنهم يساهمون في القضاء الوحشي على مدينتهم وموطنهم . اشكال غريبة لاناس يواجهون هجوما على ارادتهم بالحياة بشروط ليسوا مستعدين لها . اذ كانوا يعلمون مسبقا ان ذلك التدخل ليس انتهاكا للحدود الاقليمية وحسب ، بل ، وهو الامر الاشد ايلاما بكثير ، ادخال قذاة في العين ، وسواء فتحتها ام اغمضتها ، فان تلك العين ستبقى متقيحة متورمة يسيل منها الالم ولن تشفى الا بخروج تلك القذاة التي تهيجها وتثيرها .

— أنا أصر ، قال طبيب الاسنان معلقا ، على أن الدفاع المشروع لا يعني فقط ان ينتظر المجنون الى ان يهاجمك ببلمة بل حينما تراه ينقض بها على احدهم في الشارع ، يتعين عليك الا تنتظر قط . لكنكم انتم ، اعني الداعين للتعقل والعقلانية ، سمحتم بأن يولد وحش فظيع بادعائكم ان بإمكان المرء أن يحاور مجنونا . لهذا السبب يموت شعبنا الآن . فحين كان الوحش في طور الحضانة ، كنتم تسيرون بهدوء صامتين مشغولين بدراسة الظاهرة . قل لي ، ان وضعت لقمة من الطعام في فمك وأحسست بحمض شديد يلدعك ، هل تستمر في مضغها لتفكر أم تلفظها لتوك ؟

طبيب الاسنان وهو خلف مقود سيارة الاطفاء ، كان يمر بالحواجز الواحد تلو الآخر وكله مرح وانطلاق ، دون أن يشير لذي رجال الحرس سوى النظرات اللامبالية وغير المهتمة ، بل وصل به الامر ذات مرة الى تلقي تحية عسكرية . كان هو ورفيقه قد رايا الجند الملطخين بالاقدار وغبار الفحم الذي كان يتضاعف دقيقة بعد دقيقة ، فيما كانت السيارات القليلة الخاصة التي تتحرك في الطرقات ، تتعرض للتوقف والتفتيش . انها سيارات اطباء ، اناس « لاغنى عن خدماتهم » ممن حصلوا على اذن بالمرور وكانوا يشكلون نشارا لا يتفق مع منظر الخاكي وخوذات الفولاذ والحراب . وعند كل نظرة من طرف عينه ينظرها اوفي الى طبيب الاسنان ، بشيء من السخرية ونفاد الصبر ، كان احساسه بالضيق يشتد أكثر فأكثر .

— يا الله ! تأوه الرجل متحسرا ، كم أرغب بالسلام ! السلام ولا شيء غير السلام . السلام ، تلك الكلمة التي اسيء استخدامها ، وكثيرا ما تعرضت للتلوث . السلام العادل (وتوقف) أجل ، تلك هي المشكلة : السلام العادل .

— انك توجه نداءك الى وحش كاسر ، وحش تزداد شهيته للدم يوما بعد يوم كما تزداد انتقائيته ايضا ، وبقدرا يطعمه المرء من ذاك الذي لايناسبه ، يشتد

تصميماً على أن ينتظر لحم الاضحية الحقيقية . لذا ، من الافضل أن تقدم له منذ البداية ذلك الذي يناسبه . أما ما عدا ذلك فلا يفيد الا في التسوييف والتأجيل على حساب الضحايا الابرياء .

- هنا شرع اوفي ، وقد احس بالاستثارة والغيظ ، يتكلم بنبرة ضاغطة .
- اسمع ، التردد ، ذلك شيء . . . لكن طيبب الاسنان قاطعه :
- اكل شيء هو تعزيز المعارضة .

– نحن هنا لمناقشة الوسائل . فأنا اريد القضاء على ذلك الذي يبقي لي انسانيته مثلما يفعل الآخرون بوسائل مختلفة : كالاستسلام مثلا او التوفيق والتسوية . فقبول الانسان بالحط من شخصيته الكلية ، انما هو بتر ذاتي له بأكثر من شكل . (وبطرف عينه رشق اوفي صاحبه بنظرة سريعة ، ثم كثر مبتسما) بعدئذ يأتي وقت من الاوقات تغدو حتى ممارسة الحب نوعا من العذاب ، في النهاية تكون تلك الاحاسيس هي المعنية بالذات . فالمتعة ، النشوة نفسها تغدو تافهة ، بلا طعم ، نتيجة تآكل الاحاسيس في اطار التسوية والتوفيق ، تغدو أتفه من أن تستحق الجهد أو العناء ، بل حتى النشوة الجنسية تغدو أتفه من أن تستطيع تعويض العذابات التي يواجهها المرء في محاولته البقاء على قيد الحياة . ذلك ان الوضع الاجتماعي او السياسي ، يفرق ، يلطخ ، يشوه حتى الاحاسيس الاكثر حميمية . وفي وضع كهذا ، تجد أنك لست سوى شبه رجل ، حتى ولو أقسم اصحابك أنك سوبرمان . فالكل العاقل ، الحساس من الرجل ، يعلم أنه ليس سوى جزء مبتور ، بضعة قليلة من إمكاناته وطاقاته الاساسية .

كان طيبب الاسنان يعبر صفوف الحراب الموزعة والرشاشات الموجهة . في احدى المرات ، وحين بدا على ضابط كبير له مسحة من ذكاء أنه يرغب في تدقيق أوراق ركاب السيارة ، قفز الطيبب من السيارة واستلم زمام المبادرة : « هل أنت الضابط المسؤول ؟ أنا حاولت لكنني لم أستطع الاتصال هاتفيا بأحد ، الا أنني أريد ان اعرف سلبا او ايجابا ان كان لديكم النية في ارسال حرس خاص الى مستودع محروقات وزارة النقل فهناك خطر بنشوب حريق ، انه هدف جيد للمخربين . . . » .

كان اوفي يتطلع اليه معجبا بشجاعته . كما لاحظ ، انطلاقا من بعض التفاصيل الصغيرة ، أنه بات يشعر بقربته الروحية أكثر فأكثر ، كان السخط يملأ صدره ، وهو يرى نفسه رهين مأزق هو تضخيم الجزء الصغير على حساب الكل الكبير . وكان يشعر أن هناك شيئا مصطنعا بعض الشيء في ذلك الاسلوب لحل مشكلة القاتل المحترف الاخلاقية ، في اعداده لتقبل أو رفض تلك الضرورة لهدر الدم بأدنى حد من الاحساس ، دون أن يتطلب ذلك ، بدوره ، الا بقية من وجدان حر ، نشوة ، نوم بلا احلام ، ادراك بأن في اليد اتخاذ القرار بدلا من اناس يزجون بغير سبب في سجون

تفص بنزلائها ، ابرياء تبقر بطونهم وهم يتلون صلواتهم ، يضربون ويقتلون في قلب منازلهم ، يدفعون دفعا الى العوز والسقوط من قبل الوحش كلي السلطة ، تنتزع ادمغتهم من قبل ناميات جذامية تلتهم حتى اصابعها ذاتها نتيجة الشره والجشع .

آه ، لو كان باستطاعة المرء فقط - اجل ، هكذا كان الاغراء المشؤوم - ان يتجاهل حتى الفمغمت غير المتبلورة ، غير العقلانية ، حتى المبادرة النفسية المحض ، وان يستسلم لسلام الصلح ، يمسح كل معرفة وتحديد للحرية لم تسمح بهما السلطة ، لو كان باستطاعته الا يقرأ الا الصحف الرسمية ، ان يتجنب الحوارات ، يرفض فتح الرسائل التي لا يستطيع التعرف الي مصدرها الاصلي مباشرة ، فيتخلص بذلك من صرخات اولئك الذين يتضرعون ويتوسلون هناك ، في الاماكن البعيدة ، لو كان باستطاعته ان يعلق المذيع بضجته وصريه ، ان لا يوجد الا حيث الخلاصة الجاهزة لخبرات وتجارب الآخرين ، ان لا يتعلق الا بلحظات المتعة الحسية المنفردة ...

سمع اوفي الباب يطبق وصوت طبيب الاسنان الذي سأل هامسا .
- لماذا هذا الوجه المنقلب ؟ الم تظن اننا وقعنا في مأزق ؟

فأنكر اوفي ان تكون ثقته بدليله قد تزعزعت .

- كلا ، كنت أفكر ...

- لديك وجه معبر على نحو غير معقول ! لكن علينا ان نخرج من المدينة في الحال وان نغير السيارة . لدي سيارة أخرى تنتظرنني في الضاحية ، هناك يمكننا ان نغير ملابسنا ونعود كي نتابع جولتنا التفتيشية .

فوافق اوفي بهزة من راسه . وحين كانا متجهين نحو مخرج المدينة ، قال ، وكانما يكلم نفسه :

- أنت تعلم ، اولادهم ينادونني يا « عمي » . فعلق الطبيب قائلا :

- اشهر القتلة والسفاحين معروفون بحبهم للاطفال .

* * *

- اعرف ذلك ، انهم لاوباش !

وواجه باتوكي حواجب ضيوفه المعقودة بنظرة طويلة ملأى بالثقة والطمأنينة ثم كرر :

- اقول لكم انهم لاوباش . حين يقتل المرء منهم واحدا او اثنين ويضع عشرة خلف القضبان ، فان الآخرين يتراصون ويحتاطون . اذن حين لا يكفي ذلك الرقم اضف اليه صفرا ، اقتل منهم عشرين واسجن بضع مئات فان لم يكف ذلك ايضا ، اقتل بضعة آلاف وامتنع عن سجن احد ، بل الجأ للقتل وحده . فان اخفق هذا الاجراء قولوا انني ابن حرام .

خلال عشاء مع الشيمانيا أقيم على شرف أصحاب الكارتل ، فتح الرئيس باتوكي الطريق على سعته لازدراء شعبه وناسه . أما من كان يخاطبه في البداية فانما هو زاكي آموري ، طاغية كروس ريفر الكلي السلطة ، الذي كان قد أكد إخلاصه لرابطة تتجاوز الإقليمية .

– الحزب الوحيد الذي يسمو على الحدود المحلية فعلا ، قال باتوكي وهو يقهقه ضاحكا عارضا على ضيوفه طبقا من السراطين أعدته ابنته ، انما هو الحزب الذي يملك المال .

– والبنادق .

فالتفتت الشخصيات الثلاث التي تلبس اللباس المدني باتجاه ذلك الذي نطق تلك الكلمة ، رئيس الأركان الذي كان يمثل الذراع الرابعة للكارتل . كان سلفه المتوفى يحتل المكان نفسه العام الماضي . لكن ما من أحد تذكره في هذا الحفل أو رفع نخب ذكره . بل وصل الأمر بالبعض الى الامتناع عن رفع كأسه اكراما لهذا السند الخفي للكارتل الذي ربما جاء املا بهذه اللحظة التي كان يمد فيها كأسه للخادم كي يملأها . امتلأت الكأس مرة ثانية فازداد تشوّهه وارتباكّه ، الأمر الذي دفعه لان يحك بعصبية واضحة حذاه بالبلاط الرخامي ثم يجرع كأسه جرعة واحدة ، ساكبا شيئا من الخمرة على اوسمته وشرايطه . وشيئا فشيئا أدرك انه ارتكب خطأ جما حين أتى الى الحفل بلباسه الرسمي . لقد كان ، وعلى نحو غامض ، يأمل ان يؤثر أشد التأثير في الجماعة بمظهره السلطوي ، لكن ذلك لم يفعل سوى اظهاره بأنه دخيل ، أداة، ممثل رمزي بسيط ، وربما فضلة زائدة .

بعد ذلك أضاف بغير لباقة :

– تحالف المال والسلاح هو بكل وضوح ... أخيرا ... أمل ال .. في النهاية ... أمل الاستقرار الوطني .

– بالمناسبة ، قال باتوكي ، أنا أنوي أن أغير كاتب خطبك ، فهو غير متمكن .

– أنا راض كليا عن ... تابع صوت رئيس الأركان الفاتر .

ليس بعيدا عن ذلك المكان ، كانت التجارب الخاصة بالاستعراض الكبير تجري المرة تلو المرة . فالاجتماع الفصلي لأعضاء الكارتل لم يكن يكتمل بغير استعراض أتباع السلطة باللباس الرسمي . انه استعراض واستعداد في الآن نفسه ، تمرين عملي لوضع المترددين على الطريق الملائم .

– زيادة على ذلك ، أضاف الرئيس باتوكي ، أنا اتطلع الى العيون حين انظر الى الرجال أثناء الاستعراض ، وحين أشعر بعدم الإخلاص لدى واحد منهم ، أتكلم معه . وعندما يسمعي الضابط وأنا أسأله كيف أسرته وما اذا كان يفضل الانضمام اليها أم لا ، يعلم انني لا أريد رؤيته على بعد عشرة كيلو مترات على الأقل .

كانت الابهة والاحتفالات ما تزال مستمرة علانية تملأ القصب الاجوف ذلك ، وكانت ملابس السلطة الفاخرة تخفي في ثناياها الكره والمقت الشاملين ، فقد اصبح باتوكي السبب غير المباشر لاجماع الشعب على كرهه واحتقاره . وكان الشعب ، في استعراض القوة ذلك ، قد حذف تماما ، الفتي وجوده . لقد وصل اليأس بالناس درجة ودوا معها لو يصيرون جعلانا. لهذا ، كان لا بد لهم من أن يلقوا بكتلهم الفرانيتية ، قاذفين بها أهدافا في الخارج . لكن المقذوفات غالبا ما كانت تقصر عن أهدافها وغالبا ما كانت تعود وتسقط عليهم هم انفسهم . فالرأس الذي كانوا يريدون ارساله الى الجحيم ، كان يعمل من نفسه مهرجا في الطرقات وفي قلب حلبة الموت ، لكنه يظل منيعا لا يصله أحد . زاكي آموري ، الذي يحميه جيش من الاتباع ، كان هو الآخر في امان تام لا يصله أحد .

كما كان الرئيس بيغا يعرض نفسه بكل تباه حيث يشاء لكن محاطا بموكب من سياراته العسكرية الخاصة .

كذلك كان رئيس الاركان يعطي الاوامر ويلقي الخطب التي تكتب حسب توجيهات الثلاثي المدني في الكارتل ، لكن الذروة انما كان يجسدها باتوكي . فقد قام هذا بزراعة غابة من الحراب ، وكان ، وهو في وسطها ، يجتاز الطرق الفارقة بلعنات الشعب ضاحكا ساخرا حتى من دموعه ، دموع العجز . وكان هو الموهوب بصبر لا يقل عن صبر السحلاة ، يستوف ويماطل في المسألة المطروحة ، مضاعفة القتل والبتر .

في الحقول التي تحيط بشبكة منتصبة من الهوائيات وأمواج الكاتبات - المبرقات ، كان الجيكو المستعد لكل شيء قد لبس لباس السلطة . وفي قلب المناورات شبه العسكرية ، كانت ابواق الشرطة الاقليمية تعزف أنغامها التدريبية في حين كانت الوية الصدمة تلمع دبابيسها وأحذيتها ، وعلى مقربة كان الضابط المكلف باجراء التدريبات يلقي أوامره بصوت فائق الحدة على فرقة من المجندين مضيغا من حين الى آخر : « انتبه للزاوية .. انتبه للزاوية قبل الانعطاف ، وانعطف مباشرة » فيما كان هو نفسه نموذجاً للاضطراب وعدم الدقة .

خلال هذه الجولة ، كان أو في قد ركز انتباهه على الهيئة غير اللائقة لذلك الرجل ذي الوجه العجوز والبشرة الاشبه بالرق ، الذي بدأ واضحا انه احتل مكانه ذلك نتيجة خطأ بيروقراطي . فقد كان ذلك الشخص يجسد الصورة المثالية للفغلة ، لمعزاة ترعى على طريق عامة ، أو لعسس قرية في لباس محارب قديم ، بعيد كل البعد عن واقعه الراهن .

• أنا اعرفهم ، كان باتوكي يصر ، أقول لكم انهم اوباش . ولا بد أن الله معنا والا من تدري ما يمكن لاوباش مثلهم أن يفعلوه ؟ لكنه هذه المرة كان يخاطب زوجته وابنته .

كانت الجوقة تعزف موسيقى فالس فيينا . وكان ضابط بلباس شديد التالىق يؤشر دونما توقف ، والسيف في يده ، ماشيا الخطوات المائة ، مفتشا الصفوف باعتبارها ممثل الرئيس باتوكي وبديله . اما رقيب التمرين فقد كان وسط مجموعة من المجندين يتطلع باتجاه المكان الذي كان المحترفون يتدربون فيه ، بعدئذ طلب الى تلاميذه ان يحدوا حذوهم .

— انظروا هناك ، انظروا كيف ينبغي ان تعملوا (وتأوه قاضيا قطعة من جوزة كولا ، ثم غمغم) آه ! حسرتي على ذلك الزمان ، زمان قادة الحلقات والحكام البيض ذوي اللباس الرسمي الابيض من فوق الى تحت ، ذوي الازرار المذهبة ، والوسمة الجميلة التي تزين الصدور . . . اولئك كانوا رجالا يستحقون العناية الذي يلقاه المرء ، لا هؤلاء الحمقى المغفلون ، رجال هذه الايام . . . ثم استدار فجأة باتجاه صف المجندين الذين كانوا يقهقهون فتوقفوا عن الضحك في الحال .

— لسوء المحظ ، غمغم طبيب الاسنان ، انني أضعت في أحد الحوادث بندقيتي ذات المنظار ، فاستعراض كهذا مثالي ، مناسب لنا تماما . أما الآن فلا بد من الاقتراب اكثر ما يمكن وفي ذلك قدر أكبر من المخاطر ، اذ ليس باستطاعتي ان اسمح لنفسي بأي خطأ ، كما لا يمكنني استخدام الاسلوب نفسه مرتين . كذلك علي ان أعرف من ينبغي قتله كي أضعف الكارتل أشد الاضعاف . علي أن اكون فعالا .

كان جميع أعضاء حرس الشرف الذين يتدربون على تجربة الاستعراض من سكان كروس ريفر . فباتوكي لا يفامر باستخدام رجال من بلده . كانت بندقيتهم اشبه ببندق الدمى ، طلاء الصلبنان شديد اللمعان وحاملات البنادق اشبه بسيور جلدية تستخدم لوضع مقذوفات البنادق فيها . كانت اثاره اللعبة تنعكس على وجوه المجندين الذين كانوا يتطلعون حولهم مما جعل أوفي يتذكر موكبا قرويا حضر يوم من ايام السبت . كما تذكر الزمن الذي كان يجلس فيه تحت شرفته ، يسحب خيط سنارته .

— صناعة تشيكية ، قال الطبيب معلقا وهو يعطيه المنظار . خمس عشرة طلقة ، واخف بكثير من بندقية الضغط ، صدقني .

تطلع أوفي بواسطة المنظار ، وهو يتساءل في سره ، كيف يمكن للمرء ، وهو في قلب هذه الخيانة ، ان يعيد العدالة التي يتعذر الامساك بها . كان لا بد من الافتراض ان لهم عقولا ، اولئك الرجال الآليين الذين يتدربون لكن هناك اشياء يشتريها المرء مقابل الراتب ، هناك اشياء يتخلى عنها ، اشياء يقايض بها ، يمسك بها العقل الشرير المصاب بجنون العظمة . كان من الصعب عدم التفكير بان الحل الاسرع والاعدل ، من أجل تحرير عقولهم ، انما هو استخدام تعبير الطبيب نفسه : ازالتهم من الوجود .

لم يكن يبدو على الانساق أنها تقذف سوى موجات مدمرة ، فأجس أوفي بجلده يقطق تحت قصفهم . وفي دوامة الصور والتخيلات ، كانت ثمة صورة تطفئ على كل شيء ، صورة المرأة التي قتلت برصاص الرشاشات وكفها ما تزال متشنجة ممسكة بساق طفلها . لم يكن رأس الطفل سوى عجينة مهروسة من دماغ وعظام . أتراها جنت تلك المرأة في اللحظة نفسها التي اخترقت فيها الرصاصة رأس الطفل الذي كان يرضع ثديها ؟ الثدي مندلق ، الحليب يمتزج بالدم رأسما صورة تشهد على اللعنة التي حلت بالأرض ، وهنا وهناك فليقطة متناثرة ومقعد صغير منقلب وقدر للعلي . حتى الجنود لم يجدوا في أنفسهم الجرأة على أبعادها من مكانها . لكن سائحا لم يسبق له أن رأى شيئا مماثلا ، رأى ذلك المشهد بعد فترة طويلة من مغادرة جحافل الموت ، فالتقطه بعدسته .

وهكذا ، بوجود ذكريات من هذا النوع كان يبدو أشبه بالرجس ، قبول أمنية الموت الذي ان دل على شيء فانما يدل على التهرب من عبء القرار في الوقت الذي يمكن لهذا القرار ، ان كان لدى الطبيب شيء من منطق ، أن يحول دون أن تتكرر مناظر مماثلة . كانت الحقيقة أوضح بكثير من أن يتمكن المرء من غض النظر عنها . وكان النداء بوجوب التصرف أقوى بكثير من أن يتمكن المرء من صم أذنيه عنه . وهكذا بدا وكان الطبيب اختار الطريق الوحيد الذي يقبله الحس السليم ، تازكا الطرق الأخرى لعبيد الأوهام ، العاطفيين منهم والعقلانيين .

— لو كان باستطاعتنا أن نضعهم جميعا ، أمام الناس ، وعلى جدار أبيض مرشوش بالكس ثم نطلق عليهم النار لكان علينا أن نفعل ذلك . لكن لسوء الحظ ، هذا مستحيل ، إذ لا تتوفر لدينا الوسائل ، لكن باستطاعتنا أن نفعل بهم ذلك واحدا تلو الآخر ، نضربهم دون أن نعرض أنفسنا للكثير من الأخطار . انما لا بد من أن نعلم ان كل ضربة ناجحة تقضي على واحد منهم تجعل الضربة القادمة أصعب مرتين . أما دوري انا فلا يمكن ان يكون الا من خلال الاستمرارية والزمن الطويل . ولا بد من استغلال هذا الوقت بأكبر قدر ممكن من الفعالية والتأثير . هذا ما أحاول افهامك اياه . فهناك زمن أطول بكثير مما تدرك وعليك أن تقول لي ايهم ينبغي قتله أولا (ثم افتر ثغره عن واحدة من ابتساماته النادرة) . احيانا أفكر أن الاول ينبغي أن يكون حاكم كروس ريفر ذاك ، ترى الا يعتبر القوة الحقيقية ؟ فاذا ما قضينا عليه قد يموت باتوكي بأزمة قلبية : أي نضرب عصفورين بحجر واحد . فهل هذا التصور صحيح؟ .

هنا ، هز أوفي رأسه .

— يبدو باتوكي كثير المجاملة ، شديد الخضوع لاوامر الآخر الذي يبدو أصلب بكثير من ذاك .

فحرك ديماكين رأسه على مهل .

— أجل هذا ما أقوله لنفسي في بعض اللحظات .

وخيل لاوفي ان هناك ضيابة ثابتة من الوهم ، فحاول طردها بقوله الاشياء
بمحافظة .

- انت تعلم جيدا ، قال وهو يلوح برأسه ، ما تود ان تسألني عنه ، اليس
كذلك ؟ تود ان تسألني من هو ذلك الذي ينبغي اغتياله أولا ؟
- أجل . لقد رأيت استعداداتهم ، وهي تجربة مكلفة يقصد منها القيام
بمجزرة حقيقية ، فاذا كان هناك سبيل لايقافها ، قل لي ما هو ولسوف أستخدمه .
والا فعليك الاجابة على سؤالي : من منهم ينبغي أن الاحقه أولا ثم . . . اقتله ؟
(ومن جديد إعاد المنظار الى غلافه) . لا بد من تحضير الامور . فانا لن أسمح لنفسي
بأقل خطأ .

- انت تعرفهم مثلي تقريبا ، دمدم أوفي .
- تقريبا ، لكن ليس تماما ، واذا ما أخطأت في الاختيار ، ستكون انت المسؤول .

* * *

كان باتوكي هو مهرج الجماعة المشهور لكنه كان أيضا صاحب الاستراتيجية
الادقي : فهل كان يا ترى عماد الحلقة الحديدية ؟ لقد كان أول من فكر بتجنيد
البيض من افريقيا الجنوبية في الشرطة السرية : « لو لم تكن أساليبهم ناجعة لما
كانوا ، وهم الاقلية ، أصحاب السلطة » وهكذا جاء كيلجارد ، بظهره المقوس ، وعينيه
الرمضاوين وابتسامته الاكثر حدة من مبضع طبيب ، طليعة لمجموعات صغيرة من
الخبراء في الفن الخالص ، فن التحقيق ، وكان كيلجارد يحب الصغار السود أيضا .
كان يوقف سيارته ليمسك بواحد من ذقنه ثم يتأمله وهو يتمرغ في التراب ، او
وهم ينازعون بعضهم بعضا على النقود التي يلقيها لهم أرضا . لم يكن لكيلجارد
اطفال وكان يتأوه وهو يقول لباتوكي ، وسط التقارير والواامر السرية ، في كل ساعة
من ساعات الليل والنهار ، انه يقبطه على عائلته الجميلة ، ثم انتهى الى ان صار
هو نفسه جزءا لا يتجزأ من العائلة التي كان أفرادها الصغار ينادونه هو الآخر
يا « عمي » .

عادة الاحترام المتبادل بين البكور من العائلات ، فكر أوفي مفتما ، هي فضيلة
تقليدية ، بسببها ونتيجة الافتقار للتفكير ، صارت تطبق عليه هو أيضا . فالكل
يناديه يا « عمي » ما عدا بابي ، الابنة البكر . اذ سرعان ما صارت سيدة المنزل ومنذ
أن أحسبت بأنها بلغت السن المناسبة ، شرعت تناديه باسمه فيما كان صوتها الرقيق الذي
كان صدى لكلمات والدها ، يحتد تماما حين ترى انه يرفض نصائحها .

اذن ، العدو ، بالنسبة اليه ، ذو وجه ، كائن من لحم ودم . بل ثمة أماكن ،
وذكريات سارة تجمعها به ، حين كان يرتاد معه تلك الاماكن . انه باتوكي من يعرفه
أوفي على نحو خاص : فكثيرا ما تناول عشاءه على طاولته بل كثيرا ما غازل ابنته

البكر دون أن يتوصل بذلك الى نتيجة كبيرة . كان باتوكي يحاول استخدام تلك العلاقة ، لانتزاعه من الطريق التي اتخذها لنفسه . كان يسمع تعليقات الاب البارعة في صوت ابنته الرائع ، تلك الابنة التي كانت تفخر بأنها عضو في جيش سالوت .

— لماذا تخالط أولئك الاوباش ، تلك الحثالة ، الرعاع ؟ ان الحسد ليأكل قلوبهم ، وليس لوجودهم كله أساس . فلماذا تعمل من نفسك شبيها بمن لا ينحدرون من أسلاف محترمين كأسلافنا ، مثلا ، وليس هناك من رابط مشترك يربطك بهم ؟ — اسمعيني يا بابي .

— لا ، لن أسمعك . انك تضيع وقتك مع حثالة المجتمع ، تلك الحثالة التي تريد أن تغلب البلاد رأسا على عقب ، لا اشيء الا لانها لا تملك شيئا . يريدون أن يهبطوا بالناس كلهم الى مستواهم . تصور ، قبل أيام قليلة فقط ، قال لوالدي واحد من أولئك الذين يدعون شيوعيين . . . فبحث بيده عن يد الفتاة الشابة ثم أمسك بها وهو يحاول مقاطعتها :

— ذلك ما يضجر . . . فأنت تستمعين الى والدك كثيرا .

— وأنت تحاول الا تستمع اليه قط ، لكأنك تنحدر من اللا شيء ، من العدم ، انك تدير ظهرك لاجدادك وأسلافك . وهم يستغلونك يا أوفي ، هكذا ، بكل بساطة . وأنت لا تعلم الى أي درجة سيكون وجودهم غير مهم وغير ذي بال لو لم يكن بينهم أناس مثلك ؟

فأطلق أوفي صغرة كبيرة ساخرة .

— هـ . . . بي !! بـ . . . بي !! يا لها من كلمات كبيرة !

— كن جديا يا أوفي . ابي يحبك كثيرا ، هو لا يفهمك بالفعل لكنه يحبك تماما . لهذا السبب طلب الى الهيئة أن ترسلك في تلك الرحلة الدراسية ، بغية اعطائك الوقت لتهدئتك ، حين كان البعض قد بدأ باثارة القلاقل . اسمع ، ليس عليك الا أن تطلب اي منصب ، أي مكان ، واعلم جيدا أنك ستحصل عليه . فقط اطلب فتحصل على ما تطلبه . ابي يكن لك الكثير من الاحترام كما أنه يحترم عائلتك . اذن، لماذا تزعج نفسك وتهدر ذكاءك في مخالطة أولئك الرعاع ، الخاسرين الابديين ؟

لم يكن باستطاعة أوفي ، الذي احزنه كثيرا حالة العزلة المنيعه التي كانت بابي تتحصن بها ، متوقعة خلف تلك القشرة المتصلبة نتيجة الاحتكاك اليومي بوالدها ، لم يكن باستطاعته أن يفعل شيئا سوى أن يقدم لها أبسط نصيحة عسى أن تنقلها لوالدها .

— قولي له أن يغادر البلاد حالا . قولي له أن يكف عن استغلالك ، ان يكف من اساءة استخدام فتاة بمثل طبيعتك وطبيعتك الكريمة الجميلة . أنت تعطين بسهولة عجيبة ونزاهة كبيرة ، لكنك تعطين بلا تفكير ، وهذا لن يودي بك الا الى التهلكة ، فهو

سيلتهمك . انه مثل سحرتنا ومشعوذينا أيام زمان ، حين كانوا يعتقدون أن عليهم أن يلتمهوا صفارهم لكي يستعيدوا شبابهم ، فلا تدعيه يلتهمك .

لاحظ أوفي للتو توهج النار في وجنتيها ثم رأى الصدمة والانبهات ينعكسان في عينيها ، حين عملت حسابها فرأت أنها كانت ، أجل ، كانت قد صفت « العم » أوفي . لقد أحس في تلك اللحظة أن شيئاً ما يجذبه اليها كي يحميها ، هشاشتها نفسها تجذبه ، إذ على الرغم من الإطراءات والمجاملات التي كانت تتلقاها نتيجة موقعها الاجتماعي كابنة واحد من « الرباعي الرهيب » ، ورغم فصول الشتاء والصيف التي كانت تقضيها في الفيلات وعلى شواطئ السباحة التي يؤمها أثرياء الناس في كابري وميامي ، حيث الرمل والمال ينزلقان من بين أصابع الناس ، ورغم المكاسب الصغيرة التي كانت تنصب عليها نتيجة العلاقات الكثيرة التي أقامتها مع كبريات العائلات في كارتل الكاكاو ، ورغم الحفلات ، المهرجانات الرسمية ، السهرات الدبلوماسية التي كانت تلعب فيها دور المضيعة في حدائق والدها وعلى مروجّه ، رغم ذلك كله فإن هشاشتها وضعفها وافتقارها للذكاء كانت كلها تتخلل مظاهر الفنى والثروة وتنفذ اليها كطيف فزاعة . لم تكن قد توصلت قط ، رغم حيويتها التي لا تنكر ، الى معارضة المعاملة الفظيعة التي كان ايقاع حياتها قد فرضها عليها ، إذ غالباً ما كانت تضطر وقبل أن تنتهي سهرتها ، الى انعاش وجهها من جديد بعد أن يصبح أشبه بثوب خفيف ترك منذ الشتاء على حبل غسيل فتجمدت وتجلدت ثباته الهشة . كانت الصدمة التي نجمت عن عملها العنيف قد أفرغتها حتى آخر نقطة من ثقتها ، دون أن تترك ما يدعمها سوى غلاف من الارهاق والشك ربما بدا معهما أوفي على حق حين قال انها لم تكن تعطي نفسها الوقت الكافي للتفكير ، فقد انهارت بعد ذلك ، منفجرة بالبكاء طالبة النصيحة ، فاقترح أوفي :

— خذي عطلة . انسي ما حدث هنا . جردني نفسك من المتعة التي بدأت تجدينها لكونك ابنة باتوكي . اذهبي وادرسى ودعي والدك يمخر عبابه الخاص اذا ما رفض الاصفاء الى النصيحة التي قدمتها لك لتوي . اذهبي الى واحد من القصور الصيفية التي اشتراها والدك بأموال شعبنا .

بعد ذلك ، فهم أوفي أنه ، بنصيحته تلك ، أيقظ ولاءها الشديد . كان هناك ، ولا شك ، شيء ما يثير الإعجاب في أنفتها تلك ، لكن أوفي لوح برأسه وقد استولت عليه الشفقة ، مدركاً أنها لن تفلح في النهاية إلا في تدمير نفسها . والآن ، هل تراه سيعجل بالامر ، كما يقضي عليه واجبه ، في أن يقول لطبيب الاسنان أن والدها هو العدو رقم واحد الذي ينبغي القضاء عليه ؟ وإذا ما اقترح هدفاً آخر ؟ إن تحدث مشاهد مماثلة لدى عائلة أخرى فيها بابي أو حبيبة أو شنيير أخرى ؟ لكن ماذا عن الصورة الأخرى ، تلك الصورة التي تبرز كنوع من الاحتجاج العنيف ؟ صورة تلك الام التي

أمحى وجهها والتي كانت اصابعها ، حتى في تصلب الموت ، قد بقيت متشنجة وهي تمسك بساق طفلها الذي سحق رأسه ...

وكالبرق ، مر محيا بايبي في ذهنه ثم تردد صوتها وهو يصفر صغيرا :
- كنت اعتقد أن بإمكان المرء أن ينقذك ، لكنكم كلكم رعاع ، غوغاء ، أنت وجميع أولئك الخائبين الذين يسمون أنفسهم راديكاليين .

لم يحس أوفي ، وهو يحدق بعينين ثابتتين الى الكرسي الذي تركته ، الا بالاسى على أن تلك الافكار لم تكن أفكارها هي ، بل حتى الكلمات لم تكن كلماتها . فجريمة باتوكي وناديه المعروف والضاخب غدت أكثر فظاعة وهولا وهي تتخذ بعدا جديدا نتيجة الافساد المتعمد للنفوس الرقيقة والاناس الطيبين باستخدام ذلك الفن الخاص في اثاره الولاء العبودي الخالي من كل تفكير ، الولاء لدى اناس رابطتهم الوحيدة بهم هي رابطة الدم أو الاغراء ، ذلك الافساد لقلب سلطتهم هو الظل الذي كان يهدد بالخطر خلافا لقائمة أعمال السلب الوقحة والمجازر التي ترتكب في وضح النهار .

* * *

« ٤ »

الثمار

سلك أوفي الطريق الاقل ارتيادا ، وهو يحس بالحاجة الماسة لان يجمع ويكدس في نفسه كل السكينة والسلام اللذين يمكن لدرب من ذلك الطراز أن يقدمهما . فعن قريب لن يبقى صفاء في الطبيعة ولا رطوبة في التربة ولا ورقة في مهب الريح .

وصلا الى ايكة من اشجار المطر ، ذلك المكان المعروف جيدا ، الذي زرعه مبشر غريب الاطوار أصبح الآن طي النسيان . كان ذلك المكان يبدأ عند الخروج من مدينة أومالا الصغيرة . وكانت تمتد فوق الطريق ولعدة كيلو مترات قبة عالية من الاغصان المتشابكة . كانت الشمس ترسل اشعتها الصفراء عبر خيزران عديم الوزن وانايب أرغن لامادية تفر لدى اصطدامها بالسيارة وتجري بخفة على جانبها وتحثك بزجاجها الامامي ثم تداعب وجهيهما ، فيما كان تغريد الطيور ينحدر عبر تلك الانايب الذهبية وهي تمرح بين الظلال المريحة .

احاسيس ، احاسيس نقية صافية . فكما هو شأنه دائما كان يحس انه غير راض ، انه مغشوش ، وكانت تلك الاضاحي المذهبة تغريه الى درجة يمد معها يده من النافذة فيما كانت هي تتراقص على ذراعاه بعفوية فطرية تراقص الجنيات . ففي تلك الفرجة من الغابة كانوا منقطعين عن العالم يفشاهم ضباب من ذرات الشمس في غابة اغاريد ..

غرق أوفي في تلك الفتنة الساحرة وهو يعطل نفسه بأنه يكدرها احتياطا للمستقبل . القى نظرة على زاشي ، فبدأ له هو الآخر واقعا تحت تأثير الافتتان . أخيرا وحينما غدا آخر زوج من الاشجار يبدو في مرآته العاكسة مثل شجيرات حديقة ، فتح أوفي فاه : « يخيل للانسان أن أماكن كهذه تملك القدرة على الشقاء » .

ومن جديد تملكته فكرة الشفاء تلك التي تركتها في نفسه حادثة شاهدها في الماضي فبدأ يتكلم : عرفت رجلا كان فيه مس من جنون على ما اعتقد . كان وسواسه الاعداد ، الاوزان ، القياسات ، الابعاد ، المال . وكان يلفظ الارقام بسرعة الى درجة يتعذر عليك معها أن تتابعه . لم يكن المرء يعلم ما تعنيه بالنسبة اليه تماما أو ما يفعل بها ، جمعا أم طرحا ، ضربا أم لا أدري ماذا . قبل أن يصبح مجنوننا ، كان أستاذا وربما كان يدرس الرياضيات . كان يأتي مرة في الاسبوع الى المنطقة التي نسكنها . يجلس في الغرفة التي تقع في الواجهة ثم يبدأ بوضع تقرير عن كل بيت من تلك البيوت مقدرًا قيمها بملايين وملايين الليرات ، فارضا دفع ثمنها على الفور ، لكنه وبعد أن يلقي خطابا طويلا حول الاعداد ، يقبل بمبلغ ستة أو ثلاثة بنسات ثم يسجله بدقة

فائقة في مفكرة صغيرة ممزقة ، بعد ذلك ينتزع ايصالا ويقرا الدين المستحق من اول رقم للملايين الليرات حتى آخر كسر من البنسات .

ذات يوم حصلت مفاجأة كبيرة ، فقد كانت فتاة صغيرة في منطقتنا تشكو من مفاص في المعدة وكانت تتلوى على البلاط فيما كان الجميع ينظرون اليها نظرة العاجز . كانت الفتاة من اترابي في اللعب ، فتصور حزني وأنا اراها تتألم على ذلك النحو . حينذاك حدث أن وصل مجنوننا ولم يفعل شيئا في البداية بل اكتفى بالملاحظة ، بعدئذ لمعت عيناه وشرع يبتسم ابتساما مؤثرا وطوباويا . كان يبتسم كما لو أن كل شيء جلي وواضح بالنسبة اليه . كان يبتسم ابتسام الالهام . بعد ذلك مضى الى طرف المرج ، انتزع باقة من عشب ثم عاد ، انحنى فوق الفتاة الصغيرة وهو يمسك العشب فوق سرتها تماما واخذ يتلو تعاويذه العديدة ، لكن بطريقة جديدة على غير عاداته . اذ لم يكن يقرأ فواتير كهرباء او تعريفات ماء او أشياء أخرى . بل كان اسلوب سرد عفوي ، زبد نبغ عميق لا ادري مستقره ، نبغ الاعداد المقدس ، وكان يختلف ، بشكل غامض بعض الشيء ، عما كنا نسمعه منه عادة . . . بعد دقيقتين وربما أقل قليلا كفت الفتاة الصغيرة عن التخبط ثم هدأت تماما وبعد لحظة من الزمن استغرقت في نوم عميق .

ظل الرجل طوال فترة نومها جالسا الى جانبها على البلاط ، خمس عشرة دقيقة بل ربما ثلاثين وربما ساعة فالانسان لا يقيس الزمن بالطريقة نفسها عندما يكون طفلا . لكن حين استيقظت الطفلة الصغيرة ولمحته شرعت تصرخ ثم هربت كالمادة . فالحقيقة أن بعض الاطفال كانوا يخافونه . اكتفى الرجل بالابتسام ثم نهض نافضا الغبار عن بنطاله قائلا ان عليه أن يذهب ، لكنه بقي واقفا فترة طويلة من الزمن ، اذ رفع رأسه ببطء واخذ ينظر الى النجوم في الوقت الذي كنت أنتظر كي ادعوه الى الدخول . كنت احبه كثيرا ولم اكن أخشاه ، بل الواقع ، انني كنت اعتقد أنه يخصني انا ، على نحو خاص . دعوته للدخول لكنه قال (اوه ! لا) ، ليس هذا (المساء) ثم مضى في طريقه . جريت خلفه ثم سألته كيف فعلت ذلك ، أهو سحر؟ وكنت ابغي المعرفة ، لكنه ابتسم ثم قال : « لا ، باستطاعة كل انسان أن يتوصل الى هذا » . « حتى انا ؟ » سألته فتوقف ثم أمسك يدي بيديه مطيلا اليهما النظر . كنا كلانا واقفين تحت ضوء النجوم بلا حراك على الاطلاق . كان هو ساكنا هادئا ، واثقا من نفسه متشامخا قليلا . وكان قلبي يخفق لدرجة خيل الي أنه على وشك الانفطار . اخيرا ابتسم من جديد ابتسامته الحزينة الحلوة ثم قال : « اوه ! نعم ، خاصة انت . والان امض الى البيت » .

« كانت تلك هي المرة الاخيرة التي رايناه فيها جميعا اذ لم يعد بعدها على الاطلاق . فما رايك بذلك قل لي ؟ بعد ذلك اقدم لك نظريتي يا زاش ! » لكن زاشي استمر يشخر .

تذكر أوفي ، وهو متجهم ، أن الخبر السيء ينهك الساعي بسرعة أكبر بكثير من الخبر الحسن فالخبر الحسن بالحقيقة هو ابرة أدرينالين بل ان تأثيره في زاشي أشبه بمزيج من الهرمونات وانقى خلاصات الكافئين ، وكانت تلك فرصة أجبرته على تركيز أحاسيسه على صورة لرئيس جوقته لم يرها من قبل قط : صورة البأس ، الملوث بالوحل ، صورة الناجي للوحيد من فقسمة بيوض جرفها الفيضان . وكان حسب أوفي نظرة واحدة كي يتمالك نفسه .

كان قد عاد ، تجذبه ذكري توقعات ايريز القاتمة الى الغرفة نفسها لدى عودته من آيرو ثم اضطجع على السرير ، فيما كان تخوفه يتحول شيئاً فشيئاً الى يقين تام بأن كل شيء قد ضاع . عندما حصل ذلك اليقين أحس بأنه مستعد له على نحو غريب بل انه يرحب به ، فقد رآه يدخل الغرفة على قدمي زاشي المترددتين ، بل ان الضغط على قبضة الباب ، حتى قبل انفتاحه بهدوء ، بدأ وكأنه جزء من رد الفعل على ذلك التخوف المتكدر في نفسه . كانت الشمس ترسم خطاً أشبه بخط قلم رصاصي على الارض راح يتسع الى أن أصبح اطاراً أصفر تجسد فيه ذلك التوقع . كان زاشي يدير ظهره . وكانت يده الغليظتان المضطربتان قد أغلقتا الباب أغلاقة خرقاء فيما ظل واقفاً هناك على ساق واحدة وهو على أتم الاستعداد لان يستدير ويهرب . كانت قد تلاشت كل الجمل التي ردها مرة خلال رحلة عودته الطويلة وعندما استدار بدت سترته تهبط على كتفيه من تلقاء نفسها ، كما لو أن ذلك ناجم عن نقاد صبر ، وعلى نحو مشؤوم يدعو للثناء . لم يكن الباب مغلقاً جيداً . وحين انفتح من جديد رفع أوفي يده كي يتقي الانبهار . انتهز زاشي تلك الحركة ليبدأ الكلام ملقياً نظرة على آنية الكاكوين الموضوعية على كرسي بجانب السرير .

— هل فمك من خشب ؟

— لا ، لا ، ادخل وأغلق الباب .

ومن جديد استغرق زاشي وقتاً طويلاً الى درجة وجد أوفي الفراغ الكافي للنظر اليه وهو يفتش عن كلماته . ترك نفسه يتهاوى من جديد على السرير ثم حاول أن يعيد ذهنه الى حالة الاستعداد التي كانت تسيطر عليه منذ أن استيقظ ، اثر رحلة العودة الطويلة ، اثر كارثة كروس — ريفر تلك التي قصها عليه آهيم . كانت عيناه منفتحتين على الاثير الاحمر لغرفة ايريز وكان قد نفى الرقاد عن عينيه وهو يغمغم : العالم كله مات وأنا الناجي الوحيد . . . لا ، لم يبق سوى الظلال ، سوى الظلال . . .

وكتأكيد لتلك الفكرة ، لم يكن زاشي ، بالمعنى الحرفي ، سوى ظل لنفسه ، أحس أوفي بأنه يستعيد قواه فابتسم . أما الموسيقي فقد استدار بخطوات صامتة رزينة ثم رفع كرسيه من تحت الطاولة دون أن يثير ذرة من غبار . لقد كان شبهاً ثقيلاً مؤثراً له هيئة من يطلب العفو ، وكان يتنقل في الظلام المحموم مثل فراشة ليل مغبرة ضخمة . بعد ذلك ، ضرب جانبيه فجأة ثم خار :

— كان ذلك فظيما يا عزيزي ، فظيما للغاية !

وللحظات طويلة من الزمن ظل أوفي صامتا ثم دفع الاناء الموضوع على الكرسي فتوجب على زاشي أن ينحني فجأة كي يمنعه من السقوط . قبض عليه فأحس بما يدفعه لان يشرب وهكذا شرب جرعات طويلة ، ثم وضع الاناء بين ركبتيه وكرشه . حملق ايفبو بقشرة الكهرمان التي بقيت في اناء الزجاج ثم انتظر . بعدئذ نظر الى زاشي وهو يعد نفسه ، مفتبطا بأنه اختار الانتظار في الغرفة التي كانت غرفة ايريز على نحو مطلق . والعجيب أنه كان يحس بالامان ، كان يحس كما لو أنه في غمد واق وهو يعد نفسه لصدمة النكبة . كان غمدا مصنوعا من ألوانها هي ، من عطورها ، من لحمتها وسداها . في البداية كان ذلك الغمد يكتم أنفاسه ، يخنقه ، بعد ذلك أحس به يحيط به هكذا ببساطة وبكل رقة وعدوبة . كان يعرف ما الذي جاء زاشي ليقوله له . وبالانتظار كان يعزي نفسه مفكرا أنه ان كان عليه أن يدور في دوامة التعاسة . فعليه أن يدور فيها هنا في هذا الغمد فحينذاك يكيل الحزن كأسا بعد كأس يمدده في عطر ايريز الذي ما يزال سائلا ثم يفرق نفسه فيه . أحسن بتشنج مبرح في منطقة المعدة فأدرك أنه بحاجة ماسة الى التكيف مع فراغ فاغر فاه .

وحين بدا زاشي وكأنه عاجز عن استخدام صوته بادر أوفي الى السؤال :

— اين هي ؟

حينذاك فقط تدفق سيل من الكلمات :

— جاءت الصدمة دون أن يسمع احد بقدمها . كنا نجهل ان المدينة غرقت في الدماء فتابعنا عملنا كأن شيئا لم يحصل . حينذاك هاجمونا . لم يكن رهط الكلاب هو الذي هاجمنا بل الجنود أنفسهم . كان النادي يقع على مسافة من الشارع ، لهذا لم نكن نعلم شيئا عما يجري . كنا في قلب المعزوفة تماما عندما هجموا ، لقد انقضوا من كل مكان ومن لا مكان . أخذ الرصاص يلعلع ولم أكن قد رأيت شيئا كهذا من قبل ، بل لم أكن أقهم ما يجري ، يا عزيزي . اختلط الحابل بالنابل والكل يقول في نفسه « ربي أسألك نفسي » أجل ، هكذا صارت الحال وأنا أقص عليك ما جرى يا عزيزي ، قل عني ما تريد ، صفني بكل النعوت التي تشاء ، لكن هكذا صارت الحال ، لقد نسيت كل الناس ، كل الناس ، نسيت حتى سيليست ، بل لم أفكر بالتضرع الى الله . كل ما فعلته انني شرعت أركض ، آه ! يا لتلك الجلبة ، يا لذلك الضجيج ! لم يكن باستطاعة المرء ان يرى بسبب الضجيج ، رغم أنه لا يجوز القول ان الضجيج يعيق البصر .

— اذن فأنت لاتعلم ما حل بها ؟

خيم الصمت ، أخيرا قال زاشي وهو يحدق النظر الى وجهه .

— أجل يا أوفي ، اعلم .

ثم بلع ريقه ، واضطرب في كرسيه وهو يسب ويلعن .

— اسمع ، عندما خرجت من النادي ، لا أذكر كيف خرجت . الا أنني وجدت نفسي أركض في ممر باتجاه فئة من الاوغاد الذين كانوا يتقدمون نحوي مباشرة . في الحال انحرفت الى اليمين حيث اندستت في الادغال ، لا تسلني لماذا ، فربما اعتقدت بكل بساطة ، انه المكان الاكثر امانا . ثم أخذت أتسلق شجرة ، ولعل هذا هو ما كان ينبغي فعله ، اذ أنهم لم ينتبهوا الي . فقد اطلقوا مئة من الطلقات وتابعوا طريقهم . ربما لاعتقادهم انه من المستحيل علي التخلص بهذه السهولة ، والحقيقة ، انا نفسي لا أدري كيف تخلصت ، من ناحية أخرى : كانت اطراف الاغصان تتساقط من كل جهة حولي ولعلمهم اعتقدوا أنني سقطت مع تلك الاغصان او . . . على كل حال كنت ما ازال هناك ، لكن أعلى كثيرا ، عندما عادوا ثانية وهم يركضون . كانت ايريز معهم وكانت تخبط وتلبط ، تتضرع وتتوسل ، كما تعلم . بعدئذ القوها في سيارة لاندروفر فيما استمرت هي تجار حتى خيل الي انها ستوقظ المدينة بأسرها . انت تعرف يا أوفي أنني غير جرىء لكن الجوقة هي حياتي كلها . اخيرا لا أدري لماذا ، لكنني لم أستطع أن أدع سيليست بين يديهم ، وهكذا هبطت من الشجرة بأقصى سرعة وركضت حتى سيارتي ثم تبعتهم . كانوا منشغلين كل الانشغال بمحاولة تطويع سيليست حتى أنهم لم ينتبهوا الى السيارة الضخمة التي كانت تلحق بهم . بلع زاشي ريقه بغضبية واضحة ، بعدئذ نهض ثم صفق باب خزانة الثياب بالحائط فقال أوفي :

— هديء روعك ، قل لي فقط ما الذي جرى ، لقد فعلت ما يفعله معظم الناس لو كانوا مكانك ، فكفّ اذن عن جلد نفسك .

— على كل حال تابعتهم حتى النهاية . رأيتهم يقودونها الى بيت ، بيت كبير تحيط به أسلاك شائكة عالية وله بوابة ضخمة . لم أتحرك من هناك حتى آخر النهار . كنت أراقب من بعيد وكان يحرس البيت أولئك الحمقى ، ولقد علمت فيما بعد ، انه بيت رجل من رجال الاعمال هناك استولى عليه ضابط ثم جعل منه مسكنا له .

— والمالك ، هل تعرف ماذا حصل له ؟

— أجل يا عزيزي . لقد ذبحوا اسرته امام عينيه . بعد ذلك جروه في الشارع ثم ربطوه بسيارتهم اللاندروفر والقوه في ركن بعيد ، ولقد رأيت ما تبقى منه ، اذ لم يكن قد مات بعد يومين . كانت أجفانه ما تزال تتحرك وكان ذلك كل شيء ، فالذباب الذي كان يحط على جسمه كان أكثر حيوية منه . . .

— هل باستطاعتك أن تعرف الطريق الى البيت ؟

— بالتأكيد يا أوفي لكن . . . انتظر ، انتظر ، بماذا تفكر ؟ .

فأشار أوفي الى قلم وورقة على الطاولة .

— ارسم لي مخططا .

- نظر زاشي اليه طويلا .
- هل أنت مجنون يا عزيزي ؟
- قلت ارسم لي مخططا .
- لا يمكنك فعل شيء يا عزيزي .
- زاشي ! .

فقلص قائد الفرقة رقبته ، وقد بدت عليه هيئة العناد .
 - لن أساعدك على الانتحار . انزع ذلك من رأسك ، بماذا تفكر يا عزيزي ، قل لي بماذا تفكر ؟ لقد فقدت جوقتي ، ماتت تلك أفرادها بالرشاش الاولى ، وتلثهم الآخر ، على وشك الموت في المستشفى ، جرحى ومشوهين . اما الباقون فقد تفرقوا كل في مكان . السائق نفسه عثرت عليه في الحرج غير بعيد عن مكان وقوف السيارة وقد بقروا بطنه ، اذن ، ما الذي ستفعله بالمخطط ؟ قل لي من فضلك .

نهض أوفي وأخذ يرتدي ثيابه ،
 - على كل حال ، قد لا يكون ايجاد بيت كهذا صعبا كثيرا .

ترك زاشي نفسه يتهاوى على الكرسي ثم أخذ يتمايل .

- يا الهي ، كنت أعتقد أنك أكثر خبثا من ذلك . كنت أعتقد أنك أكثر خبثا من ذلك يا عزيزي ولولا ذلك لكنت تلاشيت في الطبيعة مثل أفراد جوقتي الآخرين بدلا من أن أعود لرؤيتك . لم يكن بي حاجة لفعل ذلك يا عزيزي . لم أكن بحاجة الى أن أنقل اليك اخبارا سيئة . ولم يكن شيئا تبلفته في السوق بل رأيتته بأمر عيني ، رأيت على الارض نساء مقطوعات الاثداء وامخاخ صبية مهروسة على الجدران ، فما الذي تظن أنني أقصه عليك ؟ لماذا تريد أن تذهب وتعرض نفسك للقتل ؟ أعتقد أنهم لا يعرفونك هناك ؟ أعتقد أنهم لا ينتظرونك الآن .

فشرع أوفي ، وقد وقف وراءه ، يدلك كتفيه لتهديته . كان الرجل القصير الممتلىء بيكي مثل صبي فأحنى أوفي رأسه الى الامام ، وهو يدلك عضلات رقبته المتشنجة . بينما بدأت الدموع تجري بغزارة مبللة بنطاله عند ملتقى الفخذين .
 - عجبا يا عزيزي ! عجبا يا عزيزي ! لماذا لا تستطيع أن تفعل كما يفعل كل الناس ، تدع قلبك ينفطر وتذهب وتنسى ، انني أعرفهم ، هذا ما أقوله لك ، اذ حتى لو أنها ما تزال على قيد الحياة حتى الآن ...

فأطبق أوفي بيده على فم صديقه .

- لا تقل يا زاش أكثر من ذلك . سأحاول بكل قواي الا أفكر بعد الآن لكن اما أن تساعدني او تغلق فمك .

بدأت اطباقة يده تتراخى ببطء بعد ذلك استدار كي يزور قميصه فأرسل زاشي زفرة ...

- أنا لا أريد تسويد اللوحة . لكن أقسم لك يا أوفي أنني عندما كنت هناك ، لم يكن باستطاعة ذبابة أن تخرج كي تأكل من الجثث دون أن تعرض نفسها لحرية تخرقها أو رصاصة تمزقها .
- كيف عدت إذن ؟ .

- في القطار وليس بواسطة أخرى . لقد ظلت السيارة معطلة هناك ، أنا لا أريد أن أراها بعد الآن ، لا أريد أن أراها أبدا ، وأشباح أولئك الفتيان جميعا تسكن مقلعدها . بعد اليوم الاول من وقوع تلك الحماقة أودعتها على مسافة بضعة أمطار من الشارع الكبير واطن أنها ما تزال هناك . لم أكن أرغب أن أرى سي - ديزز - عربية موتى عندما يحين الوقت ، رغم أنني كنت على استعداد لان أقول اذا ما سئلت : « بالطبع ، ادفنوني في سي - ديزز ، فلا أريد نعشا » . ثم اضاف بعد عدة دقائق :
فذلك سيكون اقل كلفة من النعش .

- لا يمكن حفر حفرة واسعة الى حد يكفي لدفنها .
- من الذي تحدث عن حفر حفرة ؟ ألم تر تلك الاخاديد الموجودة هناك في الاعالي ؟ ان بإمكانها ابتلاع سفينة دونما اشكال .

أتاح له أوفي بعض الوقت كي يتمالك نفسه ، ثم قال بنبرة تعني أنها المرة الاخيرة ...

- سترسمه لي ، هذا المخطط ؟ .

فهز زاشي رأسه بهيئة التحدي ذاتها .

- انزع ذلك من جمجمتك ياغز يري ، فأنا أعلم جيدا ان الامر لم يعد مهما بالنسبة اليك ، لم يعد مهما بالنسبة الي ، بالنسبة الى كل الشباب ، الى كل من لهم عيون في رؤوسهم . كما أعلم جيدا ، ان ذلك أشبه بما يحدث حينما يدع المرء نفسه تؤخذ بجمال الفجر بعد ان ظل ساهرا طوال الليل . فالانسان يعتقد ان نخامه جاف ، لكن سرعان ما يبدأ دمه بالغليان عندما يرى سيليبست . ما اريد أن أشرحه لك يا أوفي هو ان ذلك الفجر لن يطلع ابدا بعد الآن .
- ارسم لي ذلك المخطط .

لكن زاشي ظل على موقفه الراض دائما .

- قلت لنفسي وأنا في القطار ، لاشك ان لأوفي علاقات حتى بين أولئك الوجوش الذين يرتدون الزي الخاكي . اذن باستطاعتك ان تضع يدك على أحدهم وتسره له بالامر ، انه الاسلوب الوحيد يا صديقي .

كان أوفي قبالتة على السرير .

- هذا أيضا ، يا زاشي ، هذا أيضا . لكن عليك أن تعلم أنني لا أستطيع البقاء هنا لحظة واحدة أخرى . ارسم لي هذا المخطط ولن أطلب منك شيئا آخر .

رأى زاشي ، وهو يستسلم ، مخاوفه تتأكد ، ففي النهاية سيتصرف أوفي تصرف الاخرق وليس باستطاعة زاشي أن يدعه يذهب بمفرده ، وهكذا هز كتفيه :
- حسنا ، لنذهب الى هناك .

لجزء من الثانية تردد أوفي . بعد ذلك أمثل وهو يفكر بالتخلص منه قبل أن يغادر المدينة . خمن زاشي ذلك من السرعة التي قبل بها الامر ، ثم رفض مفادرة السيارة عندما شرع أوفي يعرض سلسلة حججه .

كان زاشي نائما بينما كان أوفي يفكر بعمق . ليس من المعقول أن تكون تلك الفارة مثل بقية الفارات ، فناد خاص ، سيما إذا كان يرتاده بصورة رئيسية أجنب كروس ريفر ، هو هدف طبيعي للنهابين . مع ذلك لم يكف تفكيره عن العودة المرة تلو المرة الى أرسطو والى بهلوانياته الحمقاء المضللة . ذات يوم كان أوفي قد طلب منه بطاقته الخاصة بالزيارات . فأخرجها المسافر التجاري ، مغتبطا ، بلا حذر ، من جيب سترته الداخلي بحركة عريضة وسريعة وبرشاقة مدروسة . كان أوفي يعلم ما كتب عليها . فتحت اسم الممثل الحقيقي ، كتب بخط عادي مذهب ، اللقب الذي كان قد منحه لنفسه : ارستقراطي الممثلين .

تناول أوفي قلم حبر ثم شطب كلمة ممثلين مسجلا مكانها « المارلو » ، وعندما أعاد البطاقة الى أرسطو فهم هذا جيدا ما الذي كان يريد قوله ، لكنه لم يدع نفسه تضطرب ، بل أخذ يضحك ثم ادعى بأن أيريز سوف تنتزه في سيارة بويك لواحد من أصحاب القبعات الكبيرة قبل نهاية السنة . (ماذا تريد أن تصنع يا عزيزي ، ماذا تعني بالنسبة اليك ؟ لا شيء . فسيده مثلها ينبغي أن تنتهز الفرصة عندما تحين وعليك أنت أن لا تفسد عليها حظها ، فهي لم تخلق لاناس مثلك) .

بعد ذلك غير تكتيكة مطوقا أوفي بذراعيه وقد اتخذ هيئة الصديق الحميم ، ثم حاول الانفراد به .

« اسمع ، سأعقد صفقة معك . استمر أنت في نيل حصتك من السيدة ، وأنا احرص على أن أكتم الامر فلا يعلم بابا بونيون شيئا عنه » .

لم يقم أوفي بأي رد . ذلك انه لو انهال على أرسطو ضربا لكان باستطاعته أن ينكمش على نفسه ثم ينفذ قبعته البترولية ، ويمضي كي يقدم تقريرا لصاحبه عن الحادث . . . انظر كم نعاني ايها القائد ، انظر ما نجنيه عندما نحاول التقريب بين شخصين يحتاج كل منهما الى الآخر ، فأنت بحاجة اليها وهي بحاجة اليك ، ولكن ما تراه يعلم عن هذا كلب البستاني ذاك ؟ حاول أن تشرح له بعضك . . . بعد ذلك ربما أنتقل شيء من يد الى يد ، « تعويضا عن الخطر » ، تعويضا رمزيا عن الاخطار التي يتعرض لها المرء حين يقوم بخدمة تطلب منه . وحينذاك ربما راز أرسطو ما وضع في يده بهيئة الغافل والنزيه ثم دسه في جيب سترته . . .

هاه ، لعلي استطيع بهذا شراء واحد من فتيان الجوقة ، كي يوصل لها رسائلي .
انه سيوفر علي الكثير من مضايقات ذلك الغول . في كثير من الاحيان كان أوفي يفكر
بالخطر الذي يشكله امثال أرسطو على جيلهم ، برفضهم لتقبل الطبيعة العامة للقيم ،
والانطباع الذي يتركونه بأنهم يفرون من أي خطر يهددهم بسبب تلك القيم التي لم
يفهموها قط ، وليس باستطاعتهم أن يفهموها قط . كانوا بحاجة لان ينكروا معقوليتها
كما كانوا بحاجة لتدميرها مدمرين بذلك الخطر الذي يهددهم ، وذلك بافساد كل
ما يستطيعون افساده . كان اتساع الخطر الذي يمثلونه اكبر من ان يحد اذ كانوا
عاجزين عن رؤية عواقب أفعالهم الا ما كان يتعلق منها بمنفعتهم المباشرة . بل حتى
تلك المذفعة لم تكن مادية ملموسة دائما . كلا ، فقد كانت هناك متعة أخرى هي ان
يشاركوا في انتهاك الحرمات بغية تعزيز رفضهم غير المنطقي ذاك تساعدهم في ذلك عظمة
زائفة . في ذلك الحين رد أوفي بأن أهدها ايريز لنفسه قائلا له : خذها ، أجل . خذها
لك أنت . فاناأرى ذلك أكثر ذكاء وفطنة . كلا ، أنت لا تريدها ؟ ولتو رأى أوفي
أرسطو يفقد رباطة جاشه ، ينظر اليه محمقًا وكأنه ينظر الى مجنون ، ثم ينسل
هاربًا .

عندما استيقظ زاشي ، سأله أوفي من الذي رتب خط رحلتهم تلك .
- طبعا أرسطو ، انها دورته التجارية الجديدة . كان علينا أن نعمل كالمعتاد
من أجل دورته بالسيارة . أنت تعلم كيف يجري ذلك .
- نعم ، بالطبع ، لكن هل كان موجودا ذلك المساء ؟

أطرق زاشي مفكرا وقد اتسعت عيناه .

- ها ، بماذا تفكر يا عزيزي ؟ أنت لا تعتقد أنه ...
- أرسطو أحق فهو لا يدري كيف يورط نفسه ...
- لا ، لا ، أقول لك ، لا . أنت تفهم الامور بالقلوب . فقد كان ذلك جنونا عاما ؛
لا مفضلون ولا استثناءات ومن المستحيل أن يكون أرسطو هو من أرسل اولئك
الاوغاد .
- أرسطو انتهازي غبي .

فهز زاشي رأسه بحركة تدل على النفي الراسخ .

- كلا يا عزيزي ، ليس هذه المرة . أنت لم تكن هناك ، لم تكن هناك على الاطلاق
لكن عندما تصل ستري ما أود قوله ، اذ لا يوجد هر في الشوارع ، يا أوفي ، لا شيء
الا الذباب والعقبان واولئك الوحوش الذين يطلقون الرصاص على كل من يتحرك .
لم يكن باستطاعة أرسطو ان يكون سريعا بما فيه الكفاية لاستغلال وضع كهذا .
- قد تكون على حق . لكنهم بالحقيقة جاؤوا من أجلها لا من أجل القيام بهجوم
على نقطة معادية يرافقه أسر عبدة . لقد أتوا ليفتشوا عنها وكانوا على استعداد لقتلكم

جميعا ، حتى وان لم تزعجهم . لم يكونوا يريدون شهودا . اسمع يا زاش ، كانوا يعلمون انها هناك ، وايا كان المدبرون فقد كانوا يعلمون أين يجدونها .

— لا شك ، انهم كانوا يعلمون . ألم يكونوا قد وضعوا اعلانات في كل مكان ؟ .
— لقد حاول ارسطو بيعها الى واحد من رباعي الكارتل ، الى ذلك اللفظ من كروس — ريفر وانا اعلم ، انه هو الذي ذهب لابلاغه نبأ اجتماعي الاخير بعناصر من الجيش . ذهب بالطائرة ، وقد سلم التقرير للمصلح .

نظر زاشي اليه وكأنه بات يشك بسلامة عقله .
— اذن أنت تعتقد أن آموري هو الذي نظم الامر كله وهو وراء الحرق والقتل في المدينة وفي منطقة كروس — ريفر كلها ، وذلك كله من أجل امرأة ؟ اسمع يا عزيزي .
انا اعلم أن سيليست تجعل الرجال يأتون أفعالا عجيبة . . .

— لا ، لم تكن ايريز سوى جائزة اضافية شأنها شأن جوفتك فقد كانوا يطاردون رجال آيرو في كل مكان . لكن كان عليهم أن يموهوا ذلك فيزرعوا الموت على نطاق أوسع بكثير .

* * *

لم تستطع مداعبة الفراشة في غرفة إرييز المعطرة ان توقف أحلامه بأنوبيس ، ذلك الكائن ذى الرأس الشعلي ، عندما أدرك تمام الإدراك المدى الحقيقي لاحداث كروس — ريفر . كان قد أغفى وهو يقول لنفسه ان الوجه الخامس من سفر الرؤيا ، الجرح الثامن ، جرح الكلاب المسعورة ، هو الذي أغفل الساحر اليهودي إدراجه . كان محشورا بين السرير والحائط ، وكان يرى وهو شبه نائم ، آلاف وآلاف المخلوقات تخرج من الارض ثم تنقض عليه مكثرة عن اسنان يسيل منها اللعاب . استدار بيتفي الفرار لكنه أحس وكأن رجليه تمسكهما صخرة ، فشرع يتخبط كي يحرر نفسه ، لكن عبثا . بعد ذلك اكتشف فرصته الوحيدة للخلاص وهكذا كثر عن أنياب حادة يتطاير منها الشرر ، انياب شبيهة بأنياب الحيوانات تلك التي كان يعج بها المكان والتي كانت تصوب خراطيمها المسننة الى عنقه على نحو متناسق . يا للعجب ! لقد رأى أسنانه وكأنها لم تمد أسنانا بشرية ، كما لاحظ أن قطرات من لعاب رمادي نجس تتساقط من شذقيه ، لعاب غدا قرمزيا تماما اثر وليمة بهيمية حديثة العهد . كذلك أحس بحرارة في عنقه وقد انتصب شعره على نحو مفعم بالتحدي ، أما اعجوبة الاعاجيب فهي أن الصوت الذي كان يخرج من حنجرته انما كان عواء خالصا ، عواء أشد ضراوة من صراخ تلك المخلوقات وهي تتبع فريستها . استيقظ وهو يرفس بعنف فرأى ساقه محصورة بين السرير والحائط .

هل كان ذلك تعبيرا عن حقيقة الولايات التي كان الرجال يصبونها ؟ سر الثقة بالنفس لدى أولئك الذين كانوا يطلقون ذلك الرعب على الأبرياء وقد وجدوا أنفسهم

على يقين من انه ما ان تذهب الكلاب الى الصيد ، بعد القاعدة الاصطفائية الاولى من ليل السكاكين الطويلة ، حتى تكون تلك الادوات قد حققت تحولا في كياناتهم ذاتها ؟ حتى الابرياء كانوا يلبسون قناع ابن آوى كي يتقوا كلاب الصيد ، وكانوا يساهمون بدورهم في طبيعة التحولات البهيمية للروح البشرية ، والا فكيف يمكننا تفسير الابعاد التي بلغها ذلك المرض الساري الذي أصاب الجمهور كله دون تمييز ، ذلك الابتهاج البشع الذي كان يقرؤه المرء في وجوه النساء والاطفال انفسهم ؟ كان يعلم ، أي نوع من الالعب كانوا يلعبونها مع الضحايا التي كان الرجال يتركونها على حافة الموت ، كما كان يرى رؤية العين النساء اللواتي كان يصل بهن الامر حدا يلعبن فيه دور جالبات الطرائد ، فيعملن على اخراج الفارين المدعورين من مخابئهم بل ويشاركن في لعبة بتر اعضائهم وتقطع اجسامهم أياما بطولها .

— او تعتقد ان الامر انتهى ؟ وجه اوفي سؤاله الى زاشي فهز هذا كتفيه .
— آخر ما سمعتهم يقولونه هو أن قوى الامن سيطرت على الموقف ، لكنني سمعتهم يقولون ذلك منذ اليوم الاول .

* * *

بعد اجتياز خمسين كيلو مترا القى اوفي بنفسه فجأة على زاشي في محاولة منه لتوجيهه وقيادة السيارة الى الجانب الآخر من الطريق ، فيما ارتفعت ذراعه بشكل غريزي لاتقاء كتلة مبهمه كانت تنقض عليهما ، كتلة برزت من حيث لا يدرون . مضت السيارة فارتطمت بشجرة اعادتها تقريبا الى محور الطريق ، بعد أن فلق دولابان من دواليبها اُخدودا جانبيا اثر الجهد الطويل الذي بذله السائق لاستعادة السيطرة عليها ، أخيرا انتهى الامر بأن ثبتت الواقية الخلفية والقاعدة الهيكلية السيارة في الارض ، بعد أن انعكس اتجاهها وبعد أن حفرت في المنحدر خطا طوله عشرة أمتار . كان الرعب قد استولى عليهما ففقزا من العربة وهما يظنان انها على وشك الانفجار . كانت النوابض ما تزال تتراقص بشدة عندما خطا اوفي خطوة باتجاه ذلك الذي كان سبب الحادث ، فوجده كتلة مشوشة مسمرة ، كانت في تلك اللحظة قد غدت منظرحة هناك في منتصف الطريق . لحق به زاشي ، فيما كانت نظراتهما ثابتة على الكتلة .

— انه قرد ؟

— يخيل الي ذلك .

كان على مسافة كبيرة من السيارة . وكان المحرك ما يزال دائرا لكن ما من أحد منهما فكر بايقافه .

— سندهب بالسيارة الى هناك ، وبكل هدوء . قال اوفي بنبرة غريبة .

— ماذا ، أعتقد أنه سيعضك ؟ انه ميت .

ثم شرع يسير باتجاه ذلك الشيء ، لكن أوفي اوقفه .
- انتظر ، فذلك القرد يرتدي ثيابا .

فطرف زاشي بعينيه مرارا ثم هز رأسه .
- أنت ترى أوهاما يا عزيزي .

ثم عاود السير .
- قف زاشي ! اصعد ولنذهب الى هناك بالسيارة .

فضحك زاشي ثم قال : انه يرفض التحرك .
- حسب علمي ، لا يوجد سيرك قريب من هنا ، مع ذلك دعنا نذهب لالقاء
نظرة عليه .

فتمتم أوفي من بين أسنانه .
- آمل أن تستطيع السيارة السير .

دار زاشي حول السيارة ، وهو يتمايل ، تفحص الدواليب ثم عاد ليعلن أن
شرائع منها قد طارت .

- صه ، قال أوفي وعيناه مشدودتان باستمرار الى ذلك الشيء ، (بعد ذلك
اشار باصبعه الى جانب الطريق قرب المكان الذي كانت تلك الكتلة موجودة فيه .
أحد الرجال كان قد خرج لتوه من الدغل ، تبعه بعد هنيهة رجل آخر) . لو اننا
دهسنا واحدا منهم ، لم يكن هناك مجال للتوقف بالتأكيد . ففي هذه النواحي لا توجد
كلمة « حادث » ، بل هم يكتفون بحكم مختصر : العين بالعين .

فانفجر زاشي بضحكة صاخبة .
- قلت لك انه قرد . انظر ، انهم صيادون .

كان الرجال يحملون اقواسا وسهاما وكانت خناجرهم مشدودة الى اذرعهم .
برز من الدغل رجلان آخران ثم ما لبثوا أن أصبحوا ثمانية . توقفوا جميعا وهم يحدقون
النظر الى طريدتهم الممددة على الطريق ، دون أن يأتوا بحركة واحدة .
- آه !! ، تأوه زاشي مصعدا زفرة طويلة ثم قال : كنت دائما احلم بجلد قرد !
لكنهم كثيرون جدا بالنسبة الينا .

فَسأل أوفي :

- لكن لماذا هم واقفون هناك ينظرون دونما حراك ؟ أرايت من قبل صيادين
يتصرفون على هذا النحو ؟
- ما الذي تقوله ؟

- الصياد العادي ينقض على الحيوان الجريح ثم يطلق عليه سهما او سهمين
آخرين من باب الاحتياط ، لكنه لا يتسمر في مكانه ينظر وينظر جامدا بلا حراك .

ولوهلة من الزمن ظلت اللوحة مبهمة عصية على الفهم . كان المسافران قد اصبحا جزءا منها ، وكانت غرابة المشهد قد جمدتهما وهما يتساءلان ما تراها تعني وقفة الصيادين الصامتة تلك . ثم شرع أوفي يتساءل ان كانت تلك الزمرة من الصيادين قد لاحظت وجود السيارة .

حينما ظهرت الشمس من بين الاشجار ملقبة بقعة من الضوء على الطريق لبرهة وجيزة من الزمن ، ميز المسافران على نحو أفضل جلد القرد ذاك الذي كان ممزقا تماما ، رماديا لما علق به من قذارة ونباتات واغصان ، في تلك اللحظة شرع الصيادون يتحركون أيضا ، انحنوا على الحيوان المقتول ثم دفعه أحدهم بطرف قوسه دفعة خفيفة محركا رأسه من هذا الجانب ثم من ذاك . فبدا للمسافرين من مكانهم البعيد وهو يعمل أشبه بمحلل رؤوس .

— لم أره الا بطرف عيني وقد جرى ذلك بسرعة كبيرة . لكن في الطريقة التي ارتمى بها هذا الحيوان على السيارة ، ثمة شيء وذلك دون ان نتحدث عن الوضع الغامض لأولئك الصيادين الذين خرجوا من الغابة ، لا كمطاردين جشعين ، بل بالاحرى كرجال قطعان يتبعون ، دون قلق ، أثر حيوان ضال ، وهم متأكدون من أنهم سيجدونه داخل المرعى ، غير مباليين بمرور الساعات .

كان أوفي ، وهو يعاين أرديتهم الملقاة بلا مبالاة على اكتافهم وصنادلهم البدوية ، وخناجرهم التقليدية المثبتة على أذرعهم ، قد اقتنع كل الاقتناع بأنهم رعاة قطعان . لم يكن يبدو عليهم أنهم ينضحون عرقا بل كانوا يبدون وكأنهم يشاركون في المطاردة وهم واقفون من أنهم سيكونون السباقين ، وأن الضحية ، بحكم طبيعتها ذاتها ، ستبقى ضمن الدائرة التي سيقبضون عليها فيها . رأى أوفي ، بعين خياله ، تلك القفزة التي قام القرد بها وقد وجد نفسه أمام المنحدر تماما ، وفي الحال تذكر أنه كان قد لاحظ عينين واسعتين مطرودتين باتجاه كمين ، كما كان قد رأى أسملا تتحرك ملطخة كلها بالوحل الجاف والنبات ، فوقها رأس هو بلا شك ، ورغم منظره الهزيل ، رأس رجل .

قبل ذلك كان هناك ، بالتأكيد ، مشهد مطاردة من كمين الى كمين . ذلك المشهد عاد الى الحياة فيما كانت اللوحة تمحي على الطريق المقفر : المشهد المحسوب بدقة ، مشهد الصيادين وهم يتعقبون على أرضهم الخاصة فريسة تدور في حلقة مفرغة ، فريسة كانوا يسوقونها بصبر ، يوجهونها وهي تشق طريقها في الادغال نحو خط من الصيادين القابعين في مكائهم وهم على أتم الاستعداد لاطلاق صيحة الهجوم . كانت الجماعة قد سمعت الرجل وهو يقع في شراكه نفسها ، يهرب خلسة ثم يزحف ، وهو منكم ، على قوائمه الأربع مستترا بالادغال الهزيلة ، يتفدى بالجدور والأوراق والديدان ، يجري وهو يشعر بالفثيان وتقبض على معدته التشنجات لا ابتلاعه قشور

نباتات سامة وتناوله أنواعا من العصير لم يعتد عليها . . . كم من الايام ظلوا يطاردونه يا ترى ؟ كان كل شيء يغدو اكثر فأكثر وضوحا من دقيقة الى اخرى : انه مرور ذلك الهارب الذي كان يبحث عن الامان في قرية معزولة نجت حسبا يأمل من الجنون الذي عصف بالمدن ، لكنه ، في الواقع ، كان في حالة من التأهب والتلف لذلك النوع من التسليحات ، التي كانت المدن قد تخلت عنها . وهكذا انتقل من موت بأئس الى موت اشد بؤسا ، في تلك الغابة التي تكتم انفضاح أمره تحت تربتها الطرية وأوراقها وأغصانها المتعفنة التي تخمد وقع خطا صياديه .

لكن حين وجد الطريق اخيرا ، سامعا هدير السيارات ، قافزا كالمجنون نحو تلك الضجة التي كانت تعني الامان والسلام ، ثم لم يجد سوى الخط الحقيقي لقاتليه ألقى بنفسه ، فهل ألقى بنفسه يائسا لموت أكثر انسانية ؟ إذ أن تلك اللحظة كانت ما تزال تتضح أكثر فأكثر وقد كفت عن أن تكون مجرد انطباع ، فأمام عيني أوفي كانت تتراقص الاندفاع الشديدة والاصابع المعقوفة الضامرة التي كانت تحاول بكل قواها التشبث بذلك الجزء من الثانية . . .

بعد ذلك بدرت حركة من ذلك المخلوق الصريع ، تحرك خفيف للأسمال المملخة ، لعصاة خيزران صغيرة وذراع هزيلة تحك القار . . . ثم تجمد كل شيء من جديد . بعد لحظة واحدة تنبته أعين رجال الكمين الى أن الجسد ما يزال يختلج بالحياة ، ومن جديد ، تحركت الاظافر وكان ذلك بقية صقل الحصى الذي كان يجرحه . حاول المرفق أن يقوم بدور رافعة على الارض ، وهكذا ارتفع الرأس قليلا ، ذاك الرأس الذي علفت به الحبوب ، القش ، غبار الطلع . حينذاك فقط انتعشت عيون مطارديه أولئك الذين لم يكونوا ، منذ ظهورهم ، على ما يبدو ، ينتظرون سوى هذه اللحظة ، لأن ارتعاشة الحياة تلك لم تكن سوى اذن بل امر ، قبل أن تخمد من جديد . لقد حملوا الرجل ووضعوه على العشب بجانب الطريق ثم مددوا اطرافه الهزيلة على الارض ، فيما كانت تهيمن على رؤوس الآخرين جمجمة الرجل الذي بدا أنه اكبرهم سنا . كانت شفاته تتحركان بشيء بدا وكأنه صلاة قصيرة . بعدئذ استل احد مرافقيه خنجرا ثم وضعه في يده . فارتفع السلاح وهو يبرق تحت الشمس ، بعد ذلك انحنى العجوز حازا عنق الشبح الممدد .

بعد ذلك تحركت ذراعه نحو أسفل الجسم ، وبنصل ذلك السلاح خط دائرة واضحة وسريعة حول نقطة انفراج الفخذين ثم امتدت قبضته الاخرى فرفعت أعضاء الضحية التناسلية ، ثم سلمتها الى احدى الايدي الكثيرة المتلهفة ، في حين كانت ايد اخرى تحاول دون جدوى ، ابقاء الفم مفتوحا ، ذلك الفم الذي كان قد انفتح من قبل التخلص من ألمه . في ذلك الفم دسوا القضيبي والخصيتين ، بعد ذلك تقهقروا جميعا وهم ينظرون الى ذلك التغيير الذي أحدثوه ، دون أن تتم وجوههم عن تفكير أو عاطفة .

كان الدم قد انبجس دفعة واحدة ، فبدا وكأنه لم يبق منه شيء قط ، لقد نصب حين كان الفم يتلقى طعامه المخزي ، في حين رافقت آخر اختلاجة للأعضاء حشرجة ضعيفة وما يشبه الطحلب الاحمر . كانت حدقتا الميت تحدقان الى الشمس دون ان ترف أجفانهما ، وكان الرجال قد اختفوا في الغابة بهدوء يشبه الهدوء الذي رافق خروجهم منها .

لكن لا أوفي ولا زاشي اللذان كان المشهد قد اذهلتهما واللذان كانت عيونهما تحدق الى بطل ذلك الكابوس الذي غدا بلا حياة شاهدا الرجال المطاردين وهم يغادرون بل كانا يقفان في مكانهما مسمرين الى الفراغ الذي كانت تضخمه نظرة الميت ، عاجزين عن كل حركة أو عمل ، أخيرا ، كان زاشي أول من تمالك نفسه ، اذ افلح في السيطرة على الماء الاجاج الذي كان قد صعد الى حلقة .

— من المؤسف أنه لم يمت عندما اصطدم بالسيارة .

— أجل ، ولعله كان يريد أن يموت هكذا تماما .

— اذن قل لي يا أوفي ، كيف تراهم لم يتخذوا أي نوع من الاحتياط لمراقبة السيارات التي قد تصل . بل اننا كنا هنا ، وقد بلغ بهم الامر أنهم لم يلقوا نظرة واحدة علينا .

— على كل حال لقد راونا .

— اتعتقد ذلك ؟ (وكان صوته يكشف عن القلق) لم أر احدا منهم ينظر باتجاهنا .

— لقد راونا ، من أجل ذلك انتظروا طويلا كي يروا ما نود فعله . بل لم يكفوا ثانية واحدة عن الانتباه الينا .

احس زاشي بالنظرات الجليدية توجه اليه ، تلك النظرات التي كانت حتى تلك اللحظة يعتبرها هادئة ولا مبالية بوجوده ، ذلك أنه وقد خلا من كل شيء يلهيه ، بات يحس ان الادغال ملأى بالعيون المنصبة عليه ، هو الواقف على الطريق . وهكذا ، حين كان يستعد ، بكل عصبية للالتفات ، وضع أوفي يده عليه ثم همس قريبا من اذنه :
— لا تقم بأية حركة مفاجئة يا زاش . أنا سأمضي كي أتشاغل في الجهة اليسرى من السيارة ، أما أنت فاصعد وكأنك تود التأكد من شيء ما . واتخذ هيئة الاسترخاء ولا تتفوه بحرف واحد . هيا ، امض .

اطاع زاشي ، ثم ما كاد يجلس في السيارة حتى لحقه أوفي بقفزة واحدة ، نافضا عنه الهيئة التي كانت المذبحة قد فرضتها عليه ، غير أن خشخشة الاوراق التي تغطي أرض الغابة والتي ظهرت خلف السيارة تماما ، أوضحت كل الايضاح الاحساس بالشر الذي انتاب أعماق جلده الكث الشعر ، كما فهم فجأة لماذا كان القتلة قد اختفوا بصمت في الادغال . ذلك أن أحد القتلة ، اما لجهله أو لانه بكل بساطة نسي قدرة السيارة

الميكانيكية الهائلة ، ففز امامها في الوقت نفسه الذي كان اوفي يترك ذراع السرعة .
أغمض زاشي عينيه، اما اوفي فقد شاهد الشبح وهو يطير فوق غطاء السيارة ثم ينسحق
في الدغل المحاذي للطريق . حين فتح زاشي عينيه مرة ثانية ، بعد أن انقذف نحو الباب
بقوة نابذة لم يكن يتوقعها ، تبين له أن اوفي كان يستعد للقيام بدورة الى الورا بدلا
من الاستمرار في الاتجاه الذي كان يسير فيه . وكان قد بدأ يحتج عندما تبين له انهما
أصبحا من جديد وسط الرعاة الذين خرجوا معا من الدغل لكي ينجدوا رفيقهم
الجريح . تفرق هؤلاء عندما وصلت اليهم السيارة وهي ترعد وجناحها المنزوع يكشط
حصى الطريق بضجة تشل كضجة آلة جهنمية . في اللحظات الاخيرة ، وقبل أن
ينكصوا على اعقابهم ويولوا الادبار ، رأى زاشي المذهول وجوههم تعبر المرة تلو المرة
عن الريبة فالذعر ثم الرعب الخالص ، بعد أن كانت جامدة في البداية لا يظهر عليها
أي تأثير . كان اقتراب الشبح المنتقم قد اعادهم بعد كل حساب ، بشرا قادرين
على الرد على الخوف ، بقوة فائقة تحتوي في مجالها اللا شخصي على ألف امكانية
واحتمال بدءا من الخمود السريع وحتى النزع البطيء .

ما لم يكن زاشي يتوقعه هو ذلك الهيجان المسعور الذي بدأ وكأنه اصاب راس
اوفي ، فقد وصل الى المنعطف التالي ثم توقف . ومن جديد دار الى الورا ، بقوة
ادخلت الدواليب في اخدود . بعد ذلك عاد أدراجه حتى المنعطف الاول وهو يمد
رأسه من الباب ويميله ليرى أبعد قدر ممكن قبل أن تظهر السيارة هناك خارج
خط بصره .

— ه . . . ي . . . هدىء من روعك يا اوفي ، ما الذي تفعله ؟

لكن ما كان زاشي يقرأه على وجهه انما هو التصميم الشديد على أن يمر ثم
يعاود المرور كل مرة يجد فيها القتلة الشجاعة في انفسهم لان يحاولوا حمل رفيقهم .

رسم زاشي اشارة الصليب ثم تخلى فجأة عن موقفه السلبي صائحا :

— واذا توقفت المحرك في اللحظة التي نصبح فيها وسطهم . هيا ، لنهرب
يا عزيزي ! كف عن المخاطرة ولنهرب .

تفلفل رأي زاشي السليم داخل حقد اوفي المفعم بحب القتل ، معيدا اياه بعض
الشيء الى حالته الطبيعية ، حين شرع من جديد بالدوران الى الورا بعد أن كان رأسه
قد بقي منكبا على المقود فترة من الزمن بدت لزاشي وكأنها لا تنتهي . لكنه لم يكن
لشدة غضبه قد عاد انسانيا الى درجة تكفي لان تستطيع عيناه فيها الامتناع عن
سبر غور الادغال المحيطة ، في الوقت الذي كان يسير فيه بهدوء آملا أن يدفع الجنون
المتعجرف احد القتلة لان يتحدى مرور العربة .

كان زاشي ما يزال يفكر حين قال :

– هل أنت واثق من ان عليك التورط في هذا الامر ؟ واذا كنت تنوي الهجوم على كل القتلة الذين قد نجدهم في طريقنا الى المدينة ، ألن يكون هذا وخيم العواقب ؟
– المصدرة .

ضغط أوفي على دواسة البنزين ثم غادر المكان بأقصى سرعة ممكنة فأشار زاشي بإصبعه الى العداد كي يجعله يتباطأ . بعد ذلك أخذ يقود السيارة بتركيز أكثر انسجاما محاولا أن يجعل تفكيره يتوافق شيئا فشيئا مع سير المحرك غاسلا غيظه ثم جلده المفرط الحساسية بدفقات الهواء ، عارضا روحه للتطهير من شوائب غير مرئية . كانت كتلة الهواء الحبيسة في السيارة تشكل عالما خاصا بين العناصر الشديدة النزوات والمعدن الذي يحيط بها ، كبسولة في رياح غريبة مطاوعة للمسات أصابعه . أخيرا عاد اليه الهدوء وعاد معه شعور بالابتهاج .

كانا يجتازن بلاد القلط البرية ، منبسطا من الاعشاب الطويلة التي تقطعها المستنقعات المستظلة بظلال الادغال ، وتخرقها أوكار النمل ، والسيجات الشائكة وأشجار البواباب والخرنوب . ما من شيء يتحرك في تلك البراري ، لا شيء سوى القلط البرية ، اللهم اذا ما استثنينا النسور وبضعة ضباع مخبئة ، لكن شيئا فشيئا أفضى بهما الامر الى احساس واحدتهما بوجود الآخر وهو تحت غطائه ، احساس بالمعنى الدعائي للكلمة لكنه كان احساسا مطمئنا . كذلك ما من شيء كان يتسرب الى السيارة المغلقة عدا الخرخرة الراضية للمخلوقة ذات الجلد اللامع المصنوعة من شبكة من الالياف ، الاسطوانات ، المسامير ، البراغي ، والعزقات التي كانت تتحدى الاتون الخارجي لشمس ، يشتد لهيبها ضراوة كلما صعدت باتجاه الشمال ، باعثة ارتعاشة وحشية في نهايات أصابعه تلك التي غدت حساسة تجاه اسفلت الطريق ، تجاه هبات الريح ، تجاه الضباب الخفيف الذي يفشى ضوء الشمس ، وتجاه ظلال النسور التي تمر كالبرق . كذلك كانت قدماه الحافيتان فوق الدواسات تتابعان ذرات الوقود وهي تنطلق من منبع الاحتراق كما تحسان بالايقاع اللطيف للمكابس وهي تتحرك داخل اسطواناتها ، وكانت الاوراق تمر به عابرة شعره والريح السريعة تنخر مرددة وطء دواليبه على الارض فأحس من جديد بأن أحشائه تزيئت ، تماما كما أحس حين كان يراقب الميكانيكي وهو يرش بكثير من الضجيج السائل اللزج ذا اللون الكامد على مفاصل سيارته . وحين بدت السيارة وكأنها تقطع المنعطف على دولابين ، اعترف ، وهو مسترخ تماما ، أن لديه انطبعا واضحا بأن ثمة غراء كثيفا هو الذي يحفظ تماسك العربة بلطف امومي .

– الحال الآن على ما يرام . قال لزاشي ، فرد هذا :

– سيارة السي – ديز تمام !! ، أحسست بذلك من الطريقة التي عاملت بها هذه الآلة .

بعد ذلك اجتازا مناطق هدوء مشرقة ثم دخلا الحزام الضيق لمنطقة الشاج ذات الامطار الغزيرة ، كان المنظر الطبيعي قد تحول الى منظر مورق تماما ، وكانت اعشاب اللانوس الكثيفة ترتفع الى أن تشتبك ذراها مع ذرى الاشجار عاليا في السماء ، تزينها قفزات قبائل القروود فوق سقوف الغابة الكثيفة ، المتعذر اختراقها على ما يبدو . كان الصمت الذي رافقهما خلال المائة والخمسين كيلو مترا الاخيرة ، قد انتهى ، وكان الجو قد امتلأ فجأة بالفرقعات ، بالجلبة ، في مملكة رانا(١) تلك ذات الموقع السيء . لم يكن ينقص الجو سوى طرزان ، ذلك الكائن البدائي الذي كان آخر ما ابدعه الخيال الاستعماري ، وهو يجلس متباعد الساقين ، ما بين مقدمة خرطوم فيل واذنيه المتأرجحتين بالاخلاص التي تشتهر به الفيلة . ما من شيء كان يبدو بين الاغصان الملتفة ، لا شيء الا موكب الكائنات المتسلقة ذات الضجيج والاذناب الطويلة من مملكة رانا ، تلك التي كانت تتابع السيارة وهي تشق طريقها السماوي، عبر اعشاب اللانوس الواقفة في حزام الامطار ، شياطين غسق غاضبة تصب لعناتها حتى النهاية . تصدى اوفي للرفقة غير المرغوب بها أطول وقت مستطاع ، بعد ذلك استدار نحو زاشي الذي كان ما يزال غارقا في ما يشبه الغفلة منذ المحنة الاخيرة .

— انا لا اعلم الكثير عن البتيكولوجيا ، ترى هل يفترض أن هذه الطرزانات المصفرة فال خير ؟ فأجاب زاشي :

— بودي أن اقتنضها واحدا واحدا، هذه الكائنات الثرثرة البغيضة ، انظر تلك المؤخرات القبيحة ، ثم قل لي ، لمن تبدي لثتها النتنة ؟ ذات مرة ذهبت كي أعرف في مخيم فوقعت بالمصادفة ، على صالة المرشات الباردة ، هناك حيث ينظف المجندون أنفسهم من البراغيث . وصدقني ، لو أن هذه القروود القبيحة تعرف الى اي حد تشبه اولئك المجندين ، برؤوسهم الحليقة الشعر ومؤخراتهم العارية وهم يشدون إلياتهم الواحدة الى الاخرى ، لما كانت ستحدث مثل هذا القدر من الضجة .

* * *

« الى اللعنة » (٢) كان بإمكان المرء أن يقرأ اللوحة بأحرفها غير المتناسقة ، وكانت اللوحة مسمرة على شجرة ، وقد رسم الهاوي الذي كتب العبارة سهما يشبه ذنب قرد لكنه سهم شائك يشير الى طريق مكون من أجدودين عميقين ، تفصلهما ذروة معشوشبة .

كبح اوفي العربية ثم تراجع الى الورا كي يقرأ اللوحة .

(١) اي مملكة القردة .

(٢) اي « الى السد » وهنا نرى تحريف الكلمة الاصلية : السد ، بحيث أصبحت « اللعنة » نظرا

لتقارب الكلمتين في اللفظة الانكليزية .

– لا بد ان هذا هو السد ، اذ يخيل الي اننا بتنا قريبين جدا من موقع العمل في شاج .

– أتريد الذهاب الى هناك ؟ (رد زاشي بصوت كثيب أدرك أوفي سبب كآبته في الحال) .

– لعل هذا كله سينتهي بتنظيف فمي بعد لقاء آخر .

– انني اشك بأن أحدا يعمل هناك في الوقت الحاضر .

– لا ، ورشات العمل موجودة دائما هناك . وبودي ان أرى شيئا اشترك رجالنا من آيرو ببناؤه في كروس – ريفر ، شيء يجعلني أطمئن بأن ما يجري حاليا لا يمكن أن يكون قد قضى على كل شيء .

كفت القروود ، لدى رؤيتها السيارة تتحرك ، عن خدماتها كموكب مرافق اذ عادت الى الوراء واختفت في الغابة ، وهي تكشر عن لثاتها وتوزع لعناتها حتى النهاية .

ارتفع دولابا السيارة فوق اندفاعة من الارض هي بالاصل ذروة معشوشبة كانت تهدد برفع السيارة عاليا وترك الدواليب تدور في الفراغ . اخذ أوفي يسير والجانب الاول من سيارته على الذروة بينما الآخر في مستوى أدنى . فيما انفلقت الغابة عليهما ، صامتا لا حركة فيها ولا نأمة ، تهدد بالخطر ، فعبر زاشي عن المخاوف التي راحت تعتمل في نفسه .

– اسمع يا عزيزي . ما رايك لو ان بعض اولئك القرويين المدعورين المجانين كانوا في هذه الناحية ؟ فأكد له أوفي :

– ليس باستطاعتهم ان يعتبرونا اناسا من المدينة يصلحون لان يكونوا اكباش فداء .

– وما السبب ؟

– الندوب في وجهك . ام لماذا تعتقد يا ترى انني قبلت بمرافقتك لي ؟ لان ندوبك الفظيعة هي تعويذتنا الواقية . وباستطاعتنا ان ننتقل بوجودها كما نشاء .

فكر زاشي مليا .

– قل اذن ، بودي ان يبدو لك ذلك على ما يرام ، لكن بما انني لا اكف عن قول ذلك لك

– لا تقلق . انا اقوم بمخاطرات بلهاء ، بل قبل عودتك فكرت بذلك كله ، ولو انك لم تعد ، لكنك سامضي وانا اصطحب سائقا عليه ندوب عرقية كبيرة .

سلم زاشي نفسه للقدر .

– ما أعرفه هو ان قبيلة الجواسيس عندهم قد اتسعت الى حد انها تشمل كل من لا يتكلمون لغتهم تقريبا . فلا تقل لي بأنه في هذا المركز البربري المتقدم . . .

– ليس مركزا بربريا متقدما ، بل هو المكان الوحيد الذي لم يستطع فيه اولئك الوحوش فعل شيء ، نظراً لان الاتحاد كان قويا . لقد عقد الرفاق اجتماعا هنا ، وقرروا ايقاف العمل لدى اول اشارة تدل على القمع .

تكون وجه زاشي على نحو يدل على الارتياب .

– ماذا تخبيء لي يا عزيزي ؟ ترى كيف تعلم الكثير عن هذا الموضوع ؟

– انا لا اعلم الكثير عن هذا الموضوع ، يا زاشي ، بل اعلم فقط أنهم نجحوا في القيام بعمل جيد قبل أن يتمزق الجسد المنتفخ ، فالمشاريع الجديدة ، كسد شاج مثلا ، لم تكن تعني سوى انه بالامكان الاقلاع بفئات عمل انطلاقا من لا شيء ، انها العلاقات الجديدة ، قرابات العمل ، لا القرابات القبلية . لقد قضينا في مفامرات كمغامرة شاج ، قضاء نهائيا على الفريزة السلفية .

(هنا رأى زاشي ينظر اليه وقد بدت عليه هيئة الاندهاشن فأدرك بأنه سيعود الى ارتيابه القديم ، فاستأنف) : انت أيضا اسهمت في ذلك .

فانفجر زاشي .

– لا ، لا تدخلني في هذا الموضوع ، انا لم اعلم شيئا ولا أريد أن اعلم شيئا .

– لكنك ارتببت في شيء ما . ارتببت أكثر من مرة ، وقد أسهمت في ذلك ، اذكر عندما رقصت ايريز هنا ؟ انظر ، في منعزل الغابة هذا ، ولدت قبيلة جديدة ، قبيلة من العمال ، بعيدا عن المجسات والاستطلاات المسمومة وعن شيوخ السلطة القبلية والعشائرية . الا ترى انه كان بالامكان خلق كيانات جديدة هنا لم يفسدها الجشع ولا التفرقة التي تنتشر في المدن ؟

ارتعش زاشي ورفع الزجاج .

– ليس بالامكان فعل شيء ، ذلك اقوى مني ، فانا احس بوجود اشباح ، وليس بإمكانني ان أرى شيئا بوجود هذا كله ، لكن كل ما أستطيع قوله هو انني لا احب هذه الاماكن . فلنعد قبل ان يحل الظلام ، لنعد قبل أن تقع في الفخ .

نظر اليه اوفي وقد اقتنع أخيرا بأن لديه الحق في أن يخالف .

– حسن ، اعدك بأننا لن نتوقف ، لكنني أريد فقط أن أدور حول الورشة دون أن أطفئ المحرك ، فانا بحاجة لان اطمئن نوعا ما ، ان أرى أننا لم نفشل كل الفشل ، قبل العودة الى كونترا وفقدان الايمان ازاء النفاق الطاعي ، فقال زاشي :

– انا اعلم الآن لماذا تفوح من هذا المكان رائحة الاشباح ، فهناك ثمانمائة متر حتى الورشة وليس ثمة قط واحد على بعد كيلو مترات .

– انا لم أتوقف عن قول ذلك : الآن الورشة مهجورة .

– اذن لماذا تسرح القروود وتمرخ في هذه الناحية ؟ لا ، ما اظنها كانت ستاتي الى مسافة قريبة الى هذا الحد من الطريق العام ، لو أن الجرارات وغيرها من الآليات كانت ما تزال تعمل قبل عدة أيام .

فشرع أوفي يشرح بكثير من الصبر .

– اسمع يا زاشي ، لقد توقفوا عن العمل هنا قبل بدء الاضطراب بأيام وأيام . اذ جرى اعلام الناس الذين هم من كروس ريفر والذين كانوا موجودين بين العمال بخطط الكارتل ، كما أعلم بذلك قادة الأييرو ، بل أن أحد أنصارنا كان في حاشية زاكي ، لكنهم كانوا يعتقدون في ذلك الحين أن الامر مجرد محاولة لتعطيم تضامنهم . قرر رجال الأييرو ايقاف العمل لضرب مناورة الكارتل . وعندما حذرهم من جديد سكان هذه المنطقة الاصليون أغلقوا الورشة ، ثم عقدوا اجتماعا ، وقرروا العودة الى بيوتهم . كان ذلك قبل اسبوعين ، على الاقل ، من الوقت الذي أطلق فيه الكارتل بنات آوى ، لهذا ليس هناك ما يدهش في أنه لا يوجد أحد في الورشة .

وصلت السيارة الى مكان قطعت اشجاره ، وفي آخر لحظة استطاع أوفي ان يتحاشى الغوص في بحيرة اصطناعية شاسعة الابعاد ، كان الطريق الذي يؤدي اليها يدور فجأة ليتبع حافة النهر وكان يخيم فوقها ضباب المنخفض وكانت تخترقه ذراع رافعة وحيدة ، يتدلى منها جبل فولاذي ينتهي بكلاب ضخمة فبدا اشبه بصنارة لصيد السمك عبر ذلك الحجاب الابيض .

– انه الموت هنا يا أوفي ، فمن اين يأتي ذلك الضباب كله ؟

– لا بد ان ذلك بسبب السد والغابة الممتلئة رطوبة في كل الجهات .

– مرة واحدة فقط ذهبت الى مكان كهذا ، وذلك حين ذهب بي مديري الفني مع جوقتي القديمة للقيام بجولة واسعة بمناسبة عيد الميلاد ورأس السنة ، في عمق ايكوسيا . هل تعرف « فيرث فيفث » أو اسما غريبا كهذا ؟ كانوا في تلك الاثناء يبنون جسرا هناك . هذه الرافعة هي التي تجعلني أفكر بذلك . كان الجسر يتوقف في وسط فيفث الضخم – أو لا أدري كيف كان الناس يسمونه – وكانت الرافعة تشرف على ذلك الجزء من الجسر محفوفة كلها بقطع الحديد ومعلقة في الفراغ . هل تعرف ذلك المكان ؟

فقال أوفي وهو يهز راسه :

– نعم . انها لمصادفة . فكثيرا ما كنت أتوقف في أعلى تل يطل على النهر . كان ذلك خلال رحلتي التي كلفتنني الطفمة بالقيام بها . وقد التقيت هناك بصبية ، انها تلك التي حدثتك عنها . لقد تجولنا بالعربة وذهبتنا لرؤية ذلك المكان ، فيرث أوف فيرث ، ان كان يهملك الاسم الحقيقي .

– على كل حال ، كانت هناك ضجة هائلة ، السيارات تسير في كل الاتجاهات على الطريق القريبة ، وأكوام من التنورات الاسكتلندية والمزامير ذات القرب . أما الآن فلا أسمع غير الصمت ، ترى لماذا نبقى ؟ هيا لنذهب ، علنا نعرش على أناس مثلنا .

فأضاف أوفي على سبيل التعليق :

– كنت دائما أقول لنفسي ، خسارة اكمال هذا الجسر ! فقد كان رائعا على ذلك النحو ، اعني وهو معلق في الفراغ . وافترض أن أولئك الرسامين والموسيقيين الذين تركوا بعض أعمالهم غير مكتملة ، انما فعلوا ذلك عن قصد .
– لو سمعتك جدي وأنت تتحدث هكذا ، لاخذك في الحال الى طبيب القبيلة .
– لكن هذا صحيح ، صدقني .

فجأة توقف ، ثم تردد وهو يفتح باب السيارة فقد اتجه ناظراه مباشرة الى بقع ، كآثار الجدري على الوجه ، تشكل نشازا على سطح البحيرة . أخيرا هبط من السيارة ، فحدث للتو أن صدمته عفونة ، هبة ريح من تفسخ ورطوبة لطمت صفحة خده ، فساوره الشك وفي الحال تسلق تلة رملية . من هناك رأى طبقة الضباب تنفرج في أماكن متفرقة ومن خلال تلك الفرجات شاهد البحيرة الساكنة ككل السكون ، والجيف تطوف على وجهها هنا وهناك . لكن المدهش في الامر انه رغم تلك الاجساد المتورمة والوجوه المتفسخة ، كان انطباع بالسكينة والسلام يخيم على ذلك المكان . لعل وشاح الابخرة الفاسدة هو الذي كان يخفي كل احساس بالرعب ، لعل عطالة الآلات العملاقة غير الطبيعية هي التي كانت تجعل من ذلك كله حلما ، مشهدا متخفيا من مشاهد متحف الشمع . ولعل تلك الجثث المنتفخة والطافية جماعات جماعات في المياه الراكدة ، كانت تشكل جزءا من الارض المتحركة ، من رحم الصلصال والديبال حيث كانت أيد فولاذية تخرج فيما بعد أشكالا حية جديدة .

– مرة اخرى اكذب على نفسي ، قال أوفي في سره ، فأنا افتش عن عزاء عقيم . لكن بدا امرأ حيويا حينذاك ، أجل ، امرأ أساسيا أن يعرف ، وعلى نحو لا يمكن دحضه ، ان كانت أصوات كروس ريفر التي طمأنته بأن الناس في أمان ليست الا خداعا ، وان كانت تلك الاصوات لم تجذب من جديد المضحايين ، الى مكان العمل ، كي تودي بهم الى حتفهم . فمن المؤكد ، على الاقل ، أن تلك المضحايين لم تذبح في أمان قراها الجديدة ، لتعاد بعد ذلك وبكل وقاحة واحتقار الى النصب الكبير الذي كانت تحاول اشادته . بكل قواه شرع أوفي يأمل أن يكون رفاق كروس – ريفر انفسهم جزءا من تلك الاوجه البشعة التي يراها عائمة فوق الماء . فآنذاك مهما تكن الخسارة ضخمة ، لن تبلغ من الخطورة ما يبلغه الامحاء الكامل للفكرة الصميمية نفسها . لكن من تراه يستطيع معرفة ذلك ؟

كانت الرافعة وكلابها السفلي يبدوان على أهبة الاستعداد لانتشال الجثث .
لاحق أوفي بنظره الحبل الفولاذي حتى ذراع المرفاع ثم القطب الذي يعلو سقف
الحجيرة الخاصة بالتشفيل ، ومن جديد انخدر به حتى السلسلة المطلية بطبقة
من الوحل ، فقدور خلط الاسمنت ذات المداخن المكسوة بالاقدار ... هناك
توقف ، فقد باتت تلك عادة : أن يتابع خطوط تفكيره بنية ايقاف التدفق السلبي
لما كان يتضمن الحقيقة العارية . في الفرجات الواقعة بين أشجار الغابة ، وقد تذكر
أوفي بشعور أشبه بالوهم أن ايريز رقصت ذات ليلة للعمال في واحدة من تلك
الفرجات وأن القرويين الذين كانوا قد تسلقوا الأشجار صفقوا طويلا لها ، أقول
في تلك الفرجات كانت الآلات تصطف راقدة رقود الموتى وكانت أصواتها الحادة قد
أسكتها الوحل والصدأ ، مخالب مكمدة ، أثقالا جامدة ، فكوك غيلان من فولاذ
متراخية ، سلاسل آلات طالما عملت في الحمأة والطين ، وهي تدور وتنتصب مثل
كركدن هائج ينقض على عمالقة الغابة ، ثم يصرعهم بصوت كالقعقة جماعات جماعات .

كانت تلك الآلات تترك الأرض المرة تلو المرة أكثر عراء وأكثر انكشافا . وكان
الامل هو أن يحل شيء ما محل ما يزول ، ففي ذهن أوفي لم يكن الامر يتعلق بمجرد
انشاءات من الاسمنت المسلح . انفجر الصمت في أذنيه مليئا بضجة تلك الحيوانات
الفولاذية الهائلة الحجم وهي قيد العمل ، ذلك الحشد من جزم الكاوتشوك وهي
تطأ الأرض كي تخضعها ، تلك المعاول والرفوش وهي تتصادم ، هاتيك البشرات
السوداء والبيضاء والحمراء ، وهي تتفصد عرقا ، تلك الشباك والعتلات وهي
تشق مهاد الوحل الغنية وذلك الجهد الذي كان يبذله اللحم والمعدن كي يشق
الأرض ، يحولها الى أشكال أقوى وأكثر خصوبة ، فيما كان يتغلغل تحت قدميه
خرير الماء ، ذاك المولد للطاقة الكهربائية ...

لكن في تلك اللحظة كان الصمت يهيمن على كل ما يحيط به ، وكان الصدا
يكسو الادوات المهجورة ، والوحل يغطي الخط الدال على فتحات المياه التي ستغمرها
البحيرة الاصطناعية في المستقبل . كان كل شيء قد ظل ناقصا لم يكتمل . ومرة
أخرى ، إذ أن تلك لم تكن الاولى على حد علمه ، لم يكن أحد قد فتح الفتحات
المناسبة . كان يخيل اليه أن قليلا جدا من الايدي كانت تفتش عن مغاليق فتحات
السد والضوء والحياة ، تلك التي كانت ستصنع النماء حقا وتحمل نداوة الحياة
الدايفة . أخيرا غض بصره عن تلك التقدمة الجديدة للرفض والحقد نازلا عن الهضبة
وهو يسائل نفسه عما اذا لم يكن بطريق المصادفة ، يظأ مدفنا أقيم على عجل ، فالابخرة
الفاسدة التي كانت تخيم على البحيرة بدت وكأنها تتسرب من مصدر خفي للتفسخ .
فتح زاشي باب السيارة له وحينذاك فقط أدرك أنه هو الآخر كان قد ترك
السيارة ورافقه الى الهضبة ، بعد ذلك غادرا المكان دون أن يتبادلا كلمة واحدة .

في ثيابه ، كان يحس بعدوى ، كما لو ان الروائح المنتشرة كانت قد مرت خلالها وبدأت تبسط على جلده يدا قشرية . فجأة اثار ذلك الشيء ، بالإضافة الى صمت الفتحات المائية في السد ، غيظه على نحو تجاوز ذلك الفيظ الآتي الذي جعله يجابه عجوز الآيرو بفضب يتحداه في ان يثبت ان عالمه الصغير يحتوي على سر التناغم الحي ، وفي ان اصابعه حين تتقدم كي تفتح فتحات المياه على الارض ، انما تفتحها على البلاهات الفجائية للفئة الحقيرة الجديدة ، تفتحها على البيروقراطيين ، دمي السلطة ، العسكريين والسياسيين ، التكنوقراطيين وسماسرة المال . لم يكن أوفي قد كف عن المقارنة بين بقايا المشوهين ، بين الاجنة المؤودة لكيانات ولدت ميتة ثم تبنتها وغذتها ارادة ذات نزعة انسانية ، لم يكن قد كف عن مقارنة دنسها حتى في زمن الاستقلال ذلك الذي كانت تتمتع به المناطق البعيدة داخل البلاد . . . وذروة ذلك انما هي خلاصة هزيلة ، خطأ ارتسم امام عينيه : ايريز رقصت هنا .



بسرعة كبيرة ، غدت الاشجار اكثر نحولا والاوراق اكثر بؤسا . كما غدا الجو اكثر جفافا تحت سياط الرياح اللاهبة اما اشجار الخرنوب فكانت تنبثق هنا وهناك من بين الاوكار . قاماتها تضاهي قامات اشجار الادغال . كان الجفاف يلاحقهما على شكل سحابات من غبار تلوي الاغصن الضامرة كأذنان سباع الصير . من على ربوة متكلسة طارت حداة ، تاركة برج مراقبتها ثم اخذت تحوم في السماء الى ان بلغت منطقة تخلخل الهواء حيث التيارات غير المرئية . كان زاشي قد استلم مقود السيارة فانقلب أوفي على مقعده محاولا استعارة عيني تلك الحدأة ، عله يسبر اغوار المدينة البعيدة ويكتشف موضوع بحثه . لكنه حين اخفق في ذلك التفت نحو الشعاب تلك التي كانت تنحدر بسفوحها غير المستوية انحدارا عموديا نحو الجحيم ، كانت شبكة الشعاب والقمم تلتف وتلتوي مشكلة أفق غروب دام ، وكانت الوهاد الواسعة تبدو وكأنما ثقت قاعدتها المستوية بكتل من الصخور تدرجت من مكانها . لاحظ أوفي انه بدأ يسكن تلك الكهوف الفاغرة أفواها اعداد كبيرة لها رأس أنوبيس الثعلبي الذي حلم به . فقد كانت تنبثق من كل مكان ، تلقي بنفسها الى الهاوية ثم تجتاز حافتها ، مهمة ، مسرعة نحو الاعماق البعيدة حيث الوايمة الموعودة ، تلك التي كان قد رأى فيها لتوه ذروة ازواء الغليل من السد . كانت تسرع ولعابها يسيل على الحوض المليء بالكتل المتعفنة تجر صفارها وراءها ، وقد نفذ صبرها ، ثم تتركها لتندفع محنية الرؤوس تشتم روائح مادية لا انسانية . أحس أوفي ، وهو في حالة من خدر بسبب ضجة المحرك ، بما يشبه ذلك الاحساس الذي راوده في غرفة ايريز ، انه وحيد في العالم ، لكنه هذه المرة ، كان يرى أين

هوت بقية الانسانية ، وكان ضميره ، في تلك اللحظة ، الوحيد الذي يرى الكهوف المظلمة الممتلئة حيث كانت تمزق الانسانية برائن الوحوش وانيابها . وفي الحال توقف خياله عند تلك القمم المحدبة ، حاملة القرون الفخورة ، مانحة اكسير الشفاء تلك التي كانت جذوعها البرونزية تميل على الاخايد الملاى ، هناك احس ان في يده نصل آهيم الحاد . لم تكن الشيران تنتظر امره وما من احد سمع غمغمة الا بالكاد حين قال : « اغرزوا القرون » . كانت الشيران تتوجه بأعناقها نحو الغرب ، تنتظر وهي على أتم الاستعداد ان تجيء اللحظة التي ستقدم فيها دمها المشترك . بعد ذلك وبحركة لا ترى الا بالكاد ، كان ينتقل من حيوان الى حيوان ، فتنبجس الينابيع ويندفع دفقها الى مغاور العدم ، الى وهاد المأدبة لتفرقها من هذا الطرف الى ذاك .

اخيرا ، رفع عينيه نحو حذبات النجوم المتحركة في سماء لم تكن قد اكفهرت بسبب اي اندار بالمطر ثم غمغم : متى سأرى ذلك كله ؟ .

* * *

هل كان عليه أن يدفع هناك ثمن أيام التهرب ؟ فثمن شفقتة الشخصية كان يبدو باهظا ، لا مبرر له حتى ولو كان طبيعيا .

كان البرج الاسمنتي المدور يحتوي في داخله سلم النجاة ، ولم تكن ثقوب التهوية الصغيرة تقدم أقل ممسك ، كما كان الامر يحتاج الى اكثر من معجزة كي يكون بالامكان وضع كلاب فيها قبل أن يجذب احتكاك الحديد بالحاجز انتباه العديد من السكان . . . تلك التفاصيل والتوقعات كانت تمر بسرعة في ذهن طبيب الاسنان وهو يتفحص الفيلا الضخمة المشوهة الشكل والفارقة في الضوء الصادر عن مصابيح كهربائية قوية على شكل أقواس ، وكان بيت السلم وحده ما يزال غارقا جزئيا في الظلمة أحادي الحجر وحصينا . أشار اليه بإصبعه .

– بإمكانني وضع شحنة كبيرة من المتفجرات في الثقب الواقع في الاسفل ، لكن قد لا ينجم عن هذا سوى تهديم البناء دون أن ينال من الرجل المطلوب شيئا .
فغمغم أوفي : انه يرقد في الطابق الرابع .
– أي جناح ؟
– هناك قرب بيت السلم .

فأطلق طبيب الاسنان زفرة مكتومة .
– وما حاجتهم الى عمارات بالغة الضخامة الى هذا الحد ؟ انظر الى هذه !
انها أكبر من ذلك الهيلتون الكريه في غوزارا . ترى كم عدد الاشخاص الذين يعيشون هناك ؟

– هو وأسرته . يضاف الى ذلك عدد من الطفيليين .
– وحراس خاصون ؟
– طبعا .

لم يكن الرئيس باتوكي ، الذراع الغربية لمحور الكارتل ، يستريح الا عندما يجد نفسه في الطابق الرابع من مسكنه ، يفصله عن الارض ثلاثة طوابق امنية ، يحرس كلا منها رجال أشداء لا ضمير لهم ، مدججون بالسلاح ، رغم أنهم مموهون على شكل خدم يلبسون الزي الموحد الكلاسيكي . فوقه شرفة شبه مغطاة يحرسها حراس اعددهم قائد الجيش ، يهزون رشيشاتهم بعصبية بالغة . وحده القاتل الانتحاري يمكنه أن يلج هذا الحصن الحصين .

- هذا الرجل استحق الموت أكثر من مئة مرة . فسأل أوفي :
- ما الذي يجعلك تعمل بهذا القدر من الثقة ؟ ما الذي يجعلك شديد الثقة
بنفسك ، الى درجة تجعلك تقول أشياء كهذه ؟

غادر طبيب الاسنان مخبأه ثم رتب منظاره ، فالفحص بالنسبة اليه ، كان قد
انتهى ، حينذاك خطرت لآوفي فكرة : لماذا لا تثار معركة ؟ اسمع ، لماذا لا نذهب الى
هناك ، هكذا وبكل بساطة ؟ فقد يتوجب عليك أن تلتقي به أولاً .

وجه طبيب الاسنان نظراته الفاحصة اليه ، اما أوفي فاكتفى بهز راسه .

- أجل ، لم لا ؟ سوف أقدمك اليه .

- أتعرفهم الى هذا الحد ؟

- نحن ... لا ، نحن لم نعد أصدقاء . لكننا كنا في السابق أصدقاء خلص .

كانوا يقابلونني هنا بالترحاب دائماً .

- حسن ، حسن .

- لا سيما ...

- لكن من تراني في نظرك ؟ أنا ، بالتأكيد ، لست كما تظن .

عادا الى السيارة ، ثم أمسك أوفي بالمقود وهو يقول :

- سيكون الامر أسهل ، ان كنت أنا من يسوق . فالبواب يعرفني .

عاد العربة الى الطريق العام ثم تقدم نحو الحاجز . رأى الحارس يأخذ
سماعة الهاتف حتى قبل ان يصل الى المرقب ، فقال :

- ببساطة سوف اطلب رؤية الفتاة . وسوف يكون بإمكاننا الانتظار في

قاعة الاستقبال الخاصة خلال الفترة التي ستهيء فيها المقابلة مع أبيها .

- وما الحجة التي ستتذرع بها لطلب مقابلته ؟

- لست بحاجة الى حجة . طالما ان الحرب لم تعلن بعد ، وطالما ان وضع كل

مننا لم يظهر للنور تماما ، فسوف يستمرون على أمل هدايتنا . وزيارة كهذه قد

تعني ببساطة أنني عدت الى الرشد ، الامر الذي سيدفع الاسرة بكاملها لاستقبال

الابن العاق . لكن ، بالمناسبة ، من أنت ؟

- ماذا تعني ؟

- بأي اسم عليّ ان أقدمك ؟

- أوه ! اعتقد ان من الافضل ان تأخذ الاسم الموجود في جواز سفري . سمّني

دوماكان . ايزولا دوماكان . قل انني أنهيت اتوي دراستي في الولايات المتحدة .

- وهل درست في الولايات المتحدة ؟

فابتسم طبيب الاسنان ابتسامة خفيفة .

- لقد درست في كل مكان .

استقبلتهما بابي عند مدخل القاعة في الطابق الثاني . نظرت مليا الى اوفي
ثم أمسكت بيديه محتفظة بهما بين يديها ، بعد ذلك هزت رأسها هزة الحزن .
- هكذا اذن ، رفضت اتباع نصائحي .

- اجل ، وانت أيضا ، رفضت اتباع نصائحي .
- صحيح . لكن من الذي يواجه المصاعب الآن ؟ انا أم أنت ؟

فانتفض اوفي :

- مصاعب ؟ اية مصاعب ؟

امرت بابي ذراعها تحت ذراعه ثم قادته باتجاه جناحها .

- اوتعتقد يا اوفي اننا نجهل كل ما قمت به من تصرفات صبيانية ؟ لقد
حزن ابي كل الحزن على ذلك ، لكنه كان يأمل أن تعيد التفكير بهذا كله خلال سفرتك
الدراسية . وانتظر اوفي ، ذلك انه اذا ما تركها تتكلم فسوف تغدو أذلق لسانا
وستكشف جميع التفاصيل التي تتضمنها تلك التقارير التي وصلت الى الكارتل
وهكذا استمرت مطنبة في الكلام :

- انا لا أدري ما الذي تأمل أن تجنيه من ذلك ، فأنت لم تنجح الا بالاساءة الى
نفسك . لو تعلم كم من الوقت قضى والذي وهو يدافع عنك ! كان يردد باستمرار
أنك قد ضللت ، هكذا وبكل بساطة ، بسبب العشرة السيئة . وكان الآخرون يريدون
أن يمسكوا عن طريقك الرؤوس الكبيرة . على كل حال ، انا سعيدة بمجيئك ،
واعلم بأنه سيفعل كل ما في وسعه لانقاذك من الورطة . وسيكون بإمكانك أن تقوم
برحلة أخرى .

قادتتهما الى أن بلغت أريكة بنفسجية اللون ثم تذكرت انه لم يتم التعريف بمرافق
اوفي ، فلفت اوفي نظرها الى أنها لم تدع له مجالا لفتح فمه ، ثم قدم لها طبيب
الاسنان . شرعت تضحك ثم ضغطت على جرس فظهر خادم يلبس سترة بيضاء
سرمان ما اختفى ، وقد تلقى أوامرها ، دون أن ينبس بينت شفة .

- كلاكما تشربان الشمبانيا ، اليس كذلك ؟ منذ أكثر من عام لم يأت اوفي
لزيارتنا ، وانها لمناسبة تستحق الاحتفال . ترى ماذا يفعل صديقك ؟ فرّد على
سؤالها طبيب الاسنان :

- لا شيء ، الآن ، فقد عدت لتوي الى البلاد ، كنت أدرس في الولايات المتحدة .

- ماذا درست يا ترى ؟ فأجاب غير مكترث بالخطر :

- الجراحة السنية . لكن ذلك لم يذكر بابي بشيء ، اذ لم يبد أي وميض

في عينيه يربط بين مهنته واسطورة هذا الطبيب المشهور على نحو كئيب .

- ان كنت تبحث عن منصب فسيسر ابي كثيرا بأن يعمل كل شيء لمساعدتك

نظرا لانك صديق اوفي . لكني آمل أنك لا تحمل أفكارا كافكاره .

فابتسم طبيب الاسنان ثم قال :

- كلا ، يوسفني أن أقول ذلك ، فأفكارنا السياسية مختلفة نوعا ما .

فلم تستطع كتمان غببتها .

- أوه ! هذا جيد ، جيد جدا . بل انني لسعيدة كل السعادة بمعرفة ذلك . ولعلك ستمكن من التأثير عليه ، فهو على وشك التحول الى الشيوعية .

فرد طبيب الاسنان :

- أوه ! لست موافقا تماما على هذا الرأي .

- أو الى الفوضوية . أجل ، أعتقد أن هذا أكثر دقة ، فسألها أوفي :

- أهذا ما يقوله أبوك عني الآن ؟

وفي الحال قفزت من مكانها .

- أنا بالنسبة اليك طفلة دائما ، أليس كذلك ؟ بل أنت تعتقد على ما يبدو انه ليس لي افكاري الخاصة . أنك فوضوي ، الناس كلهم يقولون ذلك .

فرفع أوفي يده .

- حسن ، حسن . لم آت الى هنا كي نتخاصم .

- لا ، أتيت ، لأن لديك متاعب . فقد مضى عام على الاقل منذ ...

- أتيت لارى الاسرة . كنت مارا في الجوار ، فشعرت فجأة بالرغبة في رؤيتكم .

وصلت الشمبانيا في سطل من فضة ، فانهمكت في ملء الكؤوس وهي تتحدى أوفي أن يقول لها الحقيقة .

- أتيت لانك تواجه متاعب . وقد نجحت هذه المرة في الدوس على كبريانك .

في تلك اللحظة ، سعل الخادم ، وهو واقف قرب الباب سعلة لطيفة محتشمة .

استدارت بابي نحوه ، فأشار اليها اشارة مهذبة . تبعته فسمع الرجلان الخادم يتحدث معها خلف الباب بصوت منخفض لكن بلهجة ملحمة . وعندما عادت اليهما كان يبدو على محياها الناعم آثار الغضب والتصميم .

- أنا آسفة يا أوفي ، لكن لا بد من أن تعذراني ، فأبي بحاجة اليّ، وسأحاول الا أغيب طويلا .

- هل هناك شيء على غير ما يرام ؟

- أوه ! انها ... (وارتفع صوتها بصرخة محتدة) . مرة اخرى ... انها أمي لا تريد الاعتراف بأن لي ، أنا أيضا ، حقوقا في هذا البيت . انتظراني هنا (واستدارت بحيوية ثم خرجت ، لكنها بعد لحظة واحدة عادت) . أيمكنك أن تأتي معي يا أوفي ؟

فنهض أوفي مندهشاً ثم لحق بها قرب الباب .
- لمضن فأنت من أعضاء الاسرة تقريبا . ولعلك تستطيع ردها الى صوابها .

أخذ أوفي يحتج محاولا التهرب ، لكنها أمسكت بيده ثم جرته .

وصل الى مسامعهما صوت شرس النبرات لامرأة مسنة قبل أن يصلا الى الباب المضاعف الثقيل المنجد بالجلد والواقع في طرف الرواق . كانت بايي تنهياً للدخول دون تكلف ، لكنها تمايلت نفسها آخر لحظة ثم فتحت واحدا من الابواب الاخرى فتحة ضعيفة ، ألقت نظرة داخل الغرفة ثم أصاحت السمع ، ولدقائق عدة ظلت هناك تتجسس ، فبدأ أوفي باحساس متزايد بالضيق يفقد صبره . أخيرا همس في اذنها :
- الا تعتقدين ان علي أن أذهب من هنا ؟

لكن بايي أشارت اليه بالسكوت متشبثة بيده ، كما لو أنها طوق نجاة . بعد ذلك فتحت بيدها الاخرى الباب فتحة أوسع بعدة سنتيمترات فبدأ باتوكي ، الذي كانت قامته قد تضاءلت الى النصف ، أصفر وأصفر وهو يجلس في الكرسي العميق في صالة الجلوس الواسعة المزينة بأكاليل من صور ضمن أطر من ذهب يبدو داخلها أجداد الاسرة وهم يتسمون في احتفالات مختلفة واستعراضات شتى ، تهيمن عليه كتلة امرأة ضخمة . كانت شفتاها ترتعشان باعشتين برذاذ لا ينقطع فوق الرئيس التيس .

- اذن ؟ ما الذي اصاب لسانك ؟ هل قطعه لك القائد بيغا أخيرا ؟ كنت أظن انه صنيعتك حسب الاعراف والتقاليد ، لكن ، لدي انطباع الآن بأنك لست سوى خادمه ، ها ، لماذا لا ترد علي ؟ قطع لسانك ، أليس كذلك ؟ ولانك لا تستطيع ازعاجه تتصور ان باستطاعتك المجيء الى هذا البيت كي تعوض عندي ما فقدته ؟ لا تستطيع ان تلعب مع الزملاء دور الاله الطيب ، لذا تأتي كي تلعب هنا دور الاله الطيب ، آ ؟ وكان الرجل ، الذي غاص جسمه في الكرسي تماما ، يحتج بصوت بدأ وكأنه يخرج من مزمار :

- هدئي روعك ، يا أم بايي ، هدئي روعك ، من فضلك . كل من في البيت يستطيع أن يسمعك .

- سييسمعي العالم بأسره ، اذا لزم الامر ، لكنني لن اتقبل بعد اليوم اساءات منك ، ذلك أنك اما أن تجيب على سؤالي ونهي الامر ، أو أنك لا تتكلم بعد اليوم بلفتك القديمة ؟ فطبقا لما يقال ، هذا تقريبا هو الشيء الوحيد الذي يخشاه اعداؤك فيك ، حاول اذن أن تستخدمه ان كان لسانك ما يزال في فمك . أجب مازحا اذا اردت ، ولكن أجب . هل أنا من تصطحبك الى الاستعراضات أم أنك تذهب اليها مع تلك القدرة ؟

فجادلها قائلاً :

- كنت هناك عندما وعدت الناس بأنها ستصعد معنا في السيارة المكشوفة ، ولم تقولي شيئاً في ذلك الحين .
- في حالة كهذه ، لماذا لا تصطحب معك الاسرة كلها ؟ من المفترض أنني امراتك نعم ام لا ؟ لماذا لاتجري وراء فروع أسرة باتوكي الوضيعة ، لماذا لا تدعها تأتي الى الاحتفال بأسمالها وقملها ؟ .

فلاحظ قائلاً : أنت بشتتمك لاسرتي ، لن تساعديني في حل المسألة .

- آه حسنا ؟ أيؤذيك حقاً أن تسمع من يتحدث عن أسرتك ؟ ما الذي فعلته اذن ، ان لم يكن اغراق اسرتي بالاهانات ، وأنت تعاملني على نحو أسوأ من معاملة خدمك في المكتب ؟ ألم يكن ذلك خطأ من قدر اسرتي ؟
- أم بابي ، مثل هذا المشهد وصمة عار لرجل من مقامي ، تقولين أنني أسوء التصرف تجاهك . لكن بربك الست أنت من سيء لنفسه بمثل هذا التصرف ؟ ترى لماذا يجب أن تتكلمي كما تتكلم امرأة من السوق ... ؟

نادرا ما كان الرئيس باتوكي يخطيء . لكن تلك الشتيمة كان لها الاثر المتوقع رغم أنه لفظها بصوت شاك عذب . ذلك أن صوت باتوكي يفدو في أشد اللحظات قسوة مزمارا يعزف عليه بحساسية بالغة . كان يدع تلك الشتائم تنهال ببراعة واتقان ، وبهيئة من يدعو للثناء لا التوبيخ ، رادا ردودا خفيفة على تلك السيول الجارفة التي كانت امراته لا تكف عن اغراقه بها وكذلك أعداؤه في عالم السياسة أو التجارة . وفي الوقت الذي كان صدر امراته فيه ينتفخ من الفيظ وكانت تجمع قوتها الصوتية استعدادا لانقضاء جديد ، أطلق عتابا آخر مغلغا بالرقه نفسها :

- اتعلمين ؟ أنت أحيانا تدهشينني . أجل ، بالفعل . هناك لحظات تتصرفين بها وكأنك امرأة حديثة النعمة ، ترى ان كانت لهذه الاشياء أهمية كبرى بالنسبة اليك لدرجة أنك لا تستطيعين مشاركة ابنتك ...

هنا قام أوفي بجهد جديد بفية التخلص ، أسفا كل الاسف على الهدوء والشمبانيا في صالة الاستقبال لكن بابي تشبثت به ، على نحو أشد وهي تغمغم بلهجة حانقة :

- الآن ترى بنفسك ، أم أنك لا تريد أن ترى نوع الحياة التي تجعلني أمي اعيشها ؟ انها دائما هكذا ، تريد ان تجعلني لا شيء . فسألها أوفي في الحال :

- لماذا لا تذهبين اذن ؟ اذهبي ودعيهما لمشاحناتهما الزوجية . فهذا امر بغيض كل البغض بالنسبة اليك .

- انه بيتي لا بيتها .

فتنهذ أوفي .

- لكنها زوجته يا بابي . أما أنت فلست سوى ابنته .

فاستدارت نحوه .

– اسأل أبي . انه بحاجة الي أكثر من حاجته اليها . وهي تعلم أنني في علاقاته ، أكثر نفعا له منها ، أكثر نفعا بكثير . ما تفعله هو أن تجلب له العار بأساليبها وتصرفاتها المبتدلة .

في ذلك الوقت تماما كانت سيدة البيت ترد على ما يبدو ، وبأعنف الاشكال ، على تلك الاتهامات التي كانت شوكتها ما تزال تلدغها اثر رد باتوكي المماثل الاخير .

فقد شرعت بكل ما في الدنيا من لذة بتحطيم السياسي الذي وقع في الفخ وتمريغ أهله واسلافه بالوحدل .

– يا لك من دعي ! اتجرا على التلميح بأنني حديثة نعمة وأنني ممن لم يدوقوا طعم الإبهة قط ؟ اتجراً على تشبيهي بحديثي النعمة أولئك الذين لم يعرفوا العظيمة طيلة حياتهم ؟

بعدئذ تراجعت قليلا ثم تفحصته بازدراء ، منتقلة بناظريها من اخمص القدمين حتى قمة الراس ، فبدت وكأنها تنظر الى واحد من أولئك العبيد الارقاء أيام زمان . بعد ذلك انفجرت بضحكة مصطنعة ممطوطة أشبه بضحكات الهستيريا لكنها توقفت فجأة صارخة :

– هل نسيت أنك أصبحت ما أنت عليه اليوم بفضلني أنا وحدي ؟ الآن سوف أثبت لك ذلك أيها الدعي . سأذكرك به أنت وعائلتك الوضيعة ، وسيتوجب علي أنا ان أذكرك بالمزلة التي كان أهلك يعاركون فيها للحصول على الفضلات ، قبل أن أعطيك اسمي وممتلكاتي كي اجعل منك رجلا ذا شأن .
– اسمعي ، يا أم بايي ...

قال باتوكي مستخدما لهجة اللطافة ، لكن وكما توقع ، لم يفعل ذلك سوى انه وضع الفليفلة الحمراء على الجرح ، فقد صرخت المرأة :

– لست اما لأولاد زنا ، فلا تدعني أم بايي أبدا أبدا بعد الآن . ولتتعفن رحمي ان كانت هي التي ولدت هذه البغي (وبصقت على البساط بأشمئزاز ، ثم استأنفت) ربما كان عليك أن تسميها بيبي – مو – بي – يي – نا ، أي لا – حظ – لرحمي – منها .

– لا تدخلني البنت في هذه القضية . ان كان أحد قد أخطأ فهو أنا ، والبنت المسكينة ليست مسؤولة عن خطئي .

لكن المرأة لم تلاحظ غموض تلك الكلمات ، فصاحت وهي ترفع عينيها بنداء اخير الى السماء :

– فتاة مسكينة !! (وبرعونة شديدة حاولت تقليد صوته) فتاة مسكينة !! هل سمعت يا رب ؟ كم من البيوت تهدمت بسبب هذه الفتاة المسكينة ؟ بل انه لن

المدهش انها لم تنصّب سمسارة محترفة . على كل حال هي تقوم بذلك في اوقات فراغها لصالح الاصدقاء في الجمعية كلهم ، اليس كذلك ؟ فأجلب باتوكي باحتقار :

- على هذا النحو ، ارى أننا لا نفعل الآن سوى التقاط الشائعات ، آ ؟

- شائعات ! الا تأتي لك بصديقاتها المليئات بالامراض كي يضاجعنك ؟ طبعاً اي شيء آخر يمكن أن يتوقعه المرء ؟ فليس في أسرة باتوكي ذرة استقامة واحدة ولم يكن فيها ذلك قط ، لقد ورثت هذا منك ، لا شك في ذلك ! كنت اعتقد أن باستطاعتي أن أغمض عيني عن البيوت التي اشتريتها لإسكان خيلياتك ، لكنني لم أتصور قط أن ابنتي ذاتها ستأتي بالبغايا الى بيتي نفسه كي يضاجعهن زوجي .
- اخفضي صوتك ان كان لا بد من تكرار هذه الشرثرة الفبيرة .

لكنها قاطعته متابعة حديثها ، ناظرة اليه من جديد نظرات ملؤها الاحتقار :

- من الواضح أن هذه ليست غلطتك ، بالفعل ، بل هي غلطة أولئك الذين اشفقوا على عنق النسر العاري وأعاروه شالا ، لم يكونوا يعلمون بأنه سينسى ذلك في يوم من الايام وأن الرياح الباردة كانت ستجمد دمه حتى قبل أن يصعد الى رأسه .
بالنسبة الى باتوكي ، كان الامر أشبه بالمشاركة في لعبة قاتلة ، مع ذلك لم يتأخر جوابه .

- الريح والريش ، هذا ما تعرفينه . لكن الدجاجة الرومية المصابة بداء الحكمة المزمنة تفرش ريش ذيلها لدى أقل نسمة تهب في الباحة . ولفترة من الزمن مكثت السيدة باتوكي جامدة ، مفتوحة الفم ، بعد ذلك استسلمت على تلك الجبهة ، التقطت شالها وجزدانها . فقد كانت تمتلك السلاح المطلق ، التذكير بأنها تفتقر كلية الى الاحساس بالكرامة ، بأنها لا تبالي البتة بمقتضيات عزة النفس اذا تطلب الامر تقديم شرح للناس .

- سأكون في تلك الكاديلاك حين تمر من هنا كي تأخذك . فاصطحب معك سمسارتك وكل قبيلة باتوكي ان شئت . وسنرى حينذاك ان كانت سليلة اديفونلوا قادرة على مسح الوحل عن اقدام آل باتوكي .

وفي اللحظة التي توقفت ، فتحت بابي الباب على مصراعيه ثم اندفعت الى القاعة قبل أن يستطيع أوبي منها ، لكن الحركة الغريزية التي قام بها لايقافها قدفته داخل الغرفة ، وبما انه انكشف على هذا النحو لم يعد باستطاعته أن يتراجع ، وهكذا تقبل الموقف ثم تقدم بكل جرأة متمنيا لهما مساء سعيداً ، لكنه اكتشف ان أحداً لم ينتبه لوجوده وذلك بسبب المجابهة التي حدثت اثر دخول بابي المفاجيء فقد صرخت بها أمها وقد تشنج وجهها تماماً :

- اخرجني من هنا . كيف تجرؤين على الدخول وأنا أتكلم مع ابيك ؟

لكن بابي مضت مباشرة الى ابيها ، متظاهرة بأنها لا تراها .
- بابا ، آمل أنك لم تتعرض للاحراج الى درجة تغيرها رأيك .
- ألم تسمعيني أمرك بالخروج ؟ فردت بابي على الفور وقد استعادت هدوءها
نوعا ما :

- أنا اكلم بابا .
- وأنا قلت : اخرجي من هنا ايتها القذرة ، اخرجي من هذه الغرفة قبل أن أرميك
الى الخارج .

غاص باتوكي في كرسيه أكثر وأكثر متمتعا بالانفراج بعد كل ما لاقاه من عذاب .
اذ ما من أحد كان يستطيع اتهامه بأنه اثار واحدهما ضد الاخرى رغم أن ذلك هو
الاسلوب الذي كان يؤمن به ضمنا ، حتى في سياسته العائلية وضمن بيته . عندما
تتصارع الكلاب اهرب بالعظم ، هذا ما كان ينصح به . واذا لم يكن هناك عظم ، رتب
امورك بحيث تدعها تتصارع ، وتستطيع أن تستريح الى أن ينهك بعضها البعض
الاخر . لم يكن هناك ما تحسد بابي أمها عليه ، وبشكل من الاشكال كانت قد تابعت
المعركة من النقطة التي تركها فيها . سد أذنيه عن سماع مباراتهما بالعامية موجهها
تفكيره نحو مسائل اخرى . فقد كان معتادا على مثل تلك المبارزات الكلامية ، وكان
مقتنعا بأنه سيتخلص من ذلك ومكسبه أنه أنهك طاقات تلك المرأة ذات المراس الصعب
دون أن ينهك نفسه . وعلى الرغم من أنه كان قد شعر بالحزن حينما تحطم بيت بابي (اذ كان
مقتنعا أن ابنته هي هدفه الوحيد في الحياة) ، فقد أحس بنوع من الابتهاج حين خطر
في ذهنه أنه من تلك اللحظة فصاعدا سيراها كثيرا . لكن بعد عدة أشهر بدأت امراته
تحقق للشقة المتزايدة التي كان يضعها في ابنته . كانت الاوساط التجارية بل وحتى
الحكومية يسمونها مساعدة باتوكي وكان ذلك يفيظ الام . وهكذا حين خطرت تلك
الفكرة في ذهنه ، ظهرت على وجهه ابتسامة رضى مآكرة . كانت الفتاة ورقة رابحة ،
لا جدال في ذلك ، وكانت الاخرى عبئا ثقيل . حتى في أحلامه كان يسمع صوتها يتسرب
غاضبا منقضا على ادعاءات بابي ، فأطلق باتوكي زفرة ملؤها الحسرة . كان يعلم كيف
سينتهي ذلك كله وكان يرجو أن تنهياه بأقصى ما يمكن من سرعة . أجل ، سينتهي
الامر بانسحاق بابي ولن يسحقها سوى هذه المرأة الرهيبة البالغة القوة ، لكن حينذاك
ستكون الفرصة ملائمة كي يتدخل ومن ثم يحرز انتصارا سهلا على المنتصر الذي
أضعفته المبارزة .

- أنت تنسين دائما أننا هنا في بيتي وليس في بيتك ، كررت السيدة باتوكي
القول لابنتها ، ربما للمرة الحادية عشرة . لا أنت ولا ابوك ولا الاسرة كلها تستطيع
طردي منه . كان لك بيت لكنك أضعته وأضعنت زوجك ولسوف تضيعين كل فرصة
لك في ايجاد غيره .

الا يمكن ان تكون هذه هي اللحظة المواتية للتدخل ؟ فكر باتوكي ثم غمغم دون اقتناع :

— مهلا ، مهلا . ليس من اللطف ان تتكلما هكذا .

— اذن قل لها ان تضب نفسها جيدا ، ام ان علي ان اتحمل حماقاتها كلها الى ان يأتي غبي ويشفق عليها ؟ البيت كبير لكنها تعتبر ان من واجبها ان تضع نفسها دائما بين رجلي . لا ، لن يمر الامر هكذا ، لن اسمح لاحد ان يفعل هذا وانا في بيتي . انا لست عبدة لاي مخلوق هنا . ما من احد جاء بي اليه ايفاء لدين ، ولست ابنة زنا . كما انني لم آت لرفع الرهن عن اسرتي ، ولم اتسلق السلم الاجتماعي وانا اطا عتبتك . لقد اخذتني من بيت ملوك . لقبني بالولادة هو اوموفايوا ، او موفولازير موسمولوي ، وان كنت تجهل من هي امي ، فاذهب واسأل من هي ابنة تلك التي يعرفها الناس جميعا باسم آزيواجو ايود . . .

فانتصب باتوكي مذعورا مقدرًا اخيرا انه تأخر كثيرا ، فقد تصاعدت حدتها بسرعة كبيرة الى ان بلغت هذه الدرجة من الهستيريا التي لم تكن مألوفة بالنسبة اليه الا قليلا اذ يمكن ان يحدث كل شيء حين تبلغ حالة كهذه ، فهو نفسه لا يعود في مأمن من عنفها الجسدي ، وهكذا حاول ان يهدئها شاعرا بأن عليه ان يعمل بسرعة ، لكن جهوده ذهبت سدى . فقد كان صوتها يرتفع مع كل كلمة يلفظها .

— انا لست امرأة من عامة الناس اعطتها الزعامة صحيفة من الصحف العامة ، فكيف اصبح موطن قدم لك ولايتك ؟ انك تفعل خيرا اذا ما جعلتها تعلم من هي صاحبة الامر في هذا البيت ، فانا اذكرك بانني انا ، موفولايولو ، بنت آزيواجو ايود لن ادع . . .

لكن صوت بايي قاطعها على حين غرة :

— وانت ، افترض انك آيواجو الإست . انك تلوميني وتزدريني لفقداني بيتي ، لكن ما المفاجيء في الامر ؟ ماذا يمكن ان يحدث عندما تسبق الام ابنتها الى فراشها الزوجي ؟ كان عليك ان تلقي نفسك آيواجو الإست ، فانت تستحقين هذا الشرف واكثر .

كان اوبي قد بدا يخرج على رؤوس أصابعه لكنه تجمد فجأة ، كما بدت الغرفة وكأنها قد تجمدت هي الاخرى . اما بايي التي كانت عينها تقدحان شررا فقد اعتراها شيء من تردد وكأنها خشيت ان تكون قد مضت بعيدا جدا . زفر باتوكي زفرة طويلة ثم غرق من جديد في كرسيه وقد أدرك للمرة الالف ، ربما ، ان الكيل قد طفح . عند ذلك دوت جارة حيوان هائج ممزقة أرجاء الغرفة مشققة افاريزها .

— كذابة ، صاحت الام وهي تنقض على بايي التي انهارت تحت تلك الوثبة المفاجئة .

ظل أوفي متجمدا في مكانه ، منتظرا أن يهب باتوكي لنجدة ابنته . أخيرا نهض الرجل القصير القامة ، لكن امراته كانت قد باتت مستعدة لهجوم ثان . اذ وجهت ركلة بقدمها ، فرفعت باي يديها في الحال كي تحمي وجهها متلقية قدم أمها بأصابعها . آنذاك حاولت المرأة وقد جن جنونها من الفيظ ، أن تفرز كعب حذاءها في بطنها ، لكن باتوكي كان قد أمسك بها ثم جرّها بعيدا فوجهت رفسة أخيرة من قدمها وهي تتخبط بين يديه ، رفسة أصابت اضلاع الفتاة فراها أوفي تقطب وجهها من ألم ليس مصطنعا . وفي اللحظة نفسها التي كانت الام ترتمي فيها من جديد على الكرسي ، كاتمة أنفاس باتوكي بجرمها الكبير الذي طفى عليه وجعله يلهث مبهور الانفاس ، في تلك اللحظة تماما. أسرع أوفي الى باي ، رفعها عن الارض ثم فر بها فيما ظلت صرخات الام وشتائمها تلاحقهما الى أن أصبحت خارج مدى الصدت . وعندما صارا في غرفة الجلوس ، أمسك أوفي بالمنشفة التي كانت تغطي عنق زجاجة الشمبانيا ثم غمسها في سطل الثلج محاولا تسكين الألم الناجم عن الكدمات التي ألحقها الام بباي لكن هذه بدت مهتمة على نحو خاص بالتاكيد على صحة السر الذي كانت قد أفشته رغم ما فيه من فضيحة :

— ذلك صحيح يا أوفي ، وهي تعلم أنها لا تستطيع انكاره ، فذا ييزى لم يكن يعلم قط ان كان قد تزوجني أنا ام تزوجها هي . لكن أوفي هدها :
— ان اثرت هذه القصة من جديد فسأذهب من هنا .

دخلت خادم وقور من أولئك اللواتي تجتمعن عندما علا صوت الشجار ، وعلى محياها آثار قلق يمتزج بالدموع كتلك التي تبدو على الاقارب المخلصين ، فعهد لها أوفي ، وقد شعر بالعزاء ، أمر باي كي تتابع الاعتناء بها . حينذاك فقط لاحظ ان الغرفة كانت خالية حين عاد بها وان طبيب الاسنان لم يكن هناك . وهكذا أرغم نفسه على الانتظار حينما من الزمن على أمل أن يكون قد ذهب الى المرحاض ، لكن حدسه كان يقول له بأن شيئا من هذا لم يحدث . ولهذا السبب بالذات ، لم يكن باستطاعته التحري مباشرة عن ذلك الرجل الذي راوه يدخل معه ، ل لانهم سيلحظون غيابه فيما لو اضطر الى الذهاب بدونه ، بل لان مجرد طرح الاسئلة سيلفت الانتباه اليه ، اذا ما حدث شيء يوما ما . اذا ما حدث شيء يوما ما ؟ فكر ببرود وهو يتساءل أي قرار يمكن لطبيب الاسنان أن يكون قد اتخذه في غيابه ، شاعرا بفيظ شديد وهو يفكر أنه كان الاس في ذلك الذي لا يمكن اعتباره ، بعد كل حساب ، سوى زيارة استطلاعية للمكان ، وكان ذلك الفيظ ينبع من أنه كان يعلم في الصميم أن نيته كانت شيئا آخر . نيته : التخداغ على نحو خاص ، ذلك أنه وبنوع من المحاكمة المنطقية الخاصة ، كان يشعر أن القاتل المأجور وحده هو من يمكنه أن يرغب في قتل رجل التقى به في أكثر الاطر عائلية والفة . فآنذاك ستكف الضحية عن أن تكون رقما بلا وجه ، عاملا من

العوامل في المعادلة الاجتماعية يطرح لايجاد الصيغة المناسبة . وطبيب الاسنان ، رغم الصدا المتجمد الذي كان على ما يبدو يحمله في عظامه بدلا من المخ لم يكن بالقاتل المحترف . لكن أين تراه كان في تلك اللحظة وما الذي كان يفعله ؟ خاصة وانه كان على أوفي نفسه أن يحدد موقعه اذا ما حدث شيء ما ؟

أخيرا ، بات الانتظار الذي طال أمده ، لا يطلق ، فغادر البيت . اجتاز الحاجز فوصل ، في نهاية الممر الخاص الطويل ، الى الطريق العام . حينذاك خرج رجل من وراء الادغال ، ما لبث أن تعرف عليه أوفي ففتح له الباب .

كانت لهجة طبيب الاسنان ساخرة .

— ماذا دار في خلدك حين علمت أنني اختفيت ؟

فرد عليه أوفي بسؤاله عما كان يفعله .

— كنت أريد أن أرى ان كان بالإمكان مفادرة البيت دون أن يلاحظ أحد ذلك .
وإذا كان الامر هكذا ، فسيكون بالإمكان العودة بالطريقة نفسها .

— وبعد ؟

فهز طبيب الاسنان رأسه وقد بدت عليه هيئة المغموم .

— كلا ، فقد تعرضت للاستجواب في الحال . فقلت أنني كنت أبغي التنزه في الوقت الذي كنتما فيه مشغولين مع الأسرة ، بعد ذلك ذهبت من جهة بيت السلم وحاولت الخروج من هناك . لكن غولا مسلحا آخر برز لي بشكل مفاجيء . وكنت قد أصبحت قريبا جدا من السور الى درجة تثير الشبهات : فاقضى الامر أن أفتح سحاب بنطالي وأبول .

— وكيف خرجت ؟

— من البوابة . اذ فكرت أنني سأقوم بعمل جيد أيضاً اذا ما استفدت من الوضع وتفحصت المكان من الجهة الاخرى للسور . فاستمر أوفي يقود السيارة صامتا .

— وكيف حال آل باتوكي ؟ سألته طبيب الاسنان ، فأجاب أوفي :

— تثير الشفقة كما هي دائماً .

— كيف ؟

— يؤسفني أنك لم تحضر ذلك المشهد العائلي الذي يدعو الى الرثاء . . . لا ، لا تضيع وقتك مع باتوكي . انه أتفه من أن تقتله .

وفي الحال قست ملامح طبيب الاسنان ثم وجه الى أوفي نظرة فيها شيء من التعالي .

— أتريد أن أقول هذا بأسلوب آخر ؟ مثلاً هؤلاء الناس يتألمون بما فيه الكفاية ، فلا تجلب المزيد من الويلات لهم . أو مثلاً ثانياً : ان غناهم وانغماسهم في اللذات لم يجلب لهم السعادة ، أذن دعهم يعذبوا ويشوهوا على هواهم أولئك الذين يقاومون . أو مثلاً ثالثاً : رغم آلاف الموتى الذين يتحمل باتوكي مسؤولية موتهم ، فانه رجل متمسك أشد التمسك بذويته

— حسن ، حسن ، هذا يكفي . أنت تجهل كل شيء عن علاقتي بهذه الاسرة .

فطرف طبيب الاسنان عينيه بشيء من الريبة .

— أوه ! فهمت ، فهمت ! أمن اجل هذا اذن جئت بي الى هذا البيت ؟ الكي أرى باتوكي ضمن أسرته وأشفق عليه ؟

لكن أوفي ظل صامتاً ، عيناه تحدقان الى الامام . فصعد طبيب الاسنان آهة مفعمة بالضجر مما مر به حتى الآن من تلك السلسلة الكاملة من الحجج المبتذلة . بعد ذلك أغمض عينيه وقد ألقى برأسه على المسند ، ثم قطعاً بقية الطريق صامتاً .

* * *

كانوا قد بدؤوا يواجهون ارتالا طويلة من العربات التي تنقل الفارين ، وكانت النظرات الخاوية التي غاب عنها كل شعور ، تملأ تلك الشاحنات التي اكتظت لدرجة لا تصدق وهي تجري مهتزة بعشرات الحركات المتعكسة حول محاورها المختلفة . مع ذلك وكأنما ذلك بفعل معجزة ، لم تكن تلك الكتل تتصدع . كذلك كانت هناك السيارات الخاصة ، بمناظرها البالية كبلبي مستقليها ، وكان لاولئك الناس جميعا طابع مميز واحد : الابصار شاخصة مستسلمة ازاء الهجوم غير المتوقع الذي كاد يقضي عليهم .

عند الجبرصف أوفي السيارة ، مسح يديه من العرق والوسخ ثم أعلن بأنه ذاهب ليستحم . كان المكان يبدو آمنا تماما وكان بإمكان المرء أن يلمح في الجهة الاخرى الدوريات التي كانت توقف كل شاحنة من شاحنات الفارين ايقافا شكليا قبل أن تصدر اليها اشارة بالمتابعة . كان يبدو في حركات اولئك الجنود الملل القاتل وفي نظراتهم الاحتقار . من حين الى آخر ، كان أحدهم يدور ، دون استعجال ، حول العربة التي أوقفوها مشيرا بحركة متراخية الى شيء ما أثار طمعه ، ربما جهاز تلفزيون وربما آلة خياطة جديدة وكان السائق يعلم ما يعنيه ذلك . بل انه لم يكن يكلف نفسه عناء توجيه السؤال الى صاحبه ، فيحمله بأقصى سرعة ثم يقدمه للجندي . صعد أوفي النهر سيرا على القدمين وقد عزم على اجتيازه سباحة ، وذلك جزئيا ، لكي يراقب عن كثب أفعال الدوريات وحركاتها .

لكن كان لا بد أيضا من الوقفة على باب الجحيم الرسمي ، الرسمي فقط ، فالرعب كان قد طفى على القرى ، بعيدا في الجنوب ، حسبما اكتشفا اكتشافهما المشؤوم ذلك وهما في الطريق . وكان البلاء قد حل حتى في عروق اولئك الذين لم يكن لهم نصيب لا في الارض ولا في قضية قبائل كروس - ريفر لكنهم كانوا ، هم الحريصون على ألا يبقوا نهبة للنهابين ، ينقضون على الضحايا الذين كانوا يمرون . مع ذلك كان جسر لاب هو الحد الفاصل للمجزرة المنظمة ، رغم انه كان قبل عدة أيام ، فحما قاتلا للكثيرين حيث كان الجلادون ينتظرون هناك ، يأسرون ضحاياهم بكل هدوء واطمئنان الى ذلك المكان الذي كان من الواضح أنهم يحاولون الهروب منه .

تابع أوفي ، وهو غارق في أفكاره تلك ، صعود مجرى النهر ، متجها صوب رافد ، كانت حوافه ذات الرمل الابيض تبرز واضحة بين ذكرياته عن رحلة قام بها الى ذلك المكان قبل عدة سنوات . ولان وصوله كان أسرع مما توقع بدأ يراقب المنطقة بعناية شديدة ويستنشق الهواء وهو يتفحص الادغال . كان محتملا أن تكون

تلك المنطقة من النهر قد اشتركت في نقل الاجساد المتفسخة . لكن من المؤكد أكثر ، انه لم يكن بعد ذلك الجسر نهر ولم يثلوث ، ولا مستنقع يمكن أن يلقي فيه حجر دون أن يفجر جلدا منتفخا نتيجة التفسخ ، حتى الآبار لم تكن استثناء القاعدة ، ذلك أن أوباش الكارتل لم يكونوا يترددون ، وهم يرتكبون حماقاتهم ، في تدنيس حاجة الاحياء الى الماء النقي . اذ لم تكن ثمة حاجة الى الكثير من الطاقة من أجل القتل أو التشويه بل من أجل دفن الموتى . وقد ابدت الآبار والمستنقعات داخل البلاد كل استعداد لاستقبال تلك الجثث بشراهة لا تشيع . وهكذا عندما كانت الجيف تتكدس في الشوارع وتبدو النسور ابدا بكثير من أن تقوم بدورها كمزيله للقاذورات ، وأشد تخمة مما كانت تأمل ، على الاطلاق ، وهي تحلم احلامها الجوية محلقة فوق ذلك المنظر الفاحل في كل مكان تقريبا ، فقد كانت تصل الشاحنات لجمع الجثث والقائها في السدود الاحتياطية . احد القطارات التي كانت تنقل اللاجئين الى الاماكن الآمنة وصل الى الجسر فتوقف فوقه لتلقى في النهر شحنة احدي مقطوراته المأوى بالجيف . كان احدهم قد سحب المزاليج وحينذاك بدأت الاجساد تتساقط متدرجة نحو مجرى الماء الرقيق الذي كان يجري في الاسفل . بعد ذلك باشر رجال الخدمات الصحية ، وهم يلبسون زيا موحدا أسمر ويربطون المناديل فوق الاجسام السفلية من وجوههم ، باخراج الاجساد الباقية واحدا واحدا مبعدين ما بين العوارض المعدنية كي يدفعوا في الفراغ بالاجساد التي ظلت محصورة هناك . كانت اوجه الناجين الخاوية من كل اثر للالم تتدافع نحو النوافذ كي تتبع حركة تلك البهلوانات الكاريكاتورية التي تتحرك في الفضاء ، وتستمع الى صوت الارتطام البعيد الصادر عن اجسام تنط من منحدر الى منحدر في الوادي الذي لا قرار له . كانت جثة أحد الاطفال قد رسمت قوسا دائريا فوق القنطرة الحديدية قبل أن تسقط شاقوليا مثل بطة برية سمينة ، وكانت اصوات انتشار الماء ، تلك الاصوات البعيدة التي لا تكاد تميز ، قد ضعفت كثيرا عندما سدت الاجسام مجرى الماء . بعد ذلك ، اغلق باب المقطورة ودفعت المزاليج محدثة جلبه شديدة ، ثم عاود القطار المسير . . . كان زاشي، الذي هرب على متن ذلك القطار ذات يوم ، قد عاد براسه الى الورا عندما اندفع خلال الجثث الاولى مكتفيا بملاحظة وجوه الناس الاكثر خشونة اولئك الذين كانوا ينظرون . لقد احس أن لدى الاكثرية منهم نوعا من التصميم ، نوعا من الاصرار على تثبيت المشهد بالحديد والنار في اذهانهم ، والى الابد ، كي يستطيعوا استخراجها منها عندما تحين الساعة . . .

تفحص اوفي سطح النهر الصغير والمنطقة المحيطة بملتقى النهرين ، فلم ير دليلا على مثل ذلك الدنس . كانت مصاطب الرمل تتألق نظيفة لا شائبة فيها ، حتى انه كان باستطاعة المرء أن يرى عرائس المانيوك المألوفة وقد وضعت تحت الشمس كي

تجف كانت مستعمرات المناطق المجاورة تتألف بمعظمها من الاجانب ، وكان كل شيء قد أصبح الآن خاويا . فخطرت ببال اوفي عبارات آهيم : الارض هي التي تغذينا ، والانهار هي التي تروينا ، فاذا احتقرناها سنعود اليها عند الحاجة وسنرى انها ترفضنا . الغذاء مقدس يا اوفي ...

خلع ثيابه ثم اجتاز آخر متر من الاعشاب العالية فتعثر بشبكة للاسماك واجفل من البلاشين التي طارت ببطء ، بأجنحتها المتحيرة . فقام بحركة مفاجئة عله يقبض على اقربها وهو يطير فوق راسه لكن دون أن يصدق بالحقيقة انه سيتوصل الى ذلك . ابتعد البلشون بخفة وتحت الخفقات المتناسقة للخيوط غير المرئية ، خيل لاوفي أن اصابعه الممدودة أمسكت بالطائر وأن قوادمه مرت تحت ابطيه ثم رفعت جسده المرتعش فوق الماء ، حاملة اياه تحت قبة من مئات الاجنحة البيضاء المهاجرة استجابة لنداء الاراضي البعيدة الابدي ، تلك الاراضي الوادعة ، الهادئة ، المطهرة . وبكل لطف ، وضعت هناك ، في بحيرة هادئة ، حيث الموج من حوله يفسل جذعه . غاص تحت الماء البارد ثم ظهر من جديد تاركا الماء يحمله نحو ملتقى النهرين حيث رأى البلاشين تقف على الضفة الاخرى . طارت من جديد فأغمض عينيه تاركا نفسه تعيش تحولا جديدا صار به حيوانا مجترا ، حيوانا صبورا رائعا تلتقط البلاشين من ورائه الحب بحركات رشيقة معتنى بها . بكسل بالغ راح يتأملها وهي تقف على جلده ، ثم شرع بكل رضى وارتياح يحرك ذنبه فيما كانت هي تنظفه بمناقيرها من قراد يمتص دمه . كان الماء يمنع عن اذنيه كل تنافر في الاصوات وعن منخريه كل تلوث ، فلا تنتقل اليها الا انغام الفلال والانتاشات الهادئة ، سلام التحلل وهضم الغذاء ، سلام الرشيمات والتجدد ، والبلاشين وهي تتغذى على جلده دونما خوف .

كانت الشمس تلمع برتقالية عبر اجفانه ، وكان قصب الضفاف يتراقص امام عينيه وعلى طول المجرى ، قسبا بين يدي طبيب مشعوذ غريب الاطوار يفمقمم بالتعاونيد فوق طفلة يتلوى جسمها الما . ما اعرب ذلك الصنف من المشعوذين !! لكنهم مروا بقدر السحرة مذ كانوا في ارحام امهاتهم أو عاشوا توترات تظهر عبر التجربة ، عبر بحث بطيء مؤلم عرضوا فيه اجسادهم للعذاب ، بل اخضعوا انفسهم لاعباء قاتلة جعلت شعرهم يبيض في ليلة واحدة ، دون أن يقتلهم رغم كل شيء . الايدي التي تمتد وهي تنثر موجات لسقاء ، كما ينثر الرجال الصغار في مسيراتهم المظفرة المزعومة ، قطع الذهب . واذا ما ظلوا مفقودين عندما يكون الناس بحاجة اليهم ، حينذاك لا بد من أن تنجيهم الاحداث ، والضرورات الفردية الرهيبة . تلك الاصابع الخدرة ذات الحساسية كحساسية العشب حساسية الماشية والبلاشين ، اصابع السلام النهائي ، ما تراها تستطيع فعله بالحقيقة تجاه البتون المحظوظة

لتلك الانسانية التي تدع وبشكل دوري ، قبحها ومرارتها يرشحان الى مياه الارض والحياة ؟ اهو آهيم ؟ اهو الطيب الشعبي المنيع على ذلك الشر النفاذ ؟

هز راسه دلالة على النفي ، ولكي يخلصه من الماء ، استدار نحو مصطبة الرمل الاساسية التي اصطدم بها لتوه وشرع يصعد النهر . كان الماء صافيا وكان يرى قاع النهر . كلا ، يبدو أن الموتى لم يمروا من هنا ، لم يستريحوا قط ، اذ كانت الرمال البلورية المزروعة بالاصداف المكسرة والحصى تبدو وكأنها تقدم قبسا من امل ، شيئا من تبرير متعاضم . صعد ثانية الى حافة النهر فوقعت عيناه على شاحنة اخرى قادمة من كروس - ريفر ، يراها المرء فيخيل اليه انها كوخ قذر انتزع من التراب حتى آخر خشبة منه وربط على هيكل عربية . انقاض حطام . وكان لحاف مدرج يتجاوز فراشا كالح اللون يتدلى جانبا وكان ذلك بغية صد الطلقات غير المتوقعة ، كما كانت هناك مبولة تتأرجح ، ودراجة بدولاب واحد ، وسلال توازنت على اشياء تكدس بعضها فوق البعض الآخر والركام المألوف من اوجه تبرز هنا وهناك . وكان الجسر يفوص في هاوية النفي والعدم .

* * *

صبيحة الاحد وصلا الى كونتوا . والاحد يوم عطلة . فبدت المدينة وكأنها تستحم في هدوء هدنة غير مكتوبة ، فيما كانت سلسلة من أجراس الكنائس تقرع فوق اسطحة المدينة معززة السلام الظاهر . سارا صامتتين يبحثان عن حي الاجانب .

بعد عشر دقائق ، ربما كانا سيصبحان من عداد ضحايا الحي . فهدوء الصباح كان يولد شعورا خادعا بالامان وكان أحد حمالي المحطة قد اخبرهم أن عصابات النهابين لم تعد تتنقل علنا في وضع النهار ، بل ان نشاطاتهم كانت تقتصر على عمليات اغتيال ليلية سرية وحرائق غامضة وأعمال نهب محددة . سارا في الاتجاه الذي دلهما عليه الرجل وتملصا مرتين من الوقوع في اشتباك كبير ثم صعدا رابية في الجوار ليلقيا نظرة اجمالية علي حي الاجانب . وفي الوقت الذي كانوا يفتشون فيه لاكتشاف مخطط شبكة الشوارع البعيدة هناك داخل الفيتو ، لفت فجأة انتباه زاشي ثم انتباه اوفي جري غير متوقع . كانت الابنية تبدو من مرقبهما منفصلة انفصالا واضحا . كذلك كانت الشوارع ، رغم انها كانت تبدو من مكانهما المرتفع أضيق مما هي عليه . وكان عدد من المشاة يسرون بصورة عادية بين البيوت .

في البداية ، كان بإمكان المرء ان يعتقد أن ذلك الصباح كصباح اي يوم من ايام الاحاد الاخرى المألوفة في حي اجنبي يسكنه على نحو خاص «وثنيون» ومسيحيون، لم يكن اي منهم من سكان كروس - ريفر الاصليين . وكان يعزز الهدوء ، لا يكدره ، همهمات آلات الارغن وأصوات متأنية للمؤمنين الذين أشبعهم افطارهم الرباني ، وبسهولة بالغة استدلا على الكنيسة التي كان يشرف عليها ، كما هي العادة دائما ، صليب كبير .

— انهم يسبحون بحمد الله الآن لانهم ما يزالون على قيد الحياة ، كما يتضرعون اليه وله يحميهم في المستقبل .

قال زاشي مخمنا ، فأضاف أوفي :

— ولا يخلو الامر من بعض اللعنات على المعتدين ، وهذا لا يدهشني ، فهناك بعض المذاهب لا تؤمن بالمغفرة .

في تلك اللحظة قطب أوفي حاجبيه وهو يلاحظ بداية صياح غير اعتيادي في الشوارع . فمن الظلال ، هنا وهناك ، ومن الزاويا بل ومن خلف بعض الاشجار كانت تبرز اطياف لا تكاد تلاحظ ، اطياف تنتقل كالأشباح سريعة منسقة الحركات صامتة وهي تلبس الزي التنكري المألوف : قمصانا واسعة بيضاء مغبرة . وكان من الواضح أنهم ليسوا من المؤمنين الاوفياء ليوم الاحد .

مع ذلك كانت الحركات المعاكسة ، أو المتممة ، أكثر شؤما ، وكانت هي أيضا قد بدأت . اذ كان العدد القليل من رجال الشرطة الموزعين حول الغيتو ينسحبون شيئا فشيئا خارج الاسوار ثم لم يبق منهم أحد بعد حين . حينذاك تحولت حركة الاطياف ذوي اللباس الابيض المغير الى انقضاضة هجوم . بل لم يعودوا يحاولون اخفاء اسلحتهم من سواطير واقواس وسهام وخناجر ، اضافة الى عدد من الصفائح التي لم يكن المشاهدان قد أدركا بعد كيفية استخدامها . بعد حين من الزمن بدأت تلك الاطياف تحيط بسور الكنيسة . في النهاية ، وكأنما كان ذلك منسقا كل التنسيق ، انقضت فصيلة على الكنيسة ذاتها . جرى ذلك العمل بدقة تثير الهلع . اذ كان بإمكان المرء أن يميز فيه البداية والوسط والنهاية . ولقد بدأ ذلك على نحو يشبه لعبة من الالعاب ، بكل ما في اللعب من عدو سريع ومراوغات بين البيوت والازقة قبل أن يصل الامر الى حالة من الانقضاض المنسق : اذ ذاك لم يعد الامر لعبة استعمالية ، بل اندفعت مجموعة المصلين داخل السور ثم اتجهت نحو الابواب والنوافذ فأغلقتها . وفجأة استحال الترتيل والتسبيح الى صراخ خمد هو الآخر لتحل محله ضربات مطارق على مسامير أخرجت من ثياب المؤمنين غير المرغوب فيهم . كانت كل حركة ، حتى في ادق تفاصيلها ، تبدو وكأنها جزء من رقصة ايقاعية . فقد نزعت الواح من خشب ثم وضعت بشكل عرضاني على النوافذ التي اغلقت فجأة . وهناك ثبتتها ايد ، ثم بدأت ايد أخرى معينة سلفا عملية التسمير . تلك الحركة نفذت بمهارة فائقة . كما أنهيت بسرعة الى درجة يخيل للمشاهد أن تلك المجموعة لم تكن تقوم بتجربتها الاولى ، ذلك أن العشرين أو الثلاثين من الابواب والنوافذ التي كانت قبل لحظة واحدة مفتوحة على مصاريعها أصبحت في تلك اللحظة مغلقة باحكام على المؤمنين .

— الشرطة ، غمغم أوفي بنبرة ملحمة ، استقل السيارة يا زاشي واستدع الشرطة ، هيا ، أسرع .

فهو زاشي رأسه بهيئة المشكك ، لكن أوفي أجبره على استلام المقود .
- رايت بصينيك رجال الشرطة يذهبون ، أصر زاشي ، سوف نضيع وقتنا .
فوق ذلك إنه يوم الاحد ، وأنت تعرفهم !
- لا تذهب الى مفوضية الشرطة . اذهب الى دائرة الشرطة الوطنية . اذهب
مباشرة الى القيادة العامة ، اطلب بالحاح مقابلة الضابط الاعلى رتبة ، هيا أسرع
يا عزيزي !!

لا شيء مما سمعاه حتى ذلك الحين كان يدل على أن الشرطة متواطئة . كان
الزري الازرق الخفيف الذي يلبسه الدرك المحليون قد تلتطخ بالدماء الى درجة بدا
اشبه بوشاح أحمر معقود فوق سراويلهم البشعة . أما الجنود فمن الافضل عدم
التحدث عنهم . بدأ الامل يساوره وهو ينتظر . في تلك اللحظة خطر بباله طبيب
الاسنان وبنديته ذات المنظار ، كما حلم بحلولة المحكمة الدقيقة . ربما كان يكفي
قتل واحد أو اثنين من مكانه هناك ، ليتخلى الآخرون عن الهجوم ويولوا الادبار .
أحدى النوافذ حطمت من الداخل تحطماً عنيفاً الى درجة بلغه صوت التحطيم الى
أعلى الرابية واضعاً نهاية لاحلامه المجنحة . تطلع فرأى مقعداً يتحرك ، مقعداً
استخدم كآلة للهدم ففتح فتحة غير منتظمة في الواح النافذة دون أن ينجح مع ذلك
في فتحها . لم يكن طرف المقعد يصلح لشيء الا لسد الثقب الذي أحدثه . إذ لم
يكن باستطاعة أحد المرور عبره ، لا لانه كان أقل أهمية ، بل لان من يمر عبره يقتل
بسهولة . وبغية التأكد من أن المؤمنين الواقعين في الفخ يدركون ذلك جيداً أرسل
أقرب المهاجمين سهماً الى الفتحة ، فانقرض في الخشب ، نافذاً حتى منتصفه ،
على الأقل ، داخل الكنيسة . حينذاك فقط لاحظ أوفي أنه خلال اللحظات القصيرة
التي تحدث فيها مع زاشي ، كانت قد نصبت سلالم تصل حتى السطح .

بعد ذلك ، جرى العمل بدقة مذهلة ، ومن بعيد ، غدا ذلك لوحة جدارية
للموت لا يضاهاها في الشؤم سوى جولة مشعوذ مخادع . لقد أثبت نظام البدائل
نجاحته التامة : فالصفائح التي كان الغموض يكتنفها راحت تنتقل من يد الى يد
عبر ثلاثة أو أربعة من الرجال المنبطحين على السطح باثروا على الفور بصب ما تحتويه
على السطح كله ، وحين اكتشفوا شقوقاً تفصل السقف عن الجدران راحوا يسكبون
السائل في تلك الشقوق ، فيما كان فريق آخر يقوم بطقوس مماثلة حول النوافذ
راشاً السطوح الخشبية كلها ، بعد ذلك ، جرت عملية ثالثة ، قام بها فريق آخر ،
اذ راح يكسد الحطب وبقايا أشياء من كل صنف ولون قبالة المدخلين الرئيسيين ،
فلم يظل لدى أوفي أي شك بطبيعة السائل الذي سكب على البناء .

لم يلبث طقس اراقة الخمرة القاتلة(١) أن انتهى ، فانسحب القساوسة وانتظروا .

(١) أحد الطقوس الوثنية التي تجري تكريماً للآلهة .

الى أن نزل الثلاثي عن السطح بعد أن سكبوا آخر قطرة في صفائحهم على السلام التي تركوها في مكانها . لم ينتبه أوفي الى اللحظة التي أشعلت فيها النار ، لكنه سرعان ما رأى نار الجحيم وهي تندلع من المكان الذي كانت الكنيسة تقوم فيه ودائرة المشاهدين تتقلص وهم يتقهقرون كلما غدت الحرارة أشد عنفا ، وبدأ يحجب المشهد دخان أسود كثيف .

كانت صرخات الرعب تبدو وكأنها خارجة من اعماق الارض ، ترافقها فرقعات شديدة اشبه بفرقعات صفائح حديدية بالغة الحموم ، سقط عليها فجأة وابل من مطر فأخمد نارها في الحال . كانت أبخرة البنزين تتصاعد على شكل ضباب وهمي ، عاليا فوق السطح . في تلك اللحظة برزت حداتان في السماء الخالية وبدأتا تدوران فوق الفرن البشري . في الحال خطرت بذهن أوفي ، وعلى نحو يثير الضحك ، القصة الفولكلورية التي كانت تفسر مجيء تلك الحداتين كي تحلقا فوق النار . احدى الصفائح الحديدية مزقت اربطتها وبدأت تهتز اهتزازا غريبا في اللهب . وكما لو أن الناس المحاصرين رأوها واعتبروا ذلك اشارة معينة ، فقد انفتح فجأة ما يربو على ست نوافذ كانت هي الاخرى قد تحطمت تحت ضربات المقاعد . بعد ذلك حصل انقضااض عام على النوافذ والابواب الاخرى ، فاختلطت ضجة ضربات المطارق بزمجرة الحريق المستمرة .

كانت تلك هي اللحظة التي انتظرها المهاجمون . اذ قفز أول رجل الى الخارج ، فانطلق سهم باتجاه اللهب شله عن الحركة فترة من الزمن ، ترنح الشبح خلالها ، بعدئذ استعاد توازنه ثم أطلق ساقيه للريح باتجاه أمان موهوم . لحقه بعد ذلك رجال آخرون ، بينما انطلق موكب متواصل من السهام التي كانت تنفرز في اهدافها محدثة أصواتا لا رنين فيها ، منتزعة اللعنات من الافواه . قام المصاب الاخير بنصف دورة وهو يسحب السهم المنعزز في عنقه ، ثم حاول ، وقد جن من الألم ، أن يتسلق الجحيم ثانية ، فأصابه سهم آخر في ظهره . ارتجف ثم سقط بصورة عرضانية من متكا النافذة وبقي معلقا هناك فيما كان اللهب يمتد الى ثيابه قبل أن يلتهمه . حينذاك تجمد كل شيء في الكنيسة لحظة من الزمن . فالنوافذ التي لم تكن قد تحطمت ظلت لم يمسهما أحد ، وحدها النار كانت قد بدأت تتصدى لها . فتساءل أوفي ان كان المؤمنون راكعين بانتظار الموت ام يصلون من أجل خلاصهم .

بعد ذلك كسر البابان معا . وبعد لحظة اخرى كسرت بقية النوافذ ايضا ثم بدأت عملية خروج واسعة . في المقدمة ، وامام البوابة الكبرى ، اندفع رجل عملاق وهو يلوح بمقعد يقفي نفسه به ويقا تل ، ثم تبعه الرجال الآخرون خارجين من البابين معا منتشرين على شكل مروحة لكن ما من أحد منهم ذهب بعيدا . مسافة كبيرة كانت تفصل بينهم وبين المهاجمين وقد قتلوا حتى آخر رجل منهم ، بسهام من حديد لم تكن تنضب على ما يبدو . لم يكن الرماة في عجلة من امرهم بل كانوا ينتقون

ضحايهم لحظة اندفاعها الى الامام ، وغالبا ما كانت تسقط عند اقدمهم عندما تنفرز النبال أخيرا في الاماكن الحيوية من أجسامهم . وكان الدم يسيل في ساحة الكنيسة المزفتة ، ذلك الدم الذي كان ينبجس على شكل ينابيع مشؤومة ، الواحد تلو الآخر .

بعد القتل كان يأتي التشويه وفي احيان أخرى كان يسبقه . أخيرا ، خرجت النساء معا بخطا بطيئة وهن يمسكن بأيدي أطفالهن ، توقفن على بعد أمتار عدة من المعبد المشتعل ثم انتظرن . فلفت نظر أوفي امرأة تقدمت وكأنها ترس أو فدية عن الاخريات ، مخلوقة ضعيفة بدت وكأنها على وشك السقوط تترنج تحت حبلها الثقيل ، وبطنها البارز يكاد يوقعها أرضا لشدة ثقله . كتم أوفي أنفاسه ، وهو عاجز عن ابعاد نظره عن تلك المواجهة ، حتى اللحظة التي انحنى فيها رأس تلك المرأة فجأة كي تنظر وقد طغت عليها الدهشة الى الزهرة المشوهة الخلقة التي كانت تنبثق من رحمها . حينذاك انهار أوفي مديرا ظهره للصرخات التي كانت ترتفع من المذبح الذي احمر بدم الاضاحي الربانية ، ضاعطا ركبتيه على رأسه ، متشنج اليدين على عنقه محاولا اسكات الاصوات التي كانت تصب اللعنات على عجزه .

بدا له وكأنه انتظر ساعات قبل أن يسمع الصافرات . بعد ذلك بلحظات جاء زاشي يبحث عنه ، فتركه يقوده الى مكان المأساة حيث رأى رجلا داخل سور الكنيسة ، بالزري الموحد ينتشرون هنا وهناك وعليهم هيئة المخبولين . كان المهاجمون قد اختفوا منذ زمن طويل ، ولم تعد الكنيسة الا كومة من رماد يتصاعد منها الدخان وسط وشوشات وأوامر تصدر بصوت خفيض . ومع أن الكل كانت قد قسيت قلوبهم وهم يواجهون ذلك النوع من المأساة ، الا أنهم كانوا يديرون ظهورهم الى ذلك المكان الذي كان يتمدد فيه جسم تلك المخلوقة . بل ان أوفي نفسه ادار ظهره أيضا بسرعة بالغة حين وقع بصره على تلك الفجوة البيضوية الرطبة التي كانت قبل لحظات فقط رحم ام .

* * *

لم يكن وجه الرقيب الاول الجالس الى المكتب يتكشف عن ادنى اهتمام ، أو ادنى قلق .

— لك الحق في أن تعتقد يا صديقي ، أنه يلزمنا أكثر من ذلك لكي نعمل .

فكبح أوفي غضبه الذي كان يتصاعد .

— واذا قلت لك ان أحدهم رآها تقاد بالقوة الى الداخل .

فلم تتغير تعابير وجهه ، ولم يتوقف عن الكتابة في السجل الكبير الذي كان يستحوذ على اهتمامه منذ أن وصلا . بل لم يكن أوفي متأكدا من انه رفع عينيه مرة واحدة مذ دخلا الى المفوضية .

– تقولون لي ان احدهم رآها ... لكم الحق في ان تعتقدوا ... لنا كل الحق في ان نعتقد ... تقولون لي ان احدهم رآها ... اين هذا الاحد؟

فنبه زاشي كي لا يكشف انه هو نفسه شاهد الخطف .

– لم يستطع المجيء معنا . لقد هرب الى ايلوزا ، ولا أستطيع ان احقد عليه لرفضه المجيء الى هنا .

– فهمت ، اذن لا يوجد شاهد مباشر على الدليل الذي يمكننا الاعتماد عليه للقيام بعمل . فلفت اوفي انتباهه :

– اعلم ذلك ، سلم الآخر بنشافة وهو يتابع خربشته ، اذ ذكراخ اوفي يتساءل في سره عما ينبغي عليه ان يقوله . كانت مروحة السقف تدور ، لكن احتكاك الريشة المغيظ كان يطفى على ضجيجها .

أخيرا ، بدأ اوفي هجوما جديدا .

– اعرف البيت ، فأجاب الرقيب الاول :

– سبق ان قلت ذلك .

– لقد وصفه لي ، بل رسم لي مخططا ، وباستطاعتي ان اقودك اليه .

– لست اطرش أيها السيد .

سعل زاشي سعالا خفيفا ، ثم اخذ اوفي جانبا وقام بحركته الكلاسيكية المعهودة ، فرك ابهامه بأصابع اليد الاخرى قائلا :

– اعتقد ان بإمكان هذا ان يسهل الامور؟

فهم اوفي مغزى الحركة ، فحك راسه ثم ادخل يده في جيبه وأخرج خمسين ليرات ، سائلا زاشي بعينيه ، فاقترح هذا مضاعفة المبلغ . وهكذا ، عاد اوفي نحو الطاولة والليرات العشر في راحة كفه ، ثم رفع طرف السجل ودس الرزمة تحتها .

توقف الرقيب الاول عن الكتابة مصعدا زفرة طويلة وكأنه يريد التدليل على ضجره دافعا السجل الكبير جانبا . بعد ذاك اخرج دفتر اصف من تحت مكتبه ثم وجد طريقة لرفع السجل ، وهو يتظاهر بأنه يفتش عن ريشته متذمرا تدمر نافد الصبر . في الوقت نفسه القى نظرة سريعة على حزمة الاوراق متفحصا سماكتها ولونها دون ان يبدو على وجهه تعبير رضى او خيبة أمل . حينذاك التقط الريشة التي لم تتحرك من مكانها قط ، ودون ان يرفع نظره ، بدأ يسأل ويدهمرفوعة فوق الدفتر :

– ما اسمك؟

فأعطاه اوفي الاسم .

– ما تفاصيل شكواك؟

لكنه توقف عندما قرا نصف التصريح واطرق مفكرا لحظات عدة .

- تطلبون تحقيقا حول شخص اختفى أم تقدمون شكوى بخصوص اختطاف؟
ما الذي تريدونه على وجه الدقة؟ فأجاب أوفي :
- اختيار الباب الذي ستدرج الموضوع فيه أمر يتوقف عليك أنت . أما أنا
فكل ما أريده هو أن تساعدني في إيجاد هذه المرأة . وإذا جئت معي يمكننا الذهاب
الى هناك فوراً

فقاطعه الآخر :

- سوف أدرجه في باب التحقيق حول شخص مفقود .
ثم أنهى تقريره بتوقيع رمزي كبير الحجم ونظر اليهما لأول مرة ، لكنه لم ينظر
في أعينهما ، بل نظر نظرة غير محددة مرت من فوق كتف أوفي ورأس زاشي .
- من المؤسف أن الشاهد المباشر غير موجود .
فأراد أوفي أن يحتج ، لكن الرقيب كرر مرة أخرى ببرود :
- من المؤسف . لكن هل أنت متأكد أنه ليس بالإمكان الوصول اليه ؟
اقترح أوفي الاتصال به هاتفياً ، إن كان الأمر يحتاج الى معلومات أخرى ،
ثم قال :

- ليس المهم أننا نعرف البيت وأن باستطاعتي . . . ؟
لكن الرقيب الأول قال : من المؤسف حقاً أننا نجهل هوية الشاهد ، فهناك
الكثير من الناس الذين اختفوا في هذه المدينة .

حاول أوفي عبثاً متابعة منطق تأكيداتهِ ثم بدأ يتساءل إن كان ذلك كله لا يعني
أن عليه أن يزيد البخشيش . فحركته تلك ، وهي الحركة الأولى من نوعها ، سببت
له اشمئزاً . وهكذا ، على نحو مفاجيء اتخذ قراراً عجيباً وهو استعادة ورقات النقد
التي كانت ما تزال شبه مخبأة تحت السجل ، إذ كان جشع الرقيب الأول للمال لم
يشبع بعد . لكن السؤال التالي أخذه على حين غرة .

فقد سأل الرقيب الأول وهو يقبض على ريشته بحركة رشيقة :

- اسم وعنوان الشاهد من فضلك .
فنظر إليه أوفي وقد بدا عليه الدهول .
- اسمه وعنوانه ؟ أنه يسكن على بعد أكثر من ثمانمائة كيلو متر من هنا . فماذا
يفيدك أن تعرف ذلك ؟

- باستطاعتنا الاتصال به ، أجل باستطاعتنا استخدام جهازنا اللاسلكي والطلب
من رجالنا هناك الاتصال به للحصول منه على المعلومات الضرورية
- لدي كافة المعلومات الضرورية هنا ، وارتفع صوت أوفي حتى بات أشبه
بالصراخ : كافة المعلومات . أعرف البيت وأعرف تاريخ وساعة الخطف . بل إن معي
رقم العربة العسكرية التي نقلتها الى البيت .

- اذن ، كانت عربية عسكرية ؟ فاكد زاشي :
- نعم ، سيارة لاندروفر .

هنا تحول نظر الرقيب الاول ثم استقر على نقطة ترتفع ثلاثين سنتيمترا فوق حاجب زاشي .

- سيارة لاندروفر عسكرية ، فقال أوفي بنبرة فظة :

- أنت تعرف ذلك الآن ، فكرر الرقيب :

- والناس الذين قاموا بالخطف ، هل كانوا حسب المعلومات التي سجلتها ، عسكريين ؟

هنا ، تدخل زاشي .

- يا رقيب اول ، لديك الآن كل المعلومات ، نطلب منك فقط ان تساعدنا . واذا كنت لا تستطيع ذلك ، دلنا على الاقل على شخص يستطيعه . فكرر الرقيب الاول :

- الذين قاموا بالخطف هم ، حسب رايتك ، عسكريون ؟

- هيا بنا ، يا زاشي .

فوضع الرقيب الاول ريشته وبدأ بنبرة مفعمة بالازدراء .

- أستطيع ان تقول لي ، لماذا لم تتوجه الى الجيش بدلا من ان تأتي لرؤية الشرطة ؟

- أيها الرقيب الاول ، أنت تعلم اكثر منا ما يجري في هذه المنطقة ، فقل لنا ، الى اي ضابط في الجيش يجب ان نتوجه ، وفي أية كئنة يمكن ان نجده ؟

فأصر الرقيب :

- كان عليكما ان تتوجها الى الجيش .

كان زاشي على اهبة الانصراف ، لكن الرقيب تابع :

- أتيتم الى هنا للتقدم بشكوى تتعلق بعملية خطف واغتصاب وانتما تشيران الى بيت هو الآن ملك لمواطن محترم في المدينة ، وبودكما ان ابعث شرطة تبأغت المكان ، وان أشرع بالتفتيش مستندا في ذلك على أقوال شاهد لم يحضر للدلاء بأقواله . . ؟

كان أوفي قد بلغ الباب عندما تذكر فجأة ، فتقدم نحو السجل في اللحظة التي كان الرقيب الاول يرفع طرفه فيها ، لكنه لم يجد شيئا هناك . حينذاك مد زاشي يده والاوراق النقدية فيها ، ثم اعلن :
- لقد أخذتها ، يا معلم .

ثم غادرا المفوضية ، متظاهرين بأنهما لا يسمعان صرخات الرقيب الذي لحق بهما محاولا إيقافهما .

- كنت اعلم جيدا اننا نحاول الامساك بالقمر ، قال زاشي وقد صار داخل السيارة ، فالجميع ملطخة ايديهم بالدماء . فقال أوفي برزائة شديد :
- علينا منذ اللحظة أن ننتبه .

- آ ، أنت تقول لي هذا . الطريقة الوحيدة المعقولة للنتبه يا صديقي هي أن نترك هذه المدينة وبأسرع وقت ممكن .

- كان يود أن يعلم ، من هو شاهد العيان ، ولم يكن عنده أية نية لمساعدتنا ، بل كان يود أن يعرف اسمه والمكان الذي يمكن أن يعثر عليه فيه .

فهز زاشي رأسه وقد بدت عليه علامات اليأس .

- كما قال الرقيب ، بيت مواطن محترم جدا . ففي كروس - ريفر الناس المحترمون جدا هم اصحاب المناصب العالية والسلطة والنفوذ أوفي !
- ماذا هناك ؟

رد أوفي وهو ينظر الى زاشي الذي كان يرتجف من شدة الغيظ - الغيظ الذي كان سببه الخوف والغبطة الناجمان عن الاكتشاف .

- اسمع يا أوفي . أنت لم تلاحظ ما قاله . لم تلاحظ شيئا مهما جدا . فقد قال الرقيب الاول في المكتب : بيت هو الآن ملك . . . ! لكنني قلت لك انه كان يخص فيما مضى رجل أعمال ذا أهمية بالغة ، واحدا من عندنا . وقلت لك ما حصل له .
- الى أين تريد التوصل ؟

الجنود هم الذين قتلوه وقتلوا أسرته ، والرقيب الاول لم يكن يلمح الى ضابطه ، حتى وان كان عالي الرتبة ، عندما كان يتحدث عن المواطن المحترم جدا . فهؤلاء يقومون بالاعمال القذرة ولا شيء أكثر ، والناس لا يدعونهم مواطنين محترمين . هذا يعني أنهم حين ألقوا تلك الاسرة الى الخارج فانهم فعلوا ذلك لان المواطن المحترم المعني كان يريد الفيلا لنفسه . واذا كانوا قد اقتادوا إيرييز بعد ذلك بوقت قصير

أوفي ، هل تدرك ما الذي أريد قوله ؟

فنظر أوفي نظرة ثابتة ، قاسية .

- لا يوجد إلا رجل واحد باستطاعته استخدام الجيش بهذه الطريقة . ولا يوجد الا كرش واحد يبلغ من الضخامة الحد الذي يمكنه ابتلاع كل ما يخص الاجانب في كروس - ريفر . انه زاكي آموري .

- اعلم ، وسيكون هناك شيء ما بالنسبة الى جميع المؤمنين . لكن ، فقط ، بعد أن يكون قد اختار .

فلوى زاشي يديه من شدة الضيق .

- لنغادر ، يا أوفي .

لكن أوفي هز رأسه ، مفتشا عن طريقة تجعله على بصيرة من الامر .
- أجل ، ربما ، فنحن بلا شك غير مستعدين لمواجهة . لكن علينا في البداية ان نتأكد .

امام حاجز القاعدة الجوية جعلوهما ينتظران مدة تزيد على نصف ساعة . بعد ذلك اقتادوهما الى أحد المكاتب ، وقد سددا رشيشين الى ظهريهما . كانا خلال المائة الاخيرة من الامتار التي قطعوها بالسيارة قد أحسا بشعريهما ينتصب على رأسيهما ، عندما برزت طيوف ترتدي الزي العسكري ثم سددا رشيشاتها اليهما من وراء الاشجار مجبرة اياهما على التوقف فجأة ، أمره اياهما باطفاء الانوار . أخيرا أرغما على النزول من السيارة والخضوع لتفتيش منهجي وقطع الامتار الاخيرة التي تفصلهما عن البوابة سيرا على الاقدام ، يخفرهما شخصان مسلحان ، وهما يشعران داخل نخاعهما الشوكي ، بوجود غير مريح لاسلحة مسددة عليهما . امام البوابة دام الانتظار عشرين دقيقة ، بدت أطول من يوم كامل .

- الواقع كلهم ، عادة ، لطفاء هنا ، قال أوفي لراشي وفي نيته ان يواسيه ، إذ لو كان هذا المكان ثكنة عادية للجيش لم نتمكن حتى من الوصول الى هنا . لكنهم في القوى الجوية لا يكفون عن التصرف كسادة لطفاء .
- انا لا أحب كثيرا السادة اللطفاء المسلحين .
- اعلم ، اعلم ، كان ينبغي ان نواجه مشاكل هنا .

اخيرا وصلت مكالمة هاتفية فأدخلوهما .

وفي المكتب الذي ادخلا اليه ، وجدا نفسيهما في مواجهة شخص مجهول طلب اليهما الجلوس باشارة مهذبة .
- انا الملازم سايب .

فشرح أوفي يشرح ما كان يعتقد انه سوء تفاهم ، لكن الآخر ابتسم له ابتسامة أسى .

- اعلم انكما طلبتما رؤية النقيب ماغاري . لكنني آسف ، فقد مات النقيب ...
قتل في المطار قبل ثلاثة ايام حين كان يحاول منع جماعة من الجنود من قتل مدنيين .
واذا كنت قد فهمت جيدا ما قاله لي الحارس ، فأنتما من اصدقائه ...
- أجل ...

- انا آسف لكنني أسأل ان كان باستطاعتي ان افعل شيئا ، فقد كان النقيب ماغاري زميلا وصديقا في آن معا ، واذا كان باستطاعتي ان اقدم اية خدمة ...

لكن أوفي لم يستوعب الخير الا بعد لأي .
- اذن ، فقد مات ، ماغاري ؟

لكن الضابط ظل صامتا . ثم أمسك بيديه عصا كانت قد وضعت على الطاولة وبدأ يدورها بين أصابعه بهدوء ، بعدئذ قال :
- رجاله أنفسهم هم الذين قتلوه . ونظرا لانه كان من كروس - ريفر ، فقد كان يأمل في أنه لن يلاقي صعوبة كبيرة في تهديئة اولئك الإوغاد . لقد طلبوا اليه ان يتقهقر لكنه رفض وعند ذلك قتلوه . فسأل أوفي :
- والمدنيون الذين كان يحاول انقاذهم ؟
- أوه ، تستطيعان تخمين ذلك بأنفسكما . فقد أيدوا حتى آخر طفل .
اذ ذاك نهض أوفي .

- نشكرك ، لكننا لن نضيع وقتك أكثر .
- اترغبان بشيء ؟ فقد قال لي الحارس أنكما أتيتما من ايلوزا بالسيارة .
- أوه الموضوع ... اننا نفتش عن امرأة . امرأة اختطفها بعض الجنود حين هاجموا ناديا كانت تقدم فيه عرضا . أنا متأكد أنك سمعت بها : انها ابنة الكاكاو ...
- أوه أجل ، انها امرأة جميلة جدا .
- نعم ؟

ثم تابع زاشي الحديث وقد أحس انه وصل أخيرا الى السلطة التي تريد مساعدتهما حقا : كنت موجودا في النادي ، كانت جوقتي هي التي تعزف في تلك الامسية وقد قاموا بهجومهم ونحن في منتصف العرض . أخذوا يطلقون النار على كل ما يرونه . بعدئذ أخذوها ، الى « ماركيت ستريت » انها فيلا كبيرة . ولا يمكن للمرء ان يخطئها . فهي بيت فريد من نوعه ...

فبدأ الضابط مندهشا .

- البيت الكبير ، ماركيت ستريت ؟
- أجل ، وقد رصدته طوال النهار لكنني لم أستطع فعل شيء ، فالشوارع لم تكن آمنة ...
- أعلم ذلك .

- هل يمكنك مساعدتنا ؟ سأل أوفي بلهجة فيها الكثير من الالاح . هل تستطيع فعل شيء ؟ أريد ان أعثر عليها . وأنا على استعداد لتقديم أي شيء مقابل ان أعرف ما حل بها فقط .

فهز الضابط الشاب رأسه .

- اذن فهي فتاة الاعلانات ، فائنة القاعدة كلها ...
- اذن ، فقد سمعت بقصة الاختطاف ؟ قاطعه أوفي على عجل .
- نعم ، فنحن نعلم كل شيء عما يرتكب من أعمال مشينة .
- أتعرف مكان وجودها ؟

- فنهض الضابط .
- لم اكن اعلم أن لهذا البيت ضلعا في الامر .
- اسمع ، سيدي النقيب ...
- ملازم ، صحح الآخر وهويبتسم ، فتابع زاشي :
- حسن ، سيدي الملازم ، أنت لا تدري الى اية درجة الامر مهم بالنسبة اليها
- وإذا كان باستطاعتك فقط أن تكلف رجالك بالمهمة لا لشيء الا لمساعدتنا في اكتشاف ...
- لكن عيني الضابط الشاب كانت تنتقل بين الرجلين ، فأحس أوفي بانقباض في قلبه
- وهو يقرأ فيهما الشفقة .
- قد يحتاج الامر الى شهر ، ان لم تقل سنين قبل أن يتعرف المرء الى كروس
- ريفر وذلك يتضمن ...

- لكنه قطع كلامه فجأة ، مستأنفا باتجاه آخر :
- هل أستطيع السؤال ... ترى هل توجهتما الى جهة أخرى قبل مجيئكما
- الى هنا ؟ هل سعيتمنا بحثا عن معلومات في مكان آخر ؟
- لقد ذهبنا الى المفوضية المركزية .

- فأطلق الضابط زفرة .
- وقد قدمتاهم على ما اظن ، كل المعلومات التي قدمتاهما لي لتوكما .
- كلا ، لم نقل كل شيء ، لم يكشف زاشي أنه هو الشاهد العيان .
- فبدأ على الضابط ، وعلى نحو واضح ، أنه ارتاح كل الراحة . بعد ذلك تناوره
- القلق من جديد .
- مع ذلك ...

- فقاطعه أوفي بنبرة كلها هدوء .
- سيدي الملازم ، لقد أتيت الى هنا كي أرى ايريز من جديد .
- أعرف ، والخدمة الوحيدة التي أستطيع أن أقدمها لكما ، صدقاني ، هي
- أن أقدم لكما خفراء يخرجونكما من كروس - ريفر دون خطر .
- ليست هذه هي المساعدة التي أبحث عنها .
- كلا ، لكن اقبلوا اقتراحي ، قبل أن يفوت الاوان .

- فنهض أوفي ثم اقترب منه سائلا دون موارد :
- من يملك هذا البيت الآن ، ملازم سايب ؟ ومن الذي ذبح مالكه ؟
- أوه ! هذا لا يفيدك في شيء . ثم ان هذا لا يعينك على ما اعتقد . فانتزع
- باتباع نصائحي .
- في هذه الحالة مستحيل ... قال ثم مد يده :

– شكرا لك على كل حال ، قال أوفي وهو يشد على يده كما فعل زاشي الشيء ذاته وقد بدا عليه الضيق ، فيما بدا عليه وكأنه يود أن يرجو الملازم عله يرسل من يخفرهما ثم يخرجهما من المدينة بالقوة . لكن الضابط كان منشغلا تماما بمرافقتهما الى الباب حيث فوض امرهما الى الحرس وعاد الى مكتبه وهو ينحني موجه اليهما تحية أخيرة سريعة .

وما إن خرجا حتى أخذ زاشي يتأوه .

– لقد ماتت يا أوفي ، أحس بذلك في عظامي الآن . انها ميتة بالتأكيد .

فنفى أوفي ذلك بحركة من رأسه .

– بل هي على قيد الحياة ، انا متأكد من ذلك .

– تبدو وكأنك لا تعرف سيليست . لا بد انها أزعجتهم الى اقصى حد ، زعران جيكو الكارتل أولئك ، أزعجتهم الى درجة اضطروا معها لتهدئتها بقتلها . اضافة الى ذلك ، كانت البنت مريضة قبل أن يحدث ذلك كله . كانت حرارتها مرتفعة جدا طيلة اليوم الذي سبق تلك الامسية . آه ! كم أتألم عندما أفكر أنه كان علي أن أرغمها على البقاء في الفندق !

– كانوا سيذهبون للبحث عنها هناك ، والآن علينا أن نجدها ، فإين نذهب ؟

– الى بيتنا . سنرحل من جديد نحو الجنوب ، يا عزيزي . فليس لدينا هنا ما نفعله .

– بل سنقوم بجولة في المدينة ، نذهب فيها الى الحانات الليلية نسمع ما يقوله الناس . لكن عند محرس البوابة ، أوقفهما الحرس .

– ايكما هو السيد أوفي ؟

فتقدم أوفي :

– الملازم يرغب بالتحدث اليك .

ثم مد له المهاتف من الكوة المربعة ، فبلغه صوت الملازم .

– انت السيد أوفي ؟

– نعم .

– هل تعرف ضواحي المدينة جيدا ؟

– جيدا تماما .

– على طريق المطار ، وعلى بعد ستة كيلو مترات تقريبا من مخرج المدينة ، ثمة طريق يؤدي الى منشأة زراعية ، أنت تعلم تلك المزارع التجريبية التي أصبحت مزارع نموذجية ؟ أعتقد أن هذه جاءتنا من لديكم ، من الجنوب ، هناك مكان يدعى آيرو .

– نعم ، أعتقد أنني اعرفه .

- حسن ، حسن ، اذا سلكتما الطريق وتابعتها عدة كيلو مترات ، فستجدان بعضاً من تلك ... من تلك ... الكنائس المسيحية المحلية . ثمة كنائس من هذا النوع في كل مكان تقريبا ، كنائس يلبغها الانسان عادة بدروب صغيرة . حسن ، في كنيسة من تلك الكنائس ثمة ناجون مختبئون وانني اقترح عليكم الذهاب للبحث هناك .
- شكرا جزيلا ، سأفعل ذلك .

- انتبها عندما تذهبان الى هناك . فهم عصبيون جدا ، كما تعلمان ، وهناك عدد غير قليل منهم مسلحون يمكنهم الدفاع عن انفسهم . وبالطبع عليكم ان تتصرفا بطريقة لا تلفت انتباه مطارديهم .

فوعد اوفي باتخاذ كافة الاحتياطات الضرورية .

- من الواضح انكما تضيعان وقتكما ، لكنني اعتقد انه لن يكون عبثا ان يقولوا لكما الى أي حد ، عقيمة مساعيكم . على كل حال هم يدركون جيدا ما يتحدثون عنه واذا كنت قد فشلت باقناعكما ، فقد يتوصلون هم الى ذلك .

اراد اوفي ان يشكره ، لكن الآخر اوقفه في الحال .

- لا ، لم يكن هناك سوى حلين . هذا الحل او ان امر رجالي باخراجكما من المدينة بالقوة فانا أشعر انني مسؤول عن امن اصدقاء ماغاري كلهم .

* * *

- لقد بللت سروالي ، عندما خرج ذلك الرجل وسأل ايكما اوفي ، قال زاشي ، بعد ذلك ساورني الامل في أن ذلك من أجل اعتقالك وارسلتك خارج المدينة .

- لقد فكر في هذا ، انا متأكد من ذلك ، لكنه غير رايه .

- اذن ما الاتجاه الذي سنتخذه الآن ؟

- نفتش عن كنيسة .

- كنيسة ؟

أوقف اوفي السيارة في قلب الطبيعة ثم نزل منها وأخذ ينظر في جميع الاتجاهات وهو يتمم « ليس هنالك ما هو أشد غموضا ... » . بعدئذ صعد الى ظهر السيارة في حين كان زاشي ، الذي ظل في الداخل ، يأمل في سره لو أنه على بعد الف كيلو متر من هناك . أخيرا نزل اوفي ثم فتح باب زاشي قائلا .

- اعتقد ان علينا أن نقطع ما تبقى من الطريق سيرا على الاقدام .

فزفر زاشي زفرة طويلة :

- قل لي فقط ، هل تعلم أين نحن ؟

- لنسر ، هيا .

خرج زاشي من السيارة مستسلما متأوها ، وقد بدا له أن ما يفعلانه حينذاك هو أسخف ما فعلاه حتى تلك اللحظة : انه التخلي عن الامان الذي توفره السيارة في مكان تفوح منه ، بكل وضوح ، رائحة الجريمة . وهكذا سار وقد أدخل رأسه بين كتفيه لتلقي الضربة الاولى التي سيكون من شأنها أن تعيدهما الى حسهما السليم .

- هل سمعت في حياتك بذاك الذي يدعوه الوينبو (١) عهد الانتحار يا معلمي ؟
- ثمة أناس في الناحية ، يا زاشي ، لكنهم من أولئك الذين اعتادوا أن يروا فارين آخرين وهم يأتون .

قام زاشي بقفزة في الهواء ثم ترنح وكاد يسقط إذ كان أوفي قد دفعه جانبا على نحو مفاجيء ، ثم أشار بأصبعه الى شيء عند أقدامهما ، طار عنه للتو سرب من الذباب الهائل الحجم .
- كدت تدوس على هذه القدارة .

عاد الذباب ذو الطنين الهائل كما غادت آلاف الحشرات الاخرى فحطت على الجيفة من جديد وحسب كل المظاهر كانت تلك بقية حيوان . لكن حين ابتعدا عاد السكون فخيم على الدرب حيث كانت الادغال تنفرج ثم تنفلق عليهما من جديد .

فجأة توقف العشب مخليا المكان لمنطقة محروقة تمتد الى مسافة ما ، فسحة واسعة من الرماد الاسود والرمادي تتطاير فيها ندف من السخام . هناك كان العالم يمتد محروقا ، جامدا ، قاحلا . وقبالة المشهد كانت تنتصب شجرة باو باب وحيدة يابسة ضامرة . إذ كان جذعها يرتفع عريضا أملس قليلا ثم يندو وكأنه عانى من تخلف في النمو ، إذ كانت الحذب والانتفاخات والالتواءات تعطيك انطباعا بأنه، أصيب بالكثير من أمراض الانسان : هزال ، خرع ، فقر دم ، سوء تغذية والعديد من امراض الفقد الدرقية . كان البطن المتضخم في وسط الجذع يدفع بسترته المجددة نحو الافق الاسود، ومن الاكتاف المشوهة المتوازنة فوق الصدر الامسح كانت تخرج جذول متلوية . وهناك حيث يتوقع الانسان أن يرى رؤوس الاغصان الدقيقة وهي تشمخ نحو السماء بحفيفها وصفيرها ، كانت تبرز السنة متشعبة مفعمة بالتجدي وهي تحمي بسمها ما لا يعلم احد من كنوز غامضة تخفيها تلك الشجرة التي يزعمون انها شجرة الحياة، رغم انه لم يكن في ذلك البروز المهزول من شيء يستدعي الحماية .

حين بلغا نهاية الفسحة القاحلة توقفا ، إذ كانت قد بهرتهما كليهما شجرة البواباب . هناك بدأ زاشي يحرك أصابعه حول رأسه مفرقا بها وكأنها تعزيمة أورقية :

- بإمكانهم تماما أن يسموا البواباب شجرة الحياة الخاصة بهم .

(١) البيض بلغة اليوروبا .

- لكنني انا لا اجد لها الا رمزا لسوء الطالع ، فقال اوفي :

- لنستمر .

- اسمع ، يا معلم ، لنجلس ولننظم عملنا كما يجب . ترى لماذا لا نعود بكل بساطة الى عالم الحضارة ، نتناول وجبة جيدة ، ثم نخرج احد السكان المتعاطفين من حجره ونعود معه الى هنا ؟ في الحقيقة ، نحن لم نجىء الى هنا بطريقة علمية .
فالح اوفي :

- الكنيسة قريبة بلا شك .

- لكن من الذي احرق العشب هنا ؟ هم ام نحن ؟ ولماذا ؟

- نحن ولا شك . اذ لا اثر لبناء محروق ، كما ترى . ومن المستحيل أن تكون عصابة القتل هي التي اكتشفت المخبأ وهي التي اضرمت النار فيه . لعل الهاريين هم الذين اضرمو النار .

- لكنني لا ارى سببا لذلك .

- السبب هو كيلا يستطيع أحد الاقتراب منهم ومهاجمتهم بشكل مفاجيء .
لهذا ، لا بد من أن تكون الكنيسة في مكان ما خلف هذه الارعاء الواسعة من الادغال . وأنا متأكد من أنهم وضعوا حراسا ، وانهم سيرونا نجتاز المنطقة المحروقة .
- اذن ، في أي اتجاه نمضي ؟

فأمسك اوفي بيده ثم جذبه نحو المكان الذي كانا مختبئين فيه . وحين وصلا شجرة البوابات توقف زاشي ثم استند الى الشجرة وخلع نعليه .
- ايزعجانك ؟

- ساعدني في تسلق هذا المخلوق الشنيع ، واذا ما استطعت ان اضع قدمي على هذا النتوء سيكون باستطاعتي الصعود حتى الاعلى ، فالغالب السوء يداس بالاقدام .
فهم اوفي مقصده على الفور فرفعه الى برج المراقبة . بعد ذلك نظر اليه وهو يتفحص بناظريه المنطقة المحيطة . اخيرا اعلن زاشي بنبرة الضجر :
- ليس هذا بناء واحد على مدى البصر .

- انت تنظر الى البعيد البعيد ، فحاول أن تنظر الى الدغل القريب . الا تلاحظ وجود درب أو شيء يتحرك ؟ لا تنظر الى ذلك الافق السيء ، يا عزيزي .

حاول زاشي من جديد ، ثم اشرق وجهه فجأة :

- ساعدني في النزول ، فانا اعتقد انني وجدت شيئا . (وهبط الى ان بلغ كتف اوفي ثم قفز على الارض وبدأ يلبس حذاءه من جديد .) نعم ، اعتقد انه هناك ، تماما حيث توجد اشجار ليمون ، أو شيء من هذا القبيل وسط الدغل . لنمض الى هناك .

- هل رايت شيئا يتحرك ؟

— كلا ، كلا ، فقط أشجار الليمون . بعد ذلك ، تابعا سيرهما يسبحان
سباحة ، وقد هيج جلديهما القبار والرماد وأشواك الاغصان التي لا تعد والتي كانا
يكسرانها وهما يمران ، ثم سارا ثمانين مترا على اللورب الذي كان ممحوا تقريبا ،
وفجأة وجدا نفسيهما أمام سياج واطيء في وسطه تنتصب كنيسة بنيت من اللبن
المطلي بالاصفر والابيض والى الخلف قليلا كان بإمكان المرء أن يرى مقبرة معتنى
بها جيدا أما يحيط بها فكان قاحلا تماما .

بعد ذلك انفرج الدغل خلفهما مباشرة وخرج من كلا الجانبين أربعة رجال اثنان
منهما مسلحان ببندقيتين والآخران بساطورين .
— ماذا تريدان ؟ سأل اقربهم .

فاكد اوفي :

— نحن اصدقاء .

لكن الآخرين كانوا ما يزالون ينظرون الى ذينك المجهولين ، فنار زاشي صارخا :
— عجبا ، الا ترون أننا لسنا من كروس — ريفر ؟
— ما اسمكما ؟

فأعطيا اسميهما .

— أين ولدتما ؟

ثم بدؤوا يجرون استشارات طويلة ؟ أخيرا قال رئيسهم :

— ليس هذا الاجراء لاننا نرفض الاعتقاد بانكما من هذا البلد الملعون ، بل
لانه كان بيننا خونة ، اناس حاولوا شراء حياتهم وأملاكهم بخيانة جماعتهم . وكثيرون
هم الذين فعلوا أشياء غريبة . فماذا تريدان ؟
— نفتش عن اصدقاء .

فساد صمت آخر فيما كان الناطق باسم الجماعة يتابع مراقبتهم . بعد ذلك
أشار الى مرافقيه ، وهو يضيف على سبيل الايضاح للدخيلين .

— اذن ، لا بد من عصب عيونكما . فهذه الكنيسة ليست مخبانا الحقيقي
(وتركاهم يعصبون عيونهما ، بينما لم يكف الرئيس عن الكلام .) ونتوقع أن تكونا على
اتم الاستعداد للتو . حينذاك سنقوم برحلة طويلة سرا على الاقدام ، نعبر بها النهر
ثم الغابة ، اذ أننا لم نعد نثق بوسائل النقل العامة وضمانات الامن ، فأحد معسكراتنا
صدق اقوال الاذاعة بأن النظام استتب وذهب من فيه جميعا الى المطار كي يذهبوا
بالطائرة الى مكان آمن لكنهم أيدوا هناك عن بكرة أبيهم .

فقال زاشي :

— علمنا بذلك .

- كان ينبغي الا يصدقوا تلك الاكاذيب . لقد قدم رؤسائهم الى هنا ولقد حذرناهم ، لهذا ، الافضل ان نشق بالفأبة فقط وان نشق طريقنا ونحن نقاتل اذا ما صادفنا قرى في طريقنا . فالحيوانات المفترسة ارحم بكثير من بنات آوى البشرية تلك التي عرفناها لتونا . كذلك كان على الآخرين ان يسمعوا نصيحتنا .

تحركت المجموعة ، بعد ان تأبط احد الرجال كلا من اوفي وزاشي كي يساعدهما في السير اذ كان يطلب اليهما ، حين يقتضي الامر ، ان ينحيا او يرفعا أرجلهما . وصلوا الى مستنقع صغير موحل فعبروه بمعدية ثم قطعوا اطرافه بقفزهم فوق جذوع اشجار مقطوعة . وبعد ثلاثين دقيقة من تلك المسيرة غير المنتظمة ، توقفوا ، ثم شعروا بأيد تلامس وجهيهما ثم تنزع العصابتين عن عيونهما .

طرف زاشي بعينيه . ذلك ان ما وقعت عليه انظارهما لم يكن بالامكان الاستنتاج الا انه معسكر حصين . وكانت تحيط بهما اوجه مغادية من كل جانب . اخيرا سأل احد الرجال الذين اسروهما : « هل ينبغي اخذهما الى كوخ العجوز ؟ » حدثت اشارة غير ملحوظة بالراس وفجأة دفع الاسيران من جديد نحو ملجأ لم يكن سوى كوخ حقير بني على ما يبدو من اجزاء وقطع مختلفة ثم غطي بالقنب المشمع . « انتظرا هنا » . قال احد مرافقيهم ثم دخل الى الكوخ حيث سمعا نتفا من حوار منخفض . في الداخل ، كان ثمة عجوز يجلس وحيدا وكان محني الرأس كما لو أنه يفكر ، امامه طاسة من الذرة المسلوقة وصحن من الفول السوداني ولم يكن ثمة اثاث . الاثاث الوحيد كان حصيرا يجلس عليه العجوز ، أشار اليهما ان يجلسا عليه ، بعد ذلك قام بحركة غريبة فوق الطعام ثم غمغم :

- الغذاء مقدس .

فانقطعت أنفاس اوفي لذلك ، وفي الحال رفع رأسه فرى امامه وجه آهيم الذي كان يحدق الى عينيه مباشرة . بعد ذلك تناول العجوز عرنوسي ذرة ثم قدمهما الى ضيفيه قائلا :

- جربا هذه الذرة .

أخذا الذرة وشرعا يأكلان وهما غارقان في افكارهما ، بعدئذ عاود العجوز الكلام ...

- بعثت رسالة الى صديق مشترك للبحث عنك في ايلوزا . كان عليه ان يقول لك انني ذاهب الآن الى كروس - ريفر ، وكان لدي بعض الامل في أن يدفعك ذلك للعودة الى آيرو ، حتى ولو لم يكن ذلك الا من أجل اهتمامك بالجماعة خلال غيابي .

- لقد غادرت ايلوزا مذ عاد زاشي بالاخبار ، (لكنه توقف فجأة وقد احس بشيء من سخرية خفيفة كانت قد تخللت صوت العجوز) فسأل : صديق مشترك ؟ .

- أجل ، سبق ان التقى بك مرة واحدة ، باختصار ، هو أيضا كان قد غادر الى كروس - ريفر ، فانتظر أوفي لكن آهيم لم يصف شيئا بل سأل :
- اي انطباع يتركه معسكرنا في نفسك ؟ فرد أوفي باستحسان واضح :
- انا لا أصدق عيني ، من الذي نظمه ؟
- صديقنا المشترك (واتسعت الابتسامة الخفيفة التي كانت تطوف على شفتي آهيم) باستطاعتك الآن ان تخمن ، بالتأكيد .
- واحد من شاج ؟ لقد تعرفت الى بعض العمال هناك ، عمال من هيئة المناجم .

فهز آهيم رأسه بالنفي .
- ليس ثمة سوى رجل واحد يملك القدرة اللازمة لتنظيم أمن معسكر معرض للخطر كهذا المعسكر .

وفجأة عاد الاسم ، الذي لم يكن بالامكان تذكره الى شفتي أوفي .
- اليس هو طبيب الاسنان ، رغم كل شيء ؟

فأقر آهيم .
- انا لا اعرفه بهذا الاسم الذي اكتسبه مؤخرا . دوماكان ، هذا هو الاسم الذي ظللنا ندعوه به في آيرو . والآن علي ان اطلب المغفرة لخداعي لك هذه المدة الطويلة . فلقاؤكما في الخارج لم يكن مصادفة . وما حدث بينكما كليكما ، هو من شأنكما ، لكن ، كل مرة كنت ترسل لي فيها بطاقتك البريدية ، كنت اكتب الى اولادنا الموجودين حيث انت من العالم كي يشرعوا في البحث عنك ولم يكن دوماكان الا واحدا منهم ، وقد كان هناك الكثيرون .

ابتلع أوفي الخبر ببعض الامتعاض ، فانطباعه هو انه لم يكن بأي شكل موضع دراسة لدى الرجلين . ولعل آهيم خمن افكاره اذاضاف :

- انه كتوم للغاية بحكم العادة ، ولعل ذلك نابع من تكوينه ذاته فقد كتب لي انه التقى بك ، لكنه طلب عهدا مني الا احثك عن روابطه بآيرو وبني انا . انه دائما يتصرف على هذا النحو .

حينذاك تذكر أوفي نقطة صغيرة من بين الامور النادرة التي كان طبيب الاسنان قد كشفها له ، فسأل آهيم .

- هل كان يكذب حين قال لي انه ولد في ايرلو ؟
- كلا . فهو ، مثلك جاء الى آيرو من العالم الخارجي . لكن جماعتنا عملت على ان تجعله يغادر البلد . والمرة الاخيرة التي سمعتهم فيها يتكلمون عنه ، كان على وشك الالتحاق بأحد جيوش التحرير . أخيرا جاء اليوم الذي هرب فيه الى أوروبا ومن هناك كتب لي قصته المريرة للغاية ثم طلب مني اخبار البلد .

قطعت ضجة القادمين الجدد الذين كانوا يدخلون المعسكر حديثهم ،
فقال آهيم :
- اعتقد انه عاد .

احنى رجل ذو شعر نحاسي ظهره وهو يدخل الخيمة ثم تجمد لدى رؤية
اوفي . وللحظة من الزمن راح واحدهما يتفحص الآخر دون أن يقول كلمة واحدة .
بعد ذلك ابتسم طبيب الاسنان ابتسامة عريضة ثم دخل ، فتراجع زاشي قليلا مفسحا
له مكانا كي يجلس على الحصيرة .

- كنت اسأل نفسي كم يلزمك من الوقت كي تكتشفني ، فرد اوفي :
- تعني كي اكتشف من أنت ؟

فاستدار طبيب الاسنان فجأة نحو العجوز الذي اكتفى بهز كتفيه .
فمد طبيب الاسنان ذراعيه .

- حقا ، كان علي أن أقول لك ذلك منذ وقت طويل ، فوافق اوفي :
- ذلك غريب ، فأنا لم اتخيل قط أنني سأقابلك في كروس ريفر .

- جئت الى هنا في محاولة لانهاء أنشطة اربعة من الرجال : آموري ، باتوكي ،
بيغا ورابعهم ذلك الكومبارس الذي يرتدي الزي العسكري . كانت تلك هي المرة
الاولى التي كان بإمكاننا أن نراهم هم الاربعة مجتمعين لوضع آخر تفاصيل الاحوال
التي نعيشها اليوم ، ولا حاجة للقول اننا قد فشلنا .
- ماذا جرى ؟

- ثمة من خاننا ، فقد نصبنا كميناً على الطريق الذي كان من المقرر ان يمروا
به بعد اجتماعهم . وكانت المعلومات صحيحة كلها : الساعة ، خط السير ،
المكان . لكن قبل مرور الموكب تماما أتت طائرة هيليوكوبتر وأخذت تدور فوق
رؤوسنا وهي تفتش وتفتش .

- وماذا بشأن هذا المساء ؟ سأله آهيم ، ماذا قررتم ؟

- يمكن القيام بذلك (واستدار نحو اوفي) لا بد من بعض الاسلحة الاضافية
كي نضمن الدفاع عن أنفسنا . لقد ذهبت للتو واستطلعت مستودع اسلحة
للشرطة ، سنهاجمه هذا المساء . فهل تتكرم بأن تمد لنا يد العون ؟

لكن آهيم سارع الى الرد :

- لا ، ثمة شيء آخر يشغل اوفي .

- آه ! أجل ، بالتأكيد . البحث الواسع عن امرأة (ثم خيم صمت ينم عن
الضيق قطعه طبيب الاسنان نفسه بسؤاله) :

- قل لي لماذا ترى الامر مهما الى هذا الحد ؟ اقصد أنك قمت بامور انتحارية
حقا ونحن نعلم ذلك .

فرد له اوفي نظرتة بنظرة نفاذة ملأى بالصراحة .
- كل امرىء يعمل في المجال الذي يتفوق فيه ، هل تتذكر ؟
- عاطفي ، قال طبيب الاسنان الذي كان يتذكر ، فأضاف اوفي :
- لكن ليس هناك الا هذا ، وانا مقتنع أن العالم كله يحس بالحاجة لان يدرك هو نفسه فداحة ما يجري في هذه الآونة ، هول المرحلة التي يجري فيها هذا ، وربما كنت أشعر في أعماقي أن ذلك البحث سيوضح لي دلالة الاحداث ويقدم لي فهما جديدا للتاريخ .

هنا ، استدار طبيب الاسنان نحو زاشي .
- وصديقك ، ما رايه بذلك ؟ هو معك بصورة دائمة تقريبا ، اليس كذلك ؟
فهز زاشي راسه بشدة .
- كلا لا تسألني شيئا ، لقد فقدت نصف جوقتي في واحدة من الهجمات الاولى . وقد رأيتهم يخطفون سيليست ، فما الذي كنت أستطيع فعله ؟ أن اجلس وأموت اشفاقا على نفسي ؟

بعد تلك الفورة شرع كل منهم يتحاشى نظرات الآخر محدقا الى جدران الخيمة او الارض ، بينما أخذ اوفي يقضم الذرة غاضبا .

فحاول آهيم أن يبعد أذهانهم عن ذلك الفم .
- مشروعا الآن هو أن ننقل المسكر الى اقصى أعماق الغابة ، وأن نلحق بالنهر عند التقائه بالرافد الآخر ثم نسير معه الى أن نبلغ البلد . فهذه ، بالنسبة الي ، عملية تطهير : نفسل انسانيتنا الملوثة ، ونشفي الناجين منا من خطر الشفقة على أنفسهم .

- أنا أصر ، قال طبيب الاسنان ، على أن تعتبر منذ البداية تدريبا حقيقيا على خشونة الحياة ، فالفكرة التي تقوم عليها آيرو هي العودة الى الينابيع ، لكن على أن تكون العودة أكثر تصميما ، فقل لي يا اوفي اذا ما وجدت ما هذه المرأة في وقت مبكر ترى هل ستنضم اليها في هذه العودة ؟

ففكر اوفي بسرعة .

- لا ادري في أية حال سنجدها .

- حتى لو كانت مريضة أشد المرض ... فان بإمكاننا أن نتقل بسرعة كبيرة ، وأيا كانت الارض ، ناقلين معنا جراحانا .

ذلك السؤال كان ، على ما يبدو ، بالغ الاهمية بالنسبة لطبيب الاسنان دون ان يدري اوفي سببا لذلك فشرع يتفحص وجهه عله يجد عنده الجواب فيما كان آهيم ينظر اليهما معا بكثير من الدقة ، وفجأة قال زاشي :
- ربما تكون قد ماتت .

- في هذه الحالة نصطحب جثمانها معنا ، قال طبيب الاسنان .

واذا كانت نيته من كلماته تلك هي أن يصدّم الآخرين ، فإن ردود الفعل التي أثارها أبدت أنه أفلح في ذلك تماما . لكنه لم يعر أي انتباه للتأوهات المكتومة بل تابع بهدوء .

- كلا ، أنا لا أبادل مكاني بمكان رجل الكاكاو الموجود هنا ، والذي يلتقط رموزه من المواخير ، لكن لا بد من قبول هذا الدليل : فالقوادون والبغايا واللصوص وآلاف المجرمين الآخرين هم الطليعة المألوفة لجيش التغيير . وعندما تحين الساعة فإن امرأة كاتريز قد تصبح بالنسبة اليهم شانتال ديورا ، مشعلا ، حاملة علم ، مثلا أعلى لانتفاضة عامة . والتخلي عما يحتمل أن يقدو سلاحا من هذا النوع في نضالنا ، قد يكون نوعا من الافتقار للحكمة أو الخيال .

ثم نهض بعد أن حشا جيبه بقبضة من القول السوداني .

- علي أن أهتم بأمر ملح ، ولعل بابا آهيم لم يخبركم حتى الآن ، لكنني أقول لكم نحن أيضا بذلنا كل جهد لاجادها . وعلينا أن نكمل بعضنا ، حتى بعد أن نجدها . أما أنا فتشغلني الآن استراتيجية المستقبل .

- وماذا حصل لاستراتيجية الحاضر ؟

- لدينا استراتيجية فعلا ؟ كل ما اعرفه هو أن الرجال الاربعة الذين كان ينبغي أن يكونوا أمواتا في هذه الساعة ، أفلتوا من أيدينا . بعدئذ قال طبيب الاسنان لاوفي وهو يمد له يده .

- ربما سنجدها قبلكما ، لكن بها أو بدونها ، آمل أن تقوموا بهذه المسيرة معنا ،

فشد أوفي على يده دون أن يقول شيئا . أما آهيم ، فقد ظل ، بعد ذهاب طبيب الاسنان ، ينظر الى الأرض صامتا . بعدئذ تنحنح ثم وضع يده على ركة أوفي .

- أرجو ألا تعتقد أنني أتمنى الاسوأ علك تضع نهاية سريعة لبحثك ، لكن ... من الأفضل أن تبدأ بالاسوأ ، ترى ... هل ذهبت للبحث عنها في معرض الجثث الجهولة ؟

* * *

— لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث .

وكانوا قد تجاوزوا جناح المصابين بالحوادث ، ثم ساروا بمحاذاة صفوف من المختبرات المسبقة الصنع التي تحيط بها مروج خالصة لا أشجار فيها ، يتصل بعضها ببعض الآخر بممرات . بعد ذلك سلكوا واحدا من تلك الممرات ثم تابعوا دوراناته وانعطافاته ، كما قاوموا تأثير الثقالة عندما تعين عليهم أن يهبطوا منحدرًا خفيفًا . كانت جدران النفق تزداد سماكة كلما توغلوا فيه أكثر وأكثر وكانت جدرانها مكسوة بالاميانيت الرمادي .

— لم يعد ثمة مكان على الإطلاق ، كرر الطبيب الذي كان يرشدهما ، فقد امتلا خلال وقت لا يذكر .

وامام باب من الرصاص والقصدير ، اخرج الطبيب مفتاحا أدخله في القفل فانفتح الباب بلطف وكانت هناك ابواب أخرى ، اجتازوها فوجدوا أنفسهم في نفق جديد ، نفق ساكن ، خانق ، مرهق . كانت كلمات الطبيب تشكل ايقاعا للازمة رتيبة ظلت تتردد في رأس أوفي لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث

اخرجوا ، اخرجوا ، قال صاحب المنزل

صاققا الباب بوجه المسيح .

خذا أسماكما ، سيد يوسف ، سيدة مريم

واستردا ذلك الطفل ذا العينين الساحرتين

فلم يعد ثمة مكان في معرض الجثث .

في معرض الجثث

— ليس بسيء ، ليس بسيء ، سمع أوفي الطبيب يفمغم ، وكان في صوته برود عذب لكنه ثقيل بدا وكأنه ظل معلقا في جو الموت .

— ما الشيء الذي ليس بسيء ؟ سأل أوفي الذي لم يكن قد غنى اغنيته بصوت مرتفع . اذن فالطبيب لم يكن يتحدث عن ذلك بالتأكيد . .

— لا تبدو عليكما هيئة العصبيين المتوترين ، شأن معظم الناس الذين يدخلون معرض الجثث للمرة الاولى .

— كلا ، بل الحقيقة أنني انتهيت لتوي من تأليف انشودة (وتوقف) ما أغرب ذلك ! فقد مر ما يقرب الاسبوع لم أدندن خلاله نغما واحدا .

فالتفت الطبيب اليه :

- عجباً! عجباً! أمر مشير للغاية .

- كلا ، الواقع ان عبارتك « لم يعد ثمة مكان في معرض الجثث » هي التي اطلقت هذا . فقد تذكرت رحلة قمت بها في أوروبا منذ وقت غير بعيد ، كما تذكرت عددا من اصحاب الفنادق الذين حاولوا ان يجعلوني اعتقد انه لم يعد لديهم مكان .

- آه ! مررت بالتجربة اذن ؟ قال الطبيب متاوها . فرد اوفي :

- كيف لا !!

بعد ذلك قادهما الطبيب حتى الباب التالي ثم قال :

- ما هي تلك الانشودة ؟ بودي ان اسمعها .

- لا علاقة لها بما حدث لي في أوروبا . فقد مر ذهني مباشرة بالندفاع حيروم الجنوبي ، ومن هناك انتقل الى تلك العبارة : لم يعد ثمة مكان في الفندق . فقال زاشي :

- هاه ، اراهن ان ذلك صحيح . ترى هل ينبغي ان أعرفك بهذا الرجل يا دكتور ؟ ان كلمة واحدة معه تكفي لتأليف أغنية ، تماما كزيت الخروج الذي تستخدمه لخراج دودة وحيدة . مع اعتذاري الكامل على هذا التشبيه يا دكتور... لكن صوته اختنق عندما لاحظ تكشيرة الطبيب .

- وتلك الانشودة ، ماذا تقول ؟

فتكلف اوفي الابتسام .

- انه للطف منك ان تحاول تحويل انتباهي عما شاهدته خلف ذلك الباب . لكنني اؤكد لك ان ذلك غير ضروري . فقد قمت بذلك بنفسني ، الفت قصيدة كي ابعد ذهني عنه ، ذلك ما فعلته .

- لا ، أبدا ، لا ، أبدا ، رد الآخر محتجا ، بل هي متعة خفيفة اقدمها لذاتي وربما ذلك كي اساعد نفسي بغية الاحتفاظ بوضع طبيمي في هذا المكان اللعين . لقد رددت في سري انشودة ميلاد ، فما اغرب ذلك ! بعدئذ تساءلت : ترى هل يكشف هذا عن شيء ما ؟ هل انت من اولئك الذين يقوم ذهنهم غريزيا باعادة الدورة كلها من المهد الى اللحد ؟ فشيء كهذا هو الذي يمنعني من التركيز على ما اشعر به فعلا .

بعد ذلك ، دفع الباب الاخير فاتحا اياه على مصراعيه ، فما لبثت طبقة من البرودة ان سقطت عليهم . بعدئذ وطئوا بأرجلهم بساطا من البرودة صعدت الى سيقانهم مجمدة الدماء في عروقهم . وعلى الفور أخذ زاشي يرتجف فاقدا السيطرة على نفسه .

- أجل ، الجو بارد هنا . ابدى الطبيب ملاحظته بلطف بالغ ، غير ان الرواق السابق يساعد الجسم على التأقلم نوعا ما .
- لم يؤقلم هذا شيئا لدى هذا الشاب ، ايها الطبيب .

بعدئذ مكث زاشي واوفي قرب العتبة وقد التصق واحدهما بالآخر ، وكانهما لا يجروان على التفلغل اكثر في ذلك العالم المتجمد . اغلق الطبيب الباب من جديد ثم تقدم باتجاه الموتى : خمسة وضعوا على عجلة مزدوجة مستندة الى الحائط . فتبعه اووفي كالمنوم مغناطيسيا ، وعيناه مسمرتان على ذلك السلام الذي بلغ حدا من الكمال لم يصادفه البتة من قبل .

- انهم آخر الوافدين ، وقد كنا نأمل ان نتمكن من انقاذ الطفل ، لكن جهودنا ذهبت عبثا . (قال ذلك ثم هز كتفيه) . من ناحية اخرى لم يكن هذا ليفير شيئا . فأولئك الذين نجحنا في اخراجهم من المحنة اتى القتل ثم أجهزوا عليهم رغم انهم كانوا على طاولة العمليات . (وبلا ضجة اتجه الى زاوية منصبة من الاسمنت المسلح ، ثم كشف غطاء هناك) . شيء كهذا . وقد كنت فخورا بما قممت به ، فالقلب والرئتان كانت قد اخترقتها جميعا طعنات الحراب ، لكنني عملت على ضوء شمعة ونجحت بانقاذ ذلك الانسان . أجل ... اعترف أنني كنت فخورا جدا بتلك العملية .

لم يسمع الرجلان الا بالكاد كلمات الطبيب . فنظراتهما كانت قد تاهت وهي تقع المرة تلو المرة على الجمود الطاغي لكل ما يحيط بهما من أشياء ، جمود ثقيل ، ثقل الابدية تلك التي كان بالامكان قياسها تقريبا والتي كانت عالقة بأقل ضماد قطن كما كانت تضغط الهواء والضباب الرمادي المكون من ذرات الضوء الذي كانت الصالة مغمورة به . كانت درجة الحرارة تنخفض باستمرار ، وكانت الاجسام الحية تحس وكأنما وضعت عليها ايد باردة تمتص حيويتها في عالم من الموت الشامل . كانت القاعة مقسمة ببلاطات منتصبة من الاسمنت المسلح ، وكانت تمتد فيها على طول الجدران ، وتقطعها خزائن مقززة بالقصدير ملأى بمواد اختبار ، برفوف وقوارير ملأى بسوائل وأعضاء انسانية . وعلى البلاط كانت هناك بعض الاجسام التي فتحت من قبل وكان بإمكان المرء ان يرى هنا وهناك أدوات دقيقة ، مشارط ، ملاقط اجنة مطلية بالكروم ، أنابيب زجاجية وحققنا تحت جلدية . بعد ذلك كانت تأتي أدوات المهنة الكبيرة : سواطير ، مناشير معدنية ، فرامات ، موازين ضخمة . وكانت ثمة اكباد رمادية متصلبة ونخاعات متجمدة . اما المخ فكان نيزكا ساقطا : فوهات ، قمما ، شبكة اقنية للري تشكل عالما أصغر من العالم الذي قدم منه . وكان هناك قلب محاصر في عزلته المطلية بالبرافين في أعلى خزانة مزججة ، حلية جنازية فوق جسم ممدد ، ليس على سرير استعراضي ، بل على شكل قطع .

احس اوفي بنظرة الطبيب ، فرد له نظرته ، حينذاك سألته هذا :
- هل تشعر بالفثيان ؟ هل كل شيء على ما يرام ؟
- لكن لماذا ؟ هل الامر غير طبيعي ؟
- بعض الاشخاص يصعب عليهم تحمل هذا النوع من التجربة (وكان يقرب شيئاً في جيبه باستمرار) .

في تلك اللحظة سمعنا ضجة مكتومة خلفهما . تطلعا فاذا بزاشي قد انهار ، مرتطما راسه بالحائط ارتطاما شديدا . اسرع الطبيب وهو يبتسم دون اخفاء رضاه . اخرج قارورة الملح من جيبه ثم وضعها تحت منخري رئيس الجوقة الضخمين .

- انه علاج قديم ، لكنه ما يزال افضل ، قال الطبيب معلقا ، رغم انني كنت قد بدأت اخشى ان يخيب املي . .

استعاد زاشي وعيه على صوت المكيف اللطيف ، وفي الوقت الذي بدأت عيناه ترفان وتنتقلان من واحد الى آخر ، كان الطبيب ما يزال مستمرا بتحريك الزجاجات تحت انفه .

- لقد اغمي عليك ، اخبره اوفي فابتسم زاشي :
- لم يحدث ذلك أبدا . لقد تزحلقنت ، (ثم حك رقبتة) . في جسمي تورم وهذا ما جعلني اسقط .

هز الطبيب راسه وهو يساعده في النهوض ثم قال بصوت خائب :

- مع ذلك لقد اخطأت ، فليس الجيد هو من اغمي عليه .

- تعني أنني انا من . . .

- آسف ، لكن الامر هكذا ، لقد فقدت فطنتي . فهذا الفيض الفجائي من الاموات اضعف حكمي فيما يتعلق بالاحياء . . . اجل ، هو ذا ، على ما اعتقد ، العذر المناسب . (وبدا عليه النشاط من جديد) . ان كان صديقك قد استعاد حالته تماما ، فيحسن بنا ان نبدأ بحثنا ، فانا لا اظن ان باستطاعتكما تحمل هذه الدرجة من البرودة مدة طويلة من الزمن .

فجذبه زاشي من كفه .

- ان خطر لك يوما ان تحكي شيئاً كهذا . . . لكن الطبيب قاطعه سائلا بكثير من اللطف :

- ساقاك ، هل هما على ما يرام ؟

- على خير ما يرام ، شكرا . فليس هناك شيء خطير .

- حسن . ذلك اننا سنبدا رؤيتها بالعشرات :

وفجأة بدا أوفي غير قادر على التماسك أكثر ، فقال منفجرا فيما كانوا يمرون امام جثة ما يزال مغروسا فيها ساطور من السواطير :

– قل اذن يا دكتور ، أينبغي حقا أن تعاملوا الجسد الانساني على هذا النحو ؟ يخيل للمرء انه في مكان جزارة ! كيلوين من الكبد من فضلك ، قطعة من الجنب ، كيلو من الصدر

– ه . . م ، اجل ، عليّ أن اعترف بأن هذا يشبه نوعا ما من مكان الجزارة .
– هذا غير لطيف !

– كلا ، لو كنت مكانك لما استعملت هذه الكلمة ، فنحن لا نرى الامر غير لطيف بل نتعلم اشياء كثيرة من الجسم الانساني ، هنا ، كما تعلم ، لكن وا اسفاه . . .
ففي النهاية سيأتي هذا ايضا في حينه ، على ما اظن . . . اذ يبدو أننا لم نتعلم الكثير عن عقل الانسان ، عما يجعله يتصرف بهذا الشكل أو ذاك . . . مع ذلك ثمة أمل أن المسألة ليست الامسألة وقت . . .

بعد ذلك ، تابعوا تقدمهم بين العربات والمصطبات المصنوعة من الاسمنت المسلح ، ثم توقفوا رغما عنهم امام أسرة ، أو هكذا على الاقل ، عبروا عن مجموعة من الاجساد البشرية : أب ، أم ، ثلاثة صبيان كبار وتوأمين عمرهما ستة أشهر . فالرجل والابن البكر كانا مصابين بحروق خطيرة ، أما الباقيون فكانوا سليمين . مرهم اصفر كان ينز من ضمادات الابن البكر السميك ، فأطلق زاشي صرخة مخنوقة :
– انظر الى هذا !

فنظروا في الاتجاه الذي كانت تدل عليه اصبعه المرتجفة . كان ثمة قفص صدري معلق بكلاب لكن سرعان ما حدث ضجة جديدة مكتومة خلفهما فاستدارا .
– اوه ! هناك !! هناك !! لقد اغمي على صديقك من جديد .

– ربما من الافضل أن ندعه هنا ، قال أوفي في الوقت الذي كان الطبيب ينحني على زاشي ، فأنا بالحقيقة لست بحاجة اليه من أجل البحث .

– في هذه الحال علينا الا ندعه على الارض ، والامات متجمدا . (بعد ذلك وضعاه على نقالة من قماش ، ثم فتح الطبيب درجا أخذ منه غطاء غطاه به) . لن يستغرق الامر منك وقتا طويلا . انا اسحب الدرج ، فيظهر الرأس أولا ، وماعليك الا أن تشير براسك : لا ، لا . . . الى أن يتعين عليك أن تشير ب : نعم .

وحينما كان الطبيب يضع يده على الدرج الاول ذي الزلاجات تساءل أوفي :
– ما هي قصة تلك الاسرة ؟

– اوه ! تلك المجموعة ! لقد حبسوها في غرفة ثم اقفلوا الباب ، واحرقوا البيت كله ، فاصيب الآخرون بالاختناق فقط ، أما الاب والابن البكر فقد حاولا فتح طريق للهروب مع الآخرين .

هنا ، هز أوفي رأسه على مهل .
- حسن ، لنهتم بما جئنا من أجله .

أخذ الطبيب يخرج الدروج التي كانت تنزلق على دواليبها دون اصطدام بشيء .
فيما كشفت نفحة هواء باردة جديدة أنه ما يزال بإمكان غرفة الموتى أن تنفس أكثر
وأكثر من ادعاءات المتطفلين على الحرارة . فالرفوف كانت تنزلق على سكتها الملساء
المصنوعة من الألمنيوم ، وكان أوفي ينظر الى أقنعة الاموات وهي تمر تحت ناظره ،
جلودا مشدودة ، ممتطة ، رمادية ، نائية البعد . بل حتى أولئك الذين كانوا يحملون
بطاقات كانوا قد تخلوا عن كل ادعاء لهم بامتلاكهم هوية انسانية .

- باستطاعتي ان أسحبها بنفسى ، قال أوفي بعد أن سحب الطبيب ماينوف
على العشرين درجا .

- موافق . وبإمكانك استخدام السلم من أجل الوصول الى الرفوف العليا .
وما عليك الا أن تعلقه بهذا القضيب . .

وهكذا ، أخذ أوفي ينظر الى الرؤوس واحدا بعد الآخر لكنه فوجيء بفكرة تخطر
في باله : حقا ، كم معرفتنا ناقصة بقمة رأس الانسان . الوجه ، أجل ، تلك منطقة
مألوفة جدا ، اما قمة الرأس ، فمن النادر ان نلمسها ، حتى لدى أولئك الذين
نعاشرهم باستمرار ، وبشيء من القلق ، كان الطبيب يتابع حركاته من بعيد .
- أنت متأكد من أنك تفضل ألا أسحبها لك بنفسى ؟
- كلا ، أعتقد أنني سأنتهي بسرعة أكبر على هذا النحو .

من حين الى آخر ، كان الطبيب يلقي عليه نظرة سريعة ، راصدا اقل
إشارة تدل على الانهيار . بعد حين من الزمن استعاد زاشي وعيه فأجلسه الطبيب
في كرسي ثم شرعا يتطلعان معا الى أوفي وإلى حركات الرفوف التي كانت تخرج من
الخزانة الكبيرة ثم تدخل فيها . ولاكثر من مرة لمحا البريق في عينيه ، وكأنه كان
يتعرف الى احدهم . لكن ذلك لم يكن سوى بريق الرعب الابدي لدى أوفي وهو
يتعرف الى الانسانية في لحظة متجمدة من التأمل ، الدهشة ، الألم ، المعاناة ،
القنوط أو السلام المتسامي ، لحظة من متعة الموت نفسها ، لحظة ثابتة الى الأبد
وذاوات لون رمادي في الهواء المتجلد .

- ذات يوم سأرقد هنا ، ربما ببطاقة ، او بغير مهزلة البطاقة . وربما سأحمل
رقما للتصنيف : التاريخ ، المكان الذي التقطت منه ، اسم ذاك الذي التقطني . . .
لكن سيكون الوقت قد فات على ان يكون لذلك أهمية ، بالنسبة الي ، على اية
حال ، أنا الوحيد المعني فعلا . الصف الثالث ، الرابع ، الخامس ، السادس ،
وكان أحيانا يجد جثتين في الدرج من جثث الاطفال : . . . كلا لم يعد ثمة مكان في
معرض الجثث . اما جثة أوفي الجوفاء فربما عليها أن تنتظر في الشوارع او تتفسخ في
قبر حفر على عجل وكان ذلك كان ذا أهمية كبيرة . بعد ذلك استولى عليه شعور بأن

أيريز لا يمكن ان تكون موجودة ، وانه لا يمكن اختزال جوهرها الحي الى واحدة من تلك الصور الساخرة الشمعية للحالة البشرية . ما من شكل من الاشكال المزيفة كان باستطاعته ان يدنس صورتها ، او يدعي مشاركتها في المصير . اذن لماذا تفتش بين الاموات عن هم احياء . . مع ذلك فقد تابع . . الصف الاخير ، الرف الاخير ، خروج ، دخول .

هل شعرت بالارتياح ؟ لا ، فقد كنت متأكدا منذ البداية ، انما كان لا بد من تحمل ذلك الطقس لا اكثر ولا اقل .

وحين نزل ، وجد الطبيب يعرض للضوء قطعة من نسيج انساني .
- هذا سرطان ، شرح الطبيب . اوه ! هذه الجثث لم تأت كلها من المجازر الاخيرة ، فهامي ذي حالة كنت ادرسها قبل ان يتوقف عملي العادي بحكم الظروف . كان نسيجا سرطانيا . اننا نعزل اطنابا من النسيج السرطانية في مستشفيات العالم ، لكننا لم ننجح حتى الآن في اكتشاف الاسباب (واعاد النسيج الى مكانه ثم ابتسم) .
على كل حال ، أنت لم تجدها ، اذن ثمة امل .
- اجل . . . ربما . . .

فوجه اليه ضربة على الظهر .
- ثمة امل . وعليك الا تداع نفسك تنهار بسبب تجربة في البحث مثبطة للعزم .
- مثبطة للعزم . . . ؟ اجل ، اجل ، تلك هي الكلمة المناسبة ، فعلى كل وجه ميت ، ثمة شيء من كل من عرفناهم ، رجالا او نساء .

فهز الطبيب راسه .
- لنعد الى مكتبي ، فلدي هناك ناتج نحصل عليه عادة تحت اسم مسليات طبية . واعتقد ان قطرة منه لن تؤذيكما .
تبعه اوفي موافقا بهزة من الراس ، اما زاشي فخرج من معرض الاموات كالسهم سابقا لياهما بامتار عدة .

احساس شبيه بضيق في التنفس ابقى اوفي كالسجين في مكتب الطبيب حيث ترك نفسه يسترخي في كرسي كبير . هناك حاول ان يطرد ما ثار في نفسه فجأة وعلى نحو غبي ، ثوران شيء كان يتخبط في مكان غير معروف من جسمه تماما كي يتحرر . نبع انظر منذ زمن طويل كان يفتح هناك ، ينبجس في تجويف صدره ، يهدد وهو سجين ذلك الصدر بالانفلات عن طريق فمه ، منخريه ، اذنيه ، راسه ، عينيه ، فهل استيقظت ذكرى عنيفة ، غضب من ماتم لم يكن قد بلغ مرحلة الشعور الا بصورة حدسية . منذ زمن طويل كان ذلك يجري في اعصابه ، تضاعفه التوترات التي لم تنقطع خلال الشهور الماضية ، وكان يكافح ، عاجزا ، تلك القوة التي تهدد بالانفلات

على شكل دموع مخجلة . مخلب جليدي كان يقبض على أحشائه كالكلابة ، يهاجم أنفاسه بكل وحشية . بعد ذلك أحس بيد لطيفة تبعد أصابعه التي كانت تشد على رأسه كاللزمة ثم بدأت تدلك صدغيه ، وكان الطبيب يحدثه بصوت مهدىء ، وكأنه يحدث طفلا :

– عليك ألا تحاول حبس دموعك قط ، خاصة ان لم تكن قد تعودت البكاء ، لا ، ابق عينيك مغمضتين وارخ ذراعيك هكذا ، هكذا افضل .

وكان زاشي يتطلع اليهما كليهما بقلق بالغ .

– هل هو مريض ، يا دكتور ؟

– كلا ، هذه فقط نسخة أخرى مما حدث لك هناك . لكن اعتقد أنه سيكون على ما يرام الآن . كيف تراك تشعر يا أوفي ؟

– أحسن ، شكرا لك .

– هي ذي كأسك ، انه صنف محلي صنعته مراكز تقطيركم الوطنية ، وأنا أسف ، لكن هذا هو كل ما يؤمنه لنا الجهاز المركزي حاليا . من جهة أخرى ، هذا طبيعي تماما ، لكن ...

فشرع زاشي يضحك .

– أذن ، هو مناسب لك تماما يا دكتور ، نهاية الامر ... بصحتك !

– سأشرب نخب النهاية السعيدة لبحثكما ، فغمغم أوفي :

– ذلك سيكون في منتهى الروعة .

– كلا ، اعتقد أنك على خطأ (وفي الحال رأى زوجي العيون تحلق اليه : اذ كان قد تحدث عن قناعة ناجمة عن شدة التفكير ، حينذاك حاول تقديم ايضاح) . اعذراني ، فهذه الامور يصعب شرحها كثيرا . ذلك أنكما حين دخلتما هذه الغرفة قبل ساعة من الزمن وحدثتmani عما تبخثان عنه ، شعرت ... أجل ، شعرت بأنكما لا تتحدثان عن ميتة ، اذ انها لم تترك لدي انطبعا ... لا ، لم تنبعث منها هالة الموت (وطوال ذلك الوقت ظل يشعر بنظراتهما غير المصدقة ، فألقى بذراعيه نحو السماء بحركة تدل على الاحباط) . أوه ! الكلام ، الكلام ! لقد مر علي زمن طويل مذ هجرت كل ما له علاقة بالكلام . واذا كان الامر يهكمما ، فأنني قمت في البداية ببعض الدراسات التاريخية . بعد ذلك اتجهت فجأة نحو الطب . وقد حدثت أمور كثيرة منذ ذلك الحين ، لكن ... انظرا ما حدث هنا ، هنا بالذات قبل فترة لاتزيد عن ثمانية أيام . فقد قتل رئيس المرضين عندي في هذه الغرفة .

وبخفا سريعة اجتاز المكتب ثم أخلى الديوان من كدسة من المجلات والكتب الطبية ، فبذت بقعة كبيرة من الدم على الفطاء ذي اللون الصافي . هنا أخرج كيسا من التبغ ثم أخذ غليونه وبدأ يحشوه .

- أجل ، هذه البقعة من آثاره ، فقد تبعوه حتى هنا ثم قتلوه . بعد ذلك ، لم يعد شخص واحد يود الاقتراب من المستشفى . وخلال أيام وأيام كنت أقوم بالتنظيف بنفسى يساعدنى في ذلك بعض المرضى ، مرضى من كروسن ريفر بالطبع . أما الآخرون فقد هربوا أو قتلوا . ما كنت أود قوله لكما . . . هو أنني ، عندما بدأت المجزرة ، كنت أقوم بجولتي المعتادة على مختلف الاجنحة . من هناك ، عدت مباشرة الى حجرتي ، حيث بقيت عدة أيام متتالية ، بلا أدنى أثر لمرضى الخاص . كنت اذهب من الاجنحة الى حجرتي ومن حجرتي الى الاجنحة كل صباح ومساء . لقد أثر علي ففقدته كل التأثير ، لكنني كنت آمل بالطبع أن يكون قد أفلح في الهرب لحظة انقضاء الشائرين علينا . لم أجد جسمه في أي مكان ، لذلك كنت آمل . لم يكن أملا كبيرا بالحقيقة ، بل كما تعلمان ، فذلك الرجل كان قريبا كل القرب مني وكنت اعلم هنا منذ سنين . لم يكن باستطاعتي أن أفكر أنه لم ينجح في الهروب . . . بعد ذلك . . . أجل ، أتذكر ، كنت أقوم بجولة على الاجنحة ذات مرة وكانت سماعتي على صدر عجزوز افحص نبضه . حينذاك سألتني أين رئيس المرضين ؟ فهل تعلمان بما أجبتة دون أن أفكر لحظة واحدة ؟ رئيس المرضين ؟ انه ميت ، في مكتبي .

توقف الطبيب وكان الجو قد أصبح خائفا ، مفعما بحضور الرجل الذي اغتيل .

- بوسعكما أن تتخيلا ما حدث . فقد ظلمت منشل الحركة ، مندهشا برهة من الزمن . بعد ذلك نزلت الدرج اربعا اربعا فوجدت العزيز المسكين هناك بالفعل وقد ألقى بصورة عرضانية على المقعد تغطي وجهه كدمات فظيعة بعد أن شوهوه ، وكان قدمات منذ ما يقارب الاسبوع .

أخذ أوفي كأسه ثم اتجه نحو النافذة ناظرا الى الامتداد الواسع من الارض القاحلة وهي تغطي في فراغ لا نهائي . كانت الارض قد تشققت تشققا كاملا ككل أرض موحلة جفت ، تتخللها هنا وهناك بقع نادرة من العشب حيث كانت بعض طيور الكراكي المتوجة ، تفتش عن الحب ، سائرة بكل مهابة اشبه بحشرات عصوية على سطح مستنقع .

- يا للطيور الجميلة ! غمغم الطبيب ، الريش على رأسها محكم الدقة ويمكن للمرء أن يقول انها بلاشين ذات قابوق (١) ملون .

- أجل ، هذا صحيح . وكان أوفي يفوص في هموم أشد بعدا .

- اتعتقدون بأن الوحدة الوطنية ستظل واقفة على قدميها ؟

- بعدما جرى ؟ من يدري ؟

- لنطرح السؤال بشكل آخر ! ترى هل هذا مرغوب فيه ؟

(١) القابوق هو ضرب من القطن المزيف .

فالتفت أوفي إليه .

- وانت ، ما رأيك في ذلك ؟ ما هي وجهة نظرك كغريب ؟
- وجهة نظر فردية . فأنا عملت هنا ، على نحو خاص ، كطبيب ، اذن فأنا لم أطلع الا على مشاكل كروس - ريفر وأهلها . انهم بحاجة الى باقي البلاد . ربما ، ليس لديكم هناك في الجنوب ، انطباع بانكم بحاجة اليهم . اما هم فانهم بأمن الحاجة اليكم .

- أجل ، وهذا سبب كاف كي نتخلى عما حاولنا فعله . لكن ، حسب رأيك ، هل سينتهي الامر بهؤلاء الناس ، لان يدركوا فداحة جريمتهم ؟
- قد لا يكون ذلك قبل عشر سنوات ، لكن . . . (واقترب من النافذة التي كان أوفي ينظر منها) . أنت ترى تلك الارض ، حسن ، انها المقبرة غير الرسمية لمستشفانا . على الاقل ، هكذا كان الامر ، قبل وقت قصير .

فصفر زاشي ثم قفز .

- كيف هذا يا دكتور ؟ فأنا لا أرى شواهد قبور .

- ليس ثمة شواهد قبور . فال . . . اوه . . . في النهاية ، زعيم الكارتل في كروس - ريفر ، وأنا واثق انكما تعلمان عن اتكلم ، أجل ، هو بالحقيقة شخصية فريدة . . . (ثم أشار باصبعه الى الارض الشاسعة التي لم يكن يبدو فيها شواهد قبور ولا أضرحة) . فهو في كل حجة من حجاته الاسلامية ، يعود بأحد محاسنيه كي يوليه منصباً من المناصب الهامة في المنطقة ، بما في ذلك ، والأسفاه ! خدماتنا الطبية . اما الطرق الحديدية فانكما تتذكران كارثة كاباجي ولا شك ؟ اذ كان يقود القطار شخص اتى به من الباكستان باعتباره ميكانيكيا ضليعا ، رغم انه لم يكن بالحقيقة سوى كناس محطة في بلاده .

- ولم يكتب تقرير رسمي قط ؟

- بالطبع ، لا . لكن القطاع الطبي هو الذي دفع ابهظ ثمن ، ولكي أكون أكثر دقة ، أقول : المرضى ، ذلك ان حاجبا بسيطا جاء الى هنا على انه طبيب كبير ثم استلم منشأتنا ، فهل هناك ما هو طبيعي أكثر من أن يجرب نفسه في الجراحة ؟

هنا ، جرع زاشي كأسه دفعة واحدة ثم سأل .

- دكتور ، ليس هذا حقيقيا . أنت لا تعني انه كان هنا شخص يعمل بالمرضى كالقصاب دون أن يدري الفرق بين الكبد والكلية .

- ربما ، في كاراتشي ، دخل مرة أو مرتين قاعة العمليات لادخال او اخراج المرضى ، لكنني واثق انه لم يقترب أبدا من طاولة العمليات . علمنا ذلك كله حين جري تحقيق . أجل ، ذهبت ضحايا كثيرة جدا حتى غدا ذلك في النهاية أمرا طبيعيا (وأشار باصبعه الى الارض :) احفر هنا قليلا وسوف تجد زملا متحركا ، بل ليست

هناك حاجة للحفر في موسم الامطار ، اذ ما ان تسقط عدة مليمترات من المطر حتى ترتخي القشرة وبكل بساطة يتكشف الوحل عن الموتى ، فهناك كان جراحنا الباكستاني يدفن ضحاياه . دفن منها عشرات وعشرات .

— وكم من الزمن دام ذلك ؟

— قرابة الاربع سنوات ، على ما اعتقد ، ولا تنسوا ان كلمة زاكي هنا هي القانون . كلمة واحدة تقال بان الامور لا تسير على ما يرام ، وينتكم صاحبها المتهور الى الابد . اما الفريب ، فهو عندما يمرض آموري ذلك انه لا يأتي الى هنا قط بل يرسل من يفتش عن أطبائه الخصوصيين في مستشفياتكم الجامعية . فأصر زاشي :
— لكن ، ألم يخضع ذلك السفاح للمحاكمة قط ؟

فهز الآخر رأسه .

— لا رعم ، لا أدلة . أما أقارب الضحايا ، فكان بالامكان اسكاتهم ، (ورفع الزجاجه) . كأس أخرى ؟ الواقع ، أنني حصلت بفضلته على منصبى هنا . لكننى كفو ، اطمئنا .

— هل تعرف زاكي ؟

— هو بالذات ، لا ، لكننى أعرف بعض وزرائه . لقد أوصلوا له كلمة ، فأبى رجل أعمال ، وهو غني جدا . هو وسياسيوكم . . . نهاية المطاف ، لنقل انهم كانوا متفاهمين تماما .

هنا ، نظر اليه اوفي مواجهة ، ثم شرع يتفحص وجهه ، فواجه الطبيب نظرتة بهيئة من يتسلى بعض الشيء .

— بماذا تفكر سيد اوفي ؟ فأقر اوفي بصراحة :

— كنت أطرح على نفسي سؤالا : ترى لماذا بقيت هنا بعد كل ما حدث ؟

— أوه ! لست أدري . الاحساس بالذنب ؟ الحاجة للإصلاح ؟ ليس باستطاعتي الاعتقاد ان هناك ردود افعال متسلسلة في هذه القصة كلها . فأبى ، قبل كل شيء ، رجل أعمال ، انه واحد من اكبر اغنياء كالكتوتا ، وهو لا يولي اهتماما كبيرا لمن يصاحبهم . فالربح ، يا سيد اوفي ، الربح هو فلسفته الوحيدة . في هذا المجال هو لا يعرف التردد قط ، وهو متفاهم كل التفاهم مع قادتكم .

لكن زاشي كان ما يزال مشغولا بقضية الجراح .

— لكن ما الذي جرى لذلك الجزار يا دكتور ؟ هل أرسلوه هكذا بكل بساطة الى بيته دون ان يفعلوا به شيئا ؟ أقصد في نهاية المطاف ، ماذا جرى لذلك الوغد ؟
— أرى أنك لا تدري كيف تجري الامور في كروس — ريفر . لقد نقل الى مستشفى آخر ، وقد حافظ على رتبته وراتبه أيضا . فقط حرموه من ممارسة الجراحة ، وكان ذلك كل شيء . والواقع ، ينبغي القول ان السبب الوحيد الذي

اثرت من أجله بعض الضجة حول هذا الموضوع ، هو أن أحد ضحاياه كان ، بمحض المصادفة ، قريبا لاحد رجال آموري المتنفذين . انها قصة جد معقدة ، فابن عم الرجل المتنفذ كان قد عولج هنا بناء على توصية خادم آخر من خدم آموري . وبالطبع اعتقد قريب المتوفى ، نظرا لأنه كان هناك على ما يبدو خصومات شخصية وما شابه ، أن أحد أعدائه قام عن عمد بتدبير مقتل ابن عمه . ولولا المنافسات الداخلية التي تتصف بها هذه البؤرة الفاسدة ، لكان من المحتمل أن يظل زميلي الباكستاني مستمرا في مجزرتة الى الأبد .

في تلك اللحظة بدأ شيء ما ، كان أوفي على ما يبدو ، عاجزا عاجزا تماما عن تحديد ماهيته ، بالتحرك في ذاكرته ، فسأل فجأة :

— أين درست ؟

— في انكلترا وألمانيا ، لكن أوكد لك . . . (ثم مد ذراعيه) . بل سأريك شهادتي

ان شئت .

— لا ، لا ، طمأنه أوفي ، ليس لدي أدنى شك في ذلك ، بل أنت فقط . . . أجل ،

انت ذكرتني فجأة بشخص صادفته عندما كنت طالبا .

— لا أهمية لذلك ، فتحن الآسيويين يشبه بعضنا البعض الآخر كثيرا .

ثم شرعوا يضحكون ، وقد انفرجوا لذلك .

— ان شئت الجدة ، انتم لا تشبهون بعضكم قط . بل الواقع ، اذا ما استخدمت

تعبيرا آخر ربما تعرفه جيدا ، هو أنك لست آسيويا نموذجيا .

— آه ! حسن ، أنت تعرف هذا ايضا ؟ فقد مارست المهنة في انكلترا طوال

سنتين وأعرف الكثير عن تلك التعابير الخاصة بالجزر البريطانية . فهل هذا يفيظك

كما يفيظني ؟

هنا قام أوفي بحركة تنم عن نفاد الصبر .

— من تراه يتذكر تلك الاشياء الماضية وهي ، كما اعلم ، نوع من الترف ، ردود

الفعل التعصبية تلك ؟ بل من تراه يهتم حقا بالطريقة التي يتصرف بها ذلك العرق

البليد من الاشراف حيالك وحيالي ؟ المسألة الآن هي أن نعرف كيف نرد على

ما يجري هنا .

بعد ذاك خيم صمت طويل ، عادت خلاله انظارهم الى قبور الرمال المتحركة ،

خلف المستشفى . كانت الكراكي المتوجة قد اختفت تقريبا ، لكن جماعات من البلاشين

البيض كانت تجتاز في تلك اللحظة المدى الواسع المقفر ، سعاة تبشر بالفسق وأشباح

صمت اجرامي مدفون في الشواطىء الموحلة ، ظلالتها تتراقص فوق القبور .

— حسن ؟ وماذا ستفعلان الآن ؟

— سنتابع البحث (ثم وضع أوفي كأسه مادا يده) . لقد أضعت من اجلنا

الكثير من وقتك ، فشكرا لك .

هنا فتح الطبيب درجائهم اخرج مخططا مصورا :
- انا اسكن هنا ، واذا رغبتما تعالا فسلما علي متى تشاءان . لكن لماذا لا يتم ذلك هذا المساء ؟ تعالا نتعش معا . فانا متأكد انكما لن تذهبا للبحث عن المتاعب طيلة الوقت . الى اللقاء هذا المساء ؟ (لكن اوفي بدا مترددا) . اؤكد لك ان هذا لن يسبب اي ازعاج ، فانا لذي زوار ، امي واختي وصلتا قبل الاضطرابات تماما . هما تتكفلان بالطبخ وسيكون بامكاننا ان نتحدث (وكان يتحدث بلهجة رزينة) . تعالا اذن ، فمئذ مجيئهما الى هنا ، لم تريا احدا على الاطلاق : اذن سيكون لكما فضل علينا ، فقد وصلتا ونحن في حالة حصار . تصورا : الابواب مغلقة مرتجة ، والصراخ في كل مكان لهذا اؤكد لكما انكما ستكونان بالفعل على الرحب والسعة .

فتدخل زاشي :

- اتفقنا يا دكتور . والآن ، هيا يا اوفي فلم يبق لدينا مانفع له .
- شيكرا ، قال اوفي ممثلا كل الامثال ، فقد يفيدنا ذلك في ان ننسى هذا الجنون كله بعض الوقت .
- حسن ! سوف يقودكما هذا المخطط الى بيتي . انه في القطاع المخصص للموظفين . واذا ضعتما فما عليكم الا ان تسالا عن حي الاطباء .
- سنجدنه ، (ثم مد يده من جديد) . والحقيقة انك ساعدتنا كل المساعدة .
- ماذا سنفعل الان يا معلم ؟ قال زاشي حين اصبحا في الخارج وكان الظلام قد بدا يخيم .

فاشار اوفي الى عداد البنزين .

- اولا ، نملا بنزينا ، بعد ذلك نذهب لرؤية مفتش الشرطة .

وكانا يستعدان لمغادرة محطة البنزين عندما اشار زاشي الى سيارة عابرة :

- انه الطبيب يعود الى بيته . لا شك انه يموت من التعب .

دارت اضاءة اوفي على الطريق العام في اللحظة التي مر فيها الطبيب ، وكانت تجلس بجانبه فتاة ذات ملامح آسيوية واضحة فكبح اوفي السيارة رغما عنه كبحا شديدة .

- ماذا حدث ؟

- تلك الفتاة يا زاشي ، ألم تر تلك الفتاة ؟

- ها ! هي لا تشبه سيليست على الاطلاق ، وان كان هذا ما تريد قوله ،

لا تشبهها على الاطلاق .

فمكث اوفي في مكانه جامدا ، ويداه على المقود ، بعد ذلك هز راسه ثم اقلع ،

- لا ، مستحيل ، لقد بدأت اري اوهاما .

* * *

بفضل المخططُ وجدا البيت بغير مشقة، وقد أتى الطبيب بنفسه ففتح لهما الباب ثم قادهما الى قاعة مفروشة بالسجاد . هناك ، كان ينتصب تمثال كالي (١) على قائمة فيل ، قاعدة منتقاة على نحو مرتجل فيما كانت رائحة البخور تفوح في الجو . على الجدار كان قد علق جلد حيوان من السنوريات ، ربما هو فهد . حدق أوفي النظر اليه ثم انتقل الى سلسلة من أسلحة الصيد ، أما سحابة البخور فكانت تلازم الفراء كما لو أنها منخفض من الارض الى أن تصل الى حزم من ريش النعام . نظر الضيف غير مصدق ، الى تلك الشخصية المدهشة ، شخصية مضيفه ، ثم سأله ان كان يصطاد .

فهز الطبيب رأسه .

— جارنا هو الذي يصطاد . أو بالاحرى كان يصطاد وبعض هذه القطع هي من بين الهدايا التي قدمها لنا منذ زمن بعيد . أما ما تبقى فنحتفظ له بها خلال ... غيابه ..

— يخيل الي أنك لست نموذجاً للصياد .

فابتسم الطبيب بشيء من التسامح .

— نموذج صياد ، وهل هذا موجود حقاً ! هل توجد نماذج بشرية محددة ؟ (ثم بدا وكأنه يود أن يعتذر) . المعدة . هيا بنا الى غرفة الجلوس . فأمي ستغضب اذا ما علمت انكما ما كدتما تصلان حتى ادخلتكما في حلبة النقاش . لكن ، بيدك كل الحق ، فأنا اكره الرياضة العنيفة بكل انواعها . الرياضة !

فابتسم زاشي ابتسامة عريضة .

— اذن ، أنت والمعلم على طرفي نقيض . أتج له ظل مناسبة ولسوف ينقض دون رحمة أو شفقة على حمامات السلام .

فسحب الطبيب غليونه من فمه وبدأ مندھشاً .

— اذن ، علي أن اعترف بأنني لم اصنفكما ضمن نموذج معين وحسب ، بل انني اخطأت في تصنيفكما ، اذ لم يخيل الي انكما من محبي الصيد . يا الهي !! ، اي خطأ ارتكبت ، ترى هل تحبان الصيد حقاً ؟

فغمغم أوفي :

— في الحقيقة ، بعض الشيء ، لكن نادراً ما تتاح لي الفرصة ، كما تعلم .

هنا انفجر زاشي ضاحكاً :

— كان ينبغي أن تراه خلال جولتنا في بداية الامر ، أي قبل أن تفسد الامور لدرجة لم يعد الانسان معها يجرؤ على الظهور وهو يحمل قوساً أو سهماً . يقول : بعض الشيء ... ها لاها ! سنتحدث عن بعض الشيء هذا !

(١) احد الالهة لدى الهنوس .

– اذن ، كان بإمكانك التفاهم جيدا مع جاري ، فهو مهووس حقيقي بالطرائد الكبيرة . انظر قدم الفيل هذه ، انها لواحدة من ضحاياها . أختي هي صاحبة الفكرة بأن نضع تمثال كالي عليها ، فهي ايضا لا تحب الرياضات العنيفة ، لكنها مولعة بقصص الصيد . كان ينبغي أن ترياها ، جالسة ، فاغرة الفم وهو يسلينا بمفامراته الكثيرة . ديدمونة أمام عطيل . انتظر قليلا الى أن تكتشف أنك صياد . . (ومد رأسه من باب الرواق قليلا الى الامام ثم نادى) : ماما! تايبلا ! وصل المدعوان . ترى ماذا تصنعان في الداخل ؟

تجمد أوفي اندهاشا ، فرأى الطبيب ذلك ، بعدئذ استدار في الاتجاه الذي كان الطبيب قد صرخ ، شاكا تقريبا في حقيقة غير معقولة . وهكذا لم ير مضيفه وهو يدنو منه ثم يحدق الى عينيه بشيء من القلق .
– أشعر بسوء ؟

فاستدار أوفي على مهل ثم واجه نظرتة .

– انا . . . هل قلت تايبلا حقا ؟

– أجل ، انها أختي . وقد قلت لك انها في زيارتي الآن .

– اذن هي التي كانت معك في السيارة هذا العصر ؟ حين غادرت المستشفى ؟

– أجل ، أجل ، بل الواقع أنها كانت تنتظر في غرفة الاستقبال عندما كنا نزور

معرض الجثث . . .

فهز أوفي رأسه .

– لا ، هذا غير معقول .

– شاليل .

فاستدار الثلاثة جميعا فيما قرص أوفي نفسه محاولا تنبيهها . فالعينان نفسيهما ، فنجانان واسعان ، والأطراف ، أطراف الغزال ذاتها ، زشيقية ، طويلة ، ذلك الطول غير المعقول . . . وحده الشعر تغير تغيرا جذريا إذ كانت قد قصته حتى مستوى العنق ، وكان أسود لماعا ، مشدودا قليلا الى الوراء طبقاً لطراز موديفلياشي . في تلك اللحظة تذكر ذاك الذي تكلم عن هذا الامر ، ذاك المجهول الذي سار نحوهما في المطعم ، وقد عجز عن تمالك نفسه كما تذكر كم اغتاضت هي منه حينذاك ! هكذا ، ستكون النسخة مطابقة للاصل !! هذا ما قاله ، لكن أتراها كانت تعترض ، وهي غير مدركة ، على ما كان في ذلك الوجه الشيطاني من خضوع مضى زمانه .

– اود ان اقدم لكما كأسا . هكذا قال لهما ، فأنا أرغب في ان نشرب نخب

أجمل زوج صادفته في مدينة الجذام البائسة هذه . كانت لهجته طليانية على ما يبدو . زوج ؟ تساءل أوفي معترفا بأن رقة ذوقه سحرته . أما تقديم كأس من النبيذ فتصرف في غاية اللطف منه .

لم يكف نظر الاخ عن التنقل بين اوفي وتاييلا ، فيما كان غليونه يتدلى من فمه .
اخيرا بدا على محياه وكان لمعة عبرت ذهنه فضرب على جبينه صائحا :
- غير معقول ! غير معقول أن يكون هذا افريقيك ! ثم قفز الى الرواق صائحا:
أمي ، أمي ! تعالي . تعالي فانظري ماذا يجري . اعتقد أن تاييلا وجدت
افريقيها .

كانت تاييلا تتقدم مادة يدها فيما تبعتها امرأة هزيلة مفعمة بالحيوية وهي
تمسح يديها بخرقه على عجل . فجذبها راماث بشدة الى الفرفة .
- انظري ! اسأليه بنفسك . انه هو بالتأكيد ! (كان يقول دون أن يشب في
مكان بعينه بل يشب من مكان الى آخر كعفريت الغابة ، مهتاجا ، منقطع الانفاس ،
متشنجا) . ماذا تقولين عن ذلك ، هاه ؟ ماذا تقولين عنه ؟ كيف حدث أنك لم تري
هذا في أحلامك ابدا ، حاولي قليلا تفسير هذا . .

مدت السيدة راماث يدها الى ضيفها بمنتهى الوقار .
- يجب أن لا توليا انتباها لحماقات ابني ، فهو يعتقد أن باستطاعته تفسير كل
شيء مسببا بذلك الحرج للناس .

وأحس أوفي بيد ناعمة تفرق في يده . كانت السيدة راماث تصل تماما الى
صدره ، فبدت أشبه بسنونو صغيرة تحاول أن ترى ما فوق الاعشاب العالية . لم
يستطع شعرها الملمع بعناية والمرجل على شكل فطر فوق الرأس ولا التجاعيد المحيطة
بعينيها المرفوعتين تعكير الحساسية في وجهها الشبيه بوجه طفلة فضولية . أما
رشاقتها المعتدلة ، الهشة فلم تكن تنتمي الى عالم المطايخ والصراخ والاطفال الذين
يللون ركب جداتهم والازواج الجائعين الساخطين . كانت طيبتها تبدو كبيرة ، واسعة
للغاية ، فأحس أوفي بصورة غريزية أن باستطاعتها أن تستقبل أهل الارض كلهم على
ركبتين دون أن تتخلى عن سكينتها . كانت اليدان ، الجبين ، العينان تشع كلها
هدوءا وحيوية فيها الكثير من التناقض . . ولقد فاجأ أوفي نفسه وهو يحاول أن يرى
فيها تاييلا الطفلة ، اخيرا تخلى عن ذلك .

- حسن ، وماذا عن حدسك المسبق يا ماما ؟

فأجابت تاييلا بدلا عنها .

- لا تبال به . لقد أحسست باهتزازات غريبة عندما كنت انتظر في قاعة
الانتظار ، لكنني لم أنجح في تفسيرها . فنحن في بلد واسع للغاية ، اذن كيف باستطاعتي
أن أحلم حتى . . .

فشرع الطبيب يضحك ضحكا صاخبا ، هاجمته تاييلا على الاثر :
- رويدك ، ألم أقل لك ذلك قبل فترة وجيزة ، ونحن على الطريق لا نعم أم
لا ، أجب .

– كان في المحرك خشخشة وقد شرحت لك ذلك ، فالسيارة تحتج دائما بواسطة الاهتزازات .

كان أوفي يسمع ويرى ولكن ذلك كله يبدو بعيدا كل البعد ، خارج الزمان ، خارج الزمان والمكان تماما ، فهل يعقل حقا أن تحدث داخل هذه الاسرة مناكذات لطيفة بسبب تهكمات أو تحذقات من هذا الفرد أو ذلك ؟

ومن جديد احس بأنه متطفل . هو ، أوفي ، المتطفل الابدي ، ما تراه يعلم عن هذه المشاهد العائلية ، عن واحات السلام هذه ، عن السلام ، عن عوالم آييرو الصغرى هذه ؟ وفي الحال سعدت من أعماقه فكرة مجنونة ، لا تصدق ، اجتاحتها تماما : لماذا لا أتزوج هذه الفتاة وانسى الفوضى الخارجية ؟ الآن على الفور ، ولأقبل التفسير الأكثر اغراء لما لا يصدق : وجود هذه الفتاة هنا ، والتسلسل العجيب للقاء بها ، فلأقبل ، فلأقبل . . . كلا ، لأفرض حاجتي الخاصة الى هذا السلام الذي يتجاوز كل سوء فهم ، وفي الحال تذكر أوفي أيام الشتاء ، فصرخ بضرب من البلادة :

– أرى أنك حافظت على حبك للخرافات ، فسألته الفتاة :

– كم من الزمن مر يا أوفي ؟

– الزمن توقف فجأة . رأسي فارغة تماما . فقالت الام وهي تنسحب :

– سأرى الوجبة .

– وربما عليّ أنا أن اهتم بالاسطوانات ، قال شاليل (ثم اتجه نحو زاشي الذي كان قد ظل واقفا هناك ينظر الى الرجل والمرأة المرة تلو المرة وهو يطرف بأجفانه) .
أتريد أن تأتي معي فالموسيقى اختصاصك ان كنت قد احسنت الفهم ؟
– أجل ، أجل ، يا دكتور .

وهكذا ، ظلا وحيدين في البهو ، فأمسكت تايبلا بذراعه .
– لنذهب الى الشرفة .

هناك استند الى الحاجز ، وشرعت تايبلا تضحك بعدوبة .

« أنا على طرفي الرئيسية وأنت على طرفك الفرعية ، يا أوفي ، ولا بد لتلك الطرق من أن تتقاطع المرة تلو الاخرى لاننا نفتش عن الهدف ذاته : الطمانينة التي هي مركز اللوحة ، وسؤالي الوحيد يا أوفي هو : متى ستتعب من ذلك كله ، متى ستتخلى عن طرفك الجانبية تلك التي تدور في حلقة مفرغة كي تسلك معي طريق التريث والهدوء ؟ » اذ ما ان مرت لحظة عدم التصديق الاولى حتى كانت قد أدركت معنى التقائهما من جديد ، بينما كان هو ما يزال يفتش عن كلماته متسائلا ما الذي سيفير ذلك من بحثه الاول ، قلقا مسبقا من المقارنات غير النزيهة التي كان ذهنه قد بدأ يجريها بين الهدوء الذي يصيب بالعدوى وذلك البحث الدائم الذي كان سيستمر حتى وان تم العثور على ايرييز .

فخلال لقاءاتهما في غربتهما القصيرة ، لم تكن تاييلا تكف عن الدفاع عن وجهة نظرها فيما يتعلق بلب الصراع ، الامر الذي أدى بذهنها للتوصل الى قرار : « تريد الكفاح شبرا شبرا في الغابات رغم ان الشيء الوحيد الذي ينبغي عمله هو الالتفاف واتباع الطريق الذي يؤدي مباشرة الى قلب السلام الدائم » . وبعد ذلك ، الضحكة المسموعة والحكيمة ، جوابا على رده المفعم بالازدراء : « من الذي يبحث عن السلام ؟ ، من له الحق في ان يأمل بالسلام ، او ينتظر السلام ؟ ان من الصعوبة بمكان ان تبغى رديفه التجديفي ، العادة ، فهل تدركين ذلك ؟ » « كنت سأمتنع تماما عن استخدامه حيالك يا أوفي ، لكن أنا في الحقيقة ، لا افرق بين الامرين » .

— هذا العصر ، قال أوفي ، تماما في اللحظة التي كنا نخرج فيها من محطة البنزين مر أخوك أمامنا بالسيارة ، رأيتك ، لكنني قلت لنفسي : هذا مستحيل ! (هنا خيم عليهما الصمت . بعد ذلك سأل) : ترى لماذا أتيت ؟

فهزت كتفيها :

— ولم لا ؟ شاليل موجود هنا ، وأمي تريد ان تأتي وأنا لم أكرس نفسي كراهبة بعد ، كما ان هناك الفرص كلها في ان أسمع من يتكلم عنك . فأنت لست شخصية مجهولة بالطبع .

— آه ! اجل . أتذكر . الشعور المسبق بالانبعاثات العنيفة .

فأخذت تضحك .

— ليس ذلك ما كنت اود قوله . بل كان لدي شعور ...

— والمتدينة ، ما حل بها ؟ سأل وهو يحاول ان يسبر أعماق ذهنها .

— انها دائما هنا ، قالت وهي تلمس صدرها ، تقريبا في الصميم .

فأحس أوفي بنوع من الغضب المفاجيء وغير المنطقي ، ازاء ذلك الهدوء ، وتلك الثقة بأن أمور الدنيا كلها لا تؤثر فيها ، على ما يبدو .

— ربما تفكرين بأن تجدي بفيثك هنا على نحو أسرع ، ولقد نجحت بالمرور فوق كل شيء دون ان يؤثر فيك ، أليس كذلك ؟ او لعلك ، بكل بساطة ، لم تري شيئا على الإطلاق .

— عندما أفكر بذلك !! اذن فقد كان معكما في معرض الجثث طيلة ذلك الوقت . كنت اعلم انه هناك ، لذلك انتظرت في قاعة الاستقبال ، اترك له الوقت للتخلص من عفن الموت . لكنني لم احس لحظة واحدة بأنك أنت الذي كنت معه هناك ، رغم الاهتزازات الغريبة . ففي لحظة من اللحظات ، أصبحت الاهتزازات قوية لدرجة اعتقدت انه سوف يغمى علي .

— هذا ما حصل لراشي .

— نعم ؟ أوه صديقك . في معرض الجثث ؟

— نعم .

– شاليل مصاص دماء ، وانت ، ألم يغم عليك ؟
– كلا ، لكنني شعرت بعد ذلك بأحاسيس غريبة للغاية . لقد رأيت كثيرا من
الاموات منذ ان ولدت ، حوادث سيارات ، ثم مؤخرا . . . لكن هذه هي المرة الاولى
التي أرى فيها الاموات مرتبين في ادراج ، او مثل اللحم على خشبة الجزار .
– ما الانطباع الذي خلفه لك ذلك ، يا أوفي ؟ قل لي .

فهز أوفي رأسه .
– أرى ان هذه سمة من سمات الاسرة ، فأخوك لم يكف عن طرح ذلك السؤال
علي .

وبحركة من يدها استبعدت أخاها ، وكان تلك حالة مختلفة تماما .
– شاليل ، ما هو الا هاءو للمزاح الفظيع ، فلا توله اهتماما . ترى هل قال
لك ان ذلك هو تسليته الوحيدة ؟

أقر أوفي بذلك بعد أن فكر أن الطيب قال له أشياء من هذا القبيل .

فتابعت تاييلا بلهجة مسموعة :
– وهذا صحيح رغم أنني لا أكف عن القول له أنه غير سليم . فهو يؤمن
بالخرافات رغم أنه ينفي ذلك دائما . كما أوكد لك أنه يعبد عملية اخذ الناس الى
معرض الموتى ومراقبة ردود فعلهم ، مؤكدا أنه يتعلم من ذلك الشيء الكثير عن
الانسانية ، فهل يبدو لك ذلك معقولا ؟

ادهشته امكاناتها على الاستنتاج من المرة الاولى . لكن تاييلا لم تترك له وقتا
للرد اذ ما لبثت ان غاصت من جديد في الماضي ، نحو لقاءهما الاول ، حين كانت
مراهقة ومع ذلك مفعمة بالحكمة على نحو غريب .
– أيدعشك أن تراني وانا لا ارتدي لباس راهبة ؟

* * *

وكما هو شأن العينين ، الاطراف ، نبرة صوتها الرزين ، اتخذت تلك الذكرى
شكلا محددًا : سهولة القبول لدى ذهن تاييلا ، اظهار أقل ما يمكن من الدهشة
والتكيف مع الظروف الجديدة كما لو أن الزمن لم يمر . وهناك ، خلف الاشياء كلها ،
كانت تكمن فكرتها القريبة عن أن كل شيء مقدر سلفاً . . .

فبدأ عليها الاندهاش .

– ترى ألم يخبرك شاليل ، بما يجري هنا ؟
– ماذا تعنين بقولك : هنا ؟ في قلب المدينة ؟
– كلا ، أعني هنا بالذات . في المنطقة الخاصة بالاجانب . . . اوه ! أرى ان
شاليل لم يحدثك عن ذلك .

فاحس بالارتباك وبأن صوته يضعف .

– ما الذي يجري هنا ؟ لقد اكتفى أخوك بأن جعلنا نقوم بجولة في معرض الجثث . فهزت رأسها ببطء وهي تنكفيء الى أعماق اعماق نفسها .

– يجب أن تجعله يقص عليك ما حصل لمساعدته . كأن جارنا قد حذره . لكن ما من أحد أخذ ذلك على محمل الجد (ثم توتر وجهها فجأة ، وقد طفئ عليها الإعياء) . ترى ما الذي دفعك الى الاعتقاد أن هناك مكانا واحدا في كروس – ريفر نجا من هذا الجنون يا أوفي ؟

لكن أوفي كان متلبثا هناك ، ينظر الى منطقة الخليج وقد غربت عنها الشمس ، تلك المنطقة التي كان السادة الاستعماريون قد أنشؤوها لاستخداماتهم الخاصة ، بعيدا عن روائح السكان المحليين وخطر الانتفاضات المتقطعة التي كان من المحتمل أن تحدث دائما . كانت منظومة الإنذار عن بعد ما تزال تعمل لصالح النخبة الجديدة بطبقاتها المنسوخة نسخا عن طبقات البيض أولئك الذين كانوا يشكلون جزءا منهم ، وكذلك لصالح بعض المغتربين الآسيويين مثل شاليل . ففي كروس – ريفر كان أحقاد البيض من عهود السيطرة الأولى يسكنون هذه الأحياء المعزولة الفخمة التي لم يكن يمتد إليها الجو البغيض ، جو الحروب المتكررة لأسراب الجرذان المتكدسة في مناطق المدينة المكتظة بالسكان . حينذاك مر ظل انكسار على وجهه ، ذلك أنه كان قد تم بمعنى من المعاني التصدي في وقت متأخر جدا لمشكلة كروس – ريفر . فالجماعات ذات العيون النجلاء كانت تعتمد اعتمادا متزايدا على ذلك الحياد وعلى تلك النزعة الأبوية لدى البيض . وهكذا ، حين بدأ نبع الفضلات ذاك ينضب شيئا فشيئا ، تملك تلك الجماعات الحقد إضافة الى احساسها بالخجل والعار من نفسها وهي تفكر ان منها الكثير من الشحاذين الذين كانوا وخلال فترة طويلة من الزمن ، يعيشون على صدقات الأجانب . ما من شيء كان باستطاعته أن يساعد في بناء الأنا ، تلك الأنا التي كانت قد استحوذت على السكان . فالشاعلون الجدد للمناطق المخصصة للأجانب لم يكونوا قد اكتسبوا الاقشرة البعد ، وكانت أسراب الجرذان تنتظر وهي على أهبة الاستعداد للانتقام ، لتوجيه ضربات قاسية .

– لديك مشاكل كثيرة ، يا أوفي ؟ هل تبحث عن صوت تايبلا ؟ هل أنت تعيس كثيرا ؟

فشرع أوفي يضحك وكأنه يعتذر .

– لا تبحثن في وجهي عن تجاعيد المفامرة المساوية للحياة .

فأشاحت بعينيها ، مرتبكة كل الارتباك .

– لم أكن أريد القول ...

لكنه امسك بيدها بكل رقة .

— كذلك انا . كل ما كنت اريد قوله ، هو . . . انني كنت منشغلا كثيرا او
بالاخرى كنت ساخطا لدرجة التعاسة .

— آه ! اجل . . . هو ذاك . . . سخطك الابدي . . .

— يا الهي ، ماذا جرى ؟ الم يعد سخطا الهيا ؟

— لم اعد اعتقد بذلك ، فهذا يهدد بأن يدوم الحياة بأكملها ان كانت الحياة
هي ما ارى . . . اقصد ما اراه مذ جئت الى هنا ، وما اراه فيك أيضا ، اذ ما من
شيء يهدد الحياة الانسانية له ادنى اثر من الالهوية . لكن هذا غير مهم كثيرا في نهاية
المطاف . الا ترى ذلك ؟

من فوق السفوح المتعاقبة للروابي المنخفضة المعشوشبة ، كانت نظراته تفوص
باتجاه المدينة البعيدة ، وايا كانت تلك المدينة ، لم يكن للحياة فيها اية تلاقة
بمناطق اصحاب الامتيازات . كانت ثمة بعض اشربة من ضوء تحدد الطرق الرئيسية ،
وكان نور خافت يدخل مستنقعات الظلام ، ويخرج فاضحا وجود راكب دراجة منفرد .
فيما كانت أضواء السيارات الاسطع والاقوى تنتقل بسرعة كبيرة من مكان آمن الى
آخر : فأصحاب السيارات كانوا يشعرون أنهم الاكثر عرضة للاذى من الجميع وهم
داخل كبسولاتهم المعدنية القاتلة .

كنت اعتقد فيما مضى ، قالت تايبلا وهي تتأمل السماء ، ان سماء ليالينا
انقى سماء في العالم . لكن انظر قليلا . ان بإمكانني ان اقسام ان النجوم هنا
شموس مشعة ، اجل شمس مشعة ! انها تمتد استطالاتها ، كما تعلم ، مثل بروز
شجرة الكابوك التي تطير في كل مكان . ولكل استطالة لون مغاير : أزرق ، اخضر ،
برتقالي . انظر الى ذلك النجم . انه يشع كالشمس ، الا ترى ذلك ؟

— انني أفكر على نحو خاص بجيوب الرعب تلك حيث تكمن النار ، هناك ،
في الاسفل .

— لنعد اذن ، قالت فجأة . فالوجبة اصبحت جاهزة تقريبا .

وفي الحال انقضت عليهما زوبعة من روائح الاطعمة الشهية المتبلة : بامية .
دجاج ، دهلية ، بهار هندي ، وباذنجان ضمن فيض من التشكيلات الاخرى . دخلا
فاستقبلهما صوت زاشي التذمر الذي كان يقترح الذهاب للبحث عنهما .

— اعلم أن لديهما الكثير مما يقوله واحدهما للآخر ، يا سيدة راماث ،
لكنني جائع ، جائع .

— انت دائما جائع يا زاشي ، نقطة حاسمة .

— ها هو ذا يعاود الكرة . ترى هل ينبغي ان ننتظر طوال الليل ؟

— هدوء ، هدوء ، قالت السيدة راماث ، ثم اشارت اليهم بالجلوس .

وبكثير من الاهمال أدخل زاشي اصعبا تحت الطاولة . لمحہ شاليل الذي كان
يصب المشروب فاعلن :

- ماما ، ثمة من يأخذ الامور على محمل الجد ، فرئيس الجوقة فك زناره .
- ليس هو الا فضوليا مبتذلا ، أكدت تايبلا لزاشي ، اخلع بنطالك ان شئت ،
وسيعيرك شاليل التنورة التي يستخدمها عندما يأكل ، ذلك المنافق .
- يا للأخت الوفية !

- أنا أحلم ، غمغم أوفي ، وهو يرى في دخيلة نفسه عجزه المتعاطم عن الفرق
ولو للحظة واحدة ، في راحة النسيان . فقد كان لديه احساس دائم بأنه ما من شيء
يمكنه تبرير ذلك كله فعلا ، وان السمة الطبيعية لتلك اللحظة محكوم عليها بأن تظهر
أخيرا أنها مجرد مهزلة ، اضفاث أحلام . ماذا كان لديهم جميعا كي يكملوا ذلك
الفصل من فصول الحياة العادية الدنيوية يا ترى ؟ كأس البيرة التي كانت تزيد
وترغي ... أخذها من يد شاليل ، وهو عاجز عن التصديق أنها موجودة فعلا .
شرب جرعة ، فتعرف على المذاق القوي لحشيشة الدينار ... فيما كانت العجوز
الضئيلة الحجم تملأ صحنه من صدر الدجاجة ...

- هل تتذكر اكلة البهار الهندي التي طبختها لك ذلك الشتاء ؟ سألته تايبلا ،
لكن أوفي تلعثم ، فسألت الام :

- الديها استعداد لان تصبح طبخة ماهرة مثلي ؟ فقالت تايبلا بنبرة تحد :
- الا تريدان ان تكوني دمثة او مستقيمة ؟

وفجأة استعداد أوفي تماسكه ثم رفع كأسه المترعة بالبيرة .

- اسمعوا ، لنشرب نخب أعظم اسهام في حضارة الطهو : البهار الهندي .
- وغد ! قالت تايبلا وهي تضحك باستهزاء .

لكن ، منذ بعض الوقت كان شاليل يقف قرب صنوان السفرة وهو يسبر
غور الظلام وراء البيت ثم بدا في صوته نوع من التوتر الهادئ عندما قال دون ان يجول
عينيه عن النافذة :

- اعتقد ان ثمة شيئا ما يجري في البيت المجاور .

* * *

وفي الحال اندفعوا جميعا الى زجاج النافذة يزحم بعضهم بعضا ، ويجيلون
ابصارهم في الظلام ، بينما أخذت ظلال الليل تنبض نبضا مشؤوما فقد كان هناك
دخلاء يحومون حول النافذة ، ملقين نظرات منافية للمرح والزاح . بصوت منخفض
اطلق زاشي لعنة ثم غمغم : « آه ! يا لعنة ! ليس ثمة سلام للمذنب » . بينما كانت
اطباق الطعام تبرد منسية .

صدرت عن شاليل الهادىء والمتحفظ حازوقة مفاجئة في اللحظة ذاتها التي خرج فيها من البيت المنفرد طيف كان انتباههم قد تركز عليه . كان رجلا ضخما اكروش يرتدي صدره قدرة يترنح تحت وطأة التعب من الحياة والتنازل ، فأحسوا جميعا أنه ما من شيء كان يعبر بمثل تلك الشدة عن الانهيار الكامل للارادة الانسانية . لقد كان ينظر بعينين لا تبصران ، أشبه برجل أغمض عينيه عن الامل والخلاص .

— لاحظوا عينيه ، قال شاليل بلا اي تعبير ، لقد فقد عقله .

— ماذا يفعل هنا ؟ سألت السيدة راماث .

— اعتقد أنك قلت أنه رحل ، وان البيت فارغ .

— وأنا أيضا ، غمغم شاليل ، فقالت تاييلا :

— لقد هزل ، ثم اصرت ، لقد نقص الى النصف .

— من هو ؟ سأل أوفي .

— انه مهندس المناجم ، جارنا الذي حدثتك عنه ، وقد أكد لي أنه يعد حقائبه .

انا لا افهم لماذا هو هنا .

كانت عيننا الرجل الذي يسير بين الاسيجة أشبه بعيني رجل ميت غائب عن العالم وكل ما حوله . كان يتقدم ببطء وهو يجز قدميه مترددا وكان يلتفت الى الورا ، ينظر الى البيت ، ثم يعاود المسير .

— لكأنه قد ذاب ، ذاب في بنطاله . لقد نقص الى النصف يا شاليل .

لكن جيرانه لم يفكروا في أية لحظة من اللحظات بدعوته . وفي المنطقة المحيطة بغدير الضوء الذي صنعه حين أضاء مصباح الشرفة — وهي حادثة غير مألوفة لفتت نظر شاليل — كان يمثل خطر وشيك لاحظته الجميع حتى أوفي وزاشي اللذان لم يكونا من الحي . لكنهم انتظروا وهم يراقبون .

— قلت بأنك تستطيع استخدام البندقية ؟ قال شاليل وهو يلتفت الى

أوفي .

— نعم .

— « نصف الدزينة » ترك لنا واحدة ذات طلقتين . انها معلقة في ...

— نعم ، لقد رأيتها ، أتريد أن أذهب لاحتضارها ؟

— اذا أردت . فأنا غير قادر على استعمالها . الطلقات في علبة الكرتون على

الكرسي .

— لكن كيف يمكن لرجل ضخم كهذا أن يدوب على هذا النحو وفي عدة أيام ؟

قالت السيدة راماث وهي ما تزال تتحسر .

— ما الذي كان يصنعه هناك طيلة ذلك الوقت ، أريد معرفة ذلك ، كنت

اعتقد أنه رحل .

عاد أوفي بالبندقية ، وبيت الطلقات مفتوح تلمع فيه كبسولتان نحاسيتان
ثم بدأ :

– قولوا لي ، فبودي أن تكون لدي فكرة ولو غامضة عما يجري .

فاشار شاليل بأصبعه الى أشجار ونباتات متسلقة حول البيت .
– أنا نفسي لا أكاد أفهم الامر (وكانت بقع بيضاء تتحرك بين الاغصان الخضراء
وعيون تلمع بوميض حي) . لكنني ، ما زلت لا أفهم ، لماذا لا يزال هنا ، أو لماذا
اختار أن يتحرر ؟ ثم التفت الى أخته ، أتفهمين أنت شيئاً ؟ فقد كنت هنا عندما جاء
لنا بحاجاته كي نحفظها له . ترى هل قال شيئاً لم الحظه ؟

ومن جديد رات تاييلا المشهد كله . . . الصوت الضخم المنفتح وهو يجرع
الكأس تلو الكأس بانطلاق وراحة بال . كانت قد حاولت أن تكتشف دلائل خوف
على محياه لكنها لم تجد شيئاً منها . فقد كان يشرب بيرته بالطريقة المعتادة ،
مفرغاً الزجاجاة دفعة واحدة . كما كان يتوقف ، يتكلم ، يضحك وصوته الضخم
يرن في أرجاء البيت كله ، بينما كان كرشه الكبير يطفح من صدرته القصيرة التي
يرتديها للمساء . . . ترى ما الذي كان يمر في خاطره خلال تلك الزيارة الاخيرة ؟

ومن جديد راته يدخل عبر البوابة الامامية ، نشيطاً ، صلباً ، واثقاً من
نفسه ، لا كما هو الآن بهيئته الكاريكاتورية وهو يجر نفسه نحو موت محقق بين
اشجار الكرتون (١) « آها – ها ! ظننتم أنني سافرت ، ها ؟ انتم الآن في
قبضتي ، آه ! نعم ، اراد أن يفاجئكم عجوزكم نصف الدزينة فانظروا بماذا شغل
باله . انه نصف الدزينة الوفي ، لا اكثر ولا اقل . لقد اتخذت احتياطاتي . جعلت
الناس جميعاً يعتقدون أنني سافرت ، بعد ذلك تماوت بانتظار أن يمر ذلك الجنون
المرعب . لكنني خرجت لانني شعرت بالوحدة ، اذ لا احد اتحدث اليه وانا اتناول
وجبتي المسائية من الزجاجات الست . فأين الخلل » ؟ كذلك رات تاييلا من جديد
ذلك الكرش الرجراج الذي كان فخوراً به كل الفخر . . . لقد كان ينفجر بالفهقات
المدوية عندما كانت الحشرات تتجمهر بعد المطر ، . . . « كلا ، لن تدور مدة طويلة
حولي . فهي تعلم أنني أسبب لها دوار البحر عندما ابتلع زجاجة من زجاجاتي المسائية
تلك . لا ، لن تقرصني ، بل هي في إثرك يا طبيب ، فأنت هزيل الجسم الى درجة يمكنها
ان تتخذ منك مهبطاً » . كان صوته الراحل يجعل سقف الاميانت يهتز . وكانت الذبابة
الضخمة التعسة ذات الابرة المعقوفة ، تجد نفسها معلقة بحافة موجة هائلة بلهاء
رجراجة فتهرب بحثاً عن قاعدة أكثر اماناً بالنسبة الى طلعاتها الليلية . . . ترى هل
كان ثمة احساس بالضيق في مرحة ذلك المساء ؟ هل كانت شدة النبرة توحى بدنوه
من الانهيار ؟

(١) نباتات حرجية برية .

« أوه ! دكتور شاليل ، أحس أن قلبي خفيف كل الخفة هذا المساء . أحس ، أن ذهني خفيف ، روحي ، بل أحس أن معدتي خفيفة الى درجة لا تصدق . . . نعم ، ذهبت في رفقتهم هذا العصر ، رافقتهم جميعا الى مركز السفر بالسيارات . في هذه الساعة ينبغي أن يكونوا قد أصبحوا في منتصف الطريق الى البيت ، بعيدا عن الخطر . وغدا صباحا ، سأتابعهم . فعلي أن أهتم بآخر الترتيبات . أنت متأكد أنه لن يزعجك الاهتمام بهذه الصناديق الضخمة ، هل أضايقكم ، ؟ » .

« حسن . هذه آخر الزجاجات الست لهذا المساء . كلا ، ولا زجاجة أكثر من نصف دزينة . ذلك لان المشاكل تبدأ هنا . فانا لا أتجاوز نصف الدزينة في المساء . أخذ حصتي الطبيعية ثم اتوقف ، بعد ذلك أعيد الكرة ، ها ، ها ، ها ها ! لكن ليس هذا المساء . فعلي أن أعد آخر الحاجات . . . » .
ثم رأى ادوين وقد رفع عينيه فجأة .

ارتعشت تايللا ثم أغمضت عينها وقطبت حاجبها وهي تتذكر الرعب الذي اجتاحتهم لانهم لم يحسبوا حسابا للاندازات .

« أما يزال ادوين هنا ؟ » استعادت تايللا في ذهنها سؤال المهندس ، ثم جواب شاليل الراضي عن نفسه : « أوه ! نعم ، بالطبع هنا . فهو المكان الاكثر امانا بالنسبة اليه » .

وكان « نصف الدزينة » يهز رأسه .

— لا لا لا لا ، أرسلوه من هنا بسرعة . ثمة جسر جوي جديد غدا . أرسلوه بالطائرة ، لا تدعوه يذهب بالسيارة . فقال شاليل : « باستطاعتنا أن نحمي ادوين ، لكنهم لن يأتوا بالتأكيد الى هنا . فهم لم يهاجموا أي حي من أحياء المغتربين والاجانب » .

« أنا . . . أنا سفرت اسرتي » ، هذا ما كان يردده نصف الدزينة ، وهو يفهم كما يفعل السكران ، بصوت ما عهدوه من قبل . « لقد أرسلتهم جميعا الى بيثي . . . في مكان أمين » .

وبصعوبة بالغة نهض الرجل الضخم ثم وضع يده على عينيه وخطا خطوات عدة وهو يترنح . نهض شاليل بقفزة واحدة معتقدا أنه على وشك الانهيار ، فدفعه بحركة سريعة من يده « أنا بخير . . . بل أشعر أنني على ما يرام ، أعتقد أنني سأذهب كي أنام الآن » « سأرافقك حتى طرف المرجة » هذا ما اقترحه عليه شاليل فأبعده الرجل الضخم بفظاظة بادية ، دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم عاد الى بيته وهو يترنح .

— لكن ، ما الذي يصنعه ؟ يا الهي ! قال زاشي الذي لم يكن قد فهم شيئا بعد . اذ كان الرجل الذي يرتدي سترة بيضاء مغبرة تفيض على صدرته ، قد توقف

عند الحاجز الصغير الذي يفضي الى بستانه . وكانت الظلال التي تلقيها أضواء الشرفة ، التي كان يتعمد عنها ، تحفر في خديه الواسعين أخاديد أعمق مما هو طبيعي على ما يبدو ، حتى بالنسبة الى أولئك الذين كانوا يرونه للمرة الأولى . حينذاك قفزوا من الرعب ، رغم أنهم كانوا في قاعة الطعام - اذ سقطت طيوف من الاغصان المتدلّية ، رؤوس ، بعد ذلك اكتاف خرجت من الحرش ، وبرزت اشكال صامتة من الليل وهي تدنو منه .

نظر نصف الدزينة بعين محمقة بلهاء ، بعد ذلك قاوم وهو يتقهقر نحو البيت ، طرفا بعينه . كانت تفصله عن أول مطارديه خطوتان أو ثلاث . وكان أولئك يحرسون ، على ما يبدو ، على أن يربوّه ، فاكتفوا باغلاق دائرتهم حوله ، كي يستمتعوا بمنظر الرجل الضخم وهو يوشك على الانهيار متضرعا اليهم أن يحافظوا على حياته .

شرع نصف الدزينة يركض ، فرد مطاردوه بأن انتشروا حول المسكن الذي كانوا يحيطون به احاطة تامة ، فجرى نحو المكان الذي خمن انه سيجد فيه الملاذ . هناك سمعوا المزالج والاقفال تنطلق بشدة ، ثم خيم الصمت .

يا للأبله ! افلتت الكلمة من شاليل بصوت مرتفع . أما زاشي فمقد يديه ثم انهار على الكرسي جائرا :

لا ، لا ، لا يمكن تركه هناك . أنا أعرف هؤلاء الاوغاد ، سيحطمون الباب بين لحظة واخرى ثم يقتلونه .

كان أولئك المطاردون الذين انتظروا طويلا في الظل ، يعتقدون على ما يبدو ان الرجل خرج كي يسلمهم نفسه متيحا لهم ان يذبوه طبقا للاصول المرعية ، لكن تغيرا حدث في موقفهم حينذاك ، وكان اللعبة لم تجر حسب توقعاتهم . فجأة قطع جبل الصمت صوت حجر يرتطم بزجاج ويكسره : تبعته ابحجار اخرى . فبدأ أوفي يتلمس الزناد المزدوج .

بصراحة ، أنا لا اعلم ما الذي ينبغي فعله . ماذا ينبغي ان نفعله يا الهي العظيم ؟ !!

فقفز زاشي .

الهاتف ! لماذا يا ترى لا نتصل بالشرطة ؟

فهز شاليل راسه .

لا يوجد هاتف .

لكنك طبيب ، وهذا حي الاطباء . فكيف لا يوجد هاتف ؟

كان يوجد هاتف واحد ، فسرت تايبلا ، لكنهم نزعوا الخطوط في اليوم

ذاته الذي اتوا يبحثون فيه عن ادوين ، خادم شاليل . قتلوه على العتبة ، ولم يكن

هناك خيار . لقد أرغموا شاليل على تسليمه . كانوا أكثر من مئة . ولم يكن بوسع احد ان يفعل شيئا .

ثم اخذت تنتحب ، فأكملت الام بوجهها الخالي من التعبير رغم عذاب الذكرى التي دمفته ، بقية القصة :

- كنا قد خباناه طيلة النهار ، لكنهم انتظروا . وكنا لا نستطيع مغادرة المنزل . بذل شاليل المستحيل ، اعترض ، هدد ، بل تحداهم و . . . بسبب ذلك ، اجبرونا على البقاء هناك ، في المر ، وعلى التطلع اليه في الوقت الذي كانوا يقطعون فيه عنقه .

- الوقت ليل ، ولا يتوقعون ان تأتي لاغائته . لكنني لا اعرف جيدا الاماكن المجاورة . لو كان باستطاعتكم ، فقط ، ان تضعوا لي مخططا اذ ان علينا ان نصل الى ما وراء البيت . .

فقال شاليل :

- سأتي معك .

- كلا .

- يتعين علينا ان نعيقهم ، تابع الطبيب كلامه دون ان يسمح لنفسه بأن تضطرب . لقد سمعت للتو سقوط الحجر الرابع في البيت . والقذيفة المقبلة قد تكون شعلة ملتهبة . ومن المحتمل انهم سيحاولون تدخينه .

- لا يوجد لدينا الا بندقية واحدة ، لاحظ اوفي ، اضافة الى ذلك انت لا تحسن اطلاق النار .

لكن شاليل كان قد اختفى في الرواق ومن هناك ، مضى الى غرفة تطل عليه . بعد ذلك بثوان عدة سمعوا صوت واجهتين زجاجيتين وهما تتطايران . ثم عاد الطبيب الى الظهور يحمل بيده قوسا هي ، من حيث المظهر ، نسخة طبق الاصل عن نموذج يباع بالمئات للسائحين في المطارات وامام نوادي الاجانب . بعد ذلك بدأ يتفحص سهما حديديا ، كان قد استله من الجعبة المعلقة في كتفه ثم قال :

- هيا بنا ، لقد درست الرمي بالسهم باعتباره طريقة تأملية ، لكنني جعلت معلمي يئس ، اذ كان عاجزا عن الاجابة على احد أسئلتى بصورة مقنعة : لماذا اللاهدف لا يكون هدفا ؟ وحيث انني لم أتوصل الى اليقين فيما يتعلق بهذه النقطة ، فقد ظللت باستمرار مترددا بين الفرضيتين . فقد كانت كلتاها تعجبني . هيا بنا ، لكن هل يعرف قائد الجوقة قيادة لسيارة ؟

- زاشي ؟ بالطبع .

- حسن ، اذن ربما ستضطرب لاطلاق النار ، وفي هذه الحالة عليه ان يعتبر ذلك اشارة للذهاب والبحث عن نجدة .

- وفي الحال صرخت أمه .
- وتركوننا هنا وحيدتين ؟ فطمأنها أوفي .
- كلا ، سيكون عليه أن يصطحبكما معه . كما أنهم سيكونون مشغولين كثيراً
مد مفاجأة اطلاق النار . فانا لا اعتقد أنهم يتوقعون شيئاً من هذا القبيل !
- فوافق شاليل .
- ان كانت هي العصاة نفسها التي قتلت ادوين ، وانا متأكد من انها هي ،
هم سيكونون على قناعة تامة باننا لن نتدخل .
- لا تتوقف يا زاشي ايا كان السبب . واذا قفز أحدهم امام السيارة لا تكبحها .
فطمأنه زاشي .
- باستطاعتي القيادة والاطر الاربعة فارغة من الهواء .
- أوفي . . . وكانت تلك تايبلا .
- نعم ، سنكون متعقلين .
- قال ، ثم تسللوا عبر الباب الخلفي الى الخارج .

* * *

- أحد ابواب البيت المحاصر اهتز اهتزازا عنيفاً ، فسأل شاليل الذي كان يجلس
للقرفصاء تحت السياج بقرب أوفي :
- الم يحن وقت اطلاق طلقتك الاندازية ؟
- لم يحن بعد . من جهة اخرى لا اعتقد أنه يجب اطلاق النار لارهابهم فقط .
- هل تستطيع الرؤية في هذه الظلمة ؟ انا لا أستطيع ذلك .
- لا تحاول البحث عن الوجوه . عين مواقع البومات البيضاء ، فمعظمهم يلبس
تيابا ذات لون ابيض ، ابيض مغير لكن في النهاية . . .
- فاخذ شاليل يبحث في الظلمة .
- آه ! نعم ، رأيت ما تقصده .
- لنحاول ايجاد الباب الخلفي الذي حدثتني عنه .

انطلق شاليل امامه ثم اندفعا محنني الظهرين . وعلى بعد امتار عدة توقفا
وقبالتهما طيف يلبس قفطانا ابيض ويجلس القرفصاء وفي يده خرقتان ووعاء معدني
وضعه على الارض .

- وسرعان ما صدمت مناخيرهما ، في قلب الليل الساكن ، رائحة البنزين الحادة .
- قل لي الا تعتقد ان الوقت قد حان الان ؟ همس شاليل .
- ربما كان علينا ان نجرب سلاحك اولاً ؟ فهل أنت واثق من انك تجيد الرمي
بالقوس ؟

لكن شاليل كان قد وضع سهمًا في القوس .
- انها المرة الاولى التي أسدد فيها الى هدف انساني .
- الا بالمبضع ، اليس كذلك ؟ حسن ، حاول أن تتصور أنك تفعل الشيء ذاته .
أطلق السهم لكي تشفى .
- انا معجب بمزاجك البريطاني ، قال شاليل ، وقد أرجع السهم حتى الكتف ،
لكنني بحاجة الى بعض إلتدريب ، فأنا لا أستطيع اخراجه بشكل آخر ، رغم أن هذه
اللحظة لا تحتل التباسا او غموضا . لكن أتريد القول انه ينبغي جرحه فقط
ام ماذا ؟
- أريد القول ان المهندس مريضك أنت .

فصعد شاليل زفرة « آ - آه » ثم أطلق السهم ، تبع ذلك دوي بندقية صيد
ولهب أحمر هائل شق ظلمة الليل .

وفي الحال ، عبرت ذهن أوفي فكرة جنونية قبل أن يستطيع قياس الاثر الناتج :
ترى هل كانت تلك هي القوة السحرية لرامي السهام الشرقي ؟ فشاليل نفسه كان
قد انحنى فجأة من التأثير ، ثم جلس القرفصاء ، وكان دوي الطلقة قد طمس صرخة
المكلف باشعال الحريق عند الباب الخلفي ، كما كان واضحا أن تلك الطلقة صدرت
من مكان آخر في البيت . في اللحظة التالية رأيا نافذة صغيرة تفتح في مكان غير بعيد
عن الباب الذي كانا يحاولان بلوغه ، ثم وجه رجل قلق يفحص الاماكن المحيطة ، بعد
ذلك أخرج الرجل ساقه ، وهو راض ثم شرع يزلق كتلته الثقيلة من الفتحة الصغيرة .
كان أوفي اول من رآه ، وأشار اليه باصبعه .

- أهو هذا ؟
- اوه ! أجل . انه نصف الدزينة ، فهل هو من اطلق النار ؟
- هيا ، أسرع لمساعدته في الخروج وسأبقى هنا واغظيك .
- يا الهي ! يخيل للمرء أنك فعلا . . .
- أسرع !

ثم بدا أوفي يلقي نظرات قلقة حوله ، وهو يراقب المشهد المضحك الذي كان
يجري في النافذة . اذ كان شاليل على ما يبدو ، قد تصرف تصرفا ذكيا بأن غمغم
لتعريف الرجل بنفسه قبل أن يمسكه من خصره ويحاول تمريره بالقوة عبر الفتحة
الضيقة . تلا ذلك تبدل سريع صامت ، اذ رأى أوفي شاليل وهو يقفز ثم يمسك بمسند
النافذة ويختفي في الداخل . وكان ما يزال مستغرقا في سلسلة الحوادث العجيبة
تلك عندما أحس بشخشة الاوراق الميتة ورائه تماما ، فتجمد في مكانه اذ سمع تنفس
صوت رجل قريب الى درجة بدا معها وكأنه سيعثر به لو خطا خطوة واحدة أخرى .
كتم أنفاسه تماما اذ كان متاكدا ان الآخر يجهل وجوده ، وأن عينيه مشدودتان الى

النافذة . خطا الرجل خطوة الى الامام ، فاستدار اوفي على ركبتيه معتمدا على سمعه وحده ثم ضرب سبطانة البندقية في الاتجاه الذي اعتقد ان كتلة العدو موجودة فيه . سمع فواقا مكتوما فانحنى جانبا ، بينما كان الرجل المنحني ، بتأثير الألم ، ينهار منكبا على التراب . وبلا تردد أمسك اوفي بالبندقية من الطرف الآخر ثم ضربه باخمصها على رقبته : فكف الرجل عن الحراك . ومن جديد توجه بنظره الى النافذة ، فرأى شاليل يستدير معطيا بندقية اخرى لنصف الدزينة ، قافزا بعد ذلك الى جانبه . ثم بداا كلاهما يجريان ، وهما منحنيان . كان شاليل يبدو وكأنه يدفع الآخر بمرفقه كي يجعله يتقدم . بعدئذ التقط قوسه وجعبته ، وقد بدا عليه شيء من ضيق النفس ، ثم دفع نصف الدزينة باتجاه بيته مغمفما :

- هيا ، يا عزيزي . لقد تأخرنا كثيرا هنا .

في تلك اللحظة ، حدثت فرقة عنيفة جعلتهما يدركان انه تم اقتحام الباب الرئيسي أخيرا . وخلف بيت راماث ، سمعا سيارة تقلع . فمن الواضح ان زاشي ، الذي خدعه مصدر الانفجار ، كان ينفذ الاوامر . هز راماث ، الذي فهم ما يجري ، رأسه وقد بدا عليه الضيق ثم عادا الى البيت واغلقا الباب بالمفتاح . اما اوفي فقد اتجه الى نافذة تطل على الجهة التي قدم منها ، ثم انضم الى الآخرين في القاعة وهو مقتنع بان أحدا لم يلمحهما .

كان شاليل في تلك اللحظة قرب صوان السفارة وبعد لحظة عاد ومعه ثلاثة اقداح . - اعلم أنك تفضل شرب بيرتك المعتادة ، لكنني الآن وبصفتي طبيبا انصحك بشرب هذه .

فاطاع المهندس ، دون أن ينطق بكلمة ، ثم أفرغ كأسه دفعة واحدة ، بعد ذلك مكث وقد تدلى رأسه على صدره ، يحمق الى الارض بنظرات بلهاء ، أشبه بقرد ثقيل الحركة ، نصف مخبول ، نصف واع ، يجهل مكان وجوده .

- هل تريد أن تفتسل ؟ هل أنت بحاجة لشيء ؟ ..

لكن الامر المدهش أن الآخر كان يفهم ما يقال له . لقد هز رأسه ثم رفع عينيه للمرة الاولى فرأى الطاولة وعليها أطباق الطعام التي لم تمس . ولبرهة من الزمن تأملها بعينين نهمتين وكأنه يحاول استيعاب ما يعنيه ذلك . أخيرا نهض بهيئة المصمم ، ثم سحب كرسيه جلس عليه وأخذ يأكل .

تطلع شاليل واوفي واحدهما الى الآخر ثم هزا اكتافهما وجلسا الى جانبه يأكلون بصمت .

كانت خوضاء الخارج تكشف عن ان نهب البيت كان ما يزال مستمرا . فالمهاجمون كانوا قد دخلوا هناك يفتشون عن طريدتهم بغيظ متعظم . اما الرجل الذي انقذ من الخطر فكلن يأكل دون توقف ودون أن يبدو عليه اثر من خجل . وهكذا

بدأت أفخاذ الدجاج وجبل الارز المشبع بالبهار الهندي تتلاشى كلها دون اثر ، اضافة الى دزينة من اشياء اخرى اخذت من صحون صغيرة ، وذلك كله دون أن ينطق بكلمة واحدة . اخيرا توقف ، مسح شفثيه ثم مد يده فجأة فأمسك بقبضة شاليل اليسرى . لكنه اكتفى بتفحص الساعة . بعد ذلك سمح لجشأة عالية ممطوطة بالافلات ثم دفع كرسيه واتخذ وضع من يصفي ، فنظر أوفي الى الطبيب نظرة المستقيم . لكن هذا هز كتفيه ، متفحفا الرجل بانتباه شديد ، مشيرا برأسه وكأنه توصل الى فهم الحالة قائلا : « صدمة » .

• فوافق أوفي •

بعد ذلك بأربعين ثانية تقريبا ، سمعت آذانهم رجة أرضية ، او على الاقل ، ذلك كان انطباعهم . فقد بدأ الامر بانفجار مرعب ، ثم ارتجت الارض تحت اقدامهم بعنف شديد ، انقذف على اثره التراب على النوافذ كما اندلع لهب هائل في السماء الليلية . كان شاليل واوفي يلتفتان الى كل الجهات باحثين عن مصدر ذلك الانفجار الذي بدا وكأنه انطلق من كل الجهات في وقت واحد ، فاحتارا في أي اتجاه يهربان . أما الرجل الضخم فكان ما يزال هادئا . لكنهما سمعا بعد لحظات ، عبر السكون الذي أعقب ذلك ، والذي كانت تعكره فرقة الحريق المنتظمة فقط ، سمعا نصف الدزينة يزفر زفرة هائلة ، بدأ بعدها يتكلم بهدوء .

— لا تقلقا بالنسبة الى البيت . فليس فيه شيء ذو قيمة . لا شيء على الاطلاق . لقد كان لطفًا منك أن تأتي يا دكتور لكنني بالحقيقة لم أكن أتمنى أن يأتي أحد لنجدتي . فكل ما كنت أبتغيه هو أن اجذبهم الى الداخل كي يختفوا عن الوجود معي .



كان المهندس نودي قد توقع الحوادث ، لكن دون أن يصدق تماما أن هناك خطرا يهدده ، لهذا عزم على القيام بالتسوية الاكثر شيوعا : ارسال الاسرة الى مكان آمن في الجنوب والثبات في المكان الى أن يزول الخطر . فهيئة المناجم كانت دولة ضمن دولة : لها محطات الكهرباء الخاصة ، وشرطتها الخاصة التي تقوم بالدوريات على أراضيها .

كما كانت قد احتفظت بنظام رواتبها التعسفي الخاص دون أن تؤثر فيه الثورة الصناعية في بقية انحاء البلاد . وكانت بالطبع تدفع ضريبة متفقا عليها الى صاحب النفوذ المطلق في كروس — ريفر : زاكي آموري . بالمقابل كان الكارتل يحرص على أن يجعل مشري الفتن يختفون في الليل بل حتى في النهار ، ولم يكن احد يجرؤ على التحقيق لمعرفة ما يجري . من حيث الشكل ، كان هناك سود مثل نودي ، يتمتعون بامتيازات الكوادر العليا وكان ذلك يناسب أصحاب الهجمات المستمرة والمخربين من

التقايين القادمين من جنوب النهر ضد غطرسة هيئة المناجم . كما كان من السهل التنبؤ بالنتيجة دائما . فمثير القلاقل ، المدفوع من عملاء الكارتل ، كان يطرد ويبعد بناء على اتهامات مزورة أو يوجد مقتولا على طريق مقفر . أما انصار مبدأ الحماية فكانوا يوحدون بين مصلحتهم وبين الحفاظ على احتكار البيض لارضهم ، وكانوا يضمنون ، من خلال جشعهم الطاعي ، استقلال مشاريعهم الذاتي .

وهكذا ، وعلى نحو لا مفر منه ، باتت هيئة المناجم هدفا لرجال آيرو مع ذلك لم يكن نودى يفكر الا بأن تبقى أرض هيئة المناجم مصنونة لا يمسها احد ، وفي حال الخطر كان يعود في الحال الى حرم الشركة موقفا تنقيباته بعض الوقت . كان ، حتى في اماكن التنقيب يشعر وكأنه في بيته : لم يكن يفكر بالخطر بل كان يعتقد ان لديه كل الفرص للبقاء على قيد الحياة . وخلال بحثه عن الفلزات في المساحات المقفرة الشاسعة في كروس - ريفر ، كان عادة ، ينصب مخيما يقيم فيه اسابيع متتالية ، يعيش بصحبة ضيوف الجبال والغابات الهزيلة ، سامحا لعائلات قرود البابوان المتنقلة بالمرور ، متتبعا اثر قط برى قبل ان يقتله . كان قد ولد في كروس - ريفر رغم ان له اقارب في الجنوب بالاصل لكنه لم يكن يعرف وطننا آخر . فقد كان من أوائل السكان الاصليين الذين حصلوا على المؤهلات اللازمة كي يكونوا منقبين في هيئة المناجم ، كان قد ذهب الى كولورادو للحصول على شهادة في هندسة التعدين ، فالتحق لدى عودته بالكوادر العليا في الهيئة باعتباره مهندسا منقبا . لكن لم يكن باستطاعته ان يرضى بأن ينظر الناس اليه كأجنبي في كروس - ريفر ، ولم يكن يفهم ذلك الذي بدؤوا يلقونه في روعه ، فيما يتعلق بالعواقب التي يجرها عليه ذلك : نزع الملكية بالقوة أو الطرد او اطلاق الراحة بل حتى رفض الجيران له . وعندما انتشرت الاشاعات بأن العواقب قد تكون فاجعة على نحو أكبر ، اقتضى الامر من يشرح له ذلك شرحا بطيئا منهجيا . لكنه ظل كالأعمى الى درجة بدت تقارب البلادة ، يعيش في منزله بين انصار مبدأ الحماية التابعين لهيئة المناجم ، وضمن دائرة أصدقائه المهاجرين وشغفه الغريب بالصيد .

كان بعض أوغاد الوسط السياسي قد ماتوا . كما كان المدير الابيض قد دعما مرة او مرتين لعقد اجتماع يناقش فيه خطر بعض العقائد الهدامة التي بدأت تنتشر بين العمال المطواعين حتى حينه . أما المذنبون ، وكان نودى يتذكرهم ، فقد تم التعرف اليهم في هيئة المناجم ومن ثم طردهم . كان يتذكر ان اسم آيرو ، وهي البلدة التي لم يكن قد سمع بذكرها ابدا ، يشير المشاعر ، أما ان يمثل ذلك كله خطرا شخصيا عليه ، فقد ظل بالنسبة اليه امرا عجيبا ، مع ذلك أبعد أسرته عن المنطقة ، لدى بعض الاصدقاء . أما ما عدا ذلك فقد كان يرفض التسليم بإمكانية أي تغير في وضعه كمستهلك عام ومسالمة لبعض المتع العادية التي كان وضعه الاجتماعي الرفيع يتيحها له .

قاد نودي أسرته الى محطة الطرق البرية حيث استأجر لزوجته وأولاده الاربعة مقصورة الدرجة الاولى كلها من حافلة جديدة ، وقد تفحص السائق بعين الخبير فتيين له أنه شخص جدي ومعتدل وأنه قد يكون لديه أسرة يحبها كما يحب هو نفسه أسرته . بعدئذ ظل الى جانب الحافلة الى أن امتلأت بالمسافرين ، حينذاك تساءل لماذا لم يفكر بارسال الجلد الرائع لقنيصته الاخيرة ، ذاك الذي تمت معالجته ، الى الزميل الذي كان سيستضيفهم في ايلوزا . سأل السائق ان كان لديه من الوقت ما يكفي للذهاب الى بيته مدة لا تزيد عن العشرين دقيقة، فطمأنه السائق بان لديه الوقت الكافي . لكنه ، وهو عائد ، أحس ببداية زعر . وعندما غدا على بعد ثمانمائة متر من المحطة تقريبا ، تأكد من ان مصيبة قد حصلت للتو ، أو ان هناك ما يهدد بوقوع مصيبة رهيبة حتى ان يديه تبللتا من العرق وهي تمسك بالمقود وبدات السيارة تسير بسرعة جنونية . سلك المنعطف الاخير فرأى الطريق مسدودا بعربات الشرطة ، وسحابات دخان كثيفة ترتفع هنا وهناك من محطة السفر البري ، فيما كانت ثلاث سيارات مقلوبة رأسا على عقب . وكانت المحطة التي تركها قبل قليل وهي تعج بأناس صاخبين متزاحمين ، خالية تماما . فبدأ له ذلك التحول ، الذي حدث في وقت قصير للغاية ، امرأ عجيبا .

بعد ذلك لمح ، من بين سيارتي لاندروفر تعترضان مدخل المحطة ، وعبر عناصر الشرطة الكثيرة ، الحافلة التي كانت أسرته تستقلها . وكانت الشرطة تسحب منها جثثا تمددها على الأرض .

لوهلة من الزمن ظل يرجو بكثير من اللفظة أن تكون حافلته قد سافرت وأن تكون حافلة أخرى قد حلت محلها . فتلک التي كانوا يخرجون حمولتها المشؤومة ليست حافلته بالتأكيد . إذ كيف يمكن أن يكون الحال غير ذلك وهم لم يأتوا الى المحطة الا بحثا عن أمنهم ! اي دلالة يمكن أن تكون لكل ما يجري هناك ان لم تكن أسرة نودي قد مضت سعيدة ، بعيدا عن الخطر ، في حافلة جديدة كل الجدة يقودها سائق متروا يحسن القيادة عند المنعطفات الخطيرة ولا يتجاوز السرعة عند المنحدرات ، كما يعلم اذا اقتضى الامر ، كيف يتخلى عن حقوقه كي يتحاشى التأخر غير المفيد ، ولا يجهل بان بخشيشا بسيطا يبلغ عدة شلنات يمكنه أن يفتح أشد حواجز الشرطة احكاما . . نظر الى مقصورة الدرجة الاولى والى الحيز الضيق الذي يقع خلف حجيرة السائق حيث المقاعد التي يدير فيها المسافرون ظهورهم له ، فرأى أنه كان مفحما مسودا ، ما يزال الدخان يتصاعد منه ربما بعد اعنف حريق التهم حافلة على الاطلاق . كانت الشرطة تخرجهم واحدا واحدا ، امرأة ، فصيبا صغيرا . . فاندفع نودي ، صارخا صرخة حيوان جريح ، مخترقا صف الشرطة جاريا الى المكان . .

تغلغلت ابخرة بنزين الى جسده كله ، كما سجل بطرف عينه وللمرة الاولى عراقا يجري بين الشرطة وبعض اعضاء العصاة التي هاجمت الحافلة . أخيرا تعرف عبر

موجات الدخان ، على الاجساد التي اخترقتها السهام ، أما الام فكان يبدو على جسمها ما يشبه ضربات الساطور ، ووجه البنت الصغيرة شوهته طلقة بندقية قريبة . وفي اللحظة التي اخرجت فيها آخر جثة ، احس بانها اشبه بلحظة الا رجوع ، لحظة توقف فيها كل شيء : الشيطانات ، المشاجرات العائلية ، مصاريف التعليم ، الجلاءات المدرسية ، ليالي السهر بجانب طفل محموم ، لحظة النهاية للروابط المهمة تلك التي رآها ، اخيرا وفي تلك اللحظة ، تشكل كلا متماسكا كان باستطاعته ان يحدده بكل ما في الدنيا من عبارات محبة . . « نصف دزينة ، يا دكتور شاليل ، انهم نصف دزينة وذلك حين تعدهم وتدرجني ، انا الوالد ، ايضا بينهم : قانا احب ان افعل كل شيء بأنصاف اللذينات . انظر . . طبعاً ، إذا شاءت الصدفة ان يأتي طفل آخر فسيكون المجموع نصف دزينة بدوني ، وإذا أتى واحد آخر أيضا فسيكون المجموع نصف دزينة بغير الام . . . » وتوقفت نظرتة على اطارات الحافلة المقطعة وزجاج السيارة المهشم . بعد ذلك لمح جثة السائق فتذكر انه هو الآخر لم يكن من كروس - ريفر بالاصل . وصل الى مسمعه صوت ثم حطت يد على كتفه ، التفت فوجد ضابط شرطة يسأله :
- هل كان لك احد في الحافلة ؟

ثم كرر الضابط سؤاله المرة تلو المرة ، اخيرا دهش نودي نفسه حين اجاب :
« لا ، لا ، لا احد » . ثم انطلق عائدا الى سيارته .

بعد ذلك بيضع ساعات كان المهندس يفادر وحشة مسكنه ليزور آل راماث . سألته الطبيب ان كانت امراته وأولاده قد سافروا ، فأجاب بالايجاب ، وبأنهم باتوا خارج نطاق الخطر . أبدت الام ارتياحها ثم قالت انه ، وفق ما رواه شاليل ، قد حدثت اضطرابات في المدينة ، فقال نصف اللذينة نعم ، نعم ، اعلم ذلك ، وسأسافر غدا صباحا ، قانا لم اجد الا لكي اودعكم واشرب آخر نصف دزينة لي عندهم ، فأخذ الجميع يضحكون .

في ذلك المساء ذهب الى هيئة المناجم . كان معه مفتاح مستودع المتفجرات فملا سيارته بالجيلينيت ، ثم ابلغ البواب وهو يخرج ، والبواب من كروس - ريفر ، بأنه ذاهب الى بيته في منطقة الاجانب والمغتربين وأنه سيبقى هناك الى أن تنتهي الاضطرابات . « ببساطة ، انا ذاهب ، كي احبس نفسي داخل سور مضاعف ، بعد أن ملأت خزاناً بالبيرة » ، قال ذلك وهو يضحك ضحكة عريضة ، « لسوف اشرب كي اقتل الضجر . وهكذا ، اذا ارادت الإدارة او أي شخص آخر معرفة السبب في عدم وجودي في العمل ، فانهم يعلمون مكان وجودي » .

ثم عاد الى بيته وانتظر ، فقد كان مقتنعا بقناعة مطلقة ، في تلك اللحظة ، انه سيتلقى الزيارة المألوفة قبل انقضاء اسبوع واحد .

رأى زاشي الانفجار وسمعه ، فأسرع كالمجنون الى الفندق الاضخم والاكثر مركزية في المدينة حيث طلب الى المرأتين الانتظار في البهو المزدهم ، فيما كانت مخيلته ترسم

له اشد الصور قتامة للاحداث التي كانت تجري في مكان الكارثة وجوارها . كان يشعر انه ضائع ، عاجز انما صافي الذهن الى درجة غريبة . حجز غرفة لشخصين باسم السيدة راماث ، ثم اخذ المفتاح وعاد الى حيث ترك رفيقته ، وضع المفتاح في ايديهما وأوصاهما بأن تذهبا الى غرفتهما في الحال وان تغلقا عليهما الغرفة الى ان تأتي اللحظة التي تسمعان فيها صوته او صوت شاليل او صوت اوفي . وقبل ان تستطيع المرأتان الاحتجاج كان قد اختفى .

فترة طويلة من الزمن استغرقه الامر قبل ان يتخذ قرارا فيما اذا كان عليه ان يستدعي الشرطة ام لا ، وهكذا ، قبل ان يتوصل الى حل للمشكلة ، طبقا للسنايويوات الخيالية التي صنعها حول الانفجار غير المتوقع ، كان قد أصبح بعيدا عن مركز المدينة ، في طريقه الى منطقة الأجناب ، فبعد كل حساب ان كانت الدوريات العديدة لم تر تلك الإشارة التي تعمي الابصار فهذا لا يعني سوى أمر واحد هي أنها ترفض ان تراها . كذلك لم يكن يعلم جيدا ايها يشكل الخطر الاكبر : شراذم القتلة التي تنتقل بكل حرية ام الجيش الذي لا يقل دموية وصعوبة ضبط ام الشرطة التي كانت بمجملها تحمل النوايا الحسنة لكنها ترهب الفئتين الاخرين .

غادر السيارة قبل ان يصل الى مكان الحصار بشمانين متراً تقريبا وأخذ يرحف عبر الدغل ، اذ كان قد قرر وضع خطة عمل محددة ، وكان من الافضل ان يذهب فيستطلع . وبحذر شديد تقدم عبر ذلك المكان المألوف قليلا ، يستولي عليه الرعب ويتجمد في مكانه كلما سمع صوتا لا يمكنه تحديد طبيعته . وقد بلغ هدفه في الوقت الذي كان يتوقعه على الاقل . كهيكل عظمي ، كان ركام البيت يرتفع مشووما في السماء الدكناء اكبر بكثير مما بدا له وهو بيت سالم في وضوح النهار . كان يمخو المناظر الطبيعية حوله ، مبان ، منشآت . . . ورغم أن ذهن زاشي كان مستعدا لتقبل الكوارث الا انه وجد ان من الصعوبة بمكان كبير ان يقبل الحقيقة . لم يشك زاشي لحظة واحدة في أن الطبيب واوفي ، بفعل مجموعة الاحداث الغريبة ، قد ابتلعتهما الكارثة ، فالجدران الفاغرة أفواهاها والرعب المتقلقل ، ذلك الرعب الشامل والكلي ، كان لها اكثر من ظل مقنع في الليل . وكان ثقب غير مفر كثيرا ينفجر في جدار جانبي منفتحاً على نوع من الجحيم لا يمكن وصفه ، فدار حول البناء متحاشيا تماما الخروج من الدغل .

بعد ذلك لمح الدلالة الاولى : ذراعا مفحمة منزوعة من كتف ، ومقدوفة ، بلا شك ، عبر ثقب في الجدار . كانت قد استولت عليه ، وهو متربص داخل تشعب اغصان منخفض ، روح دعاية مرعبة تصلح لبعض مشاهد السيرك . وكانت عدة كتب قد تبعثت هنا وهناك على المرج . كما كانت هناك شظايا واعناق زجاجات هي بقايا ليال كثيرة من انصاف دزينات البيرة التي كان يشربها نصف الدزينة ، ذلك الشخص العجيب .

لم تكن ثمرة نائمة أو حركة ، بل كانت هناك كل الأدلة على انه لم ينج احد قط .
تقدم زاشي وهو يتخلى شيئاً فشيئاً عن تحفظه ، ثم شرع ينبش وسط الرفوف
المترنحة ترنج السكران وبين الخزف المحطم ، بعدئذ تسلق طاولة حصرها الباب . كان
يتساءل ان لم يكن هناك جدار على وشك الانهيار فجأة عليه . لكن ذلك بدا وكأنه
بات عديم الاهمية . رأى زاشي جسماً ممدداً قرب خزانة فساتين ، فبدا له وكأنه مر
على فرامة لحم ، اذ كان لحمه قد استحال الى خرقة ممزقة بفعل الآلاف من شظايا
الزجاج . صدمت منخريه رائحة بارود حادة فتساءل فجأة ان كانت هناك عبوات لم
تنفجر بعد . . . ثم تعثر . . . لا ، ليس هناك من اثر لذلك المخلوق الضخم صاحب
الميل الانتحارية ولا لمنقذيه . كانت كثرة الزجاج تلفت النظر على نحو خاص ، اذ
كان يخيل للمرء ان اعصاراً شديداً قد مر على بيت من زجاج قاذفاً في كل اتجاه
طلقات رشاشات قوية ثقبت الجدران والسقوف والاجسام . حينذاك لمح شخصاً
ناجياً ، رجلاً يبذل قصارى جهده للخروج وهو يزحف من الحمام ، عبر ثقب في الباب .
كانت قدماه مكسورتين ، وكان شحج كبير دام يغطي جهة كاملة من وجهه ، حتى ليكاد
لا يبصر . لكنه سمع زاشي يرفع يديه صوبه بحركة متضرعة . ظل زاشي برهة
طويلة ينظر اليه ، وقد همد ذهنه وفقد احساسه . ثم راقبه وهو يستنزف قواه
ببطء . وينهار من جديد منكباً على الأرض ، فتساءل ان كان قدمات . لكنه رآه بعد
ذلك يرفع رأسه محاولاً متابعة الزحف خارجاً .

فجأة تملكته رغبة جامحة في أن يعمل ويعمل ، فأخذ يجري في كل مكان من
البيت ، يلقي نظرات على الاجساد ، يرفع الاقراض وحطام الاثاث عله يستطيع التعرف
بسرعة على الرجال المدفونين . لما اقتنع بأنه لا اوفي ولا شاليل كانا وسط ذلك الرعب
ولا حتى في اطرافه المباشرة ، اطمأن نوعاً ما فعاد الى الجريح كما وكأنه اكبر المشكلات
في ذلك الليل . حينذاك فقط بدأ يتساءل ان كان رفيقاه قد التجأ الى البيت .

مكث الى جانب الجريح ، مندهشاً من انفلاق ذهنه على نحو غريب ودائم .
كان يبدو له وكأنما من صنع الخيال أن يعرض نفسه لآلاف المخاطر دون جدوى وهو
يتبش بين الركام والجثث ! تذكر المخاوف التي عانى منها وهو يفكر بأن قتلة آخرين
كانوا يرصدون مكان الانفجار فبدأ يرتجف ارتجاجاً عنيفاً . كان ذلك يتجاوز طاقاته
بل الحقيقة انه رأى ان العنصر الاكثر ادهاشاً في الامر انما هو اشتراكه في أحداث
الليل . حينذاك حمل الجريح على كتفه واتجه نحو البيت .

في الردهة ، نهض السيد نودي وهو يترنج ثم التفت الى الطبيب .

— هل استطيع التمدد على ديوانك ؟ فأنا نعسان وبودي أن انام اسبوعاً
متواصلاً ، اذ لم يغمض لي جفن منذ اربعة أيام . كنت انتظر زيارة هؤلاء القتلة .
— اصعد . ثمرة غرفة للاصدقاء لا يشغلها احد .

في تلك اللحظة حاول زاشي فتح الباب الخلفي فتجمد الجميع في امكنتهم . بعدئذ قفز أوفي الى بندقية صيد ثم اتجه نحو النافذة . وعلى الفور تغير وضع نودي فانطلق يبحث عن سلاح بعيني مجنون ، ثم قبض على البندقية الاخرى التي جعل شاليل يرجع من أجلها الى الداخل عند انقائه . أطفأ أوفي النور . وحاول زاشي فتح الباب من جديد ، وقد تملكه الرعب هذه المرة اذ لم يكن باستطاعته أن يصرح باسمه ، فاطفاء النور المفاجيء أوحى له باحتمالات اخرى . اذ من المحتمل كثيرا أن يكون الناجون من الهجوم قد احتلوا المكان . وهكذا مكث في مكانه متحيرا عاجزا تماما عن تكوين أقل فكرة واضحة . حينذاك أضاء شاليل مصباح الباحة الخلفية وهو يجار : « من هناك ؟ » فارتجف زاشي ارتجاف قسبة في مهب الريح اذ كان على ذلك النحو قد تعرض دفعة واحدة للنور الباهر ، وكان قد ارتاح كذلك . عرفهم زاشي بنفسه فانفتح الباب . حينذاك فقط أحس بركبتيه تخذلانه وما ان أصبح داخل المنزل حتى انهار مع الجريح المبلل بالدم مثله .

— زاشي ، ماذا حدث لك ؟

- وكان كل من شاليل وأوفي متلهفا لمعرفة ما حدث للمراتين .
- ليس بي من شيء ، ليس بي من شيء . انه دم الجريح .
- حينذاك سألا ابن توجده الأم والاخت .

ثم انحنى الاسيوي بسرعة يتفحص الجريح ، فيما أخذ زاشي يروي معامراته . كان أوفي اول من لاحظ التغير الذي حصل للرجل الضخم . اذ حدث بالحقيقة أن حلت اللحظة التي فهم فيها نودي أن ذلك الجريح الذي بهم الدكتور راماث بتضميده ليس الا واحدا من أولئك الذين أرادوا قتله . فحاول الاستيلاء على البندقية من جديد لكن أوفي كان أسرع منه ، وخلال الصراع الذي تلا ذلك خرجت طلقة من البندقية فهشمت ذراعين من أذرع شيفا(١) وانتزعت اطارا من الحائط ، بعد ذلك وحد الرجال الثلاثة جهودهم لتطويعه فيما كان يحاول القبض على الجريح من عنقه . كان يدفعهم بقوة هائلة كمن أصابه مس ، مجيلا عينيه في كل مكان وكان الرجل الذي يحاول الإمساك به لا يكف عن طلب العون من السماء ، أعضاؤه كلها ترتجف والدم يعمي عينيه . أخيرا بدا وكأن نودي قد ضعفت قواه ، ثم أدهشهما أنه أخذ يتخطى بحشا عن الوصول الى النافذة . تنبه أوفي الى ذلك التبديل فألقى نظرة سريعة على مسند النافذة ليرى ان كان ثمة سلاح ، حاول نودي أن يتكلم مشيرا الى حاجته الملحة ، لكن حلقه كان مسدودا . فجأة أخذ يتقيأ تقيؤا عنيفا ، وقبل أن تستولي عليه تشنجات جديدة قاده أوفي الى دورة المياه ، بينما ذهب الطبيب يفتش عن حقيبتة ثم أخرج حقنة ، أما زاشي فقد تخلى عن محاولة معرفة الوضع وانهار منهك القوى على أقرب كرسي .

(١) تمثال كالي المنتصب على قدم المغيل وقد مر ذكره من قبل .

كانوا يعلمون ان الاحتمال ضئيل في ان يروا صليبا ضخما منتصبا على برج الكنيسة فالاحتمال الاكبر هو ان تكون الكنيسة مموهة في مكان كالمكان الذي قصدوه . مع ذلك ، هناك ، حيث البرج الذي كان واضحا تماما انه اضيف حديثا ، كان يمتزج بهيكل الكنيسة قوس كبير مشع من احرف ضخمة ذات لون احمر فاقع تقول : مظلة الامل .

– الامل ! غمغم اوفي ، فقالت تايبلا وهي تضع يدها على ركبته :

– تشجع .

بعدئذ تراجلوا من السيارة ثم تقدموا نحو السور ، كان شخص ما قد ترك داخل البوابة صرة من الخرق وعصا . القى اوفي نظرة حوله على امل ان يكشف مكان صاحبها ، ثم تابعوا السير الى ان وصلوا خلف الكنيسة – هنا تسيثت تايبلا ، التي لم تكن تكف عن النظر من فوق كتفها ، بذراع اوفي . بعد ذلك انفرجت شفتاها :

– اوه ! اعذرني لابد انني خائفة اكثر مما ظننت .

– انت ، بالتاكيد ، لا يمكن ان تكوني خائفة مثلي ، فلا تتصرفي اقل ...

– انظر ! لقد تحركت ايضا صرة الخرق !

فاطلق زاشي صفرة .

– ها ، ذاك الشيء الذي مررنا قربه للتو ! لقد رايتته انا ايضا .

راقبوه بضع لحظات لكن ما من شيء عاد الى الحركة فهز اوفي رأسه .

– عندي فكرة وهي انكما كليكما تريان الرؤى ، اما انا فقد سمعت شيئا ما .

– شيئا ما . تريد ان تقول نوعا من الفمغمة الضعيفة ؟

فهز اوفي رأسه .

– اذن فقد سمعتها انت ايضا ؟

– يا معلم ، انا لا اؤمن بالاشباح ، لكن هذا المكان يفوح برائحة الاشباح .

لم ترفع تايبلا عينيها عن صرة الخرق .

– ربما هو الهواء ، قالت اخيرا .

– اي سكون ، اي سكون مقلق ؟

ولبرهة من الزمن ظلوا بلا حراك ، وهم يصيخون السمع مع ذلك لم يسمعوا شيئا ، لم يسمعوا حتى الفمغمة المكتومة التي بدا لهم انهم سمعوها تتسرب من باطن الارض .

لم يعد باستطاعة زاشي البقاء في مكانه ، فقال :

— هيا بنا ، فليس هنا من شيء . لا بد أننا اخطأنا المكان ، لكن أوفي تقدم .
— كلا ، لا بد من وجود أحد هنا ، سأذهب وأحاول النظر من إحدى النوافذ الخلفية ، فقالت تاييلا : انتبه . ان كان ثمة أحد وكان خائفا فقد يهاجمك .

في مؤخرة المبنى رأى أول ما رأى بابا بدا وكأنه يؤدي الى غرفة الامتعة المقدسة . قرع الباب قرعا لطيفا فلم يلق جوابا . حينذاك هجم على النافذة جاذبا حافتها السفلى قليلا عله يفتح شقا . كان كل شيء مظلم في الداخل . بعد ذلك ، وحينما كان ينتصب واقفا من جديد ايقن انه سمع شيئا يتحرك . دار على عقبه فميز على نحو واضح صوت مفتاح يدور في قفل الباب الذي مر امامه للتو . انفتح الباب قليلا ، ثم خرج رجل ووقف قبالته . كان الرجل يلبس جبة سوداء مهلهلة حائلة اللون ، فتفحص أوفي بنظرة سريعة وجهه ذا التقاطيع الدقيقة التي كانت أشبه بتقاطيع شخص أجنبي كما تفحص بشرته الناصعة وزغب شعره . انه الرجل نفسه ، بدوي كروس - ريفر .

— هل تحتاج الى مساعدة ؟ سأل الرجل ، اسمي آليهو ، وانا اعلم اصول الدين المسيحي .

في تلك اللحظة وصل زاشي وتاييلا فخلصا أوفي من الارتباك المفاجيء الذي وقع فيه . حيا زاشي المعلم فصافح هذا الجميع ، بعد ذلك شرحت تاييلا مهمتهم ، وحين انتهت اضاف أوفي :

— لعلك تعرف الملازم سايبى من القاعدة الجوية ، فهو الذي اقترح علينا ان نأتي للبحث في الكنائس الشبيهة بهذه الكنيسة ، ان كانت إيرييز موجودة فيها أم لا ، ولعل باستطاعتك ان تدلنا على كنائس غير هذه الكنيسة .

فبدا وكان لاسم الملازم الاثر المرجو اذ هز المعلم رأسه .
— قد يكون من المستحسن ان تدخلوا غرفة الامتعة المقدسة وتنتظروا هناك .
أما انا فسأذهب كي استفسر لكم .

لكن الغرفة العارية لم تكن تحوي سوى كرسي واحد .
— ليس لدينا اثاث كما ترون . لكن بإمكان السيدة ان تجلس على الكرسي ،
أما السيدان .. فطمأنه أوفي .

— لا تشغل بالك ، سنكون على ما يرام ، هكذا .

للحظة من الزمن ، تردد المعلم ، وعيناه تنظران الى تاييلا ، اذ كان يود قول شيء ما على ما يبدو . اخيرا ابتسم ابتسامة خفيفة محت التوتر وثقل العناء الذي بدا وكأنه عقد زاوية عينيه ثم قال :
— أنت جميلة جدا .

شكرته تاييلا ، وهي مندهشة سعيدة ، فاستأنف :
- لست جميلة وحسب ، بل ممتلئة نورا (وألقى نظرة على الغرفة الرطبة حوله) . هذه الغرفة تشع ، ولعل هذا بسببك .

ثم استدار نحو الخارج ولدى وصوله الى الباب تردد قليلا ثم واجههم من جديد .

- أتساءل ان .. كنتم تودون المجيء بأنفسكم . بإمكانني الاستعلام واخباركم . لكن ... انا أتمسك بشيء .. فأنا أتساءل ان كانت رؤية الزوار لا تجعل الجو هنا بهيجا بعض الشيء ، فهو كالح للغاية . وفي الحال نهضت تاييلا :

- بالطبع سنأتي ، ان كنت تعتقد أنه سيكون لذلك تأثير حسن .

- منذ زمن طويل لم يدخل حياتهم شيء جميل أو مضيء ... لكن تعالوا وانظروا بأنفسكم ، والرجاء أن تنتبهوا الى رؤوسكم ، بل الافضل أن تسيروا منحنيين .

فتح الباب ، فحدث لديهم انطباع بأنهم اصيبوا بعمى مفاجيء أو أنهم دخلوا ظلمات غير قابلة للنفاذ . مع ذلك ، وصلت الى مسامعهم اصوات عرف فيها أوفي الغمغمة غير المحددة التي سمعها قبل ذلك ، رنين النشاط والانس البشري وقد كتم . بعد ذلك وصلتهم وشوشة طفل ثم جسم خشبي ثقيل ، هو مقعد ولا شك ، يحتك بالارض ، وأقدام حافية تلامس الاسمنت .

لم تكن عيونهم قد اعتادت الظلمة بعد ، حين أحسوا ان دليلهم يتوقف أمام حاجز ويقرعه . بعدئذ أدركوا أنهم باتوا فيما يشبه غرفة أمامية ، هي عبارة عن صندوق مستطيل الشكل قليل الارتفاع ، حقيبته كبيرة الحجم ، منجدة ومبطنة . تلمس أوفي جوانبها فوجدها مصنوعة من الخشب ، ولا ريب ، وقد نقشت عليه نتوءات غريبة . رفع رأسه قليلا فمس السقف على ارتفاع لا يزيد حسب تقديره على متر ونصف . فتح الباب ردا على نداء الكاهن ، فأدرك أنهم كانوا ، بالحقيقة ، قد دخلوا جرم الكنيسة من منتصف المذبح . فهل كان « الباب » نفسه متراساً ضخماً يمكن لأيدي غير مرئية ان تسحبه ؟ كانت الضجة في الداخل قد اشتدت الى ان أصبحت اللغة الموقعة لقفير نحل . بعد ذلك غاصوا في ظلمة أقل حلقة بقليل ، فقال الكاهن :

- سيتعين عليكم ان تسيروا بانتباه شديد .

كانت أيديهم وأرجلهم تلامس المادة البشرية ، خطوط الكفاف للاجساد الفاترة ، وكانت الاجسام تخلي لهم الممر لكن لم يكن باستطاعتهم تمييزها بعد . كانوا يتقدمون ، وهم يتلمسون بحذر شديد ، طريقهم عبر حشوية من أطراف بشرية كثيفة تفترش الارض ، وعيونهم لا تفارق قذال دليلهم الشاحب . فيما كانت النظرات تنبثق من هنا وهناك مائلة الحشوية بحشد من الحجاب . فقد كانت هناك الف عين تدور

باتجاههم ، تلمع لحظة من الزمن ثم تضيع في الظلام . كان أوفي يتصور الخوف والامل والتجدي الفريري في كل عين تتوهج وسط الظلام . اضافة الي ذلك كان هنالك أولئك الذين كانوا اكثر شبها بفراشات ضئيلة الحجم ، ترفرف بلا جدوى وبلا تعبير . انهم الاطفال .

سمعوا غناء ، اذ كف مرورهم عن اغتصاب الاحاسيس من قبور غير مرئية ملأى بأجساد ممددة جاهزة للنحت . ومن وراء تلك الاقدام المشدودة كلها ، من زاوية المعبد حيث الظلام يتكدس ، راحت تنتشر اصوات ثم تتقدم باتجاههم ، عميقة ، منفلقة ، مستغرقة في ذاتها . مع ذلك كانت ، هي الضعيفة الحذرة ، تشكل ما يشبه شالا واقيا فضفاضا ينفي الخوف والياس . لكن كان بإمكان المرء ان يشعر في ذلك كله بالتيقظ ، بالتنفس الخفيف لكلب توقف فور سماعه صوتا غير طبيعي كي يكشف الخطر فيه .

كان احدهم قد سمح للضوء بأن يدخل قليلا من كوى ضيقة . فاخرقت اشعة شاحبة القاعة بصورة موازية للارض لكنها أعلى منها قليلا ، وهكذا كانت رؤوسهم ، وهم يتقدمون ، تطفو فوقها وكلنها منفصلة عن اجسامها .

كانوا يرون النقطة التي يبدأ منها السقف والدعامات قبل ان تختفي في الظلمات العليا ، كما يرون الجدران ، التي كان قسم منها يطفو فيما يشبه الضباب الوهمي ، وبعض اللوحات البدائية لاطفال مجنحين وملائكة ذوي هالات عجيبة . اما البقية المألأى بظلال بشر مضطجعة أو جائية أو جارة نفسها أو موشوشة ، فلم تكن سوى مدفن طويل تشكل الاشعة بالنسبة اليه سقفاً من نور شاحب يتراقص فيه الغبار .

— يخيل للمرء انه في مصنع تحت الارض ، همست تاييلا وقد صدمها الدهول ، فامامهم تماما ، ابتعدت ساق على مهل كما ارتفعت يد واهنة قبل ان تعاود السقوط . اما دليلهم فلم يكن يكف عن الانحناء وتوزيع تربيتاته الخفيفة وملاطفاته بل انه ذات مرة انتصب حاملا طفلا بين ذراعيه ثم توقف وهو يضع اصبعه تحت انفه مشاكسا اياه لكن الطفل ظل هادئا هذوءاً غريباً ، بلا رد فعل ، بلا ضحك ، بل بلا ظل ابتسامة ، بعد ذلك اعاده الى اليدين اللتين كانتا ممتدتين ثم تابعا طريقهم ، والنظرات الثاقبة تلاحقهم حيناً من الزمن قبل ان تتحول عنهم .

اخيرا توقف المعلم امام شكل سداسي من الاسمنت مجهز بغطاء من الخشب . كانت اجران العمودية قد تحولت الى طناجر وكان الوقت ، على ما يبدو ، وقت تناول الطعام ، اذ كانت مفرقة نفوس في الاجران لتخرج منها بنوع من اليخنة تفرغها في طاسة تختفي بين الايدي الممتدة وهي تنتظر . راح الثلاثة ينظرون الى

الطاسات وهي تنتقل من يد الى اخرى على طول الصف ، فحدث انطباع لدى اوبي بأن محتواها ساخن .

— احد الرجال هنا كهربائي ، اوضح الكاهن حائلا بينهم وبين الاندهاش وقد اقام تحت الاجران جهازا كهربائيا يمكننا بواسطته اعداد وجبة ساخنة كل يوم على الاقل .

كانت الاشكال الساكنة تنتصب مجموعة بعد اخرى وكان الاطفال قد نشطوا اذ اعقب ذلك صرخات وتأنيبات وأصوات تهديء ، فبدأ الزائرون ، وقد اعتادت عيونهم الظلمة ، بتمييز حشد كبير من الرؤوس والاذرع . كانت ثمة قطع من قماش معلقة بالضوء ، وكان بإمكان المرء أن يلاحظ وجود اشياء استخدمت حتى ذلك الحين كمخدرات . فالحقائب ، اكياس القماش ، علب الكرتون ، أجهزة الراديو ، اغطية آلات الخياطة ، وعلى وجه الخصوص الحزم اللينة والرخوة التي تشهد كلها على فجائية الكارثة والهرب ، كانت قد سويت كمخدرات ومساند ، وكانت تلك الحزم تبدو في الظلمة غير الكاملة وكأنها تنبض بحياة صلبة ، عنيدة اما الكاسات التي كانت تنتقل بين الايدي والرؤوس ، سواء كانت من خزف أم النيوم أم غضار أم تنك ، فكانت توزع الجوهر الدافئ ذاته ، جوهر النجاة .

لم تكن عينا الكاهن تكفان عن البحث ، حتى وهو يتحدث الى المرأة التي كانت تقدم الطعام في اجران العمادة . اشارت بمرغفتها فاتجهوا نحو جناح ظلمات اخرى حيث كانت الاناشيد قد بدأت . لم تكن الظلمة هناك الا ضبابا رماديا يثقبه مائة شعاع مشوش ساقط من عاكس صوت الجرس . وهناك كانت اثناء تخرج من الصداري واطفال يرضعون محدثين ضجيجا . كما كانت هناك ظلال اجسام مقمطة بلغانف وسخة ترقد دون حراك ، ورؤوس تتدلى على المقاعد لمحها الزائرون بجلاء اكبر . فعلى تلك المقاعد كان ثمة شيوخ ممددون يحاول بعضهم قراءة بضعة اسطر من الانجيل على الضوء الضعيف . وكانوا من حين الى آخر ينشدون الاناشيد ، بصوت رزين مرتعش بتأثير السن . من احد الجوانب ارتفعت همهمة رهينة : فقد كان اثنان منهم جالسين على احد المقاعد ، الواحد بجانب الآخر ، وبين ايديهما كتاب الصلوات ، لكن اعينتهما كانت ، تحلق امامهما مباشرة ، دون ان يكفا عن الترتيل .. « الرب راعي » ، ولا ينقصني شيء . على مروج العشب الغض يريحي . فهل اجتاز هاوية الظلمات ... » .

— سيدي القس ..

— فالتفتوا حيث برز وجه رجل من ذلك البحر الرمادي ثم بدا يقترب ، تخطئه اشعة الضوء . كانت شفثاه المتألمتان تجدان صعوبة في تشكيل الكلمات . فوضع الكاهن يده على كتف الرجل .

– ما الامر ، يا ميخائيل ؟ هل يسوء حالها ؟
– اعتقد أنها تحتضر ، يا سيدي القس !

مر الكاهن امامه ثم اختفى في الضباب ، حيث لحق به الآخرون للتو . ركعت
تاييلا الى جانب هيكل بشري لامرأة ممددة على جانبها وقد ضُمَّت ركبتيها الى
صدرها . كان نصف الوجه يختفي تحت غطاء قطني مثبت في مكانه بخيط يلتف حول
الرأس ، وكانت المرأة تتنفس بصعوبة بالغة . رفعت تاييلا الرأس ثم وضعت على
ركبتيها فيما أخذت المرأة تكف شيئا فشيئا عن مصارعة الموت .

وللتو ، وجد أوفي نفسه ، وجها لوجه ، أمام كائن بشري حطمه الالم والمعاناة ،
وجهه يتلوى وملامحه تتفكك ، هناك حيث كانت الكلمات تخرج مختنقة .
– الكل ماتوا ، كلهم يا اختي ، أطفالنا جميعا ماتوا . هي الوحيدة التي بقيت
لي . فاذا رحلت لن يبقى لي احد ، لا أحد على الاطلاق . . . سيكون علي أن أموت .
لقد تركوني للموت ، وسيكون علي أن أموت . . .

سمعوا تاييلا تتحرك ، تضع رأس المرأة بكثير من اللطف على الارض ثم تنهض
وبعد أن رفعت عينيها صوبهم قالت بصوت هاديء :
– لقد ماتت . . .

انهار الرجل قرب الجسد الذي لا حراك به ثم بدا ينشج . بعد ذلك اقتربت
بعض الظلال ، ثم بدت عبارات الكاهن وكأنها آتية من بعد سحيق .
– انها الوفاة الرابعة مذ بدؤوا بالوصول الى هنا ، فقد توفي الاطفال ، الواحد
بعد الآخر . قبل ذلك توفي عجوز مسن . . .

كانت مجموعة من الناس قد تجمعت حولهم . فبدا على الكاهن وكأنه عاد الى
واجباته . اذ أحني رأسه ثم غمغم : « الرب اعطى ، الرب أخذ ، فليبارك اسم
الرب » . تسرب الخبر الى المدفن ، نفثة من الصقيع في الهواء الذي كان قد بدأ يذفا ،
فتحولت الظلال التي تقيم فيه تحولات مختلفة الدرجات وهي تتزاحم متقاربة ، متطهرة
من مخاوفها الفردية وهي تفتسل بنبع حدادها المشترك ، من هنا وهناك بدأت الصلوات
ترتفع بأصوات مخنوقة ، كما قبلت أم طفلها ، وقد استبد بها حب مفاجيء ثم
ضمتها الى درجة أوجعتها بها ، فيما كانت دموعها تسيل على المرأة المجهولة . كان
الموت قد مد مجساته الباردة في الظلمات الحالكة ، لكن دون أن يترك أثرا من خوف
في القلوب ، اذ كانوا قد رأوا الكثير منه .

قدر الكاهن ولا شك الاحساس الذي راود الزوار بأنهم دخلاء فالتفت اليهم
قائلا :

– لنعد الى غرفة الامتعة المقدسة . سأطلب الى من نحتاج رؤيته أن يتبعنا
الى هناك . فبدؤوا ، وقد شعروا بالارتياح ، يتبعون ظله الذي كان يرسم الطريق

عبر القاعة المحيطة ، قاعة الآلام . فتساءل أوفي في سره عن الانطباع الذي يمكن أن يتركه لدى أولئك اللاجئين كلهم ، وخاصة تاييلا الاجنبية الفاتحة الجمال ، وهي وسط هذا الشفاء كله وسط هذه البأساء . مع ذلك ، عندما غادرت مهد الموت الصلب ذاك ، كان في عينيها بحار واسعة من الحزن ، وبريق معاناة لم يكن يعتقد انه يمكن لفتاة في مثل سنها أن تعرفها .

رأى أوفي ، يعذبه احساس غامض بأن وجوده مزعج ، أن ضيقه يتحول الى سورة غضب حين كان الكاهن يتوقف المرة تلو المرة منحنيا لتهدئة طفل تائر أو الهمس بكلمات المواساة لظل جديد يبرز من الظلمة أو الامسك ، بأصابع متيبسة لعجوز مريض نهض بجسمه الشديد الهزال قبل لحظة من الزمن كي يتلقى تحيته . هوى العجوز من جديد على الارض وقد ارتسمت على وجهه الشبيه بالمومياء ابتسامة غبطة . كانت احدي ذراعيه قد فقدت ، يدل على مكانها غطاء من أسمال وغمد من كاوتشوك . . .

منذ متى وهم يختبئون في هذه المغارة ، كم سرداب آخر للموت ، كهذا السرداب ، ينتظر أن يكتشفه قبل أن يوقف البحث والتفتيش ؟ . . . ميسالا . . . ميسالا ؟ انبعث ذلك الاسم في ذهنه . . . عفونة ، تأريخ بالفحم ١٤ ، مخطوطات تفتت ، كتابات تمحي عند اول تعرض للشمس . . . تضحية شجاعة بالنفس ثم دفن ورقاد ألف من السنين . أهذه هي ماسادا ؟ هل تبدأ الاشياء هكذا دائما ، وهل هكذا تولد الكنوز التي تجلب ماء المعرفة الى افواه الباحثين المتعطشين للمعرفة ؟ مخطوطات البحر الميت ، عظام الموتى الذين لم يحظوا بالراحة قط . فقد ادرك أنه كان يلقي نظرة لا ارادية الى انحاء الملجأ الذي ترك لديه انطباعا بأنه ضعيف سيء الدفاعات . وفجأة خيل اليه أنه يرى حشدا ينقض عليه ، يفتح نفرة في الجدران . . . ثم حديد ونار ، سلب ونهب ، أسوار تتداعى تحت كتل النار . استخراج منهجي للانقاض آجرة آجرة . . . ثم غبار ورماد ، تدرؤه رياح افريقيا الغربية . . .

بماذا يا ترى يشغلون أنفسهم ، علماء الآثار أولئك الذين تقض أيديهم دائما مضاجع اشباح التاريخ ، الا يوجد ما يكفي من الادلة الكلية الوجود ؟ لماذا ترفع الاحجار العتيقة للاتهام وتكشف العظام المفبرة للادانة ؟ دعوا ذلك كله هادئا مطمئنا . علوا التراب فوقهم وحولهم عسى أن يغطيهم العشب ، وتغذي الذرة البيضاء الوافرة اطفال الناجين . ومن الآن وحتى مئة سنة ، حين تنقل البلاد منشأتها الخاصة بصناعة الحديد ، وتبلغ الفكوك الحديدية هذه التلة الغربية المنسية ، لا تدعوا المنقبين يدخلون بين كسرات الخزف ونثراته تلك التي طهرتها الآلام ، أو قرب أجران العمادة وتلك الاسلاك الكهربائية الملتفة حول قاعدتها التفافا غربيا ، ففي نهاية المطاف ماذا تجدي اعادة تمثيل الجريمة تلك التي لا طائل وراءها ما دامت لا تستطيع

منع تلك الاشياء من أن تتكرر ، بل ولا التحذير منها .. آه ! أجل ، تنقيب تنقيب
تنقيب ... غرفه ساحرة ، ساحرة سحرا مطلقا .. تنقيب تنقيب تنقيب ... الا
ترون هذا المزلاج المكسور ؟ انظروا اليه جيدا . كان على المحاصرين أن يدخلوا من
هنا ، فما رايتك في ذلك ؟ تنقيب تنقيب تنقيب . هذا القطاع .. أقترح أن نحفر
هنا ... تنقيب تنقيب تنقيب ... انظر ، يا للحظ ، حقا ! انه هيكل طفل لا عطب
فيه . تنقصه قطعة من جمجمة ، ربما ضاعت بضربة فأس .. لننتبه ، ولنتابع
عملنا بهدوء .. ما الذي كنت أقوله لكم ؟ انه تاريخ رائع تماما . مدهش حقا .
حاولت الام أن تحمي طفلها بجسدها ، هذا جلي تماما ... مؤثر .. مع هذا
الدهان الخزفي ، سيخيل للمرء أنه تمثال لهنري مور .. بالغ الجمال ! وهذا ..
نعم ، هذا الوضع ، كان يصلي ولا شك عندما قتل . هذه الشخصيات الاثنتا عشرة
ضمن ... لا .. لا بد أنها غرفة الامتعة المقدسة .. أنا لا أرى أي جرح ، وانتم ؟
ربما ماتوا مختنقين . هذا يذكرني ببرجوازية كاليه . هدوء الشهداء هذا ، حتى بعد
الكثير من السنين . أما ذاك الذي يتمدد بجانب المذبح ، فيخيل للمرء انه جرح في
مكان آخر لكنه زحف الى هنا كي يموت .. لا نستطيع أن نفتح أصابعه دون كسر
عظم أو عظمين ، انني جد خائف . لكن من المستحسن الحفاظ على المذبح .

« أمر غريب حقا . هياكل ، عندنا هياكل أكثر مما يلزم .. قولوا لي اذن ،
هل تتذكرون آلات الخياطة القديمة هذه ؟ انها للقية ، وافترض ان معظمها جلبه الى
افريقيا المبشرون في العهد الفيكتوري . بالمصادفة أنا أعرفها قليلا ، كما تعلمون ،
لان واحدا من اجدادي المشهورين ...

اتعتقدون ان هذا رماد أجسام ؟ فحم أجسام ؟ فالفحم يتمتع حقا بخواص
رائعة للحفاظ .. سنتحدث بهذا مع ذلك الشاب حين يصل هنا . والفضل في ذلك
يعود الى طبقات الرماد ، على ما اعتقد . رائعة حقا . لا بد ان هذا كان مرعبا .
طائفة غريبة تماما ، لم اصادفت شبيها لها قط . طراز من للمسيحيين الاصوليين على
ما اعتقد ... كانوا يحبون تصوير الملائكة بطريقة بدائية للغاية ، ذلك يذكرني قليلا
بالفتى المسيحي الاثيوبي .. أناس قريبون جدا من اليونان الاورثوذكس ، هؤلاء .
التاريخ غريب ... ولا بد من أن نحاول ايجاد الدلائل على وجود وسيط من أبناء
النيل

كاروتر ! تعال بسرعة ! انظر الى هذا ! الا ترى ؟ من المؤكد انه ليس طراز
زنجيا . انه امرأة ، انظر الى زينة الصدر هذه ! الى هذا العقد . بالتأكيد ليست
هذه مصادفة ، فهي مجوهرات هندية . والعظام .. امسك طرف المتر ، اذا اردت ...
اترى ما أريد قوله أعظام رائعة ، اطراف عجيبة تماما . جميلة ؟

يبدو أنها كانت خارقة للمادة . انظر خط المفكين . الرجل من طراز زنجي ،
بالتأكيد . انه تالف تماما نتيجة الضربات التي تلقاها . لا بد أنه قضى وقتا طويلا

حتى مات . متوحش ضخم . سنضع عليهما بطاقة باسم كازيمودو وازميرالدا ،
ما قواك بهذا ؟ اوه ها هو ذا آخر ...

من قلب الظلمة خرجت يد طفل وشدته من بنطاله ثم سمع أوفي ضحكة
صغيرة فخفض عينيه وهناك على الأرض ميز أوفي الرسوم التي كانت البنت الصغيرة
قد خطتها . كان ثمة قليل من الضوء وكانت الطفلة قد رسمت على مساحة تقارب
التر المتر ، عصافير وبيوتا وحيوانات واشكالا مجردة وكانت تريد من أوفي أن يتأمل
ذلك ، فتوقف ثم ادار الطفلة بيديه . نظر الى عينيها ، فأرهما يتحولان الى
محجرين عاريين ، زالت منهما الى الابد سعادة الابداع ، حتى بالنسبة لاولئك
الدخلاء أصحاب المعاول الذين لن يستطيع شيء منهم من التنقيب في دهايز المستقبل
وقد اكتست بمعطف من رماد .

اجل ، ياكروثر ، لك الحق . هو طفل فعلا من رسم هذه الرسوم على
الحجر ، ما أهمية ذلك الآن ؟ بعد ذلك رأى أوفي مجموعة من الاشياء المتباينة ،
تبدا في زاوية من زوايا مربع الضوء وتمحي في مكان اعلى ، في ظلام الجدار . كانت
البنت الصغيرة قد نحتت ذكرياتها المأساوية عن الكارثة في هذه الزاوية المظلمة : طفل
رضيع بين السماء والأرض غائص في الجمر ... وشخص ملتف بعباءته ، يشرف على
مكان المدبحة ورتل طويل من الضحايا ينتظر ... كانت عينا أوفي قد تعودتا الظلمة
تماما فرأى أن الطفلة أوصلت الرتل حتى الأرض كما رسمت صوراً على الجدار
حتى أعلى مدى تستطيع يداها الصغيرتان بلوغه بعد ذلك كانت ثمة اشكال مدورة .
خبز مقدس ؟ بصل ؟ أم هي بكل بساطة مجموعة صرر ؟ الحيز الذي لم تكن تشغله
مشاهد الذبح والقتل كانت تغطيه أرغفة غير منتظمة من الخبز ، هل كان أحدهم
قد أتى لتوزيع أرغفة الخبز ؟ أم هي الصرر التي كانت منتشرة في كل مكان رمزا
للتشتت ، التفكك ، الاهمال النهائي للذات .

نهض أوفي ثم مد يده مداعبا رأس الطفلة لكنه توقف في الوقت المناسب ، فقد
بدت حركته مفعمة بتعال بالغ الفظاظة . لحق بالآخرين بخطى سريعة ، ثم سحب
صندوق الخشب من جديد فاجتازوا المذبح قبل أن يدخلوا غرفة الامتعة المقدسة .
بعد ذلك أغلق معلم الدين الباب .

— أحد الاخوة الرهبان يسأل عنها ، فهم جميعا يعرفون السيدة بسبب
ملصقات الاعلانات واذا كان احد منهم قد رأى او سمع شيئا عنها فاننا سنعرفه في
الحال (قال ذلك ثم التفت نحو تاييلا) أمل ان لا يكون ذلك قد أرهقك كثيرا ، فربما
كان علي ان لا اجعلك تدخلين

— انا لست ضعيفة كما يبدو علي ، طمانته تاييلا .

— كلا ، لكن ، من المؤسف أن تموت تلك المرأة في هذه اللحظة بالذات ، اذ ان
وضعنا ليس قاتما دائما على هذا النحو ، فسأله أوفي :

— كيف تجدون ما يلزم لتفديتهم ؟ فابتسم الاب :

— الرب تكفل بذلك ، ولدينا امين توريدات صغير ممتاز ، زد على ذلك انه هو الذي اندرنا باقترابكم ، واذا كنا لا نزال على قيد الحياة فالفضل في ذلك يعود اليه ، فسأل زاشي .

— اهو واحد من هنا ؟

— اجل ، وارى انكم لم تلمحوه عندما دخلتم . اما هو فلم يرفع نظره عنكم لحظة واحدة . انه كلب حراسة رهيب . قد يكون عليكم ان تتعرفوا اليه . انه يجيد التخلص الى درجة كبيرة ، وقد يكون مفيدا لكم ذات يوم . (فتح الباب ونادى) : آليو .

فتحرك ما كانوا قد حسبوه كومة خرق ثم اخذ يكبر ، بسلسلة حركات متقطعة كالحركات التي تقوم بها لتجميع دمية ، وهو يتمطي وينقبض افقيا ، الى الامام ، الى الخلف ، الى الجنب متوصلا بذلك الى ان يرتفع في كل مرة عدة سنتمترات . لقد ميزوا شيئا فشيئا محورا مركزيا ، العصا التي كانوا قد لاحظوها وسط الخرق . بعد ذلك راوا ساقا نحيلة ملتفة عليها مثل نبات معرش ، اما الاخرى ، فتكاد تكون اكثر نحولا ، مفككة الاوصال لكنها من حيث المظهر امتن . ضرب الارض وهو يصنع زاوية غريبة . الذراعان وحدهما كانتا قويتين ، فذلك الرجل الميكانيكي العجيب لم يكن على ما يبدو ، قادرا على التنقل الا بقوة دفعهما . فوق تينك الذراعين وفوق الكتفين القويتين برز رأس مستطيل مرتب وفق محور افقي تماما ، وقد خربه الجذري . كانت احدى عينيه مغلقة باستمرار ، وكان طول الجمجمة المدهش يزداد بفعل قبة مخروطية الشكل مشكوكة في الخلف . اخيرا عندما انتهى الرجل من الانتشار اقترب منهم بعدة قفزات قوية الى اليمين . فتعرف الزائرون الى الشكل المألوف ، الى التجسيد الواضح لمقاومة الجسم الانساني ، لعنة بيثة كروس - ريفر ، لتلك الاوبئة التي تعود باستمرار ، لتلك الجائحات التي تنشر العمى ، لتلك الامراض السارية التي تصيب النخاع الشوكي وللذباب الذي يصيب الدهن بالخمول . فجأة سأل اوفي وهو يواجه ذلك الظهور الذي يوشك ان يكون لا انسانيا ، فيما اذا لم يكن التعطش الى الدماء ذلك الذي يسيطر على اولئك الرعاع ، مجرد إرث من المناخ . فعلة كهذه تشبه عقابيل التهاب السحايا او تسمم الدم الذي تسببه ذبابة التسي تسي . ونقص الشعور بالمسؤولية يمكن ان يعزى الى فيروس موجود في الهواء يفرق ضحاياه في لجة الحاجة الى اذلال انسانية اكثر حفا وذلك يجعلها تنسجم مع صورة الهيا الذاتي وامتهانها الذاتي ؟ ام ان هناك يا ترى حالة ميتافيزيكية فعلا تدغى الشر ، تنتشر مثل الوباء وتدعهم عرضة لان يتلاعب بهم رجال مهرة في التخطيط لكنهم بلا شرف ؟ لا بد ان هناك سببا يتجاوز الحسد المادي ، طالما انهم كانوا ، والى حد بعيد ، اندادا لهم في تجزبة الحرمان . لا بد ان هناك سببا يتجاوز الحقد الذي

يشعرون به تجاه حق ضحاياهم في الحفاظ على عاداتهم وهم يعيشون بينهم ،
اذ لم تحصل مذابح وحسب بل اختلطت المذابح بالتلذذ . كان التعطش الشديد الى
التخريب يتجلى في اتساع نطاق المذبحة وفي الاساليب التي كانت تبتكر من أجل
تنفيذها ، لكنهم يفتشون عن تعويض لتحويلاتهم الوحشية وتشوهاتهم الجسدية
بأهانات انتقامية تقذف في وجه الانسانية .

تطلع أوفي الى الحشالة الباقية من ذلك الرجل فذهل ازاء السعادة التي كان
يطلع بها وجهه الموسوم بالجدرى . كان ذلك الشيء ، الذي صبت الطبيعة عليه كل
الشورور وبأقصى خبث مركز ، ذلك الكائن الملتف نصف الاعمى ، الاحذب ، المنفر ،
ذلك الانسان المهزلة ، يستقبلهم بود وسرور صادقين . فقد وجه تحية اجلال الى
معلم الدين وانتظر .

رد آليهو له تحيته ثم سأله :

— هل كل شيء على ما يرام يا آلييو ؟

فابتسم آلييو ابتسامة عريضة :

— ك شي رام (أي كل شيء على ما يرام) .

— ها هم أصدقاء ... وها هو آلييو ، الرقيب الاول وأمين التوريدات
والحارس والرجل الصالح للقيام بكل شيء في معسكرنا .

مدت تاييلا يدها بشيء من العصبية ، فحيا آلييو تحية جديدة واضعا عصاه
بحيوية واضحة تحت ابطه متكئا عليها كي يحرر يده ويصافح اليد التي امتدت
اليه ، بعدئذ صافحه زاشي ثم أوفي وأضاف زاشي الى المصافحة تحية . فبدأ ذلك
وكانه وسيلة للتصالح مع الانسانية ، لعدم رؤية شيء سوى الرمز المشوه ، ذلك
الهيكل الملعون الذي يفلح في الابتسام والنجاة رغم كل الجوائح . تابع آليهو اطراءه :

— اتعلمون ما هو الاسم الذي أطلقه عليه. جماعتنا هنا ؟ اسد الظلمة .

فازدادت ابتسامة آلييو اتساعا أيضا . ومن جديد قدم التحيات لهم كاشفا
عن اعوجاج فظيع في أسنانه الضخمة ، وسط وجهه التالف ، فقال له آليهو :

— ادخل وابحث عن السيد نفوزي واسأله عما اذا كان قد اكتشف شيئا .

لم يلبث وجه آلييو ان تكدر وهو يلقي نظرة ذات مغزى على مركز مراقبته
فطمأنه معلم الدين .

— سيكون كل شيء على ما يرام ، فنحن سنبقى هنا للحراسة . ورغم انه بدت
على المشوه هيئة الارتياب الا انه حيا ثم اطاعه .

— لقد قتلوا قسنا ، قال لهم آليهو ، لكنهم لم يذبحوا انسانا آخر . لقد خرج
لجابهتهم فقتلوه . كان آلييو قد جاء اليها منذ بعض الوقت ، يقيم امام المعبد أيام

الاحد ويستجدي . ذات يوم سأله القس عما اذا كان يود ان يقوم بأعمال صغيرة ، ان يسهر على نظافة المكان ، ان يكنس من حين الى آخر ، فارتبط بنا بهذا الشكل . لكنه ما ان رأى رئيسنا يقتل حتى انقض عليهم بعصاه يضربهم ويشتمهم . كانوا جميعا من المنطقة المجاورة مثله وكانوا يعرفونه جيدا . قال لهم ان عليهم ان يقتلوه أولا ان كانوا يريدون مهاجمة المعبد . أجل ، كنا جميعا ننتظر في الداخل محبوسين ، متمرسين ، خائفين ، مرتعدين ، وكان الرئيس قد أخذ منا وعدا بأن لا نتحرك مادام هو لم يفشل ، رافضا ان يأخذ معه سوى آلييو .

احس اوفي بقناعة يقينية مفاجئة فسأل :
- أنت من كروس - ريفر ، اليس كذلك ؟

فوافق الآخر بابتسامة حزينة .

- لم يكن اسقفا من كروس ريفر وكان علي انا ان أواجه الحشد ، فانا اتحدث لغتهم . لكنه لم يرد الاصفاء الي . ربما كان لمخاوفه ما يبررها . اذ ما الجدوى من اننا ننتمي لمنطقة واحدة ، ذلك ان هناك فروقا كبيرة . فالمكان الذي انتمي اليه ، ينزع الناس فيه الى النظر نظرة تعال الى سكان كانتوا . ولعلمهم كانوا سيغضبون غضبا جنونيا لدى رؤيتي . (ثم اضاف وقد بدا عليه انشغال البال) : لكن من يدري ان كانوا سيهاجموننا عما قريب ؟ عندما يكون الاجانب المزعومون قد طوردوا وذبحوا أو طردوا ، ان كان التعطش للقتل لم يرتو بعد . . (وهز كتفيه) . فسالت تاييلا :

- ألم يمروا بعد ذلك أبدا ؟

- القتلة ؟ أوه ! بلى . مروا وهم عائدون من معسكر أسوأ حالا . كنا متمرسين وصامتين ، تماما كما وجدتمونا اليوم . وبالطبع اعتقدوا اننا هربنا ، هجرنا المكان . مع ذلك توقفوا ، وهم يتساءلون ان كانوا سيحرقون الكنيسة أم لا ، لكن آلييو توصل الى ابعادهم . قال لهم اننا هربنا وتركناه حارسا واننا ندفع له اجرا كبيرا . على كل حال الله وحده يعلم كيف توصل الى اقناعهم فقد اكتفوا بمناكده قليلا ثم ولوا . لكن قبل ان يولوا القى احدهم اليه راسا مقطوعة كهدية ، وقد دفناها هناك ، بجانب قسنا .

وصل المدعو نفوزي عبر غرفة الامتعة المقدسة ثم وقف على العتبة ، بهيئة المدعور ، غير المصدق ، التفت اليه آلييو ، وحين رأى تعبير وجهه أخذ يضحك .

- أعتقد ان من الخير لنا ان ندخل ، فالسيد نفوزي يظن انني مجنون بتمريض نفسي على هذا النحو ، رغم أنني لم أكف عن القول لهم انني لست عرضة للخطر ، لكنهم لا يرغبون حتى بالسماح لي بأن اذهب للتبضع مع آلييو ، ان لم يكن ذلك في الليل .

هز آليو رأسه هزة قوية ثم ابتسم ابتسامة عريضة والتحق بمركزه وهو ينط . فتقدمهم آليو الى الغرفة مقلدا الباب من جديد .

— سيد نفوزي ، هاهم الناس المعنيون ، ثم قام بالتعريف ، فصافحهم الرجل الضخم ، الذي لم يكن يكف عن النظر من فوق رأس الزائرين ، بشيء من التحفظ والتعاطف . بعد ذلك سعل ثم بلع ريقه ، وعيناه تحدقان الى الجدار باستمرار .

— ها ؟ سأله آليو داعيا اياه الى التكم .

— الاخبار ليست حسنة ، أخ آليو . (ثم تردد) لكنها ليست أكيدة . فقال آليو ، تشجيعا له :

— استمر . فهؤلاء الناس يبحثون عنها منذ بعض الوقت .

— نعتقد أنها موجودة في تيموكو وربما هي تحتضر أو ميتة . فقد ادخلت امرأة داخل السور ، مع بذل كل الجهد ، على ما يبدو ، كي يظل الأمر سرا . حدث ذلك ليلا وقد أوصلتها سيارة اسعاف عسكرية ، حتى أنهم أبعدوا الحراس الاعتياديين عن الحاجز . لكن كان بعض رجالنا مختبئين قرب جدران تيموكو حين أتت بها سيارة الاسعاف . وكانوا يتساءلون هل يقرعون الباب كي يسمحوا لهم بالدخول أم يتابعون سيرهم ، فأوهم يخرجون نقالة من السيارة ، فيما كانت ممرضة تمسك بقارورة وأنابيب كاوتشوك مثبتة بذراع المرأة ومنخريها . كان الظلام مخيما لكنهم استطاعوا أن يلمحوا وجهها . لم يكن يبدو عليها أنها تتنفس .

حل صمت طويل ، بعد ذلك صاغ أوفي طلبا :

— بودي أن أتحدث الى هؤلاء الشهود .

— استدعهم ، أمر معلم الدين .

فأحس أوفي بأصابع تاييلا المواسية تلامس ذراعه .

* * *

« ٥ »

الأبـواغ

— حسن ، مهم للغاية أن تكونوا قد اهتمتم ... قرعون ، قرعون ، قرعون ...
 — مهم للغاية أن تكونوا قد اهتمتم كل الاهتمام بتلك السيدة ... قرعون ،
 قرعون ، قرعون ...

كان من العيب أن يحاول تشييت ذهنه على موضوع بحثه . فقد بدأ يفكر
 بالقدم المشوهة لمدير تيموكو الذي كان يلمح ابتسامته العريضة أمامه والذي كان
 يختفي قسم كبير منه خلف مكتب رجب ، ملمع ، مغطى بطبقات من المصنفات .
 أهو قزم ؟ وجعله ذلك يفكر ببيضة مدورة على ظهر نملة ، فتلك الرقبة المتصلبة
 البارزة فوق ذراعين متقاطعتين تجعل المرء يشك كل الشك في أن هناك حذبة في
 الظهر . ربما كان لقلوؤه القريب مع ألييو قد بدأ يشوه رؤيته . كانت موسيقى
 الصنوج تصطدم بنخاع محدثه الشوكي ثم تنبوع عن قذاله لتجلد سطح الطاولة ...
 قرعون ، قرعون ، قرعون . بعدئذ حدث توقف . قرعون قرعون قرعون ... وكان
 ذو القدم المشوهة يبدو وكأنه لا مبال بتلك الموسيقى مع ذلك كانت عباراته تبدو
 وكأنها تتابع الايقاع الطافي على كل شيء .

— هل أنت غير موافق ؟

— أنا ... لماذا ؟

— لماذا ؟ تسألني لماذا ؟

قرعون قرعون قرعون ...

يجب أن يتوقف هذا . ركز تفكيرك . احتفظ بحضور ذهنك كله . فاذا تركت
 إشارة واحدة ، تفلت ، واذا لم تدرك حاستك السادسة الإشارة ...
 — هذا المكان يبعث الفرح في النفس ، قال ذلك وكأنما هو مرغم عليه .

فاخذ الرجل الصغير يضحك كاشفا عن أسنان حمراء وثقوب سوداء ، فقد
 كانت لديه عادة مضغ الكولا .

— الناس في الخارج يعتقدون أنه من معارض الموتى . ومن يدخل هنا يتخل
 عن كل أمل أو شيء من هذا القبيل . لكن هذا غير صحيح . انه عالم منفصل ، هذا
 كل ما في الامر ، عالم منفصل .
 — أ ... جل ...

كانت أفكار الرجل ذي القدم المشوهة تبتعد عن أقواله بقدر ابتعاد أفكار أوفي
 عن أقواله ، وقد احتاج الى وقت طويل كي يدرك ذلك . فالراس الشبيهة بالقبعة

كانت ملأى بأسئلة تتعلق بذلك الدخيل . والعينان اللتان كانتا مجرد شقوق خلفية لمحاجر ضئيلة الحجم الى درجة مضحكة ، كانتا تخفيان نوعا من التحذير . فالبحث الذي كان يبدو تافها تماما وخطرا تماما كان يمتلىء كشيئا فشيئا باحساس داخلي بما سيقع . وتلك الاجوبة المزمورية على تحقيق عادي عن شخص اختفى ...

قرعون قرعون قرعون ..
- مهم للغاية أن تكونوا قد اهتمتم

قرعون قرعون قرعون ..
- كل الاهتمام بتلك السيدة ...

قرعون قرعون قرعون ..

حاول أوفي أن يطمئن نفسه : طز ! أخيرا ! فانا لي الحق في أن أستعلم كأي شخص ! لكن ما كان يطمئنه بطريقة ملموسة اكثر هو أن يتذكر أنه ترك زاشي ينتظره عند الحاجز .

كان الرجل ، بيضة النمل الضخمة ، قد نهض لتوه متوجها نحو النافذة ، وهو يجر وراءه رجله اليسرى المخفية . وكان قصر قامته يظهر على نحو واضح كل الوضوح ، رغم أنه ما من شيء كان يذكر أوفي ، ولو من بعيد ، بطيف آليوغير الجذاب . دفع بذراعيه القصيرتين والمفتولتين النافذة ثم نبج .

- ه .. سى ! انت ! هناك ! كف عن هذا القرعون قرعون قرعون . امض وافعل ذلك بعيدا من هنا .

وعلى الرغم من رغبة قدمه اليسرى بعدم الاسراع ، فقد كان يبدو قادرا على التنقل بسرعة . أخيرا ، عاد الى مكتبه ثم ابتسم .

- لاحظت أن الضجيج يزعجك ، اذ لم تكن تستطيع الانتباه جيدا لمحادثتنا .

محادثة ! هل يعني بذلك تهزيباته التكتيكية ؟

فأخذ أوفي يعترض ، كلا ، الصنوج لم تكن تزعجه على الاطلاق ، فأصر ذو القدم المشوهة :

- الآن ، المكان اهدأ ، وبامكاننا ان نتفاهم .. اجل ، ما الامر يا ترى ؟ وكان يقف عند الباب رجل ، حيا تحية لاعيب فيها .

- نعم ، نعم ، ماذا تريد ؟

- المعذرة ، يا معلم .. لم أسمع الامر الذي اعطيته يا معلم .

- ابتعد بجماعتك من هنا ، فهذا اك : قرعون قرعون قرعون يزعجنا .

- طيب ، يا معلم . ثم حيا واختفى .

- كذاب ، قال ذو القدم المشوهة وهو يصعد آهة ، لقد سمعني جيدا ، (ثم حرك يديه ضجرا) . انها تسلية يتسلى بها على حسابي ، معتقدا أنني لا أعرف شيئا عن ذلك ، لكن كل ما يريدونه مني هو أن أسمعوني أقول قرعون قرعون قرعون . وهذا لا يهمني على الاطلاق . فقد دخلت لعبتهم . وهم سعداء بهذا كما أنه يريحهم ان أعاقبهم . . . أتدري ما هو القرعون ؟ . .

- القرعون ؟ . . انه القوقعة ، اليس كذلك ؟ فهوى بجمع يده على الطاولة - تماما ! وهذا يعني أنهم يسمونني انا المعلم ! قرعون اغبين ! الحلزون الذي يجر قوقعته . لم اكن أعلم أنني أمنح نفسي لقباً يوم صرخت لأول مرة بجماعة السخرة كي يكفوا عن قولهم قرعون قرعون . أما الآن فلم يعد هذا يزعجني في شيء .
- لكن ذلك اثر فيك قليلا حينذاك ؟ قال أوفي وقد شعر أن عليه أن يتكلم .

- ما من احد يحب أن يسخر الناس منه . بل ان قومنا يعتبرون السخرية من التشوهات الطبيعية ضرباً من الخطيئة : اذن ، ما الذي يجعلهم يفعلون ذلك بي ؟ لكنهم ليسوا منا ، بالطبع بل ان معظمهم من أماكن أخرى . أنا لا أريد التهجم عليكم ، الا ان قومكم تنقصهم الشفقة والاحترام ، بالمعنى الذي نفهمه . في البداية ، كنت اعتقد انهم يضحكون من طريقة لفظي . لكن لا ، كانوا يجدون تسلية في ان اصوغ بنفسني الشتائم التي يمكن ان يستخدموها ضدي . نهاية المطاف ، لم يعد لذلك أية اهمية فقد تعلمت كيف أعود عليه . ترى هل كنت يوماً من الايام عرضة للاستهزاء سيد أوفي ؟

- او . . ه . . ه . . و . . بالنتيجة . طبعاً ، هذا يحدث باستمرار .
- فكر بتلك التسلية الخفيفة التي تتم على حسابك ، بتلك الحوادث التي تخلق لديك ، من حين الى آخر ، الاحساس بأنك أحقق . كلا ، ما أريد قوله هو : ان يكون الانسان هدفاً مختاراً للسخرية ، شأني أنا . باستطاعتك ان تتصور هذا بسهولة ، منذ طفولتي ، وطوال المدة التي بقيت فيها في المدرسة ، رغم انني لم أبق فيها مدة طويلة . فأنا بصورة خاصة عصامي . لم يكن لدي مال لاتمام دراستي ، كان علي ان اعمل كل شيء بنفسني ، اشتغل كل شيء . ليس كالأثرياء مثلكم ، آ ؟ أب غني ، عمات واعمام اغنياء . كان علي ان اتدبر أمري وان اتابع الدراسة بالمراسلة ، وكانت مكلفة للغاية ، ليس فقط فيما يتعلق بالامتحانات بل بكل تلك الكراسات التي تراها تصرخ : كيف تصنع الاصدقاء وتكسب ثقة الناس ، كيف تنمي حس الدعاية ، كيف تشرب مائة نخب ونخب ، ثم تلقي خطبة في ختام وجبة العشاء . . . ليس ذلك لانني اذهب الى امسيات وأشياء أخرى ، بل لان ذلك أسهم ، في نهاية المطاف ، بايصالني الى حيث انا الآن (وتوقف فجأة) .

آه ! نعم ، أين وصلنا ؟ يجب ان اكف عن سرد قصة حياتي عليك . نعم ، نعم ، نعم ، نعم ، أين وصلنا سيد أوفي ؟

غير أن الهاتف قاطعه هذه المرة .

- نعم ؟ آلو ! آلو ! ... (وغطى الجهاز بيده الضخمة مبتسما فجأة
ابتسامة عريضة مشيرا برأسه الى أوفي) . أولئك البيض الذين كانوا هنا في السابق ،
ثمة شيء يحظى باعجابهم الشديد ! اللباقة . لقد كنت شابا في غاية اللباقة . انا لست
بصدد الافتخار بنفسى ، فهي هبة من الله ، هكذا بكل بساطة ، اما أن تكون موجودة
لدى الإنسان أو غير موجودة ... رفاقي لم يفهموا قط لماذا اخترت أن اتابع دراسة
تخصصي في انكلترا . والحقيقة لم يكن هناك سوى أربعة مقاعد دراسية متاحة لقسمنا
في البلاد كلها ، وقد حصلت على واحد منها ... آلو ... نعم ، نعم ، الادارة المركزية؟
هنا ، مكتب نائب المدير العام ، نعم ؟ قلت نائب المدير العام . نعم ؟ انا طلبت الادارة
المركزية ، الادارة المركزية ! مصلحة المياه ؟ (وهز جهاز الهاتف غاضبا) . من تراه
في مقسم الهاتف ؟ آلو ، آلو ، أنت ! لماذا تعطيني مصلحة المياه ؟ منذ اكثر من ساعة
طلبت منك الادارة المركزية . كفى سلامات ، بحق الله ، الاولى بك أن تعطيني
ما طلبته منك .

ووضع السماعة بعنف ، ثم نزع نظارتيه وشرع يمسخهما ، شاوفا عينيه على
نحو رهيب ، وكأنه لا يبصر .

- أمر مخجل ، فالروس والامريكان يجرون المحادثات عبر القمر أما نحن فلا
نستطيع حتى الاتصال بالهاتف داخل البلد (ومن جديد ظهرت الابتسامة العريضة
على حين غرة) . اراهن بأن هذا المستخدم يقول للآخرين الآن ان قرعون افلتت الكرة
منه هذه المرة ايضا .

رد أوفي على ابتسامته بحركة تعاطف ثم تطلع الى الخائط حيث راي الراس
مثل قنبلة مدفع تنفجر ، بالمعنى الحرفي للكلمة ، وتتناثر المادة الرمادية في كل مكان .
لكن الراس كانت ما تزال في مكانها ، وكان باستطاعة أوفي أن يتوقع ، وهو يرى
النظارتين ترجعان الى مكانهما ، ما الذي سيقوله تماما :

- ماذا كنا نقول ؟

- انا ابحت عن ...

- آه ! نعم ، تلك السيدة ...

- لو تستطيعون فقط أن تدققوا في سجلاتكم وتقولوا لي ..

- سجلات ؟ آه ! لكنني لم أشرح بعد ، فانا لدي توجيهات بخصوص تلك
السيدة . نعم ، نعم ، من أجل ذلك رايت الامر مشرا جدا أن تأتي الى هنا بعد فترة
وجيزة من وصول تلك التوجيهات الي .

- توجيهات ؟

— كل ما يتعلق بهذه السيدة ، كله على الاطلاق ، يجب أن أقدم عنه تقريراً الى الادارة المركزية (وامسك بملف من الملفات) . هنا عدة مذكرات عن القضية . ها ، ها ، لابد أن تلك السيدة مهمة للغاية .

— اذن ، فهي هنا؟

حرك الرجل اصبعاً مثيرة للسخرية ثم ابتسم ابتسامته المريضة .
— آه ! أنا لم أقل ذلك ، لا لا لا . يجب ألا تجرني الى قول ما لم أرد قوله .
— لكن هذا واضح . لماذا يرسلون اليك تعليمات بخصوص شخص لست مسؤولاً عنه؟

— يا صديقي ، هذا هو ما ندعوه بالمحاكمة المنطقية الرياضية الخاطئة . فليس لهذا علاقة حتمية بذاك ، بالحقيقة . بل أفكر أن علي أن أعيد عليك محاضرتي حول الفكر الواضح والمنطق ، وأنا أقترح عليك الحلول التالية : الاول ، أنها كانت هنا ثم نقلت . الثاني ، لم تكن هنا ابداً ، بل في مكان آخر من منشآتنا ، ولما كنا نتوقع القيام بتحقيقات ، فمن الطبيعي أن ترسل الادارة المركزية تعليمات الى الاقسام . الثالث ، لم توجد ابداً في أية منشأة من منشآتنا لكن ، بما أنها اختفت او تعد مختفية ، فمن الطبيعي ان يرسل لنا اشعار بذلك مثلما يرسل الى المؤسسات الاخرى من مستشفيات ، محطات ، مطارات وغير ذلك . الرابع . . .

فرع أوفي يديه مسلماً :

— حسن جداً . أهي موجودة هنا؟

— آه ! ها هو ذا سؤال لا يستطيع الاجابة عليه .

— من يستطيع الاجابة عليه اذن؟

— الادارة المركزية .

استعد أوفي للنهوض لكن الهاتف بدأ يرن فجأة .

— نعم ، لست بحاجة لمعرفة أين توصلت أم تعتقد انني أرغب بأن اظل طوال اليوم أسمع رن . . رن . كل دقيقتين ، لا لشيء الا لكي تقول لي انك لم تفلح حتى الآن؟ أوه ، آلو ، آلو ! هل ستفصل الخط؟ كم مرة ينبغي أن أكرر أن عليك أن تنتظر الى أن أقول لك : افصل . أنا لست بحاجة لاعتذاراتك . ابعث لي سوپوردو . حسن ، افصل ! ثم غمز بعينه غمزة بدت هائلة بالنسبة الى شق بالغ الدقة كشق عينه ثم اكحل الراس البتاعي .

— انني أقدم لهم منوعات كما ترى ، فأقول رن . رن بالنسبة الى الهاتف ، انما قرعون قرعون عندما يقرع صنج المجموعة في الباحة . . . (وفي الوقت نفسه أمثال رأسه جانباً ثم ابتسم . بعد ذلك فتح أحد الادراج فجأة ، أخذ منه مفكرة وشرع يكتب

باستغراق تام ..) صنع المجموعة يفرع .. ه .. م .. بودي لو تكون هناك عندما أقدم هذا الى الاجتماع المقبل . فعلي أن أكلهم عن هذا كله كل يوم نجتمع فيه ، أعطيهم التعليمات اليومية وما شابه . انه أمر حسن بالنسبة للمعنويات العامة أن يكون لديهم ما يجعلهم يندفعون بقية النهار كله . هزل وجد ، نعم ، هزل وجد ، ذلك هو سر الانضباط .

نهض أوفي .

– اعتقد أنني سأزور ادارتك المركزية .

– أوه ! يا الهي ! أتريد القول اننا لا نستطيع مساعدتك على الاطلاق ؟ خسارة!

فهذه الهواتف لاتساوي شيئا ..

– لا أهمية لذلك . فأنت ، لديك توجيهات .

– كنت أعلم أنك ستفهم ، وأنا أقول دائما انه ليس هناك ما يضاهي رجلا ذكيا .

فالمرء يمكنه التكلم معه ، وأعلم أنني أحببت المحادثة التي جرت بيننا ، فعلا . فالمناقشة مع رجل مثلك تنعش المرء كثيرا ، اننا هنا نمل أحيانا ، بل يحدث انطباع لدي أحيانا بأن دماغي يلين ، يرتخي . أنا أتابع الدراسة بالمراسلة ، لكن ما جدوى ذلك ان كنا لا نستطيع استخدامه مع اناس من وزنك ؟ ..

وفي اللحظة التي كان أوفي يحرر يده فيها من يده ، ظهر ظل على الباب . ثم

سمع صوت حذاء يطرق بالارض وفرقة عضلات تحيي .

– نعم ؟

– الهاتف يا سيدي .

– حسن ، اذن فاعطني المكالمة ، والا ما جدوى مجيئك الى هنا بخطا موزونة

لتقول لي ذلك ؟

– انه الخط المباشر للادارة العامة يا سيدي . خط الادارة المركزية يا سيدي .

– الادارة المركزية ؟ اذن ، ربما واتاك الحظ يا سيد أوفي . انتظرنى ، فسأذهب

لاجراء المكالمة .

– حسن جدا .

– اشرب شيئا ما وأنت بالانتظار . ه .. ي .. هات فنجان كاكاو للزائر .

أتحب الكاكاو ؟ أرجو ذلك فقد أصبح الشراب الرسمي .

– أعلم ذلك ، قال أوفي مبتسما .

– حسن (قال الرجل وقد أصبح نصفه خارج الباب) لن أجعلك تنتظر طويلا .

وكانت له طريقة غريبة في السير يسحب رجليه سحباً وبكل حذر ، فتلك هي

الطريقة الوحيدة لوصفها . ألقى أوفي نظرة على جدران المكتب فتوقف ناظراه على

اعلان مالوف لشركة الكاكاو . كانت مضيئة سميئة « تمد فنجان المشروب الوطني »

الى اجنبي يتسم . ومن جديد شرع يفكر بالجوقة ، بجولته الاخيرة المشؤومة ، بايريز . رفيق قديم حمل له الفئجان الذي كان البخار يتصاعد منه . انه الشخص نفسه الذي تصرف كحرس خاص اكثر من تصرفه كسجين متميز عندما ادخل اوفي الى مكتب المدير . فقد تباطا خلفه وبدار تفحصه بامعان شديد ضايق اوفي الى درجة استدار معها نصف دورة على كرسية كي يواجهه . لاحظ ذلك قرعون ، الذي لم تكن تخفى عليه خافية ، فالقى بكلبه الامين الى الخارج .

- لماذا أنت متسمر هنا كضريح موتى او دوموتا ؟ اذهب وافعل شيئا ما !
(ثم اندفع يقدم اعتذارات لانتتهى بعد أن خرج العملاق ، متأسفا ظاهريا ، مؤديا التحية .) انه لا يدري ما التفكير لكن في الشؤون الاخرى لا يشق له غبار . باستطاعة المرء ان يعتمد عليه كل الاعتماد ، شريطة ان يوجه اليه اوامر محددة . فهذا ليس كالمستخدمين الاخرين لدي . انهم لا يعرفون كيف يميزون بين المبادرة ومخالفة الاوامر ، خاصة ذلك الصنف الذي يجند تماما بعد تأهيله . فهو يعتقد انه يعرف كل شيء ، انا - اعرف - كل شيء ، هذا هو ما يزعج فيهم . اما سوبورو فلم يتلق اي تعليم وهو يعتبر سجيننا مع ذلك فهو ذراعي اليمنى . واذا حدث واصبت بمرض مفاجيء فسيكون بإمكانه تسيير الامور بمفرده .

أخذ اوفي يتأمل سوبورو وهو في زيه الموحد المهترىء ، المبهم الشكل ، يعالج وعاء الكاكاو وفجأة أوقفه « بلا حليب ، شكرا . » فاستبذت المفاجأة بوجه سوبورو ثم حرك يديه حركات تعني بوضوح : كيف يمكن أن يكون ذلك ؟ استقر نظر اوفي على تينك اليدين ، كالمسحور . فقد كانت اصابعه جذورا مسودة ، مفتولة ، ممتلئة بنتوات ثبتتها العقد . بل يمكن القول انه لم يكن للرجل راحة كفين . كانت الاصابع وقبضتا اليدين تبدو ملحومة بعضها البعض بالآخر مشكلة جهاز سيات غريبا . وضع الصحف ثم انتصب ثانية فاعتقد اوفي حينذاك ان راسه ستصطدم بالسقف فابتسم شاكرا اياه مرة ثانية باشارة من راسه .

تحركت العضلات في وجهه ، لكن كان من المستحيل على اوفي التفريق بين ندبة الجرح والعضلة . فالندوب والاخاديد الواقعة بين العضلات السوداء ، وكذلك طيات الجلد والاخاديد اللامعة كأرض متجلدة بفعل الاحتكاك المتكرر بالاقدام الحافية ، كل ذلك كان يختلط بالتفافات لا نهاية لها . فالوجه كان على صورة الجسم ، واسعا مستطيلا بندوبه السميكة وعينييه الحمراءوين الكابيتين . حرك اوفي فئجانه ثم تطلع الى سوبورو وقد عاد الى موقعه المفضل قرب الباب .

بعد ذلك ، بدأت نظرات اوفي تشرذ الى ما ورائه ، الى الباحة ، نحو السور البعيد الذي كان اعلاه مجهزا بأسلاك شائكة . هل هذا هو السور الاسطوري ؟ لفافة متصلة من الاسلاك الشائكة المثبتة بحدائد على شكل V . لعل ذلك هو السور الشهير . اذ

كان يتفق والوصف الذي وصفه به احدهم ذات يوم حين حلت الفوضى بحركة السير وانعكست دونما نظام وحاول الناس الدخول الى قلعة المنفيين . كانت الجماهير قد أتت تدق أبواب تيموكو مد فتحت سكور أخرى أمام موج الرعب والموت . فضجة الموت البهيمي والصرخات الشاكية لكلاب تصرع وهي تدق الباب الخلفي ثم تكتشف أنه مفلق أيضا . . . كل ذلك كان واضحا في ذاكرته الى درجة خيل اليه معها أنه يستطيع لمسه . صوت جديد بدا وكأنه ينحدر من مروحة السقف ، هو أشبه بمزيج من انبهار الربو ولهات الكلب التفت أوفي . لكن ذلك لم يكن سوى تنفس سوبورو ، الفريد من نوعه . بعد ذلك حرك أوفي الكاكاو شاردا اللب ثم بدأ يرشف الشراب الفاتر .

* * *

قلة من الناس استطاعوا أن ينجوا من زوبعة الدم الاولى ، فتركوا انفسهم ، وهم ممتنون ، تمتصهم الزوبعة التالية ، سجن النسيان الهادىء حيث لم يكن يحدث شيء وحيث الزمان قد توقف . فالشاب الذي كان يسير وكأنه سجين الى الأبد في نفق الاسلاك الشائكة . . . كان يرحب بكل شيء ، وقد ترك تلك الكتلة الهائلة من الخوف وراءه ، كانوا قد جرحوا انفسهم بشظايا الزجاج المثبتة في أعلى الاسوار كما كانوا يضربون بأجسامهم الابواب المسمرة . بل ان إحدى الامهات أمسكت بطفلها من رجليه ثم قذفت به من فوق الجدار ، غير أن قوتها لم تكن كافية ، فبقي الطفل معلقا بكلايب النفق ، لكنه لم يكن يملك الإدراك الصحيح الذي يبقيه هادئا فكان آخر ما رآته الام قبل أن تلحق بها الجماهير الهائجة هو اللحم الغض وقد انفرزت فيه أشواك المعدن . . .

أصدر قرعون الاوامر بفتح الابواب ، فكانت تلك نهاية مملكة السلام التي كان يحكمها . لقد دخل الناس بلا شكليات ، بلا تفتيش ، بلا قيود ولا تصنيفات فملؤوا المكان من السور الى السور ساحقين الحديدية الجميلة مبعثرين الحجارة البيضة بالكلس . بعد ذلك ، انتزعوا اللوحة « ممنوع السير على العشب » وكمحاولة يائسة أخيرة ، القوا بالاحجار البيضاء على المهاجمين ملطخين تلك الاحجار بالدماء الحمراء . اثر ذلك ، انقضت مجموعة من الحرس تغلق الابواب في وجه المهاجمين ، فأرجمت العوارض الى اماكنها وأغلقت المزالج . حينذاك أخذ الهاربون يجهشون بالبكاء .

لكن بعضهم لم ينهض من جديد .

وهكذا يوما بعد يوم ، وعلى شكل موج منظم أو سيل متدفق ، كان الباب الصغير الموجود ضمن الباب الكبير ينفتح ثم ينغلق كي يبتلع زمرا صغيرة تعود بلا انقطاع وهي تنظر وراءها نظرات مشحونة بالغم . كان المستخدمون يمرون بينهم ، يأخذون الاسماء ، وكان المتعهدون يذهبون ويخيئون . أما اطعامهم فكان يجري كيفما اتفق ، كسرة خبز ، حفنة من الفول السوداني ، فواكه . كان قرعون يرسل مستخدميه الى السوق .

كما أصر الممرض لديه أن يشتري ضمادات من موازنة لا وجود لها . كذلك مزقت الشراشف لصنع الضمادات وصنعت ضمادات من ورق الصر ، وقرب باحة المفصلة انشئت مقبرة مرتجلة . . . ذلك الاجتياح لم يكن له مثيل ، كما لم يكن أي من المراسيم قد تنبأ بمثل ذلك الحدث ، ولم يكن في أنظمة تيموكو ما يبيح تلك الفوضى في الدخول والخروج . لقد أدرك قرعون أن عليه ، بعد كل حساب ، أن يبادر ، أيا كانت المبادرة . ولقد انتظر ، وهو يتصدى لمسؤولياته . أخيرا ، عندما تباطأ الموج ، أقيم نوع من المراقبة في الخارج ثم وجد نفسه بيروقراطيا يملأ أذونا بالخروج والدخول ، وفقا لما تطلبه منه قصاصات الورق والاصوات التي تتكلم هاتفيا ، اذ ظل منوطا به القراز النهائي حول من يجلى أولا ومن يظل حتى النهاية ، من يجلى جماعيا ومن يجلى فردا . كذلك كانت ثمة تقارير ينبغي املاؤها وطلبات ينبغي تقديمها للحصول على موافقة الجهات المختصة على النفقات الاضافية التي كان يتحدي كائنا من كان أن يشك فيها حتى أولئك العاملين في الادارة المركزية المجيدة كل المجد . . .

بعدئذ حدثت هذه القصة الجديدة ، ففي اللحظة التي بدا فيها وكأنه حكم عليه بأن يفرق من جديد في مستنقع ظلماته الاولى ، في تلك اللحظة تماما حدثت هذه القصة الجديدة .

كان قد انتهى من رتابة الاعمال اليومية : لا ، هو لم يكن يفهم تماما الا انه كان يملك حاسة شم نامية فيما يتعلق « باللحظات الحاسمة في مصير البشر » . كان يتملكه ذلك الاحساس الصحيح قبل اختياره لما يسمح له بأن يشق طريقه المهني : ساحة يخصصها لعدد صغير من المختارين . . . لقد كان واحداً من اربعة تم اختيارهم للمهمة الدراسية . . . وكان في الوقت الحاضر ، يعيش ذلك الاحساس من جديد . فمن بين كل المخابء الممكنة والموضوعة تحت تصرف الكارتل ، كان لا بد لهذا من أن يختار تيموكو : واذا لم تكن تلك هي اللحظة - الحاسمة - في - مصير البشر التي لم يكن كراسه يكف عن الحديث عنها وعن اللحظة المناسبة ، اذن ، فان كل ما أنفق من مال على الدراسة بالمراسلة هو محض خسارة وعليه أن يحال الى التقاعد .

« اعتمد على حنكتك » ، هذا ما كان يقوله الصوت ، « فقد علمت أنك جدير بالثقة تماما وان بإمكان المرء أن يعتمد عليك . »

شخص مجهول كان قد تكلم معه ، بعد ان كان رئيسه قد استدعاه واعلن له ان هناك « توجيهات سرية » عليه أن ينفذها حرفيا . بعدئذ مرر اليه المتحدث الهاتفي ، ذلك المراسل المغفل ، فتلقى الاوامر مباشرة منه . لم يكن فضوليا ، لكنه صنف الصوت من بين ذوي المراتب السامية . ومنذئذ كانت جميع المكالمات الواردة من ذ.م.س. تصل اليه عبر الخط المباشر لمكتب المدير العام الذي لم يكن الا مديرا عاما بالوكالة ، والذي بات يعلم أن ذلك لن يدوم طويلا .

* * *

عاد قرعون من الهاتف وقد أشرق وجهه . وعند الباب ، عند العمود الاسود
ذي التاج الرخامي الذي يعلو ركيزة مرمارية الشكل خاكية اللون بدأ وكأنه يترنح
محاولا جهده الاحتفاظ بهيئته ، كما لو أن الامر لم يكن الا نتيجة لتأثير ضوء على جلد
لماع ، انتصب سوبورو فجأة بالغا ارتفاعا مذهلا ثم حيا .
- استرح ، يا سوبورو .

قال دون أن ينتظر ، كي يتكلم ، أن يجتاز الباب ويصل الى قبالته .
- عندي لك اخبار يا سوبورو . أنا لست مضطرا لان أوافق مباشرة على اعفائك
من العقوبة ، حتى ولو أنك تستحق ذلك مائة مرة . فالامور لا تسير في مجراها الطبيعي
كما كنا نأمل . كما ان لدينا مسألة صغيرة سأحتاج اليك فيها طالما ظلت بلا حل .

أبدى سوبورو طاعته بهزة من رأسه ، لكن تعبير وجهه ظل على حاله دون تغيير ،
اراد قرعون أن يربت كتفيه المتيبستين تربيئة صغيرة تعبيرا عن الموافقة ، لكن يده لم
ترتفع أعلى من الزنار القماشي الخشن .

- بعد كل حساب ، أنت سعيد هنا ، لا ؟ ألا ترغب حقا بالحصول على حريتك ،
هاه ؟ لقد عشت بعيدا جدا عن هذا العالم الخارجي الغاشم لدرجة لا تستطيع معها ،
بعد الآن ، تدبير أمورك فيه ، (والتفت الى أوفي) فصديقي الشجاع هذا نجا باعجوبة
من حبل المشنقة . بعد ذلك غدا دعامة جماعتنا الصغيرة . انه سعيد ، سعيد جدا .
وفي كل مرة نتلقى فيها أمر اخلاء سبيله يرفض التوقيع عليه . . . أترى ! (جلس على
حافة الطاولة ثم وجه الى أوفي ابتسامة مشعة .) أخيرا قال : الاخبار ايجابية .
- لديك معلومات ؟

- تعال معي يا سيد أوفي .



اقتربا من الباب الضيق بمرح حجري مبيض بالكلس . كان الفارون يتجمعون
على بقع العشب النادرة الموجودة في الباحة ، مثل الحرادين التي تتشمس وينتظرون
وهم في حالة من الشك . كانت مجموعات العمل قد بلغت حافة السور ، وكانت
السكاكين الكبيرة المرنة تجز الاعشاب المجنونة بايقاع آلات معدنية يرتد من جديد على
الجدران القريبة كل القرب ويملا الباحة بأصوات تحد تثير الشفقة . ما من شيء كان
باستطاعته ، بالحقيقة أن يتجاوز فراغ تلك الجماجم المقصوصة الشعر ، ما من شيء
كان باستطاعته تبديد حب الدعابة عندهم ، الدعابة المتملقة والمفعمة احتراما للسيات
الموجودة في ايدي الحراس ، حتى في اشد تحليقاتهم الفنائية الايقاعية سخرية .

- أفهم الكلمات ؟ سأل قرعون مرافقه الذي كان يعرج وكأنه يعتمد مطابقة
ايقاع الصنج . فكذب أوفي .

- لا ، ماذا يقولون ؟

فشرع المشوه يضحك .

– « أنت حارس وأنا سجين ، لكننا كلينا الشيء ذاته » (ورفع الى أوفي عينين
تعبيران عن الخبث .) أعتقد ان هناك شيئا من الحقيقة في ذلك ؟
– هذه وجهة نظر مواسية . ماذا يغنون أيضا ؟ فأجاب قرعون .
– اشياء أشد فظاعة بكثير من أن أستطيع تكرارها ، لكنني لا أحشر نفسي أبدا
في اختراعاتهم ، مادام ذلك يساعد على القيام بالعمل .
– نعم . افترض أنه الشيء الوحيد المهم .

ثم تابع بعد ان التفت الى أوفي ناظرا بعين المقدر الحساب :

– اليك مثلا آخر عن حكمتهم الشعبية : « أنا اليوم ، أنت غدا ، وليكن السيد
مرسيدس موضع ترحيب عندك . سطل شمبانيا ، سطل خراء ، فلا تكن خجولا ،
يا سيد ، خذ الخط . . . » (وتنبشت عينا قرعون من الضحك لدى تفكيره بمزحة
سرية .) ثم قال وهو يقهقه ، أظن أنك لا تخمن ما يريدون قوله بذلك .

فاعترف أوفي بأنه لا يخمن ، حينذاك قال وهو يعيد وضع نظارتيه على عينيه :

– آه ! أمل ان لا تكتشفه أبدا ، فهم يحبون أن يطبقوا عد التهم الخاصة فيما
بينهم ، كما ان لديهم عن العقاب أفكارا جد خاصة ، (غمز غمزة .) لقد رأيت بمحض
الصدفة ما يدعونه مجلس قضائهم . طبعاً لم يكونوا يعرفون أنني هناك ، فانا أقوم
بجولات سرية في الليل من حين الى آخر ، الامر الذي يجبر الحراس على أن يظلوا
منتبهين . وهذه هي الطريقة الوحيدة لرؤية ما يجري .

– الا تثق بحراسك ؟ فزفر قرعون ثم قال :

– إنهم بشر ككل الناس ، ثم لا تنس اللزامة التي يرددها فريق العمل ،
فهؤلاء المجرمون ليسوا أغبياء تماما ، كما تعلم .

بعد ذلك اجتازا باحة مسورة الى باحة أخرى فتكشفت غرفة أهوال امامهما ،
غرفة فظاعات تكشفت ببطء ، انما دون سابق انذار . كانت صنوج ولازمات فريق
العمل قد تلاشت منذ وقت طويل ، مبتعدة ، عندما وجد أوفي نفسه وجها لوجه ،
وعلى مسافة لا تبلغ عدة أمتار ، امام نزلاء منتشرين ، فما لبث ان حصل لديه انطباع
بأنهم ، وفق تعريفه الاول ، ناقصون . بنظرة واسعة رأت عينه جدول العناصر
الناقصة ، ثم أدرك ، بعد لحظة واحدة أنه موجود في باحة للمصابين بالجذام فاقترب
غريزيا من السور .

كان الحارس الذي فتح الباب يتبعهم عن كثب ، فلاحظ أوفي ان قرعون يمر
وسط تلك المخلوقات دون وجل ، وبخطا لم تكن تختلف عن خطاه وهو في مكتبه .
كذلك كان سوبورو الذي خرج لتوه من كوخ ، غالبية المصابين بالجذام متجمعون
في ظله ، وهم يحركون بيادق على رقعة ضاماً بأطرافهم المقطوعة ، بل ويصنعون

سلالا . على احد الوجوه المخربة تخريبا رهيبا كان الدخان يخرج عبر ثقبين بسيطين . وكان هناك على الواح خشبية موضوعة على قاعدة يبدو انها كانت تستخدم قبل وقت قصير من أجل الجلد ، شيء جائم له وجه من غراء يتأمل المشهد بعينيه اللتين لا اجفان لهما ، وقد دفع ، لدى اقتراب الزائرين ، صرة تحت أسماله التي كانت تحتوي ولا ريب على بضاعة مهربة . بينما أبدى مصاب آخر كل التدلل بافراطه في مجاملة زائفة تضيق الانفاس الى حد انه كان يحاول الصراخ « مساء الخير يا سيد » بشفتين لا وجود لهما .

كان نظر اوفي يطوف على بقايا الاجسام البشرية تلك . ورغم الدرجات المختلفة لنقصانهم الجسدي الا انهم كانوا ينجحون في تقديم الدرجات المألوفة للتسلم البشري من ودودين وعبوسين ، خبثاء وحكماء ، مفترسين وقرائس . كانوا جميعا يتفرسون الموكب الصغير بالعيون الفضولية نفسها لكن سرعان ما انطفأ أملهم الاولي عندما أدركوا من مشية المدير انه ليس قادما لتغيير رتبة حياتهم باعلانه بعض التدابير الشديدة . وفجأة خمدت داخل الكوخ الطويل ضجة المجادلات الوحيدة التي كان بالإمكان سماعها ، ردا على الخبر الذي نقل اليهم خفية بأن السلطة بينهم . قطعوا الباحة بصمت حينذاك انقض سوبورو على الباب التالي قارعا ، ففتحه الحارس الذي كان في الجهة الاخرى . كان قرعون قد لبس بكل عدوية دوره كدليل للرحلة المنظمة .

— لقد اجتزنا لتونا ساحة المصابين بالجذام (وقد حمل له احساسه بالتنظيم المنصف ابتسامة راضية الى شفثيه .) أما هذه فتحتوي على زنانات المحكومين بالاعدام . الناس عندنا يرهبون كل الرهبة منظر الجذام ، لهذا فان معظم السجناء ينظرون الى تلك الساحة مرتين قبل ان يفكروا بالهرب عبرها ، وهذا أفضل أشكال الأمن .

— والحراس ... بدا اوفي ، فطمأنه قرعون .

— لا خطر . من جهة أخرى ، نحن نخضعهم لزيارات طبية متكررة ، لا فائدة منها أبدا ، اذا ما من احد منهم أصيب بالعدوى . هم أيضا يخافون كما ترى . لهذا ، لا تمسك بأحد منهم يجازف الاقتراب كثيرا من ساكني هذه الباحة ، (وكنتم ضحكة صغيرة .) غير أن الافكار التي يحملها الناس عن الجذام افكار باطلة في معظمها . هذا ما يقوله لي طبيب السجن على كل حال ، وأنا اصدقه .

استدار اوفي ، المتيقظ على الدوام ، ثم ألقى نظرة أخيرة على جناح المصابين بالجذام قبل ان يعبر الباب فلمح الحركة المنكرة التي كانت تقوم بها يدان لا اصابع لهما تجمدتا للمباغثة ، فلم يشك في انها كانت موجهة الى ظهر سوبورو الذي كان يبتعد . خفض رأسه كي يعبر الباب الواطئ بينما كان قرعون يبتعد مفسحا الطريق له وقد لمح الحركة هو الآخر :

– من الواضح انهم يكرهون سجينني المفضل هذا . فالجرايس يرفضون الاشتباك معهم عندما يحدثون ضجيجا ويميلون لان يصعب مراسهم . لكن من حسن الحظ أننا نستطيع استدعاء سوپورو كي يتدبر أمرهم في كل الظروف . فهو لا يخاف هذا المرض على الإطلاق .

– كاد يشنق ، قلت لي ؟

سأل أوفي وقد خفض صوته رغم أن سوپورو كان قد ابتعد عنهم الى الامام .
– نعم ، ثم ابدلت تلك العقوبة بالسجن مدى الحياة . لكنه ليس من النوع الذي يحب هؤلاء المجرمون الصغار الاحتكاك به .

فانتاب أوفي احساس مزعج فيما كان قرعون يتطلع اليه وهو يلفظ تلك الكلمات ، احساس بأنها تتضمن نوعا من الانذار . لكنه طرد ذلك الحدس بهزة من كتفيه ثم استولت عليه فكرة أخرى وهي أن ايريز مرت عبر ذلك الحاجز الذي أقيم عمدا ، من الامراض والمقرفات الجسدية . ومن جديد أحس بشيء من عدم التصديق : ترى ، هل يوجد أناس قادرين على تدبير أشياء مماثلة ، اذهان قادرة على تنفيذها ؟ وبصعوبة بالغة كظم الغيظ الذي كان يصعد الى حلقه ثم سأل :

– هل كان من الضروري المجيء الى ... ألم تكن هنالك وسيلة لسلوك طريق آخر ؟

فربت قرعون كتفه بنوع من التحبيب ، لكن ذلك لم يجد الا في اثارته أكثر وأكثر .
– هي لم تر شيئا من هذا كله . أوكد لك . فقد كان ذلك في الليل ، اضافة الى انها كانت فاقدة الوعي .

كان الاحساس بالتدنيس ما يزال مستمرا . وكان ذهنه يفتي ، مرجلا مليئا بأحقاد عقيمة يحاول الطفو على سطحها عله يبلغ الهواء الصافي للمخططات والقرارات الالف التي كانت بانتظاره خارج الجدران . ومن وراء ذهنه انبثق شيء أشبه بهمهمة حيوانية ، صوت حلقي خرج من شفتين مبرومتين ، شيء مثل : « وحش متشرد ! » .

تلك الصيحة جاءت من جناح المجدومين حيث كان قد حل وقت طعامهم . التفت فرأى سلسلة من طاسات الالمنيوم المليئة بالطعام مصفوفة على طاولة عمل ، وثلاثة اشخاص ، أحدهم كان أوفي قد لاحظته سابقا ، بوجهه المتاكل الانف الذي لم يبق منه سوى كرتين صغيرتين من الفضار الصقهما طفل بعد أن أرهقه التعب خلال درس لصنع الاشكال المجسمة في مدرسة حضانة . أما الثاني فيكاد يكون أعمى ، بينما اسند الثالث عكازه ، الزين بوسادة من الطين المجفف ، الى الحائط ، وقد أمسك طاسة بيديه ، أو اذا شئت الدقة ما تبقى من يديه المجدومتين . ورغم أن تينك الالدين كانتا ملساوتين عند نهايتيهما كدبوس الحرس ، الا أن عشر أصابع كاملة لم تكن تستطيع الامساك بالطاسة على نحو أمتن . كان الرجل الاجدع الانف يحاول جاهدا انتزاعها

منه ، وكان من الجلي انه هو الذي لفظ ، وهو يزمجر ، صرخة المعركة تلك :
« وحش متشرد » .

بحركة فجائية ومباغثة كادت تكلفه اختلال التوازن ، تمكن مجذوم اليدين من الافلات بالطاسة فأخذ عكازه ، وانطلق وهو يعرج ، وقد شد ابطه على غنيمته ، الى ان بلغ مكانا امكنه الجلوس فيه بهدوء . فالحرب الصغيرة كانت قد انتهت على ما يبدو .
اذ راح ذو الانف - الكريتين يراقب خصمه لحظة من الزمان فرآه ينبش من تحت اسماله ملعقة غمسها في المعجون بيديه المتورتين ، وشرع يأكل ، اما الآخرون فكانوا يقتربون من المنصة الخشبية بانتظام نسبي كي يأخذوا حصصهم . لاحظ أوفي ما بدا له وكأنه شكل من أشكال المقايضة : ملعقة طعام او قطعة مختارة وهي تنتقل من رجل الى آخر ، اشياء تخرج من مخابئها لتنتقل الى ايد أخرى ، ومساومات تجري وصفقات تعقد في قلب الصمت ، والسكون .

كان ذو الانف الكريتين ما يزال ينظر الى مبتور اليدين . وبعد حين من الزمن لم يبق على المنصة الخشبية غير طاسته .

استدار قرعون بحركة عصبية ثم فرقع بأصابعه ، لكن سوبورو كان قد سبقهم وكان قد أصبح في الطرف الآخر من الباحة حيث كان ينتظرهم كي يفتح لهم الباب التالي .

رفع ابتر اليدين عينيه مرة واحدة فرأى أن خصمه لم يتحرك . حاول الحصول على المزيد من الطعام بملعقته ، ثم نهض بعصبية وانفعال ومضى وهو يعرج منسحبا الى مكان اكثر امانا . التقط الآخر الذي كان يراقبه طاسته ، ثم شرع يلحق به بخطا بطيئة بدا عليها التصميم : لم يكن أي منهما قد لاحظ أن المدير ما يزال ضمن مدى النظر وأنه يراقبهما عبر الاسلاك الشائكة ، وقد بدا عليه القلق . كانت الباحة قد امتلأت بأصوات الافواه وهي تمضغ ، بالمهممات ، بالنخرات ، بالصفرات الساخطة . بعدئذ تقدم رجل الى ان بلغ الحاجز ثم رمى فوقه بالطاسة وما تحويها من طعام ، بعد ذلك عاد الى مكانه وأخرج شيئا من دبره ، أخذ منه عقب سيكارة ثم أشعله . في البداية أشرق وجهه لكنه بعد ذلك بدأ يكيل اللعنات لجلاديه بصوت متمهل جاد ، ووفق نظام مراتبي يبدأ بطباخ السجن .

- هل سيحدث شجار هناك ؟ سأل أوفي ، فغمغم دون قناعة :

- يبدو ان الامر قد انتهى ، ثم فرقع من جديد أصابعه في الاتجاه الذي كان سوبورو قد سلكه ، كما لو ان صوته يهدد بتفاقم الوضع سوءا في الجهة الاخرى من الحاجز .

- لكن لماذا يحتفظون بالمصابين بالجدام في المنشأة نفسها التي يضعون فيها السجناء الاسوياء ؟

– لانهم ارتكبوا الجرائم نفسها التي ارتكبها الآخرون ، غمغم قرعون بنفاد صبر
وقد طفى عليه شرود خفيف ، لكن دون أن يستطيع تحويل نظره عن الأزمة التي لم
تكن قد حلت بعد .

– أهؤلاء بشر؟ كلا لا تشفق عليهم ! فهم يستفيدون من ذلك الذي يخشى معظم
الناس منه . الا ترى ذلك الواقف بجانب الحاجز تماما . كان اختصاصه الوحيد
أن يخيف صغار البائعين المتجولين كي يتركوا بضائعهم ويهربوا ، حينذاك يستولي
على ما كان يدعو به « الملك المتروك » . صدقني ، هذه العبارة هي نفسها التي
استخدمها في المحكمة : « الملك المتروك » . (هنا كان توتره قد خف فاستعاد قرعون
بشأسته ، وعاود المسير) . لقد أوقفوا أحدهم ومعه ثلاثمائة ليرة مخبأة في أسمائه ،
اكتشفوا فيما بعد أنها أموال مسروقة من مصرف ، اذ كان ، على ما يبدو ، قد ساعد
للصوص الذين قاموا بالعملية وأعطوه نصيبه ، كمراقب . ها هو ذا ! انظر الى
ذلك الوغد .

كان المراقب يتجه نحو الصنبور العام ، يسير وساقاه متباعدتان بمساعدة
عكازيه الفارقين في لفائف القماش . كان يسير بخطا مهتزة ، غارسا عكازيه في الأرض ،
الواحد تلو الآخر ، وكانت إحدى عينيه تختفي في اللحم المخرب ، المثقب ، المتاكل .
لكن الكتفين كانتا تبدوان قويتين على نحو عجيب ، وكانت عباءته المفرطة في الصغر
تكاد تتمزق .

– انه محكوم بعشر سنوات ، تابع قرعون ، لكن ليس بسبب سرقة المصرف
اذ لم يستطيعوا اثبات تهمته في هذه القضية قط . بل هو موجود هنا بسبب اغتصاب .
لقد استطاع أن يدفع أجر أفضل محام عندما اتهم بالتواطؤ في عملية السطو ، وقد
تخلص من ذلك بسهولة . من ناحية أخرى ، لم تعد قصة السرقة الى احتلال المكانة
الاولى الا بعد اتهامه بعملية الاغتصاب ، ففي تلك الفترة تم اكتشاف المال معه
(وأطلق قرعون من جديد ضحكته الصغيرة المكبوتة) . آه ! لو تعلم ما الذي ينبغي
عدم رؤيته هنا .

لقد توصل هذا المخلوق الى حد ارسال عريضة الى المدير العام للسجون يطلب
فيها اطلاق سراحه . انني اعطيك ألف ليرة يا سيد أوفي : ان حزرت ماهو المبرد الذي
قدمه لدعم طلبه؟

فكر أوفي عدة لحظات ثم اجاب :

– سبب انساني ؟

– كلا ، حاول ايضا .

كان قرعون قد توقف في باحة المحكومين بالاعدام ، وقد رفع نظريه الى أوفي ،
يستشف سره . نظر أوفي خلفه الى تلك الحثالة من الجنس البشري في الطرف الآخر
من السياج فلاحظ أن مقاتلي الفترة السابقة قد اختفيا على ما يبدو في الكوخ أو خلفه .

بعدئذ التفت ثم قال بأنه يعترف باندحاره .

— انا بالحقيقة عاجز عن معرفة ذلك .

— كنت اعلم جيدا انك ستعجز ، لكنني ساقول لك . لدي نسخة ثانية في مكتبي ، لكن دعني ار ان كان بإمكانني أن أسرده من الذاكرة ... نعم ، اسمع ... يا صاحب السمو اطلب اليك اعفائي التام من العقوبة التي بقي علي أن اقضيها . والواقع انه حكم علي بجرم اغتصاب ، والآن اعلم أن العسكريين يأخذون المفتيات ويفتصبونهن وأن فتيات أخريات يرسلن الى قرى المجذومين كي يغتصبهن المصابون بالجذام مثلي . اذن ، اطلب اليك بكل احترام أن ترسلني الى واحدة من قرى المجذومين تلك ، ذلك أنه لن يكون هناك عدالة على وجه الارض اذا استمروا بابقائي هنا في الوقت الذي يتسلى فيه جميع الناس والذي لم يعد الاغتصاب يعد جريمة ... وهكذا ، على نفس الوتيرة ملء ورقتين أو أكثر من الورق الكبير . فما رأيك في ذلك ، يا صديقي؟ — وهل رفعت الكتاب؟ سأل أوفي .

فبدأ على قرعون وكأنه فوجيء بالسؤال .

— طبعا ، بل كنا حريصين على فعل ذلك . ذلك أن باستطاعتي ان اراقب او اوقف الرسائل الموجهة الى أسر السجناء أو اصدقائهم ، لكن من واجبي ان أرفع جميع الالتماسات والعرائض الى السلطات . لقد أملاه على أحد أمنائي فكتب ثلاث نسخ منه على الآلة الكاتبة (وغمز بعينه غمزة سخرية وخبث) . لكن المشكلة الوحيدة التي ظلت قائمة ، هي أنه كان عليه أن يبصم الى جانب اسمه .

فأحس أوفي بشيء من الفثيان لكنه ابتسم بعد ذلك مكرها .

— نعم ، وكيف حللت تلك المشكلة؟

— أوه ! وقعت بدلا منه ، اذ حتى لو كان له أصابع ، فانا لا اعتقد ان الناس في الادارة المركزية يودون تلقي رسالة لمسها أنسان مجذوم ، ايا كان رأي الاطباء الرسميين . فنحن ما نزال أناسا شديدي التطير يا سيد أوفي رغم كل مايمكن ان يقوله الوجيز الخاص بالسجون .

غير أن زمجرة جديدة جعلتهما يقفان فجأة ، اذ سمعا صرخة ناقبة : « دع لحمتي ! » وسرعان ماخرج من وراء الكوخ شخص في اثره آخر يتكئ على عكاز ، هما نفساهما اللذان سبق وتقاتلا من أجل الطاسة في بدء الطعام . كانت قطعة اللحم ، موضوع الخلاف ، تبدو واضحة بين نصف الابهام وبترات الاصابع اذ كان قد أمسك بها من طاسة الآخر خلال مبارزة خفيفة جرت خلف الكوخ .

ارتد ذو الانف الكريتين الى الوراء مستعدا للدفاع عن نفسه . « بالامس اخذت سيكارتني بعد أن وعدتني أن تعطيني نصيبك من اللحم اليوم » ، ثم التفت الى الآخرين طالبا اليهم الدعم ، فبدت الآراء مختلفة . وهكذا دون الاستناد الى أي شكل آخر من أشكال المقاضاة أدخل قطعة اللحم في فمه .

لقى الرجل المسروق بعكازه في الحال ثم قفز غارزا أسنانه في ذراع خصمه .
باغت الهجوم ذا الانف الكريتين فأطلق صيحة ألم وسرعان ما ظهر اللحم وقد مضغ
نصف مضغ من ثقب فمه ، ثم اختفى في اللحظة التالية ، اذ ان ابتر اليدين استرده
ثم ابتلعه دفعة واحدة . قبض ذو الانف الكريتين على عنق عدوه ، وقد استشاط
غيظا ، وبدأ يثنيه الى أن جعله يفقد اتزانه . لكن فجأة اجتازت طاسة من اليخنة
الجو ، اسهاما من سجين آخر هدفة الوحيد توسيع نطاق الازمة واطالة أمد التسلية ،
فتناثر قسم من محتواها على المحكوم بجريمة الاغتصاب . نظر هذا الى ثيابه نظرة
ذعر ، ثم نظر حوله ، طالبا الى الجميع أن يشهدوا وبدأ يصرخ « أترون قميصي الذي
غسلته أمس فقط ؟ » .

كان ذو الانف الكريتين قد غرز بدوره أسنانه في كتف غريمه الممدد على الارض ،
ممزقا لحمه كما لو أنه قرر أن ينتزع ما يعادل كمية اللحم التي سرقت منه . أما
المحكوم بجريمة الاغتصاب فقد انقض وهو يعرج عليهما مفترضا ان الطاسة ألقيت
عليه من قبل احد المتقاتلين ، ثم أمسك براسيهما وضرب الواحد بالآخر فانهار الرجلان
وكفا عن الحراك .

لكن العراك كان قد اتسع في تلك اللحظة اذ كانت الطاسات والملاعق والعكاكيز
والبيادق تنطير . وكانت الابواب تهتز وهي تفتح وتغلق كما انضمت علب القمامة
الى الجوقة متحولة الى قذائف تقذف ارتجالا فتجتاز الاجواء وتتجاوز السور في كل
الاتجاهات . كان قد تصاعد مشهد الشجار الجهنمي ، وكانت العدوى عنيفة فجائية ،
اذ ترك السجناء كل شيء خلسة ، وخلال لحظة كان كل منهم يبحث عن النار لجروحه
الطارئة من اقرب زملائه أو اضعفهم على ما يبدو . كانت قبضات الايدي البتراء قد
تحولت الى أسلحة رهيبة ، والرؤوس مطارق .

أطلق حراس الباحات المجاورة صافرات الانذار فأسرع سوبورو الى المكان وهو يعدو
دون ان يكون بحاجة الى أمر . أحد الحراس برز فجأة ثم صرخ : « السطول ! هيا ،
هاتوا السطول ! » كما اقترب سجناء متميزون آخرون بهدف القيام بتمرين مألوف
لديهم على ما يبدو . وهكذا شكلوا سلسلة ثم بدأوا يمررون سطول الماء الى سوبورو
الذي وقف على رأس الصف وبدأ يرش المتقاتلين بغزارة ، صابا سطل الماء مباشرة
على رأس كل من يعاند . وعندما بدأ ذلك غير كاف ، بدأ يفرق بينهم بيديه ذاتهما .
بعثد جيء بسطول أخرى وتشكلت سلسلة أخرى ، وسوبورو في طليعة الاثنتين ،
يخوض ساحة الوغى مدمدا مزمجرا دون أدنى خوف ، مطلقا صرخات راحت ضراوتها
تخفق الصراخ الجنوني الذي كان يتصاعد من حلق المجذومين . اخيرا انتهى الى
دحرم وحده دون اية مساعدة ، ثم ردهم الى زناناتهم . كان أحد الحراس قد ألقى
اليه دبوسا لكن سوبورو لم يكن بحاجة اليه . مرة أو مرتين سمع أوفي الدبوس يهوي
على أصابع جموحة ، لكن لا شيء غير ذلك . اذ كان سوبورو يستعمل بصورة رئيسية

قدميه ، وفي معظم الاحيان كان يكتفي صوته مع وقع ظهوره المفاجيء فوق
زوبعة الاسمال واللحم .

ألقى أوفي نظرة قصيرة على دليله ، فبدأ قرعون وقد هزه المشهد .

– انتهت المعركة ، قال فجأة ، فلنذهب من هنا .

– أما زلنا بعيدين ؟

– لم يبق الا جناح المجانين (وتردد) المصدرة عن هذا الاضطراب كله .

– لا ارى سببا للاعتذار ، فهذه الحوادث لا يمكن تفاديها ، حتى في الاطار

الاكثر هدوءا ، لكن قرعون الح :

– من المؤسف حقا أن يحدث ذلك ونحن هنا .

– ليس في نيتي ان أقدم تقريرا ، ان كان ذلك ما يقلقك ، فأنا لست موظفا

ولا صحفيا .

بدأ على قرعون وكأنه على وشك أن يقول شيئا ، لكنه أدار رأسه ثم أسرع في
سيره فجأة تلاحقه نوبات سعال المتبارزين المدحورين فمرضى الجذام كانوا في بعض
اللحظات ، يشبهون كل الشبه متبارزي سيرك ممسوخين ، بعصيم التي كانت تبدو
وكانها جزء من أجسادهم ، وندوب جروحهم التي كانت تسرد قصة نضالهم الطويل
ضد أعداء من أكلة لحوم البشر ، ومرافقهم التي كانوا يستخدمونها ككلابات رهيبه ،
نادرا ما كانت ضحاياهم تستطيع مقاومتها . . ولعل تلك الضحايا نصف المختنقة هي
التي كانت تلاحقهم في تلك اللحظة ، بفواقتها . ألقى أوفي نظرة سريعة على الباحة
وراءه قبل أن تختفي تماما . كان ما يزال بعض المجدومين على الارض ، بلا حراك
أو وهم يتلوون الما . ومن فوق السور مال ظل بجسمه ثم أخذ يتقيا في باحة
المحكومين بالاعدام .

في تلك اللحظة ، بدأ وكان الاضطراب اكتسى اجنحة ثم طار فوق رؤوسهم كي
يتقدمهم الى المكان الذي يقصدونه . كان العنف ينتشر وكأنما ذلك بالعدوى ،
فتوقف قرعون الى جانبه ، يعبر وجهه عن قلق ما انفك يشتد .

– غريب ، غمغم الرجل ، هذا النوع من الاشياء يملك خاصة الانتشار . لكن
اذا ما وصل ذلك الى باحة المجانين كان لا بد من اتخاذ تدابير في غاية الصرامة .

– لماذا ؟ سال أوفي ثم انتبه الى أن سؤاله كان تافها ، فقد كان سهلا نسبيا على
سوبرو أن يخترق صفوف المجدومين ، متخليا حتى عن استعمال سطول الماء ذلك
أن رأسه الصغير الصلب كان ينظر نظرات قاتلة ، كما كان سهلا عليه أن يفرق بيديه
العاريتين حشود المتقاتلين وان ينتزعهم واحدا واحدا كما ينتزع الدباب عن قطعة
لحم متعفنة ، فعندما كان يزيح طبقة تحس التالية بأنها غدت مكشوفة فتجري خارج
المدى الذي يمكنه بلوغه وهي تتقهقر مرتعدة خشية تلقي الضرب ثم تحفر وتغوص في

اعماق الاكوام المتعفنة ، لكن كيف للمجانين ان يفهموا هذا التكتيك ؟ وفي الحال تذكر
أوفي تصرفات الحشود الخبيثة البليدة ، في الساحات العامة والاسواق حيث يمكنك
ان ترى مجنونا حوصر او اسيئت معاملته او ازعجه تصرف قاس ما ، وهو ينهال
ضربا على مهاجميه ، دون ان يشعر بتفوقهم ، فهل يحدث ذلك بصورة أخرى بين
هذه الجدران ؟ نظر باضطراب الى الظل الذي كان يسرع باتجاه مصدر الضجة
الجديدة فسأل :

– كم يبلغ عدد المجانين في الجناح ؟
– ما يكفي لاثارة كارثة ، اجاب الآخر وقد اخذ يشعر بضيق تنفس اذ قد
نضطر لان نهال عليهم ضربا .
– اين هي ايريز ؟

لكن قرعون لم يجب على الفور .
– اهنالك جناح للنساء خلف جناح المجانين ؟
– ما يكفي لاثارة كارثة ، اجاب الآخر وقد اخذ يشعر بضيق تنفس ، اذ قد
اوفي . اظن انني شرحت لك ذلك من قبل .
– لكن الهاربين ، السجناء الطوعيين ، يخيمون قبل تلك الباحات الثلاث الاولى ،
وقد مررنا بهم حين تركنا مكتبك . .

– السيدة جدمريضة ، جد مريضة .
– المستوصف خلف مكتبك ، هناك حيث كان فريق العمال يقوم بجز العشب
قبل طرده . رأيت من النافذة ، فقد كان واضحا تماما .

كان أوفي ، وهو يغذ السير للبقاء الى جانب قرعون الذي اخذ يسير بسرعة مذهلة
يحاول ان يقرأ ما تخفيه ملامحه ، اذ بدا له فجأة ان من المهم للغاية ان يكتشف المكان
والسبب الذي جعلهم يخفون ايريز داخل تلك المتاهة التي يشكلها جوف تيموكو .
لكن لم يكن يبدو على وجه قرعون سوى ابتسامة متشنجة لم تكن على ما يبدو سوى
رد فعل لضيق بيروقراطي ازاء حدس شخص اجنبي .

– الى اين تقودني بالضبط ؟ داخل ام خارج الاسوار ؟
– انت على ما يبدو تعرف المكان خيرا مني ، سيد أوفي ، قال قرعون بلهجة
ساخرة ، فأنت تعرف مكان المستوصف كما تعرف اين يسكن اللاجئون . حقا أنت
تعرف المكان خيرا مني .

اراد أوفي ان يتكلم لكنه اسكته :

– اسمع هذه !

وكانت ضجة مختلفة عن الدمدمات المضطربة ، المشوّهة ، المنتزعة من المجذومين وهم يتصارعون ، لقد انفجرت امامهما على شكل اصوات مختلفة كتلك التي تصدر عن صفائح وعلب محفوظات وبقايا تذروها الرياح . في اللحظة نفسها ، قامت شرذمة من الحرس تسير حسب تشكيلة النظام المنضم ، بتجاوزهما وهي تسرع راكضة باتجاه مصدر الصوت وقد اشرعت دبائيسها للعمل ، فأحس أوفي بألم شديد يعقد أحشائه ، ألم يعرفه جيدا ، كما أحس بحاجة ملحة لافراغ ما في جوفه ، بينما كان احساس مسبق لديه يكنس كل أمل ويحول العالم الى حساء تافه الطعم منفر يقف في حلقه .

وفجأة رأى يديه تمسكان بكتفي الرجل الصغير في محاولة لارغامه على النظر اليه وجها لوجه ، كما رأى أنه يرتعد اشد الارتعاد .

— في باحة المجانين ، اليس كذلك ؟

سيل من الايضاحات والاعتذارات خرج من فم المدير تبريرا للظروف ، لكن أوفي لم يتمكن من ادراك الترابط بين الكل والاجزاء ، هذا ان كان هناك ترابط ، بينما كان محدثه يتأرجح بين أن يخاف وأن يتصرف كمسؤول . كان الحراس منشفلين بقمع الانتفاضة وسوبرو ما يزال مختفيا . وهكذا راح صوته يعلو ويهبط بصرخة تأوه .

— أوكد لك ، الملحق معزول ، وهي لا احتكاك لها بالمجانين . لا احتكاك على الاطلاق !

— وسط المجانين .

صرخ أوفي فطفت صرخته الجثونية على الضجة التي كانت تشيّد حولهم . كان يهز المدير وكأنه لعبة من خرق ، وكان يرى الدموع تترقرق في عينيه .

— أنا عبد مأمور سيد أوفي ، أرجوك . كف عن التصرف كالمجنون .

وعلى نحو مفاجيء تركه أوفي ثم أخذ يعدو مجتازا ساحة المعركة وهو يصرخ . كان ثمة جسم امرأة متفوق على ذاته تحت وابل من ضربات الدبائيس ، فاندفع مسرعا ثم انحنى للتقاطه . أهى ايريز التي كان يحملها بين ذراعيه ؟ أهى حقا بلحمها وشحمها ، بحرارتها وانفاسها ؟ لكن فجأة انثنت ركبته اذ لاحظ على نحو فامض اقتراب سوبرو ، لكنه لم يدرك الخطر الا وقد ثقلت جمجمته وانفلقت عيناه على سماء الشفق .

* * *

أضد هذا كانوا يناضلون ؟ ضد انهيار الارادة ، الاستسلام ، العطالة الاشبه بالموت ، حالة البين - بين حين يحس الانسان بالاشياء ولا يتأثر بها ، ضد الوضع الاخير للميت الحي ؟ تطلع من فوق جسد ايريز ، وهو يبحث عن عزاء ، فرأى عبر قضبان النافذة ، عبر الكوة الصغيرة قبة سماء ليست أكبر من منديل جيب . كانت نجوم عدة تثقب السماء فتساءل الى اية كوكبة تنتمي تلك النجوم ومن اية عوالم تنطلق حركتها البعيدة التي كانت تخالف ركوده الراهن ، وهو يجثم بين زاوية النافذة الاولى وزاويتها الاخرى تماما فوق حافة العدم .

لم يكن قد تحرك من الموضع الذي استعاد فيه الوعي ، بل مكث ساكنا على الارض القاسية ، عيناه تنظران الى السرير العسكري الذي وضع جسد ايريز عليه من جديد . كانت الممرضة قد غابت أم تراها ليست سوى حارسة ؟ لم يكن باستطاعته تذكر التفاصيل الخاصة بزيها الرسمي ، لم يكن باستطاعته تذكر أي شيء سوى شكل غامض لامرأة مذعورة تلبد تحت شجرة .

والساعة ؟ لا بد انها الثانية عشرة ليلا على الاقل كي ترسم النجوم بتلك الشدة في تلك الزاوية الصغيرة من السماء . وربما ، بالحقيقة ، لم يكن الوقت متأخرا كثيرا . وفي الحال توقف عن الاهتمام بتلك المسألة . فثمة أشياء ، ينبغي تذكرها سريعا ، مثل

مثل ماذا ؟

الجسد الممدد على السرير العسكري كان حقيقيا تماما ، فما الذي يعرفه المجانين عن ذلك الشيء الذي جاء به عملاء الكارتل واخفوه في الملحق ؟ ذلك انهم في خضم هيجانهم المعدي كانوا قد اخترقوا الحاجز الاقرب وتفلقلوا داخل الكوخ ثم رموا الى الخارج بكل ما يحتويه : كرسي ، خزانة ، أدوية ، طاولة ، سرير ، مريضة . ذلك ما رآه . وكان قد شعر بنوع من الراحة حين رأى أن ايريز سقطت على أرض طرية ، لكنه كان ارتياحا عابرا ، إذ انها لم تكن تتحرك رفع بعد ذلك الشكل الذي لا حراك به ، أو حاول ذلك ثم تذكر أنه رأى سوبورو يقترب ، وأنه انتابه ، في آخر لحظة ، الاحساس بالخطر . بعد ذلك وجد نفسه ممددا على ظهره في آخر درجة من درجات الوعي حيث كان ناظراه يتطلعان الى النجوم في سماء الشفق ، وذهنه المخلص للطواهر يردد : « مثل ذبابة طويلة الارجل فوق التيار ، كانت روحه تنزلق على الصمت » (١) فهل كانت تلك آخر أفكاره ؟ راح يتساءل ، وقد وضعه فوق الارضية

(١) من قصيدة للشاعر الانكليزي بيتز .

الاسمنتية الباردة شخص ما هو سوپورو بالتأکید ، دون أن يدري ما إذا كان ، بذلك ، يريد التحدث عن النجوم أم الحرارة الخادمة للمرأة التي يمسكها بين ذراعيه .

من جديد رفع عينيه نحو النافذة المجهزة بقضبان . ولديه انطباع بل قناعة تامة بأن الليل لم يبلغ منتصفه على الاطلاق ، بل انه بدأ لتوه . إذ بات من المؤكد لديه ان النجوم كانت قد غزت لتوها زاوية المساء المرئية بذلك الوضوح الشديد : الدب الاصفر ، الدب الاكبر ؟ حتى هذه السماء هي عبارة عن سيرك للمبالاة ، فحملت له تلك الفكرة بعض العزاء .

كانت ثمة صورة دمغت في ذهنه الى الابد بحديد حام ، صورة ذلك الجسد المرمي داخل الزوبعة تلك التي اكتسحت في طريقها الكلمة والسرير وكل شيء آخر . وصاحب القدم المشوهة ؟ أين تراه كان ذلك الرجل صاحب التوجيهات ؟ هل ذهب يسأل عن آخرين ؟ وفجأة انتصب اوفي اذ كان عقله يعود اليه شيئاً فشيئاً ، فرأى ان وضعه لا يمكن الا ان يكون مؤقتاً . فعلى الاقل ، أجل ، على الاقل لا يمكن لوجوده ، في الملحق ان يكون ، ضمن مخططاتهم النهائية ، ايا كانت تلك المخططات ، بذي أهمية ، ولسوف ينقل دون ابطاء ، أما العصامي ، ابن مهنته ، فربما كان بصدد السهر عليه . وفجأة توقف اوفي . لكن لماذا جاؤوا بي الى هنا ، ان لم يكن من أجل ... ؟ لكن كان من الصعب عليه ان يفكر ، فبذل الجهد كان يسبب له الما في رأسه كما لاحظ انه لا يفعل شيئاً سوى تحاشي السؤال . هكذا النساء في حالة الاغماء لا يتكلمن ، وكذلك الاموات .

وبجهد بالغ نهض ، جلس على السرير ثم فتح أذفانه بأصابعه .

أحاول ... أحاول ... أن اصعد الى السطح ...

ثم فكر بأنه لا بد من أن توجد في تضاريس ذهنه ، عبارة من هذا النوع . لا بد من بذل كل جهد ضد سلطة الطغيان التي تكون هي نفسها ضحية . فهي ، بالتأکید ، تعلم بوجودي هنا ! ان لذراعيها ثقل الرصاص ، بلا شك ، وثمة ذلك الاحساس بالتجمد البطيء ، تلك الذكرى المتروكة على شاطئ الوعي وسط ثياب مهجورة ، ذلك النبض الذي يضعف ... لكن لا يمكن أن يكون هنا نقص في ذلك الجهد اللامرئي ، وفوق البشري تقريبا ، ضد خطم الوحش الفاجر فكيه ، في الكفاح من أجل تحرير الفكر من فخ صمته ، آه ، لو كان بالامكان تحقيق تراوج الهوائيات بلحظة سحرية ، بعملية استحضار متزامنة للافكار العديدة التي يشتركون بها ... حاول اوفي تركيز ذهنه على أفعاله ذاتها تلك التي لم تكن تشكل الا كلا واحداً مع ما ترمز اليه . بسط ذهنه في محاولة التركيز تلك ، لكنه لم يتحرك قط .

كان ما يزال مستمراً في الفوص بنظراته في العينين اللتين ابقاهما مفتوحتين بأصابعه ، مولفاً نفسه بذلك على شكل جهاز استقبال شامل ، مستخدماً ملايين

الهوائيات ، مكتشفها، مبعدا التشوشات المعكرة ، دون أن يجروا على التحرك خشية أن تضيق منه أقل زفرة ألم ، أقل معاناة صامتة يمر بها ذلك الكون المضطرب المنكمش فوق السرير العسكري الصغير ذاك . رفع عينيه مضطربا حائرا نحو النافذة فلاحظ أن عليه أن يناضل ضد العين المغناطيسية للقمر الذي كان في تلك اللحظة ينحرف شيئا فشيئا خلفهما . وهكذا ، ترك رأسه يهوي الى الخلف اعياء وتعبا ، كما كثر الما ومعاناة ، أخيرا حدد المكان الذي كان العملاق قد ضربه عليه ولا بد . حينذاك انحنى الى الامام محاولا جعل العضلة المتألمة ترتخي ، لكن بلا جدوى فقد اضطرب بصره ، واعماه برق ابيض . لا بد أن العملاق قد ضربه مرارا . مع ذلك لا يذكر انه تخط .

اذن ، هل قام حارس آخر بتسديد رفسة من حذائه الى رأسه حين كان ممددا يعد النجوم خلال نوبات اغمائه ؟ هذا الاحتمال بدا وكأنه يفسر السبب في انه لم يفلح في التغلب على الضربة الاولى التي طرحته أرضا فاقد الوعي .

بدا ينتصب جالسا فأخذت قاطرة تدور وتدور للحظات من الزمن على سكة الحديد التي نصبت في رأسه ، بعد ذلك تخلت عن حركتها الدائرية لتفوض مطلقا ما يشبه النعيب داخل مستنقع غامض يقع عند قاعدة جمجمته . قال لنفسه ان جسمه كله معطل ثم عاد فرقد على ظهره بهدوء مستخدما يديه كمخدة تحت رأسه يتقي بها الارض الباردة . كان القمر يجذبه اليه مائلا محجريه ، ناقشا على الارض شكله المصلوب . لكن قبل وصوله اليه كان يرتعش على جسد ايريز مبرزا حوافه المتجمدة . انقلب اوفي على جانبه عله يراها على نحو أفضل ، مرتعدا من فكرة الخراب الذي أدى بها الى الالتجاء لاعماق الزوال تلك .

أصوات ... أصوات ... لكن وسط ذلك كله وضوح الاحداث . تسلسلها وحده هو الذي كان ما يزال غير اكيد بعض الشيء . بالطبع كان قد التقط ايريز بيديه أجل ... وكان هناك بركان الألم ذاك الذي حاول البيروقراطي الغبي أن يقاومه . فمن سيطر عليه يا ترى ؟ ليس هو بالتأكيد ، فقد كان هناك صوته الذي أصبح فجأة ، مضطربا ، ضعيفا ، لا يدري كيف يمكن ربط النتيجة النهائية بالمقدمات البسيطة انما المتعرجة التي سبقتها .

كم كان غريبا ذلك الرجل الذي اختار تلك اللحظة ليقول له : « أنا امر فك سيد اوفي . ليس فقط بوصفك الذهن الأمر الناهي في حملة الكاكاو ، بل بوصفك الرجل الذي جاء برجال آيرو الى كروس - ريفر ... » « هي ميتة ! » نعم ، هو يذكر انه قال ذلك بكل لطف واصرار وأن الرجل الصغير كرز : « ليست ميتة ، قلت لك ، بل هي في حالة سيئات » .

هل كان ذلك الاحتمال هو الذي أوصل المدير الى حافة الهستريا ؟ إذ كانت هناك تلك الكلمات التي صرخ بها صوت حاد : « لا علاقة لي بما حدث هنا ، بل رأيت بنفسك كيف حدث . لقد انتشر تماما كالوباء ، سيد أوفي ، تماما كالوباء . . . » .

تماما كالجائحة التي انتشرت في البلد ، قرأ أوفي تلك الفكرة على محياه . « هي ميتة » . استعاد الى ذهنه بعدئذ تلك الكلمات الرتيبة وهي تسقط قطرة قطرة من شفثيه ، لكن الغريب في الامر أن الموظف الصغير كان قد سد الطريق في وجهه . فسواء كانت ميتة أم حية انما في حالة سبات ، كان بإمكانه أن يأخذها ، أن يحملها بعيدا عن ذلك الجنون والعدوى العامة ، بعيدا عن الاجساد والارواح المشوهة التي كانت تنفرم كلحم نصف ممضوغ والتي كانوا يفرسون أسنانهم في جيفها اللتنة . ما الذي كان يقوله ذلك الرجل الصغير يا ترى ؟ ما الذي كان يريد قوله ؟ لكن قرعون كان يسد طريقه متعتما نادبا . كان يسد طريقه فيما كان الحراس مشغولين بقمع الجنون داخل السور ، وذلك باخماد انفاس ساكنيه .

« أنت ترى بنفسك الثفرة التي أحدثوها ، يا سيد أوفي . . . لقد خرخوا السور ، هاجموا الحرس من الخلف . بعد ذلك ، دخلوا بالقوة الى الفرفة التي كانت معزولة فيها . أقسم لك انها كانت محروسة حراسة جيدة ، أرجوك صدقني . لم يكن باستطاعة احد أن يتنبأ بهذا الشجار الفجائي . اضافة الى ذلك لم يصبها أي اذى بسببه ، فقد ظلت فاقدة الوعي تماما كما رأيتها .

مع ذلك كان يسد طريقه وهذا ما لم يستطع فهمه . اوه ! اجل لقد نطق باتهام ، اتهام وحيد : « أنت من وضعها هنا . أنت من احتفظ بها هنا . انها ميتة . » اجل ، يتذكر ذلك . كما يتذكر انكار الموظف لذلك ، انكار الواثق من نفسه . « كلا ، هي ليست ميتة . كما لا يمكنك أن تلومني على ما حصل . كانت محروسة جيدا جدا . حارسة ممرضة كانت تسهر عليها ، وكان الطبيب يزورها كل يوم . » بعد ذلك انطلقت الطلقات ، الصراخ ، الصدمة . . .

انه يتذكر جيدا ايريز بين ذراعيه ، وهو عند باحة الحكومين بالاعدام ونظارتا قرعون السميكتان تدوران بكل حيوية باتجاهه ثم باتجاه المركة التي تدور خلفه ثم باتجاهه من جديد فيما كانت الكلمات تتزاحم على شفثيه وهو يتكلم ، يتكلم . لقد انتهى به الامر الى أن فهم أن الرجل الصغير كان يتكلم لسبب محدد ، انه كان ينتظر شيئا ما ، كان ينتظر . لكن ذهنه لم يكن الا شرنقة هائلة من الالم حيث لم يكن بإمكان فراشة منطلق واحدة أن تخرج منها . ما الذي قاله يا ترى ، خلال تلك المدة التي بدت وكأنها لا نهاية لها ، ذلك الرجل صاحب الجمجمة الشبيهة بقنبلة المدفع والذي كان يسد طريقه تماما ؟ العجيب ان وجه سوبورو كان يحشر نفسه كل مرة يبدأ فيها بفهم موعظة القزم الطويلة . سوبورو الذي كان يبرز من العدم . شيء ما نفذ

اخيرا الى الشرنقة عديمة الاحساس . كان اوفي قد استدار ، ربما بسبب البريق الذي لمع فجأة في عيني صاحب القدم المشوهة ، بسبب التوسع الفجائي لحدقته ذلك الذي لم يكن له أية علاقة بسيل الكلمات الذي كان يتدفق من شفثيه . أجل ، لا يمكن ان يكون احدا سواه : سوبورو . لقد ضربه على قداله وحين افاق ، وهو على الارض القاسية في الملحق الخاص بجناح المجانين ، لمح في الجانب الآخر من الفرفة شكل ايريز الذي لا حراك فيه ، ممددا على السرير العسكري .

كانت النافذة العالية ذات القضبان تسمح بدخول ضوء القبر ، ذلك البدر المكتمل . اذن ، كان الليل في بدايته ، وكان هو قد عبر ابواب تيموكو ظهرا ، وماذا بعد ؟ لماذا تلك الادانة المتأخرة ؟ فبعد كل حساب كان قد بقي مع ذلك الرجل في مكتبه النهار بطوله ، دون ان يرد ذكر آيرو قط ، دون ان يشير اليها أحد قط . كان قد جاء من أجل تحقيق حول شخص اختفى ، فلماذا يا ترى ، وسط مشاحنات المسوخ ، وفي الوقت الذي كان فيه الهدف من تحقيقه ذاك محمولا على ذراعيه فاقتدا الحياة ، لماذا اختار ان يصرخ : « لا تلوموا الا انفسكم ! فأنتم من جاء برجال آيرو الى كروس - ريفر . ام نحن الذين دعوناهم ؟ » ومن جديد انتصب اوفي وهو يقسر نفسه قسرا . قهقهة عالية طويلة كانت قد اخترقت تلافيف دماغه ، فتقدم بحذر وببطء الى ان بلغ النافذة وهو يستند الى الجدار . اصاخ السمع . كانت ثمرة اصوات أخرى : صوت أمر ، ثم ضربة مطرقة دلال . بعد ذلك اخذ صوت آخر ، رقيق ومنهجي ، يشرح شكواه .

صعد اوفي السرير العسكري ثم تطلع الى الخارج .

بعدئذ فرك عينيه ، وهو يرى المشهد الذي يدور في الاسفل ، داعيا الله الا يحل به الجنون . فهناك كان نزلاء جناح المجانين ، يجلسون على شكل دائرة ، دائرة غير مغلقة تماما . في طرفها كان يجلس شخص كئيب عبوس ، تغطي كتفيه ملحفة ، ويعلو رأسه غطاء من الواضح انه اختير على نحو مرتجل وأن المراد منه ان يشبه العمامة او الشعر المستعار ذاك الذي يلبسه القضاة ، انما كان من المستحيل الحكم عليه حكما قاطعا بالنظر اليه من اعلى . وهناك كان يقف شخص يستحوذ على سامعيه بسحر حركاته واشاراته الرشيقة اللطيفة وهو ينحني من حين الى آخر باتجاه ذلك الشخص الذي يمثل السلطة والذي يضع الغطاء النظامي على رأسه . في الطرف الآخر من السور كان ثمرة حارسان ، يرقبان المشهد خفية . وامام المقعد - اذبات اوفي يميز اكثر - كان ثمرة نزيل آخر ، راعع على الارض ، هو الضحية او مجرد ممثل في تلك المهزلة الفامضة . بضع لحظات من الانتباه كانت كافية لان يزول من نفسه كل شك : فخلال تلك الساعة الاخيرة التي منحت لهم قبل ان تفلق عليهم الابواب طوال الليل ، كان المجانين قد شكلوا من انفسهم محكمة !

كان القمر يتلألأ ، وكان كل شخص من شخوص الدائرة يرتسم بوضوح ، كل تكشيرة ضحك ، كل نظرة تأمر ، اتضاع المتهم ، قوة النائب العام الخطابية المتقطرسة ، الوجه المتجه نحو منصة القضاء هناك ، في أعلى الدائرة القمرية ، بينما كان صوت رنان يلخص شكواه . صفقت جماعة الحلقة ، فرجع القاضي رأسه ، بكل جلال ومهابة ، مصححا بوقار كل تجاوز . أحس أوفي بأنه ينجذب الى تلك الحلقة ذات الجنون الهادىء ، تستغرقه مجرياتها الى درجة احتاج معها الى وقت طويل قبل أن يلاحظ المطر بقطراته الناعمة وهي تدق الجدار وتنفذ حتى الى الزلزانة ، عبر القضبان . كان قد سمع صوتا قبل بضع لحظات ، لكنه كان قد عزاه الى الاصطدامات المجنونة للذباب ضخم ولحشرات أخرى مجنحة يجذبها مصباح الباحة الوحيد .

بيد أن استمرار الصوت أدى الى صدمه ، فنظر الى الحلقة بانتباه شديد ، وهو حريص كل الحرص على اكتشاف كل حركة خفية هناك ، غير أن العيون كلها كانت تحدق الى الممثلين الاساسيين في ذلك الطقس المسائي . بدأ ناظراه ينتقلان بمحاذاة الحاجز الى أن بلغا السور الذي تعلوه شظايا الزجاج وانفاق الاسلاك الشائكة . هناك كانت شجرة كاريته تنتصب وهي تميل على الجدار من الخارج ، ورغم انه لم يكن في البداية قادرا على تصديق ما رآته عيناه الا انه استطاع تمييز وجه زاشي القمري وقد موهته الاوراق جزئيا . وجه زاشي اليه ، وقد رأى أنه انكشف أخيرا ، ابتساما شقت وجهه حتى الاذنين ثم أشار اليه أن يبقى حيث هو . لم يخطف وجهه سوى لحظات معدودات لكنه حين عاد كان يمسك بسلم من الحبال ، تركه يتدلى سنتيمرات عدة فوق الجدار ثم حركه بلطف وسحبه . أشار اليه أوفي أنه فهم . بعد ذلك نزل من مجثمه وجلس يفكر .

كانت الدوافع الرئيسية قد باتت واضحة في تلك اللحظة ، بل ان احدها ظهر له منذ النظرة الاولى وذلك عندما لمح من النافذة المشهد الذي كان يجري تحته . لم يكن ثمة أي خطر في أن تكشف ايريز المدفونة الى الابد ، وفي قلب الجنون إن كان ذلك سيبدو ضروريا ، العنف الذي تعرضت له أو تحديد هوية الجناة . كان من المحتمل أن تقع هي نفسها فريسة لاختلال العقل لدى رؤيتها للحقيقة الاولى حين تفيق ، ان كانت ستفيق . فشهادتها في المستقبل لن يكون لها أي وزن ، حين تدق ساعة الحساب .

نهض أوفي ثم دق الباب ونادى الحارس ، فجاء هذا واستند الى الحائط ثم سأله عما يبغيه .

— ماء! أريد ماء .

— لماذا؟

— ماء ، كرر أوفي ، فقطب الحارس حاجبيه .

— أنا لست هنا كي أذهب وأفتش عن الماء .

– انا مريض ، شكنا اوفي ، وانت يمكنك ان ترسل سجيننا للبحث عن قدح ماء ،
فهل ذلك كثير عليك ؟

سمع اوفي الحارس يتذمر ثم سمعه يتعد وهو يهمهم ضد المجرمين
الذين يتصورون انهم في فندق . لكن اخيرا ظهر سوبورو وهو يجر خطاه . رفع
عارضه الباب ثم اعطاه كأس الشفقة . اخذه اوفي ، جرع ما فيه ، بينما كان سوبورو
ينتظر كي يسترده . مد اوفي القدح باتجاهه ، بعد ذلك سحب يده دون ان يترك
القدح .

– لماذا لا تتكلم ابدا يا سوبورو ؟ لماذا ؟ انت تفهم كل شيء لكنك لا تتكلم ابدا .
بودي ان اعلم لماذا .

مد سوبورو يده من جديد لاستعادة القدح ، ثم حرك مفاتيحه مشيرا الى ان
عليه ان يقوم بجولة على الزنزانات كي يحبس السجناء .

– سيكارة ؟ طلب اوفي وهو يتلمس جيوبه ، لكن تبين له انهم افرغوها حين
كان فاقد الوعي . فقال وهو يتسم ابتسامة بائسة ، آسف ، كنت اعتقد ان
باستطاعتي ان اقدم سيكارة لك غير انه لا يوجد معي سكاثر .

ادخل السجن يده الى جيبه ثم اخرج علبة واخرج منها سيكارتين ، قدمهما
كليهما الى اوفي . بعدئذ اخرج الثقب واشعل واحدة لنفسه ، فصاح اوفي :
– كيف اشكرك ؟ اوه ، يوسفني انه ليس معي ما اقدمه لك مقابل ذلك .

هز سوبورو راسه ثم مد يده مرة اخرى ، فترك له اوفي القدح وهو يتأوه
بائسا متخليا عن كل امل في ان يخترق تلك الكتلة الصامتة المظلمة . مع ذلك صرخ :

– بودي ان اسالك . لماذا سجنوني هنا ؟ لان هذا لصالحني ، يا صديقي ،
لذلك سجت آ ؟ كذلك ، لماذا هذه المرأة هنا بينما كان من الواجب ان تكون في
المستشفى قيد العناية الخاصة ؟ الا يبدو هذا غريبا في نظرك ، يا صديقي ؟ ام ان
هذا ، بالنسبة اليك ، جزء لا يتجزأ من الحياة الطبيعية العادية ؟ انني اتساءل لكنك
تظل ابكم ، ولو كان باستطاعتك ان تتظاهر بالصمم لفعلت ذلك على ما اعتقد .

لكن لم يكن ثمة امل . لهذا هز كتفيه وادار ظهره في اللحظة التي رأى فيها ان
السجين شرع ينقب في احد الجيوب الداخلية لزيه الموحد . اخرج سوبورو من ذلك
الجيب ورقة سميكة مطوية بعناية ثم جلس القرفصاء ونشرها على الارض ، فكانت
اعلانا . احد تلك الاعلانات الاولى عن ايريز ، تذكره اوفي وهو يقطب جبينه . كان
الاعلان يصور ايريز المؤتزره بازار شفاف المتظاهرة بانها تستحضر القطارة الحليبية من
لب بزر الكاكاو ، وهي تخرج من قوقعة مذهبة انشقت على شكل فلتين متساويتين
تمثل لوزة الهند . أشار سوبورو باصبعه الى المرأة الممددة على السرير وبيطء بدأ
يشرح بايماءات مضمية ان تلك المرأة والاعلان شيء واحد . نظر اوفي ، الذي اخذ على

حين غرة ، الى الرجل وهو يصور بالايماء اكتشافه الخاص . كانت حالة تلك المرأة تشبه تلك القوقعة وكان على أوفي أن ينتظر بصبر شديد أن تخرج منها . أعاد سوبورو الاعلان بكل رصانة ثم وضعه في الاعماق التي أخرجها منها واتجه نحو الباب .

تنحج أوفي محاولا أن يستخدم نبرة مجردة قدر المستطاع .

– لماذا لا تبدأ بسجن المجانين ؟ وسيكون باستطاعتي الاستفادة من هذه الدقائق المعدودة لاستنشاق الهواء في الباحة (ثم فرك رقبتك على نحو واضح وكشر مبتسما .)
آه ، يالراسي !! . . أنا لا أدري لماذا كان عليك أن تضربني ، لكن هذا ألمني . أنا مريض للغاية فدعني استنشق الهواء ، انك مدين لي بهذا على الأقل .

بدأ سوبورو يفكر ، فاقرب أوفي من العملاق غارزا نظراته في عينيه ، باحثا عن اقناعه بكل الوسائل .

– لا تذهب يا سوبورو ، استمع الي دقيقة واحدة . آه ! لو كان باستطاعتي أن أوثر فيك ، أنا أعلم ان هذا ممكن . لقد أثبت ذلك وأنت تخرج ذلك الاعلان كي توصل الي رسالتك ، رسالة الامل : فمن تراه كان يصدق أنك رجل ذو خيال ؟

انتاب أوفي احساس بالخوف وهو يرى سوبورو يتشنج ، فأخذ يبحث عن لغة جديدة يمكنه بها التغلب على عادة الارتياب لديه ، تلك العادة القديمة قدم عمره .
– هل تدري أن وصفي لك بأنك رجل ذو خيال هو اطراء ، فأنت ، بالطبع ، تظل رجلا تنفيذيا على نحو خاص . انك تتصدى للفوضى وتفرض النظام الذي تريده . مثلك مثل أولئك الرجال ذوي اللباس الموحد الذين يدعون أنهم ينظمون حياة الآخرين الى الابد . كما أنك تقمع ، كالشور ، قطيعا من الإناث الهائجة . لقد تأثرت باخلاصك الصامت ، شجاعتك التي تماثل شجاعة السياف وسط مرضى الجذام المعدي . ومن تراه لا يتأثر ؟ لكن المشكلة يا سوبورو هي هذه : لم يا ترى ما تزال هنا ؟ لقد أنهيت عقوبتك . مضى وقت طويل مذ بات باستطاعتك الحصول على حريتك المشروطة ، فلماذا يحتفظون بك هنا ؟

لكن سوبورو بدأ يضرب الارض برجليه وقد نفذ صبره ، وكان وجهه ما يزال يكتسي ذلك القناع الخالي من التعبير الذي عرف به أوفي منذ البداية . أخيرا همس أوفي في اذنه ، وقد بلغ حافة اليأس :

– أتدري ما معنى أن تكون مستغلا ؟ أن تظل طيلة حياتك بين المحكومين بلا اعدام ؟ اسمع . لا ، انتظر . لا تأخذ المفاتيح على الفور . تعتقد أنك قد تم العفو عنك ، لكن انظر ما يجري . انظر الى هذه المرأة الموضوعة على السرير العسكري ، فأنت بعد كل حساب بئر سرية للخيالات ، أذن ، لا بد أن باستطاعتك أن تفهمني ، فلماذا لا ترى أنك سجين مثلها في كبسولة الموت ؟ ان الحليب يفسد في جوزة الهند حين يظل وقتا طويلا ، والطفل يتعفن في رحم أمه اذا مكث فيها أكثر من تسعة

اشهر ، او يصبح مسخا ، ام ترى لا يقول قومك ذلك ؟ كما ان مح البيضة يفسد ان لم تفتح قبل فوات الاوان ، انه يخلق عالما متسما بأبخرة تخنقه في القشرة التي غدت قفصا . الم تر الفراشة تتخبط تخبط المجنون كي تخرج من الشرنقة ، يا سوبورو ؟ ماذا يحصل اذا دفن عدوك تميمك تحت الانقاض ؟ قل لي . الا تدري ان لب لوزة الهند يزنخ عاجلا ام آجلا ؟ وان الجرثومة تكتشف اصفر ثقب في القشرة القاسية كي تنفذ الى الداخل وتفسد اللب ! ثم تضخم صوته الى ان اصبح صراخا :

— احقا ، لا استطيع التأثير فيك يا سوبورو ؟ الا يمكنني الوصول اليك داخل ذلك النعش الذي ارغموك على الرقاد فيه منذ عشرين عاما من حياتك القصيرة ، دون ان يحركك حتى صوت المفاتيح التي تحركها ؟ هل كنا جميعا نضيع وقتنا ونحن نريد وضع حد للاستغلال القاتل الذي يسجن عقولا كعقلك ، يربطها بالعدم بعقد ابدى ، عقد مدى الحياة ؟ (ثم تنهد ، منفثا على عقبه) : حسن ، طابت ليلتك . اصحابك ينتظرونك وانت العبد ذو الحظوة الذي يكبل بالحديد ايديهم الممتدة ، بغير كلاب أمينة مثلك لم يكن باستطاعة آموريي (١) هذا العالم ان يدوسوا الانسانية بمثل تلك الصفاقة الوقحة . فلتعض اعقاب اولئك الذين يريدون مواجعتهم ولتدفن عظامهم بعد ذلك في اعماق الحديقة . لكن ، تذكر هذا يا سوبورو . . . (وانفتل على عقبه ثم غرز عينيه من جديد في عيني السجين) . . . أنت وحدك من يستطيع ايجاد الاثر الذي يقود الى المكان الذي طمرت فيه العظام وان يخبئها كي يوجه الاتهام . لكن لا تشك قط اذا ما انتهى الامر بال آموري ، رغم لعقك لاقدامهم ولحسك لها ، الى القاء عظم مسموم اليك ، طابت ليلتك يا صديقي .



جلس اوفي على طرف السرير ، رأسه بين كفيه ، وقد انهكته تلك المحاولة التي ذهبت سدى ، بينما ظل سوبورو جامدا غائما العينين منجرفا نحو ماضيه الذي ولى . كان يحاول بكل ما لديه من جهد أن يمك به ، غير أن مرحلة سابقة للوعي كانت ما تزال تفلت منه ، تلك المرحلة التي كانت الحياة فيها اكثر طوعية ، تلك المرحلة التي لم تكن تتسرب فيها الحياة حصرا عبر نظارتي معلمه السميكتين وروائح الدهاليز المظلمة لاناس يلجمون من بعيد . رغم عجزه ، كان الماضي البعيد ما يزال يتحرك ، عازلا الحاضر . من بعيد سمع صوت الحارس الذي كان ينادي باسمه ، ثم ، وهو يخرج من حالته التي كان فيها أشبه بالمنوم مغناطيسيا ، بدأ يتحرك ببطء مديرا رأسه نحو الباب دون أن يفهم شيئا حقا . تردد النداء من جديد فأطاع أخيرا لكن برد فعل بطيء ، ثم بدأ ، وكأنه يسير في نومه ، يمشي نحو مصدر الصوت المألوف ، عائدا بمشقة كبيرة من أرضه الغريبة ، المجهولة .

(١) نسبة الى زاكي آموري ، احدى شخصيات الرواية .

سمع أوفي وقع خطاه يبتعد فأدار رأسه بمزيج من الشك واليقين . كان سوبورو قد تجاوز الباب تاركاً إياه مفتوحاً بعض الشيء ، فألقى أوفي نظرة سريعة على الشكل النائم في السرير ثم لامس جبينه ولحق بالسجين في ظلمة الليل . لكنه فجأة توقف حين رأى طيفين يخرجان من الظل ، وعلى ضوء مصابيح الممر ظهر أمامه وجه طبيب الأسنان وقد لمع شعره القاسي النحاسي ببريق لا لبس فيه . كما تعرف إلى شاليل ، لكن الطبيب لم يهمس إلا بتحيةة مقتضبة ثم دخل الغرفة وهو يتحاشاه ، بعدئذ فحص المريضة وهو منحرف فوق السرير .

– التفاصيل فيما بعد ، وعد طبيب الأسنان ، أما الآن فلا وقت لدينا . قل لي هل راسك أفضل ؟

– لكن ما الذي يجري ؟

– لا يهم . ببساطة لقد استفدنا من الفوضى لغاياتنا الخاصة ، إذ جاء زاشي يعلمنا أنك اختفيت في بطن تيموكو ، وهو يقوم بدور الراصد فوق واحدة من تلك الأشجار ...

– نعم ، لقد لمحته قبل لحظة ...

– آه ! أذن فقد عاد إلى مركزه . إنه أمهر بكثير مما يظن المرء حين يراه . أوه ! علي أن اعترف أنني كنت اتنصت عند الباب منذ فترة وجيزة ، وقبل أن يلحق بي الطبيب . فهل تريد حقاً التأثير بهذا الثور ؟

في تلك اللحظة أطلق أوفي ، مفتظاً ، صوت صفير .

– أخيراً ، هل ستقولان لي كيف ...

فقام طبيب الأسنان بحركة اعتذار .

– لم يكن الأمر معقداً ، فقد دخلنا بعد أن تسلقنا السور مستفيدين من انشغال الناس جميعاً بالشجار . كنت أنت قد أنطرحت أرضاً ، فألقيت نظرة على المرأة وقررت عدم المخاطرة بأخذها من حيث دخلنا . لم يكن لدينا خيار ، بل لم يكن هناك بد من وضع المدير تحت حمايتنا وجعله يطلب طبيباً و ... أوه ... أشياء أخرى . زاشي هو الذي أصر أن يكون هو (وأشار بيده إلى شاليل ثم التفت إلى أوفي مواجهاً نظره الفاحصة) . نعم ، قال وهو يتنسم . أنا أعلم أنه أخوها .

لكن أوفي غير الموضوع .

– هل نجح هجومكم على مستودع الأسلحة ؟

– لم يكن باستطاعتنا أن نسمح لأنفسنا بالفشل مرة أخرى ، فتم كل شيء على ما يرام .

أكمل الطبيب فحوصه ثم انضم إليهما ، لكنه لم يكن يفكر بالمريضة ، بل كانت نظراته تجول داخل الزنزانة .

— خبيث ، غمغم الطبيب ، خبيث جدا ، فما من احد كان يفكر بتفحص غرفة الانتظار .

— عم تتحدث ؟ سألته أوفي بلهجة من نقد صبره .

— أتحدث عن غرفة الانتظار هذه ، اذ كنا ندعوها هكذا ، فهي لا تستخدم الا في ايام الاعدام . كنا نجتمع جميعا هنا : الشهود الرسميون ، القاضي ، ممثلو المدير ، الجلاد ، مساعده والطبيب المناوب . فأنت ، حين تعمل لدى الحكومة ، يمكنهم ارغامك على المجيء ، في أي وقت كان ، وفي مثل تلك المناسبات ، لا تجد مكانا في العالم أكثر هدوءا .

فأثار فيهم ذلك احساسا بالقشعريرة ، الا ان أوفي أشار باصبعه الى الطيف الممدد في السرير ثم سأل :

— والمریضة ، يا دكتور ، المریضة ؟

— نعم ، لقد كان صديقك على حق فهي في سبات عميق للغاية . اما ما يتعلق بالطريق الطويل ...

فأحس أوفي بضيقه يشتد وهو يفكر بعادة طبيب الاسنان في أن يتولى الامور بنفسه .

— لماذا استشرتم طبيبا ؟ سأل بلهجة جافة ، فنحن لم نقرر شيئا بعد .

— كلا ، ذلك واضح ، لكن المرء يكتسب بعض الوقت حين يطرح الاسئلة سلفا ، فماذا تقول يا دكتور ؟

نظر شاليل وقد بدا عليه الانزعاج الى الاول ثم الى الآخر .

— على كل حال ، قد لا يؤذيها ذلك ، بل ربما يساعد في إخراجها من حالة السبات ، فالطب غير قادر عموما على البت في مثل هذه الحالات .

ابتعد أوفي عنهما ثم توقف ونظر الى السماء خلف الاسوار . تركه طبيب الاسنان يخلو الى نفسه الى أن انتهى من مساعدة شاليل في فك جزء من السرير الذي كان يشكل محملا . بعد ذلك شد ايريز الى شدا محكما ، ثم خرج مقتربا منه .

— علي أن أفكر تفكيرا عمليا ، فهامش أمننا يتقلص بسرعة كبيرة ، وقد وعدت بأن الحق بالجماعة قبل منتصف الليل . اذن عليك أن تقرر .

فاستدار أوفي .

— أنت مخطيء ، فأنا لا انوي التردد . فقط كان الماضي يعذبني . انا جاهز ان كنت انت جاهزا .

وانضما الى الطبيب ثم رفعوا المحمل ، أوفي من الامام وطبيب الاسنان من الخلف . أما سوورو الذي كان ينتظرهم عند الباب الداخلي ، فقد سارا امامهم الى

أن اجتاز الموكب الباحات الساكنة . لم يكن يبدو على وجه السجين شيء يدل على أنه يعرف الأوامر الجديدة التي كان بصدد تنفيذها ، والتي كان معلمه قد أصدرها رغما عنه . أخيرا مروا أمام المكتب حيث كان المدير التعس يجلس الى الطاولة ، وهو يؤلف ، ذهنيا ، تقريره حول أحداث الليل .

عند الباب ، لم يروا حتى الحارس .

– يبدو أنكم مسيطرون على الوضع بكل تفاصيله ، لاحظ الطبيب فهز طبيب الاسنان رأسه .

– ليس بالأمر الصعب أن تثير شغبا ، فلدينا ما يكفي من الناس في جيش شانتال المسجونين هنا والذين لا ينتظرون الا الفرصة المواتية للرد على ضربات جلاديهم .

كانوا يعتقدون أن سوبورو سيقوم بنصف دورة ، لكنه خرج معهم ثم أغلق الباب خلفه سائرا في المقدمة بخطا ثابتة .

– الى أين يذهب ؟ سأل الطبيب ، فأجاب طبيب الاسنان :

– اعتقد أن من الأفضل أن تسأل أوفي .

من قلب الظلمة خرج رجال آخرون سرعان ما انضموا الى الموكب، فترك أوفي وطبيب الاسنان بعضهم يأخذون المحمل عنهما وسارا مع شاليل في ظل السور . أما زاشي ، المكتوم الانفاس قليلا ، فسرعان ما وصل ثم بدت عليه هيئة المرغم وهو يسمع مجاملات أوفي .

– تذكروا أن عليكم الا تشغلوا بالكم بشأني ، وثقوا انني كنت مغطى ، قال الطبيب فرد طبيب الاسنان .

– خاصة ، ان لم تضع تعليمات المدير الخطية .

– كلا ، لن اخطر بذلك ، خاصة بعد كل ما لقيتموه من عناء لانتزاعها منه .

– حسن ، الى اللقاء .

تصافحوا يدا بيد ، ثم ابتعد طبيب الاسنان بخطا كبيرة سريعة ، فلم يلبث أن لحق به سوبورو الذي كان بإمكان المرء أن يميز ظهره بوضوح . سلك الرتل دربا فرعيا ، راحت الطيوف تتلاشى عليه واحدا فواحدا داخل الدغل الذي كان يحف به من كلا جانبيه . كانوا ينظرون الى طبيب الاسنان وهو يتغلغل في الدغل على الدرب الصغير . أخيرا لمع شعره النحاسي لحظة من الزمان ثم اختفى .

– كيف اشكرك ؟ بدأ أوفي .

– لا ، لا .

– هل تاينلا على ما يرام ؟

- بل كانت تريد المجد ، لكنني فكرت أن الامسية قد تكون خطيرة .
- اصبت . قل لها ... سنتلاقى في التقاطع المقبل ، وهي ستفهم .
- فهمت ، اجاب اخوها .

وكان تيموكو سيظل مغلقا على العالم حتى الفجر ، فالطريق خلا اخيرا ،
والجدران والحواف تركت آخر ثمراتها المخياء تسقط ، اما داخل الغابات فكانت
الحياة تنتعش .



الفهرس

الصفحة	الموضوع
٢	١ - البزار
٢١	٢ - البراعم
٨١	٣ - الاستطالات
١٣٥	٤ - التمار
٢٥١	٥ - الابواغ